دكتورة نعمات أحمد فؤاد

قمم أدبية

لطفى السيد   العقاد   طه حسين
عبد الوهاب عزام   توفيق الحكيم   الزيات
محمد فريد أبو حديد   يحيى حقى   محمود تيمور
محمد كامل حسين   على أدهم

قصص أدبية

الطبعة الأولى ١٩٦٦

الطبعة الثانية ١٩٨٤

الناشر : عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت ت : ٧٤٦٤٠١

دكتوره نعمات أحمد فؤاد

قمم أدبية

دراسات وتراجم لأعلام
الأدب المصري الحديث

الناشر


من مؤلفـات الكاتبـة

* من عبقرية الإســلام .
* شخصــية مصر .
* النيــل فى الأدب المصرى .
* أعيدوا قراءة التاريخ .
* مشروع هضــبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر .
* مصر تدخل عصر النفايات (بالاشتراك مع الدكتور حامد ربيع) .
* صــناعة الجهــل .
* أزمــة الشــباب .
* خصــائص الشــعر الحــديث .
* الجمال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب العقــاد .
* رســائل الى ابنتى .
* شــعب وشــاعر .
* الأدب والحضــارة .
* رحــلة فى الزمان والمكان بين مصر وأوربا .
* التراث والحضـــارة .
* أم كلثــوم وعصر الفــن .
* أحمد رامى (قصــة شــاعر وأغنية) .
* أدب المــازنى .

الإهــــــداء

إلى كل إنسان يحاول أن يعطى الحيـــاة

إضــــافة رائعـــة تســعد ...

الفــن"

أو الحق

أو الخير

أو الجمال

نعمـــات

مقدمة

هـذا الكتاب يتناول بالدراسة والترجمة أحـد عشر علما من أعلام الحياة الأدبية والفكرية المعاصرة . وكان أملا لى أن يضـم هذا الكتاب أوائل فى ميدانهم يرتفع بهم عند التقدير ، أمثال : الدكتور أحمـد أمين والدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ أمين الخولى ؛ والأستاذ نجيب محفوظ والكتور حسين فوزى وأندادهم . غير أن دراستهم لم أستوفها بعـد ، على الوجه الذى قدرته لها وهو ما يشغلنى الآن لتكون فى صـدر الجزء الثانى من كتاب أرجو أن تتواكب أجزاؤه لتعطى دراسـة متكاملة ، بقدر ما يسـعه جهـد الفرد ، للأدب المصرى الحـديث . هذا الأدب الذى أسهمت فيه المرأة المصرية وخاصـة فى العشرين سنة الأخيرة مما لا يغفل ذكره وإن أدخر للأجزاء التالية .. فمن حق الذين علموها أن يسبقوها الى التاريخ ومن حق الذى يسبق الى الحيـاة ، وفيهـا ، أن يكون أولا فى التسـجيل .

* * *

وبعد فهى محاولة فى الدراسة والترجمة فيها من الوفاء لأصـحابها ، ولعطاء مصر من خلالهم ما يعين على كتابتها ويدعو الى تقبل القارىء لهـا أديبـا .. وإنسانا وهو معنى كبير .

نعمـات أحمـد فؤاد

فن التراجم والسير

كتابة التراجم والسير فن كسائر الفنون فان مهمة بعث الماضى كما تقول كاترين درينكر بوين ، جهـد فنى لا يقل عما يبذل فى تأليف قصـة أو نظم ملحمة شعرية وهو فن مهدت له ظروف معينة وعوامل كثيرة تولد عنها ثم تطور معها وبها فغريزة حب البقاء وتخليد النوع بالتناسل أو الانتاج وغرور الانسان الذى يجعله يتحـدى الفناء ، وكرهه للموت والاندثار وأمله فى الشهرة والذكر ، حتى بعد الحياة كلها حوافز تدفعه الى تحقيق وجـوده بل تخليد ذاته فى أعمال فنية وكشـوف علمية وآثار مختلفة .

وقـد استهوت الترجمـة الكثيرين من أمثال (بلوتارك) أول مترجم برع فى تصـوير الشخصيات ورسم ملامحهـا ، وتاسيتوس الرومانى معاصره ، فى القـديم ، وفى العصور الحديثة مورلى واستربتشى وموروا ولدفج وزفايخ وبيـلوك وبوزويل مترجـم حيـاة الأديب الانجليزى جونسون وستيفن اسبندر ، وبراد فورد ، ومرزكوفسـكى ومن عنـدنا العقاد ومحمد حسين هيكل وميخائيل نعيمـة وعبد الحليم الجنـدى . ومن أصـحاب التراجم الذاتية الدكتور طـه حسين والدكتور أحمد أمين والأستاذ سلامة موسى ، والعقاد فى كتابيه (انا) و (حياة قـلم) .

وكما استهوت الترجمة الكثيرين فقـد استهوت الكتابة عن التراجم والسـير والمؤثرات فيها ، الكثيرين أيضـا ومنهم مشاهير فى كتابة التراجم مثل « أميل لودفج » صاحب كتاب (العبقرية والشخصية) و « كرتشمر » صاحب كتاب (الجنس والعبقرية) « Race & Genius » و (سيكولوجية العباقرة) و « برمان » صاحب كتاب (الغدد المنظمة للشخصية) و « كوب » صـاحب كتاب (غـدد الحظ) وغيرهم .

والكتابة عن الترجمة موضوع واسع ومدى فسيح اذا أردنا الوقوف على جوهر الفن فيها وتطوره بل تطور الفنون الأدبية الأخرى وخاصة فى الرواية والقصة للعلاقة الشديدة بينها وبين الترجمة وتشابه السمات وتسابق المزايا وتنافس الفنيين على كسب القارىء وتشويقه .

وهناك الفرق بين الترجمة والتاريخ ، وأنواع الترجمة وسماتها فى كل عصر ، وذيوعها فى عصور الشك أو انكماشها فى عصور اليقين ، وما يكمن وراء هذا من أسباب نفسية أو اجتماعية أو دينية .

وهناك عوامل كبيرة أثرت فى كتابة التراجم تأثيراً باقياً مثل **الاعترافات** التى نبهت كتاب التراجم الى قيمة الغوص فى أعماق النفس الإنسانية واستبطانها .. قيمة الاستشفاف والتأمل والتحليل والتعليل والتقاط الفتات الإنسانية والنفاذ منها الى معان كبيرة هى خطوط بارزة فى صورة الشخصية المرسومة .

ومن العوامل الكبيرة المؤثرة فى كتابة الترجمة الكشوف العلمية فبحوث البيولوجيا ، والطب كشفت عن عامل الوراثة الذى فسر فى ضوئه كتاب التراجم النزعات الفردية والميول الشخصية . كما أسهمت البحوث السيكولوجية فى تطور كتابة التراجم فالأهمية الكبيرة الخطيرة التى أعطاها فرويد للغريزة الجنسية خدمها كتاب التراجم فى تفسير النزعات الفنية تفسيرا واقعيا ومقبولا وطريفا فلم يعد خافيا ولع ميشيل انجلو بتصوير جمال الذكر أو تحامل نيتشه على المرأة أو تسامى شيلر فى العاطفة .

وللطب دوره فى كتابة التراجم والنظر الى الأشخاص فحانت لفتة كتاب التراجم الى أمراض الشخصية المدروسة **وخاصة الغدد** . وقد أشار الأستاذ السحرتى الى حديث برمان عن نابليون وكيف انه عندما ضعفت غدته النخامية ، بدا عليه التعب ، ودهمه الكسل ، ووهن ذهنه ، وكثر شحمه وترهل بطنه ، ونحل جسمه وصار أنثويا وتجلى هذا الوهن

فى مقال كتبه عن الانتحار . وكيف أرجع كثرة آلام داروين وضعفه وإعيائه الى قلة إفراز غدته الادرنالية ، وما كان يكابده من النوراستانيا .

ومن طرائف « كوب » فى هذا الصدد أنه لاحظ أن شعرات حاجب موسولينى الأيسر بدأت تسقط وكان هذا قبل الحرب الأخيرة وقد رأى كوب فى هذه الظاهرة علامة من علامات ضعف الغدة النخامية لدى موسولينى ويؤيد هذا تقامؤ شخصية موسولينى الى جانب شخصية حليفه هتلر ثم تلاشيها بعد هذا (١) .

وتسلمنا هذه الظاهرات الى علم النفس بمذاهبه ، ذلك العلم الذى تتوثق الصلة بينه ، وبين فن كتابة التراجم ، فى القرن العشرين .

والائتناس بالعلم وشيوع الأسلوب العلمى نفسه أغنى التراجم وصقلها حين تجردت من الأهواء وتحرت الصدق والتزمت الدقة والتحليل شأن الأمانة العلمية على ألا يجور الكاتب على الروح الأدبية التى تعطر الترجمة .

يضاف الى هذه العوامل **عامل المجتمع** الذى يؤثر فى شخصية المترجم له ويكيفها الى حد كبير حتى ليراه قوم من بين العوامل كلها أولى بتقديم . وهناك **الظواهر التاريخية** للعصر الذى عاش فيه المترجم له والظواهر التاريخية غير محدودة بل تأخذ أمداً طويلا فى إعدادها قبل ظهورها لهذا تسوق الى لمحات من الماضى .

بل إن الأنظمة السياسية والاقتصادية لها دخل كبير فى نزوع الكتاب وأسلوب الكتابة بما يصحبها من آراء تشيع السخرية من شىء وتنتقص من آخر وتعلى قيما معينة وتشهر أناسا وتخمل آخرين . وفى مثل هذه الأجواء تجد كتابة التراجم والسير مادة غزيرة لها وتكون أكثر حرية

---

(١) اقرأ كتاب (الفن الأدبى) للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى .

وانطلاقا وواقعية فيظهر الإنسان فيها بمزاياه وعيوبه على السواء .. يغدو بشراً لا أكثر ولا أقل .

وهناك عامل **المناخ** وعامل **نعرة الجنس** والمزايا التى ينحلها البعض جنسا بعينه ويخصه بها دون العالمين بغير سند من حقيقة الواقع أو واقع التاريخ .

كما طور كتابة **التراجم تطور كتابة القصة والرواية** واهتمام أصحاب القصص برسم الأشخاص وتحديد ملامحها مما أعدى كتاب التراجم .

والحقيقة أن هذه العوامل كلها خيوط دقيقة فى يد كاتب الترجمة . واليد الصناع وحدها هى التى تعرف كيف تحركها فى مهارة فائقة فلا تتشابك ولا تتعقد بل تتوازى أو تلتقى فى سهولة وفن تشهد لصاحبها بالبراعة ، ولعمله بالأصالة والتميز وعمق الاحساس .

إن كتابة ترجمة لحياة علم من الأعلام كما تقول كاترين درينكر بوين إنما هو عمل مثير حقا . إنها كالعشق له لحظاته من الرضا وأيامه الطويلة من اليأس ، عندما تغلق آلهة التاريخ أبوابها وتأبى أن تطل بوجهها الصبيح . ولعل مغامرات هذه المؤرخة فى أدب التراجم تكشف لنا مشاق الترجمة التى تبلغ فى كثير من الأحيان حد الخطر (١) .

* * *

إن الترجمة للاعلام ، فن والترجمة اذا استوفت غايتها من فن التعبير وعذوبة المدخل ومواهب النفس الكبيرة عندما تتصدر للقضاء فلا تتحيف ولا تزيف ولا تحابى بل تزن الكلام والأحكام وتقدر الظروف وشتى الاعتبارات لا تغضى عن الضعف ولا تتجاهل النقص والعيوب وإن شاهت على أن يكون حكمها مشبعا بروح العطف على الإنسان . بل إن كاتب

---

(١) اقرأ كتاب (مغامرات مؤرخة فى اداب التراجم) تأليف كاترين درينكر بوين ترجمة محمود عزت موسى .

الترجمة يطلب منه فوق نزاهة القاضي سماحة الصديق • اذا استوفت الترجمة غايتها من هـذا كله غدت بما فيها من صـدق وفهم ونقد رفيع وواقعية ونبض وحيـاة ورقرقة وحنان ، عزيزة على القارىء يفرغ منها الى غيرها • ونحن لغلبة العاطفة علينـا وتمكن عادة عبادة البطل منـا ، تنقص ترجماتنا لعظمائنا أو معظمها كثـير من سـمات الواقعية والنقـد الحر الأصـيل حتى لكأن المترجم له مبرأ من كل عيوبنا عيـوب البشر وصراع الحي مع نفسه ومع مغريات الحياة • وفاتنا أن الذي لا يعرف الشر أولى الناس بالوقوع فيه اذا صـادفه ، وخـير منه ذلك الذي امتحن به وصـمد وخرج من التجربة أصـلب عوداً وأقدر على الحيـاة • وهنـا تصير الترجمة مربى حسناً للنفوس المتداعية تصـح عليه وتستعيد ثقتها بنفسها وتستعلى على ضـعفها معتصـمة بالأمل الذي وهبته لها الترجمة ونفحتهـا به •

وكما تطورت الترجمة في أسلوب التنـاول تطـورت في الموضـوع فلم يعد الملوك والقادة وحدهم (أو القوالب) كمـا يسميهم الأسـتاذ على أدهم (١) ، هم المجال الوحيد للاختيار فإن بعض الذين يعيشون في الظـل لهم (أهمية داخلية عميقة) وهو اعتبار له شأنه اليوم عند كتاب التراجم بل إن الترجمة لهؤلاء والنفاذ اليهم أدل على القـدرة والتمكن والصـبر على ارتياد مجاهل النفس الإنسانية وفك رموزها • والعمل هنـا أصـعب من جمع الأخبار المعروفة والأوهام الشائعة مما يسردها كاتبها بالسـماع وليس على وجـه التحقيق •

وهـكذا نرى فن كتابة التراجم والسير من أقوى الفنون الأدبية وآصـلها وأسيرها وهو فن عزيز لا يقـدر عليه إلا الموهوبون فيه ممن ذودتهم الطبيعة بآلاته من ذوق قادر على الاختيار ، وصبر صـابر عـلى الاطلاع ، وقدرة قادرة على النزاهة في الحـكم ، وقلب كبير يتفهم الأخطاء

---

(١) اقرأ كتاب (فصول في الادب والنقد) للأستاذ على ادهم .

ويرحم العيوب ، وملاحظة نافذة تخترق الحجب ، وذكاء إحساس كالشعاع ، ومهارة فائقة فى تجميع الخيوط وتحريكها ونسجها فى تساوق ونظام ودقة لا تجافى الروح الأدبية الشفافة الهفافة دن أن تغلو فى مديح أو تتورط فى هجاء .. دقــة علمية وهى مع دقتها من جفاف العـلم بمنجاة .

وفى الأدب كثيراً ما تكون الترجمة للأدباء أضـواء كشافة تعين على دراسة الأدب نفسه من خـلال الأديب الذى جـاد به .

وقــد عرف أسلافنا هــذا اللون من التعريف فى صور شتى جهـد طاقتهم وطاقة العصـور التى عاشـوا فيها والظروف التى أحاطت بهم ظروف الزمان وظروف المكان والمعرفة . وهــذه التعاريف التى أثرت عنهم هى معاجمهم التى بين أيدينا . ولكن التعريف بالأدباء فى العصر الحـديث قــد استن منهجاً خاصـا لا يتكافأ معه ما درجت عليه هذه المعاجم من رســم الشخصية الأدبية فى نطـاق ضـيق .

إننا لو نظرنا فى دائرة المعـارف البريطانية نرى المجلد العشرين منها قــد تناول شاعر الانجليز شكسبير تناولا لم يغفل معه شيئا من سيرته ومما يمكن أن يكون قد انفعل به الشاعر مؤثراً أو متأثراً . ومن هنا لمحت الترجمة ميلاده — مسقط رأسه — منازله — ترتيبه فى أسرته — إخوته — الأعمال التى تولاها — ملابسات نشأته — مشاكله — زواجه — زوجته — كتاباته الأولى — الجمعيات التى انضم اليها — شهرته وصـيته — وفاته — صوره — حتى اسمه تناولته الترجمة بتحليل ضـاف .

ثم عرجت الترجمة على أدبه فأوردت رواياته — عدد طبعات كل — تحليلها — أزمان تأليفها — قصة كل منها ثم وقفت عند شعره — قصائده الغزلية — نقاده — النصـوص النقدية — التقييم الأدبى لفنه — طريقته فى نظم الشعر — منابعه — رصـيده من المعرفة .

ولكن ترجمة كهــذه تكاد تبلغ حــد الكمال الممكن نلاحظ معهـا أن

الشاعر موضوعها رواية تمت فصولا ثم هو بمثابة مفخرة قومية لهم ومن ثم أفاضوا فى الكتابة عنه والتسجيل له • وكلها عوامل لها اعتبارها ودليلى أن المجلد الخامس عشر من الدائرة حين عرض لقصاصهم « سومرست موم » لم يطل اللبث عنده والوقوف بل لمح الخطوط العريضة فى سيرته ثم أحصى رواياته وسجل بعد كل منها تاريخ تأليفها •

وقــد استشرفت الى هــذا المستوى من الترجمة ولكنى قصرته على الشوامخ عندنا لسابقتهم فى الأدب ولأن خير إنتاجهم قد بلغنا أو هكذا يُقــدر له أن يكون ولو فرضنا أن الزمن يضمر إضافات جديدة يحمّلها اسمهم فإن باب الاضافة مفتوح • وعندما شرعت فتح الشروع نفسه آفاقا وكشف آمادا وأضــاء معمّيات كثيرة ما كان لهــا أن تتضح بغــير التجربة والمزاولة الايجابية •

وبدأت بالقمم الأدبية فى حياتنا الحاضرة أمثال : أحمد لطفى السيد — عباس محمود العقاد — طه حسين — أحمد حسن الزيات — توفيق الحكيم — محمد فريد أبو حــديد — محمود تيمور — على أدهم — يحيى حقى — وإخوان هــذا الطراز •

والاستهلال بالمعاصرين الأحياء ممن يعيشون بيننا الآن ممن هم فى سن حرجة يستهدف الانتفاع بالمعاصرة فى التقاط المادة الحية فى الموضوع مما لا يستقى إلا منهم أنفسهم • هــذه المادة الحية التى ضــاع علينا منها خير كثير بذهاب بعض من عاصرونا ممن لم يكتب لهم أو لنــا التأريخ والتســجيل •

وقــد يقال فى التعريف الشامل المحيط للأحياء أن من سيرتهم الدقيق الحساس الذى قــد يستعصى على النشر فى حياتهم ولكننا نرد على هذا الاعتراض بأن الواجب العلمى والأدبى والتاريخى يقتضى أن نظفر بما يمكن

الظفر به من دقائق حياتهم مما له اتصال بأدبهم ومما له اتصال بتاريخ الحيـاة الأدبية • وقد سمعت من بعض رجالنا الأعـلام أثناء ترجمتى لهم ما لا يمكن أن نعثر عليه فى كتبهم أو فيما كتب عنهم • وهنا فضل المعاصرة والمقابلة الشخصية التى لا يغنى غناءها ملء النماذج مهما كانت مفصـلة • إن اللقاء الشخصى يضفى جـواً من الثقة والطمأنينة يفتح كثيراً من الموضوعات وكثيراً من مغاليق النفوس أيضا هـذا فضلا عن عامل الوقت والسرعة فى الموضـوع على أن حصاد المقابلة الشخصية سـوف يدرس ويمحص بعد التثبت من الحقائق فى مظانها المختلفة •

فإن لم يكن الأديب بيننا كان المعول فى رسم صورته وشخصيته الأدبية على كتبه ومخالطيه وأولئك الذين كتبوا عنه من النقاد • ولابد لهذه النواحى الثلاث أن تشترك فى التصـوير إذ الاعتماد على واحدة دون الأخريين لا تكمل به الصـورة ولا تتضح خطوطها فكتب الأديب بوجه عام (ليست كل شىء فى الدلالة عليه) فقـد يرضى الناس بالتجمل فى الكتابة عنهم وعن دنياهم وقـد يهرب من الواقع فيجنح الى الخيال يوشى له رسائله ، وقـد يضيف الى الواقع من عنده أو ينقص منـه لحاجة فى نفسـه • أما مخالطو الأديب فلكل منهم شخصيته وعلاقته به تختلف قوة وضـعفاً عن علاقات الآخرين ومن ثم ينظر كل منهم الى الأديب من زاوية معينة ولا تسلم آراؤهم فيه من المودات أو الهنات •

أما النقاد فما علينا أن نسلم لهم دون تمحيص مدحوا أم قدحوا •

والمسودات الفنية فى مثل هـذا البحث مادة علمية تدرس لنتبين منها التحول الذى طرأ على الفكرة فى نفس الفنان • والدراسة النفسية للفنان أخلق شىء بالعناية إذ آمنا أن الفن وليد واقع حيوى فى حياته •

وقـد مررت بهذه التجارب حين ترجمت للمازنى وناجى الشـاعر والشابى ورامى • كما خدمت الرسائل الخاصـة حين عرضت للأسـتاذ

مصطفى صادق الرافعى •• بل مررت بهذه التجارب حين ترجمت **للنيــــل** أبرز الشخصيات المصرية وأعمقها ، أثراً وأدومها ذكراً ، وأسيرها اســـما ، وأعرضها تاريخاً ، وأخصبها عملا وأكرمها على الحياة والناس •

وهــذا الجــزء من دراسات الشخصيات الأدبية أو شخصية الأدب المصرى من خلالهم ، أرجو أن يتبعه أجزاء •

وقــد تأخر ظهور الطبعة الثانية بل الطبعة الثالثة لهــذا الكتــاب أعواما ، انصرفت فيها الى جــديد من الكتب أو عتيد من القضــايا •

وعندما اذن الله لطبعة جــديدة من هــذا الكتاب أن ترى النور ، رأيت أن أحــذف منها بعض التراجم التى قــدر لأصحابها أن اكتب عن كل منهم كتابا كاملا مستقلا فى الفترة التى أشرت اليها • ومن الطريف أن بعض هــذه الكتب طبع ثلاث مرات لا واحــدة •

يسر الله لى أن أكتب عن الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى كتابا ضــافيا باسم (أدب المازنى) •

وكتبت عن الأستاذ عباس محمود العقاد كتاب (الجمــال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب العقاد) •• ومع هــذا استبقيت الخطــوط العريضة من ترجمته فى (قمم أدبيــة) لوجود دراسة مقارنة بين العقاد وطــه حسين تستلزم وجود الترجمتين حتى يمكن الرجوع اليهما •

وقــد ضممت وضمنت هــذه الطبعة اضافات ذات أبعاد فى ترجمة الأستاذ الزيات كما أضــفت الى هــذه الطبعة ترجمة للدكتور كامل حسين والأستاذ على أدهم •

وقــد احتفظت فى هــذه الطبعة بالتراجم كما كتبتها أول مرة مع علمى بظهور كتب تناولت بعض هــذه الشخصيات من زاوية أو أخرى • ومن الممكن مناقشة ما جاء فيها ولكنى أحجمت عن هــذا لعــدة أسباب :

* حرصى على الاحتفاظ ببكارة الاحساس فى هــذه التراجم فقد كتبتها بعد أن وثقتها من أصــحابها وكنت أثيره عنــدهم وقــد استقبلوا تراجمهم فى الطبعة الأولى استقبالا حميما أعتز به ••• فرحوا بى وفرحت بهم ••

أيام من عمرى أريد أن أحتفظ بها فقــد عشتها بالطــول والعرض • والكتابة بعد هــذا خبزى اليومى فلأكتب ما يشــاء لى الله فى كتب أخرى وقــد فعلت •

* مناقشة كل ما كتب عن الكاتب موضــوع الترجمة قــد يسعف بها الوقت لو أنها ترجمة واحــدة ، لكاتب فحسب ؛ ولكن مع أحــد عشر كاتبا ، لا يتسع كتاب واحــد لهذا العدد بهذا المنحى •

* حتى الزيادات التى أضفتها كانت لها صــفة « الذاتيــة » فقــد استودعنى الأســتاذ الزيات ، « رســائله » أعزنى بها وأعززتها بالكتابة عنها وعنه من خلالها •

القاهر ١٤٠٥ هـ — **نعمــات أحمد فؤاد**
١٩٨٤ م

أحمد لطفي السيد



بيته — مولده — نشأته — تعليمه — صلته بالشيخ محمد عبده — كفاحه الوطنى — الجمعية السرية — حصوله على الجنسية السويسرية — الجريدة — حزب الأمة — دوره فى الثورة العرابية — الدعوة المصرية الخالصة — تأليف نقابة الصحفيين — توقف الجريدة — فهمه للحرية ونضاله فى سبيلها — دار الكتب — مجمع اللغة العربية — تأليف الوفد المصرى ١٩١٨ — القتل — الجامعة المصرية — لطفى السيد والمرأة المصرية — مدرسة لطفى السيد الفكرية — تحليل أسلوبه — ايمانه بالتطور — موقفه من العامية — رأيه فى رسالة المجمع — طرائف لا يذكرها التاريخ ...

فى بيته الكبير وفى مكتبته .. مكتبته ؟ إنها أكبر مكتبة خاصة رأيتها حتى الآن ، وأنا التى ألفت عينها مكتبة أساتذتنا : الزيات ، والعقـــاد ، وطـــه حسين ..

إن مكتبة العقاد جامعة إلا أن تفرقهـــا فى الحجرات لم يمكّن لهـــا ما يمكنه (للمكتبـــة) .. المكان الواحـــد والأثاث المرسوم والبسطة .. فى كل شىء . كانت المكتبة حجرة كالساحة مترامية الأنحاء يستطيع المهندس أن يقيم عليها بيتـــا كاملا ..

وكانت الحجرة ذات سقف مرتفع جـــداً على شكل قبة ضخمة ، وفى صدرها مكتب ضخم لو بسط عليه جوخ أخضر لغدا مائدة اجتماع كبيرة ، وفى الأركان نظمت الأرائك والكراسى الكبيرة ، ولكنها من اتساع المكان كانت تبدو وكأنها لا تشغل إلا حيزاً صغيراً مع أن بعضها كفيل بأن يزحم حجرة من حجرات العمارات الحـــديثة .

كان قابعاً فى مقعد كبير يحمل على أكتافه عشرات السنين ، وجلســـنا على أريكة الى جانبه ، كانت ملابسه المحـــدودة العرض تبدو فضفاضـــة عليه على أناقتها فى اللون والسمت .. كان فيها أشبه بعود ريحان يقف فى (زهرية) واسعة .. كانت ملابسه حريصـــة عليه لا تظهر منه إلا كفين نحيلتين نبيلتى الحركة والاشارة ورقبة طويلة تحمل رأسا كبيرا .. كبير العقل .. كبير المعرفة .. كبير المقـــام .. إنه أحمد لطفى السيد الأستاذ .

وفى المكتبة الواسعة كان يحـــدثنا على طريقة الغيث .. قطـــرات قطرات يطول بينها الصمت ويقصر ، ثم انهمر ، فكأنى كنت أسمع مصر من خلاله . كان يتحـــدث ويقص ويطرف .. ويتفكه فى دعابة حـــلوة .. كان يعلق على الأحـــداث فى سخرية عميقة ولكنها تنبع من نفس رضـــية لا تعلق بهـــا مرارة . إنه يرى نفسه موفقاً دائماً .. ذلكم هو أحمد لطفى السيد أســـتاذ الجيـــل .

فهناك فى نعيم الخصب وأمان النعمة فى قرية يشاع بين أهل الريف أن اسمها « المنزلة » وهى قرية « برقين » من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية وفى منتصف شهر يناير سنة ١٨٧٢ أهـل على الدنيـا « أحمد » ... أحمد لطفى السيد ..

وضجت القرية بالفرح مع بيت العمدة « السيد باشا أبو على » ابن عمدتها السابق « على أبو سيد أحمد » .

طفل وادع الطفولة يدرج فى الرابعة من عمره الى الكتاب ليتعـلم كرفاقه القراءة والكتابة ، فاذا به يبلغهما ويزيد فيتم حفظ القرآن كله فى العاشرة من عمـره .

وفى سنة ١٨٨٢ التحق بمدرسة المنصـورة الابتدائية وأتم تعليمه الابتدائى ، على عنت لاقاه فى هذه المدرسة ، سنة ١٨٨٥ ، ولم تكن شهادة الابتدائية والبكالوريا معروفتين فى ذلك الحين ، بل كان الانتقال من مرحلة الى أخرى بالنجاح فى امتحان المدرسة . ولما كانت الفرقة التجهيزية الوحيدة بمدرسة المنصورة قد ألغيت سنة ١٨٨٥ ، فقد اضطر أحمد لطفى السيد الى السفر الى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الخديوية ، حيث التقى بصديق العمر ورفيق الجهـاد عبد العزيز فهمى .

وحين وفـد لطفى السيد على القاهرة كان يخاف ، وديعا ، حوادث (الفتوات) فى ذلك الحين ، فلما انتقلت العدوى الى بعض طلبة المدرسة آثر الاعتكاف فيها أيام العطلة الأسبوعية فظل ثلاثة أشهر لا يخرج من الخديوية وفى هـذه الأثناء قرأ كتاب « أصـل الأنواع » لداروين ترجمة (اسماعيل مظهر) وحفظ كثيرا من المعلقات والأشعار .

وفى سنة ١٨٨٩ حصل لطفى السيد على البكالوريا .. وكان نظـام الشهادات العامة قد وضع قبل ذلك بعام — فالتحق بمدرسة الحقوق ، وكانت وقتئذ تعتبر (كلية حقوق) و (كلية آداب) معـا .

وفى مدرسة الحقوق عرفه الشيخ محمد عبده الذى كان تشجيعه له حافزا له على إنشاء « مجلة التشريع » بالاشتراك مع المغفور لهم اسماعيل صدقى واسماعيل الحكيم . وعبد الهادى الجندى ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمود عبد الغفار .

فقد هوى لطفى السيد الصحافة منذ كان طالبا فى الحقوق فكان يترجم لجريدة « المؤيد » تلغرافاتها الخارجية أحيانا .

وفى صيف ١٨٩٣ سافر الى استانبول ، وهو مازال طالبا بالحقوق ، وهناك التقى بالشيخ جمال الدين الأفغانى أو الشعلة الحية المتنقلة ، ولازمه شهرا ، وتأثر به أيما تأثر حتى ليقول عنه :

« وأهم ما أظن أنى قد انتفعت به من السيد جمال الدين فى تلك المدة أنه وسع فى نفسى آفاق التفكير » .

ثم عاد الى مصر وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٨٩٤ فعين هو وجميع زملائه كتبة فى النيابة ، وكان تعيينه فى القاهرة ثم نقل الى الاسكندرية وقد مكث بها شهراً ، ثم انتدب معاوناً للنيابة ببنى سويف حيث التقى مرة أخرى بصديقه عبد العزيز فهمى وكيل النيابة وقتئذ .

وفى سنة ١٨٩٦ عين وكيلا للنيابة وكان عبد العزيز فهمى ما زال بها أيضا . فأقاما معا ، وكان حديثهما مصر وما تكابده من الاحتلال البريطانى حتى انتهى بهما التفكير والتدبير الى إنشاء جمعية سرية هدفها (تحرير مصر) .

وفى القاهرة التقى به مصطفى كامل وعرف منه أن الخديوى يعرف من أمر الجمعية كلّ ما خفى .. وهنا اقترح عليه مصطفى تنسيق الجهود وانشاء حزب وطنى برياسة الخديوى . فوافق لطفى السيد كما وافق عند مقابلته للخديوى على السفر الى سويسرا لاكتساب الجنسية السويسرية

يتسلح بها فى تحرير جريدة مقاومة . وقد استقر الرأى على الجنسية السويسرية لأنها تكتسب بعد سنة من الإقامة بها .

وبعد هذه المقابلة انعقد أول اجتماع للحزب الجديد فى منزل محمد فريد . وقد شهد هذا الاجتماع مولد الحزب الوطنى برئاسة الخديوى وعضوية مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعيد الشيمى (ياور الخديوى) ، ومحمد عثمان . ولبيب محرم ولطفى السيد .

ومن الطريف ما يذكر عن هذا الحزب أن الخديوى كان اسمه بين الأعضاء « الشيخ » ومصطفى كامل « أبو الفدا » ولطفى السيد « أبو مسلم » .

وفى جنيف حيث أزمع لطفى السيد الإقامة سنة مرقاة الى اكتساب الجنسية السويسرية ، عكف هذه المدة على الدراسة حيث انتظم فى فصل صيفى أعدته جامعة جنيف لحملة الليسانس لدراسة الآداب والفلسفة . وقد انضم اليه فى هذا الفصل الشيخ محمد عبده الذى زار سويسرا فى ذلك الوقت والذى قدمه لطفى السيد الى مدير الجامعة باعتباره أحد مديرى الأزهر .

وعاد لطفى السيد الى مصر ليجد فى انتظاره غضب الخديوى منه لصلته بالشيخ محمد عبده ، ورفض الباب العالى اكتسابه الجنسية السويسرية . ولكن هذا لم يحل دون أن يكتب لطفى السيد تقريرا ضافيا عن أبحاثه السياسية وما أسفرت عنه دراسته للموقف ، جاء فيه :

« إن مصر لا يمكن أن تستقل إلا بجهود أبنائها .. وإن المصلحة الوطنية تقضى أن يرأس سمو الخديوى حركة شاملة للتعليم العام ... » .

ولا أريد أن أمضى فى تفاصيل تاريخ حافل عريض .. تاريخ يعرفه التاريخ ... حسبى لمحات ذكرتها ، بداية دالة واستهلال واعد .

❊ ❊ ❊

وبعـــد مولد لطفى السيد نقف عنـــد مولد « الجريدة » ... كانت « الجريدة » أو الحـــدث الضخم .. ككل الأعمال الكبيرة « فكرة » ولدتها حاجة ، ونمتها غاية ، وأخرجتها الى النور إرادة وإصرار .

لقـــد انبثقت فكرة « الجريدة » من حوادث العقبة وفاشودة قبلها . فقد كان الانجليز ينادون بحق مصر فيها حين زهدت مصر فى هذا (الحق) بل أيدت وجهة النظر المضـــادة ..

وهـــذا المعنى لا يكمن تفسيره كما يقول لطفى السيد إلا بأن البلاد تقل عليها الاحتلال ، فأصبحت تبغضـــه وتبغض معه كل ما يأتى به ولو كان الخير عليه باديا ولكنها على كل حال ظاهرة تسترعى النظـــر وتستأهل التفكير .. إن مصر بحاجة الى جريدة تنطق بلسانها وحـــدها ، وتعبر عن ذاتها خالصـــة ورأيها صريحا لا شبهة فيه من هوى لتركيا أو متابعـــة لانجلترا .. جريدة تكون ملكا لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية ، وهم الذين يزعم كرومر أنهم عن الاحتـــلال راضـــون .. وهكذا انبثقت فكرة « الجريدة » .. نبعت من صـــميم الاحساس المصرى الثـــائر على انجلترا وتركيـــا معـــا .

وفى بيت محمود باشـــا سليمان تألفت شركة « الجريدة » وانتخبت لطفى السيد مديرا لها ورئيسا لتحريرها لمدة عشر سنوات .

وما كاد يمضى على صـــدور الجريدة بضعة أشهر حتى تألف « حزب الأمـــة » الذى نادى بالاستقلال التام . وقـــد اختار حزب الأمة لطفى الســـيد سكرتيرا عاما له .

وقـــد قام لطفى السيد بصـــحبة الدكتور حسين هيكل بالطواف بكثير من القرى للوقوف على حالة التعليم الأولى وضـــمن مشاهداته تقـــريرا قـــدمه الى مجلس المديرية .

وبالقـــلم حارب لطفى السيد قانون المطبوعات الذى صـــدر إبان

الثورة العرابية وأرادت الحكومة بعثه سنة ١٩٠٩ .. وإن لم يكتب لحملته — على قوتها — النجاح ، إذ وافق عليه الانجليز وتابعهم مجلس الشورى .. ولم يهدأ لطفى فهو حين سافر الى أوربا للاستشفاء لم يعف نفسه من النضال بل سعى الى لقاء وزير خارجية انجلترا « ادوارد جراى » وإن اعتذر عن مقابلته . فلما عاد الى مصر راعه أن وجد شركة القناة تسعى لدى المسئولين لمد أجل الامتياز لقاء أربعة ملايين من الجنيهات، فهرع لطفى السيد الى رشدى وسعد ، الذى أحاله على بطرس غالى رئيس الحكومة والمستشار المالى الانجليزى ، فذهب اليه واعترض على مد الامتياز وطلب عرض المشروع على الجمعية العمومية وهى أكبر هيئة نيابية وقتئذ فى البلاد . فرفض ومن ورائه بطرس غالى يحبذ المشروع ويملى له فهب لطفى السيد يحارب المشروع حربا لا هوادة فيها مما أورى الرأى وزاد لهيبه ضراما حتى تفادته الشركة فاشترطت عرض الموضوع على الجمعية العمومية وانتهى الأمر برفضه .

ومن كفاحه فى ميدان التعليم ما انتهجه فى « الجريدة » من بث الثقافة على مستوى عال ، فكانت قبلة الطلاب من الشباب المتعلم يؤمونها للاستماع والاستمتاع ، ويحاضر فيها كبار الأساتذة والمحامين .

هال لطفى السيد أن يكون ناظر مدرسة الحقوق الانجليزى وأستاذ القانون المدنى بها من الراسبين فى الليسانس ، فاضطلعت الجريدة بمطالبة الحكومة بتنحيته واستبدال غيره به ، فلم تستجب .. فدعا لطفى السيد الأستاذ أحمد عبد اللطيف ليدرس القانون المدنى للطلبة فى دار « الجريدة » وكان يؤم دروسه الكثيرون . ومن تلاميذ هذه الحلقات صفوة من رجال القانون فى مصر .

وفى عام ١٩١٠ وضع حزب الأمة مشروعا للدستور ، ورأى أن يطلبه الشعب من الخديوى بعريضة يحتشد الكل لإمضائها ، وهنا حرر لطفى السيد العريضة ودعا الى إمضائها .

وفى الحرب التركية ــ الايطالية عاد لطفى السيد الى التبصير بوجوب حياد مصر إزاء ألوان الصراع فإن مصر للمصريين لا لتركيا ولا لانجلترا ، فإن سيادة الأولى لا تجديها نفعا ولا تغنى عنها شيئا ، وتبعية الأخرى رزء لا ينقذها منه إلا تضافرنا تضافرا واعيا يدفعه مدافعة البلاء ، ويصارعه مصارعة الوباء .

وسار لطفى فى دعوته غير هياب لا يعنيه رضا الجماهير المخدوعة عن نفسها ، المخدوعة عن موقفها مادامت مصر هدفه وغايته معا . فما إن استصرخه تاجر بدمياط استولى الطليان على سفينة تحمل تجارته لأن عليها العلم التركى حتى نفر له ، فكانت فرصة اهتبلها لطفى السيد سانحة ، ومضى الى رشدى باشا مطالبا باستبدال العلم المصرى بالعلم التركى .

وراجعه ثانية بمطلب أبعد ؛ لقد طالبه هذه المرة باعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية وتنصيب الخديوى ملكا تدعيما للخطة ، ولكن « كتشنر » لم يصغ لهذه النصيحة حتى لا تضايق تركيا على عدائها لهم ، فلم يبق أمام لطفى السيد إلا « الجريدة » يودعها مبادئه وآراءه . فحمل حملة قوية على التبعية ونادى « بسياسة المنافع لا سياسة العواطف » .

هذا فى الوقت الذى كان فيه عمر طوسون يجمع التبرعات للجيش التركى بطرابلس والصحف من ورائه تشجع حركته ما عدا « الجريدة » بالطبع ، فأحيط بمشروع الانفصال ، **وإن ظل لطفى السيد على إيمانه بالقومية المصرية ودعوته لها وتمكينها من النفوس والأذهان .**

* * *

وفى سنة ١٩١٢ دعا لطفى السيد الى تأليف نقابة للصحافة المصرية ، وقد استجاب الصحفيون على اختلاف مشاربهم الى هذه الدعوة . واجتمعت الجمعية العمومية لانتخاب النقيب والوكيلين وكان لطفى السيد

أحدهما . ولم تلبث الحرب الأولى أن أعلنت فانطوت صفحة هـذه النقابة أو هـذه المحاولة الأولى فى ميدانها .

وفى سنة ١٩١٣ استبدل بمجلس شورى القوانين ، الجمعية التشريعية ، فدخل لطفى السيد فى انتخاباتها باسم حزب الأمة ، ولكن الانجليز أوعزوا بسـقوطه فسـقط .

وفى سنة ١٩١٤ تجمعت طاقاته كلها لصراع رهيب مع المستعمر واجهه مرات ، والتقى على حربه مرات حتى أيقن أن لا مفر من الرزء به ولـو الى حين .

وفى أغسطس سـنة ١٩١٤ يئس لطفى السـيد من اعتراف انجلترا باستقلال مصر فمنى بخيبة أمل كبيرة ارتد على إثرها الى بلدته « برقين » معتزلا السياسة والصـحافة واستقال كذلك من رياسة تحرير «الجريدة»، فكانت استقالته ايذانا بهجر الصـحافة الى غير عود .

وأسـأله :

« لماذا اعتزلت « الجريدة » عندما يئست من القضية المصرية وكان أحرى بك أن تضاعف جهادك بالقـلم لو أنه كان فيه زيادة لمستزيد .. فى مصـلحة من هـذا الاعتزال ... ؟ إن أقصى ما تبغيه انجلترا فى ذلك الوقت ، إنما هو إغماد الأقلام المشروعة » . فيقول :

ـ أعلنت الأحـكام العرفية فى ذلك الوقت ورزحت الأقـلام تحت الرقابة .. ما جـدوى قلم لا يترجم مبادىء صاحبه وأفكاره ؟ كنت أكتب المقال ملتهبا فيركض فيه قلم عبىّ يمسك به رئيس قلم المطبوعات وكان يدعى « خلاط » .. أنا أكتب وأعرض على خلاط ؟ كلا .. لأهون ألف مرة اعتزال السياسة أو حتى كسر القـلم .

* * *

إن (أحمد لطفى السيد) **يقــدس الحرية تقديسا يرتفع بهــا الى مرتبة العقائد** ، ومن خطبه السياسية والاجتماعية فى ذلك العهد قوله :

« كان للانسان قبل ترتيب الحــكومة كل الحرية المطلقة ، وكانت له السلطة المطلقة على ما يمكنه ، فلما كانت الحــكومة أخــذت منه السلطة كرها كما فى الحــكومات المطلقة أو بالوكالة كما فى الديموقراطيات الصرفة ، ولما كانت سلطة الانسان لا تتناول الاضرار بنفسه أو بغيره كان من اللازم أن الحــكومات مهما كانت مطلقة لا يمكنها أن تضر بأى فرد من الأفراد ولا بالمجموع ، فتعديها على حرية الفرد خروج عن كل ســلطة مقبولة ، بل فسوق عن الغرض من ترتيبها وهو حمــاية حرية الأفراد الذين انتقلت سلطتهم اليها ، إلا اذا كانت ترضى أن تكون ظالمة » (١) .

« سيقولون لا ذنب للحــكومة الحاضرة فى نقص حرية الشعب ، فإن الشعب لو كان مستعدا للحرية راغباً فيها ، لما سلبت أفراده منها فى موقف الحــكم ، على أن الحــكومة الحاضرة مستعدة أن تعطى الشعب ما شاء من صــنوف الحرية ، عند ما تجــد فيه الأهلية لهذه النعمة . كلا إن ذلك من خطأ التقدير والمغالطة فى التدليل . أما الحــكومة الحاضرة فهى استمرار للحكومات التى قبلها ، وهى لا تبرأ من المسئولية أمام أمة مظلومة ، إلا بأن تتنزل لها عن جميع حقوقها التى فى يدها ، وإن الحرية الشخصية بل والحرية العامة ، ليستا لعبة ولا ميزة تمنحهما متى شاءت وتمنعهما متى تشــاء . بل هما حقان طبيعيان للأفراد وللأمة لا تقربهما حــكومة عادلة تحــكم لا لمصلحتها ولكن لمصــلحة المحــكومين . انهما للأفراد وللأمــة بمنزلة الحياة . وما علمنا إنسانا على الأرض يدعى لنفسه حق إعطاء الحيــاة ومنعها .. سبحان من يحيى ويميت » (٢) .

---

(١) ص ٥٤ من كتاب (صفحات مطوية) .
(٢) « المنتخبات » ج ٢ ص ٦٢ .

إن الحرية عنـــده :

« **قاعدة الفضـــيلة ، ومناط التكاليف** • فأى إنسان خمدت فى صدره نار الحرية وأظلمت جوانب عقله من شعاعها الساطع جـــدير بألا يعتبر إنسانا وأن تســـقط عنـــه تكاليف الحيـــاة » (١) •

ويتحـــدث عن السياسة والشـــعوب فيقول فى ذكاء ساخر :

« السياسة خادم الاقتصـــاد ، والثروة أكبر القـــوى السياسية • ومن المشاهدات العامة أن البلاد الزراعية ، أى بلاد السهول لا تطمع عادة فى الحرية ولا فى شرف الاســـتقلال ، إلا أن تبلغ حاجتها من الثروة • وحينما كان الفقر عند الفلاحين كان الضعف والسكون الى الذل • وقـــد كنا فى الزمن الماضى من الفقر وعـــدم الأمن على اليسير الذى فى أيدينـــا لا نستطيع أن نقف فى وجه الحاكم الظالم وقفة الأبى ، ولا يرد فى خاطرنا أن نحاسبه على أعماله ، بوصـــف أنه فى الحقيقة وكيل ، بل كنـــا نظن طاعته حتى فى المنكر واجبـــا مقدسا • درجنا على ذلك واعتبرنا الحاكم راعيا ونحن الرعية ، وأخـــذنا نصبغ رغبته بألوان الرغبة ونعبر عن كراهتنا له بألفاظ الحب والتفانى فى عشق شخصه الكريم •

كل ذلك كانت تأتيه الأفراد طمعا فى استعارة جاهه • وكان الجـــاه مورد الثروة ومأمنا من نهب المال الموجود • ومع ذلك فإن حكام الشرق على العموم وحـــكام مصر على الخصوص من المماليك وغيرهم ، كان يعـــز عليهم أن يوفق أحـــد الفلاحين لجمع ثروة أو ينبه ذكره فى الناس شـــأن الظالمين يخيفهم أن تتألف فى الأمة طبقة قوية بعقلها ومالها تقف سدا منيعاً بين الحاكم الأكبر وبين تنفيذ شهواته الضـــارة فى الشعب كأنهم كلهم لويز الرابع عشر وريشـــليو » (٢) •

---

(١) « المنتخبات » ج ٢ ص ٦٢ .
(٢) « المنتخبات » ج ٢ ص ١٠٨ .

ثم نزل الخديوى عن العرش وأصدرت تركيا أحكام الإعـدام بالجملة ومن حكمت عليهم بالإعـدام لطفى السيد • فهى لم تنس بعـد موقفه منها سـنة ١٩١١ واعتناقه القومية المصرية وحـدها ودعوته لهـا فى غـير هـوادة أو لين •

* * *

وفى سنة ١٩١٢ استدعاه عدلى باشا الى الاسكندرية ليفضى إليه برغبة تعيينه مديراً لدار الكتب المصرية خلفاً للدكتور شاده المدير الألمانى •

وفى دار الكتب انفسح الوقت له لترجمة أرسطو ، فعكف عليه بل دعا الى ترجمة الكتب الأخرى ، وندب من وثق بهم للاضطلاع بنقل الثقافة الغربية الى العربية موقنا أن النهضات فى بواكيرها إنما تقوم على الترجمة التى هى بمثابة التمهيد فالاحتذاء ثم الخلق والأصـالة •

وفى سنة ١٩١٦ عمل على إيجاد مجمع للغة العربية تفسح له وزارة المعـارف فى دار الكتب على ألا تبسط عليه سلطانها • ومن أجـل هـذا الغرض دعا لطفى السيد حفنى (بك) ناصف ، وعاطف (باشا) بركات ، ليضـعا معه قانونا للمجمع الذى تألف برياسة الشيخ محمد أبى الفضـل الجيزاوى شيخ الجامع الأزهر وقتذاك ، وكان لطفى السيد سكرتيراً له •

ومن الطريف أن هـذا المجمـع ظـل سـنة كاملة يناقش « جـواز التعريب » ثم انطوت صفحته فيما انطوى من صفحات ••

وفى سنة ١٩١٨ هب لطفى السيد مع سـعد ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ومحمد محمود ، يطالبون بالاستقلال ومن ورائهم مصر مشرئبين الى مبادىء « ويلسون » التى نادى بها والتى أنكرها على مصر •

وفى نوفمبر سنة ١٩١٨ بدأوا يؤلفون الوفد المصرى ، واستقال لهذا الغرض لطفى السيد من دار الكتب المصرية •

ثم نفى سعد زغلول ، ومحمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وحمد الباسل فاستطارت مصر وثارت ثورتها العاتية سنة ١٩١٩ • فاستدعت السلطة العسكرية لطفى السيد فيمن بقى من أعضاء الوفد وحملتهم مسئولية الثورة المندلعة ، فانبرى لطفى السيد يحمل المسئولية ويواجه تعسفهم وحده مقترحاً تأليف وزارة ترضى الأمة •

وبعد أيام ترامى إليه أن السلطة العسكرية تريد قتل أربعة ومصادرة أملاكهم هو أحدهم ، فأسرع الى أوراقه السياسية يحرقها • ثم حدث أن عين اللنبى وأبدى استعداده للتفاهم فأرسل إليه الوفد تقريراً ضمنه نفس اقتراح لطفى السيد ، فتألفت وزارة برياسة حسين رشدى وصدر الأمر بالافراج عن المنفيين ، وسافر لطفى السيد مع الوفد المصرى المسافر الى انجلترا •

وفى طريقهم بلغتهم فى مرسيليا برقية تنبىء بأن مستر ويلسون رئيس الولايات المتحدة قد وافق على الحماية الانجليزية على مصر فكانت صدمة قوية من صاحب المبادىء الأربعة عشر وإن لم تثنهم عن مواصلة السير ، فذهبوا الى باريس • فاذا بمؤتمر السلام يتزاور عنهم •

لجأت مصر الى المفاوضات وتنافس سعد وعدلى على رياستها ، وتلاحيا ، فاعتزل لطفى السيد السياسة • ثم عرضت عليه دار الكتب فعاد إليها ، وأخذ يشتغل بها وبالجامعة المصرية القديمة التى كان رشدى باشا رئيسا لها وكان هو وكيلها •

وفى سنة ١٩٢٢ وضع منهجا لهذه الجامعة باعتبارها كلية للآداب ، وسعى لدى الملك فؤاد لتدعيمها باعتراف الدولة باجازاتها العلمية ما دام المنهج يقضى بموافقتها عليه فى الامتحانات فوعده بضمها الى الجامعة التى تزمع الحكومة إنشاءها باعتبارها كلية آداب بها ، فجمع لطفى السيد مجلس إدارة الجامعة والجمعية العمومية لوضع شروط للانضمام ، وتوكيل

رشدى باشا للتعاقد مع الحكومة بمقتضاها • وقد نص لطفى السيد فى العقد على أن يكون طه حسين أستاذاً فى الجامعة الجديدة وكان هذا سنة ١٩٢٣ •

وقد ظل لطفى السيد مديراً لدار الكتب حتى مارس ١٩٢٥ حين صدر مرسوم بتعيينه مديراً للجامعة الجديدة فأدارها على نهج قويم من الأسس الجامعية السليمة •

* * *

وهنا يأتى دور لطفى السيد فى حياة « المرأة المصرية » • ففى عام الجامعة الأول طلب إليه بعض عمداء الكليات قبول البنات الحائزات على البكالوريا فرأى ببعد نظره أن يستعين على اتخاذ هذه الخطوة بالكتمان فلا تتسرب الى الصحف أو يشار إليها فى الخطب حتى يضع الحكومة والرأى العام أمام الأمر الواقع • وصحت نظرته فإنه بعد تنفيذ الخطة بإحكام عشر سنوات متتالية بدأ يتنبه الرأى العام ، ورفعت الضجة عقيرتها ، ولكنه لم يأبه لها لإيمانه بغلبة التطور ومنطق العدل وحكم الزمن وصالح الجماعة •

ومرة أخرى صدقت نبوءته فخمدت المعارضة وخفت الصوت ، وانداح الصدى ، وسعت الفتاة — على قدم المساواة مع الفتى — الى الجامعة •

وقد تحدث بعد هذا عن رسالة الجامعة فأشار الى هذا الحدث وما أحاط به من ضجة تنكر هذا الاختلاط • ضجة لم يأبه لها :

« لأننا على يقين من أن التطور الاجتماعى معنا ، والتطور لا غالب له ، ومعنا العدل الذى يسوى بين الأخ وأخته فى أن يحصل كلاهما أسباب كماله الخاص على سواء ومعنا فوق ذلك منفعة الأمة من تمهيد الأسباب لتكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع أطماعنا فى الارتقاء القومى (١) » •

---

(١) المنتخبات حـ ٢ ص ٣٨ •

لقد حفظ أحمد لطفى السيد القرآن فى القرية على « الشيخة فاطمة » وحفظ لها ، نبيلا ، هذه اليد • فهل كان حفظه آية صنعت حدثاً ضخما فى تاريخ مصر ؟ حدثا صنع بدوره أحداثا وكيف تاريخا وبنى نفوسا ودعم نهضة ووفر طاقات جديدة لوطن جديد وإن كان معرقا فى القدم موغلا فى التـــاريخ •

* * *

وفى سنة ١٩٢٨ اختاره محمد محمود باشا وزيرا للمعارف فى وزارته فكان توليه لها بمثابة امتداد لـــا يستهدفه من خدمة الأمة عن طريق التعليم • وفى وزارة المعارف طبق اللامركزية • ثم استقالت وزارة محمد محمود فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، فعكف على كتبه وأوراقه آنسا اليها حتى استدعى سنة ١٩٣٠ مديرا للجامعة فعاد اليها قريرا من طول ما ألفها وصاحبها على الأيام •

وعاد الى رحاب الجامعة مستهدفا لها الاستقلال فى الرأى والفكر والعمل مؤمنا بأن التربية الجامعية قوامها حرية العمل والبعد عن التأثيرات الحكومية وتأثيرات البيئات العامية ، وعن تأثيرات البيئات السياسية المختلفة حتى اذا ما مس هذا الاستقلال بنقل الدكتور طه حسين دون أخذ رأى الجامعة سارع لطفى السيد الى تقديم استقالته حفاظا على التقاليد الجامعية التى يرعاها ويراها حرما لا ينـــال ، وحمى لا يستباح •• وأقول التقاليد الجامعية لأن الوزارة باجرائها هذا لم تكن قد جاوزت حدود القانون الجارى العمل به ، إلا أنها جاوزت حدود التقاليد الجامعية فكانت غضبته وكانت استقالته •

ظل لطفى السيد بعيدا عن الجامعة حتى أبريل سنة ١٩٣٥ حين طلب اليه نجيب الهلالى باشا وزير المعارف فى وزارة محمد نسيم باشا الثانية أن يعود الى الجامعة فاشترط تعديل القانون بحيث يكفل شرط موافقة مجلس

الجامعة على نقل أى أستاذ فيها ، وكان أن عدل القانون نزولا على إرادته وانصياعا لرغبته .

* * *

وفى سنة ١٩٣٥ عمل على ضم بعض الكليات الى الجامعة فضمت كلية الهندسة وكلية التجارة وكلية الزراعة وكلية الطب البيطرى .

ظل لطفى السيد مديرا للجامعة حتى أوائل أكتوبر سنة ١٩٣٢ حين اندست الأحزاب بين الطلبة فظهر بين صفوفهم اللجج فى المهاترة ، واللدد فى الخصومة حتى خاف عليهم لطفى السيد الفتنة التى تفصم الأخوة وتنال من « الشمائل الجامعية » التى يعتنقها مدير الجامعة . فطلب لطفى السيد من وزارة الداخلية تعيين كونستبلات لحفظ النظام لأن البوليس لا يجوز له أن يدخل الحرم الجامعى . ولما لم تستجب له وزارة الداخلية استقال للمرة الثانية .

وبعد ثلاثة أشهر أى فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧ عين وزير دولة فى وزارة محمد محمود الكبرى ثم وزيرا للداخلية بضعة أشهر ، ثم آثر الاستقالة عند اعادة تشكيل الوزارة .

ثم لم يلبث أن عاد الى الجامعة عودة مشروطة أساسها ابتعاد رجال الحكومة عن الطلبة ، فلما أن رقى اليه تسلل الوزراء الدستوريين الى صفوف الطلبة قدم استقالته لمحمد محمود باشا ، فاعتذر وأصدر أمرا مشددا بعدم اتصال الوزراء بالطلبة لأغراض سياسية ، وهكذا انتصرت سياسة لطفى السيد انتصارا آذن ببقائه فى الجامعة حتى سنة ١٩٤١ ، اذ اجتذبه مجلس الشيوخ فى الوقت الذى آثر أن يخلد فيه الى بعض الراحة بعد كفاح طويل مرير فى سبيل الحرية السياسية والحرية الجامعية والحرية الفكرية والحرية الشخصية .

دعا لطفى السيد الى (المصرية) دعوة متصلة تهدف الى تمييز شخصية مصر وتأصيل الشعور بها وتنقية هذا الشعور من تداخل أفكار معينة ، وسطحية مفاهيم بعينها • إن مصر هى مصر قبل سائر الاعتبارات مهما بلغت قوتها • وقد أيقظت دعوته هـذه ، النفس المصرية وردتها الى أعماقها الحقيقية • وهى فى تلمسها وجودها الأصيل كانت ايجابية اذ نزعت نزوعا علميا فاتجهت دراساتها فى القديم الى تاريخها وسابقتها فى الفنـون والعلوم ، وفى الحديث الى دورها فى المنطقة ومواقفها فى تاريخ أديانها وآدابها •

* * *

وقد تأثرت بدعوة لطفى السيد الحياة الفكرية فى مصر فقال الدكتور طه حسين بمصرية مصر دما وفكرا وهوى وروحا • ونادى الدكتور أحمـد ضيف باقليمية الأدب ، وانتهج الاقليمية درسا بالجامعة الأستاذ أمين الخولى الذى كانت مصر محور دراساته فى البلاغة والدين •

وخلعت (المصرية) طابعها على شتى مناحى الحياة فى الوادى وخاصة فى الأدب باعتباره مرآة الشعور ، فاتجهت اليها موضوعاته خاصة فى القصة بل إن من آثارها فيه الحنو على العامية لغة الشعب المصرى •

وسار على طريق لطفى السيد : الأستاذ توفيق الحـكيم والدكتور حسين فوزى صاحب (سندباد مصرى) •

وقد تفسح الظروف والاحداث لمفاهيم أخرى ولكن الشعور بالمصرية الذى أصله لطفى السيد فى النفوس وعمق له ، لا ينسخه ناسخ •

* * *

وكفاح لطفى السيد لم يكن لديه فيه من سلاح الا القلم ، وعلى كثرة نآثر هذا القلم فان صاحبه لم يعن بجمع آثاره •• فلم يتهيأ لنا منها الا ثلاثة كتب جمعها الأستاذ اسماعيل مظهر وهى :

١ — المنتخبات (فى جزئين) .

٢ — تأملات .

٣ — صفحات مطوية (وأكثرها مقالات سياسية) .

وقد ترجم لطفى السيد عن الفرنسية (عن سانت هيلير) كتب أرسطو :

* الأخـلاق .
* الكون والفساد .
* الطبيعة .
* السياسة .

ولكن رسالة لطفى السيد تتمثل فى تقييم مبادىء السياسة والأدب والاجتماع تلك المبادىء التى بشر بها ووفاها شرحا وتفصيلا فى مقالاته بالجريدة فخلق كما جـاء فى تقرير جائزة الدولة ، بيئة فكرية . كانت « الجريدة » لسان دعوته الى حرية الفكر وحرية الانسان وحرية الوطن . كانت مدرسته التى وجه منها الرأى العام الى قضايا الاستقلال والدستور . وسلطة الأمة ، والحياة النيابية الصحيحة ، والتعليم الجامعى ، وحرية المرأة فكانت الجريدة مدرسة شعبية لقن فيها لطفى السيد أمته كثيرا من المبادىء وبصرها بكثير من الحقوق كما كانت مدرسة خاصة تخرج فيها الرعيل الاول فى الأدب والصحافة والسياسة والعلوم الفلسفية والاجتماعية فقد عاش لطفى السيد فى أحداث مصر وهمومها ومطامحها منذ أواخر القرن الماضى . عاش أيامها بأفراحها وأتراحها وشكل الاحداث وكيف الوقائع وصنع رجالا واضطلع بأعباء ضخام وأسهم فى توجيه الامور وتسيير الحكم وقيـادة الناس . وتاريخه غنى بالانسانيات والوطنيات والمثل .. وظل على جلال السن ووهن المرض فى مركز القيادة فى كثير من نواحى حياتنا الفكرية ، فكان رئيس المجمع اللغوى ، وقبلة الرأى فى جلائل الأمور ..

وهو عضو المجمع العلمى المصرى .

وهو رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية ومن منشئيها .

وهو رئيس جمعية العلم المصرى (وهى جمعية أدبية كان وكيله فيها الشيخ الخضرى) .

وهو عضو مراسل للمجمع العلمى العراقى .

وهو عضو المجمع اللغوى الايرانى .

وهو عضو الجمعية الجغرافية .

وقد كرمته بأوسمتها الفخرية دول انجلترا وبلجيكا والمغرب وألمانيا فأنعم عليه ملك بلجيكا بنيشان جران أوفيسيه من طبقة ليوبولد الثانى وأنعمت عليه ألمانيا بنيشان النسر الألمانى من الدرجة الأولى سنة ١٩٣٨ كما أنعم عليه المغرب بنيشان وسام الفخامة .

وهو بعد هذا يحمل الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

ووسام الجمهورية العربية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى .

وفى سنة ١٩٥٨ نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية .

* * *

ولطفى السيد صاحب مدرسة تدين بالدقة والسلامة والوضوح واليسر . فهو ينفر من الصنعة فى اللفظ ، والالتواء فى المعنى ، والملابسة فى الفكرة ، والمعاظلة فى التعبير .

وأثر القرآن فى أسلوبه لا يخفى ، فهو كثيرا ما اقتبس منه فى كتاباته . وهو يؤثر الجملة الاسمية ويرى الفاعل أحق بالتقديم . ان المسند اليه فى الجملة عنده هو كل شىء .. ونبراسه فى هذا القرآن نفسه فمن آياته التى تقف الى جانبه وتجلو حجته :

« الله نور السموات والأرض ... »

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ... »
« الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »

فالجملة الاسمية عنده أكبر فى الدلالة من الجملة الفعلية وكذلك يقول النحويون . واستعماله الجملة الاسمية مقصود وهو يرى أن الجملة الفعلية اذا استعملت فلأهميتها فى الحوادث .. فى الظواهر وهنا أيضا تستجلى حجته القرآن الكريم وتشرئب اليه ..

« أنزل من السماء ماء ... »

« سخر لكم الشمس والقمر ... »

وأسلوب لطفى السيد متماسك فى قوة مكين .. أسلوب لا يقبل التفكك والتحلل من دقة فى التعبير مقصودة ، وهو من أوائل من ارتفعوا بأسلوب الصحافة على المغالاة والفضفضة . وهو أبعد ما يكون عن اللفظ المجازى . وهو فى باب التعبير خلاق يقصد الى المعنى الكبير فى أوجز لفظ وأدقه وأحكمه وأقدره على ايحاء المطلوب . وهو صاحب الأقوال السائرة كوصفه للمعاهدة بأنها « غير ذات موضوع » ... معنى كبير جامع تستعلن فيه المعارضة ويسفر فيه الرفض ولكن بلا ندوب ، فهـو لا يسيل دما ولا ينكأ جرحا .

وهو يميل الى تطعيم أسلوبه بالكلمة العاميـة الصحيحة والألفـاظ العصرية الحية ، وهما اتجاهان يرجعان الى ايمانه بالتطور .. وبأن لكل عصر طابعه فى التعبير والتفكير وضرورة مسايرة هذه الحقيقة .. ومن هنا نستطيع أن نفسر رأيه فى رسالة المجمع اللغوى فإن مهمته ، فى يقينه ، **أن يسجل ما يستعمله ذوو الشأن لا أن يخلق لغة جديدة** . قد يقبل (النحت) فى المصطلحات العلمية إلا ما كان منها باسم صاحبها لأن طبيعة بيئتها تعينها على السيرورة . وهو يرى أن اللفظ يجب أن يكون له مسمى واحد فإن اللغات القوية لا تستعمل اللفظ المشترك . وهو يرى إصلاح

الكتابة العربية مرهونا بتسكين الحروف • كل الحروف يجب أن تكون ساكنة ولا تتحرك إلا بحرف العلة •

* * *

إن ايمان الرجل الكبير بالتطور إنما هو مفتاح الموضوع بل مفتاح شخصية لطفى السيد • وسنرى كثيرين يخوضون موضوع العامية والفصحى ويطيلون الجدل والحوار ويبثون فى ثنايا العبارات المطاطة والفضفضة الحائرة ، رأيا آخر تستعلن المعارضة فيه لتختفى أو تترك الباب مفتوحا تهب منه الريح أو يتردد عليه الفضول ، ولكن لطفى السيد فى صراحة الواثق من نفسه ، وفى وثوق المؤمن بالتطور ، وفى بساطة العالم الحق يقصد الى موضوعه فى ذكاء ومضاء بلا مواربة أو تعقيد • وفى الموضوع الخطير موضوع العامية والفصحى ، قال أحمد لطفى السيد كلمته وأوضح حجته ••

« نريد أن نرفع اللغة العامية الى الاستعمال الكتابى وننزل بالضرورى من اللغة المكتوبة الى ميدان التخاطب والتعامل فلا تكون النتيجة إلا أننا نكتب الكتاب مفهوما ، ونتحدث الأحاديث عربية صحيحة بالزمان » (١) •

وأحمد لطفى السيد هو الذى قدم سنة ١٩٤٢ (٢) اقتراحا الى لجنة المعجم وهو أن يعنى المجمع بجمع المصطلحات الفنية التى يستخدمها العمال فى مصانعهم والتجار فى متاجرهم وأسواقهم والزراع فى مزارعهم حتى اذا اجتمعت له طائفة صالحة من هذه المصطلحات نظر فى وضعها فى معجمه بعد صياغتها وفق الأوزان العربية •

ألم أقل إن الأمر بلغ مبلغ الدعوة التى يمكن لها صاحبها فى الحياة وفى الأذهان ؟

---

(١) المنتخبات جـ ٢ ص ١٣٤ .
(٢) الجلسة العاشرة ١٩٤٢/١١/٢٨ .

ان اللفظ العامى متى كان موجودا فى القاموس فانه عربى صريح النسب لا سبيل الى العجمة اليه أو الحكم بها عليه .. إن القاعدة عنده أن الكاتب يكتب لناس يفهمون وكلما زاد وضوحه كثر قراؤه بزيادة من يفهمون عنه وهذا أفضل .

إن ملاك الكتابة « ذوق » ، أما الألفاظ فلا دخل لها فى الموضوع . والذوق انما يعنى الطبع .. الروح .. أسلوب التناول .. فن المعالجة « الطريقة » الطريقة التى تجعل كاتبا خفيف الظل وآخر ثقيلـه وان سلمت الألفاظ أو تفاصحت عند الاثنين .. المسألة ليست مسألة فصاحة و (تفيهق) فإن من الأساليب العامية كما يقول رجلنا الكبير ما هو (فى عرف الفصاحة العربية **أعلى مقاما من كثير من هذه الأسـاليب الكتابيـة التى** نسطرها كل يوم فى الصحف) . بل إنه يذهب الى أبعد من هذا فيقول : (إن هجر الألفاظ العربية لا لذنب آخر غير أنها تكرر كل يوم فى لسان الأمة ، **يعتبر فى عرف الأدب القومى ، بل فى عرف العقل ، تفطرسا غير مغفور**) .

إن الأمر ليس بسيطا كما يبدو .. ليست المسألة ، هجر ألفـاظ وتفضيل أخرى عليها فلو أننا (أجدنا البحث فى نفور أهل العلم من قبول ما كان فصيحا غير مبتذل من الألفاظ العامة ، وما كان رشيقا من أساليبها الكلامية ، لكدنا نجـد فى طيات نفوسهم أن سبب هذا النفور **نوع من الاحتقار اللاتنبهى** ، ذلك لأن العلم فى عمومه ، يحتقر الجهل .. والجهل فى عمومه ، يخاف من العلم غير أننا مع ذلك يجب علينا أن نعتقد أن أهل العلم لو رجعوا الى مبادئهم العالية ، والتفتوا الى هذا الشعور **اللاتنبهى لفزعوا من أنفسهم** ، ولعلموا أن الأمة التى أخرجتهم ، والتى هى يحبونها ، ويسعون الى منفعتها ، أولى ما يكون بها أن تكون موضع احترامهم التام .. ولأدركوا أن إحياء اللغة العربية لا يقتصر على تعليمها فى المدارس ، ولا على طبع الكتب القديمة التى لا تأتى إلا **بفائدة أثرية** ، ولكنه يأتى من ترقية

لغة العامة ، واستعمالها صحيحة فى الكتابة بقدر ما تسمح به لغة القرآن : حتى تردم الهوة السحيقة الموجودة بين اللغتين ..) (١) .

ومن حجج « الأستاذ » التى يرسلها فى السياق (**أن العوام يملكون بالوراثة سر اللغـــة** ، ويصرفون البيان فيها تصريفا حيا مألوفا وكثير من أساليبهم حسن جميل . **وأن اللغة العامية** « وليست لغة العلم ولا لغة الشعر والكتابة » **هى مع ذلك اللغة الحية فى النفوس** واللغة الفصيحة ليس لهـــا أثر فى الصور البيانية إلا عند الذين يعرفونها ويقرؤونها فصيحة كل يوم ، ويحاولون البيان فى كل يوم ، وهم من الأمة أقل من القليل .

ومن عواقب هذا أن علماءنا الذين لا يعرفون العربية الصحيحة قد تقطعت بهم أسباب التأليف بلغتنا ، وعدم وسائل ترجمة العلوم المختلفة من اللغة الأجنبية التى تعلموا العلم بها ..)

وهو يتطرق من هذا الى الترجمة ومسئولية المترجم فيقول فى اصرار .. (**إن المترجم والكاتب فى حل من أن يضع الاسم الافرنجى فى اللغة العربية** عند الضرورة الملحة . **وعليه أن يعتنق الاسم الجديد الذى جرى عليه العرف وصار** أكثر شيوعا من أن يغير ، وأكبر شهرة من أن يهجر ، عليه أن **لا يحاول ايجاد اسما للتلغراف ولا للتليفون ولا للفنوجراف** ومن يحاول ذلك يجب عليه من باب أولى ألا يسمى الورد (وردا) بل يسميه حوجما ، لأن الورد له مسمى فى العربية الأصلية) . ويمضى فى السخرية .. سخرية مشوبة بألم بعيد الأغوار فى مسارب النفس المصرية .. (والله يعلم والناس جميعا أن التلغراف والتليفون والفونوجراف **لم يكن لها أسماء فى البصرة ولا فى** الكوفة ، فهجرنا نحن تلك الأسماء لنأخذ أسماء أعجمية) (٢) .

* * *

---

(١) المنتخبات حـ ٢ ص ١٣٧ .
(٢) المنتخبات حـ ٢ ص ١٤٠ .

مصر التى عرفتها الدنيا متبوعة لا تابعة تبعتها أمم فى الحضـــارة ، وتبعها آخرون فى العقيدة ، ولمحها كثيرون فى الفن والحكمة ، وأخذ عنها متطلعون العلم ، ونهل منها الشادى فى الأدب ، وورد نيلها من شتى أقطار الأرض ، ظماء .

مصر وهذا شأنها مما لا ينكره إلا جاهل بالقيم مغرور ، ولا يجحده إلا كافر بالنعمة حاسد ، مصر هذه يريدها قوم أن تتردد فى الأخذ بكل كلمة من لغة العرب حتى تتبين وجه الرأى عند الأسلاف هل وردت على ألسنتهم أو جاءت فى كتاباتهم ! !

إن للجمل كما يقول رجلنا الكبير أحمد لطفى السيد ، وللأسد والسيف فى العربية (أسماء تعد بالمئات والعشرات لا حاجة بنا **نحن المصريين** منها إلا بما يقضى به البيان العصرى . أما أسماء المشاعر النفسية باعتبارها موضوعا للبحث العلمى ، فهى فى اللغة العربية أقل من حاجتنا ، أسماء الآلات والماكينات الصناعية وأعضائها المختلفة ، **تكاد تكون معدومة عندنا فى معاجم اللغة وكتب السلف** .. لذلك يجب على الكاتب أو المترجم أن ينظر اذا كان لهذه المسميات أسماء قد دخلت فعلا فى اللغة اليومية ، فعليه أخذها ووضعها على الوزن العربى بقدر الامكان ، فإن لم يكن لها أسماء ، وجب عليه أن يبحث فى معاجم اللغة وكتب العلم عنها ، فان لم يجد وضع لها أسماء كما وضعوا اسم (الطيارة) من وظيفتها .. فان كان اسم علم من العلوم مأخوذ من اللاتينية أو اليونانية ، وكان لا يستطاع التعبير عنه بالعربية الا بجملة ، وجب أخذ اسمه كما هو وصقله الصقلة العربية بقدر الممكن وبحيث لا يخفى أصله على القارىء والسامع .

سيقولون هذا المبدأ يدعو الى الفوضى .. وربما كان ذلك) .

وهذا الاعتراض على جوازه لا يزحزحه عن رأيه الذى ارتضاه بل يزيده به تمسكا يشهد به قوله :

(لا بأس بالفوضى اذا كانت ملازمة لحال التطور) (١) .

ويتساءل الرجل الكبير فى دهشة : (ما لنا لا نعتبر لغتنا كالعلم ، نزيد عليها كل جديد بمقدار الحاجة ، وكالفن والصناعة والتجارة ، يزيد مقدارها بزيادة علاقاتنا بالأمم الأخرى .. ما لنا لا نزيد على أسمائها أسماء المخترعات الحديثة فى العلم وفى الفنون والصناعة والتجارة ؟ نحن نعمل ذلك بالفعل .. ولو سألت العامة عن (التلتوار) لعرفوه وأنكروا افريز الطريق وعذاره ، ولكننا يثقل على سمعنا أن نعترف قولا بما نأتيه فعـــلا) (٢) .

ولكن رجل الحريات أحمد لطفى السيد يواجه الأمر بحرية رجـل الفكر ويضع النقط على الحـروف كما يقولون غير هياب ولا متردد . ليست المسألة مسألة لغة فحسب وإنما هى أيضا مسألة **أمـة أخرجتنـا** كما يقول مما سبقت الاشارة اليـه ، أمة نحبهـا ونحترمها حب الحى لذاته .. أمة أولى ما يكون أن تكون موضع احترامنا التام كما أن لغة حياتها اليومية يجب أن تكون موضع احترامنا التام فتفسح **الصفحـات** أمام ألفاظها وتراكيبها مادام اللفظ صريح النسب فى العربية والتركيب مصرى الطابع والروح .. من المحال أن تحتجب شخصية مصر وراء شىء من الأشياء مهما كان هذا الشىء .

* * *

لابد لمصر أن تفرض شخصيتها بطريقة ما . لقد تميزت مصر فى القراءات بقراءة (ورش) ، وتميزت فى الحـديث بالصحيفة المصرية ، وتميزت مصر فى البلاغة بمدرستها ، وتميزت فى البديع بعشرين لونا ، وتميزت فى الأدب شـعره ونثره بسـمات واضحة لا يخطئها الدرس والتطبيـق .

---

(١) المنتخبات حـ ٢ ص ١٣١ .
(٢) المنتخبات حـ ٢ ص ١٣٠ .

بل إن مصر منذ البداية اشتركت فى الأحـداث وهى الجـديدة فى الاسلام فقالت رأيها فى عثمان وذهب وفدها — من دون البلاد الاسلامية — الى مقر الامارة يعلن كلمته ! !

واستقلت مصر بأمرها إلا ظل تبعية اسمية . ولا يغير من الأمر شيئا (أجنبية) الحاكم .. ليكن الحاكم أحمد بن طولون أو الاخشيد أو المعز لدين الله .. انهم جميعا بمصر .. بسند من موقعها وغناها وطاقاتها وثرواتها المعنوية والمادية على السواء حتى كانت مصر تنافس بغداد مقر الخلافة فى أوج عزها .. فغدت تتودد اليها بالمصاهرة والشعر .

لا بل إن مصر استقدمت الخليفة العباسى نفسه فى عهد الظاهر بيبرس **فعاش فيها ، وبها .**

هذه مصر . فهل تنبذ لغة حياتها اليومية بما أضفته عليها من روحها وعذوبتها وأصالتها وشخصيتها الخلاقة الوهوب ؟

رجلنا أحمد لطفى السيد رئيس المجمع اللغوى يقول : لا .

انه يوقن (أن أكبر خدمة نستطيع تقديمها للغتنا هى أن نجعلها **لغة العلم فى مصر ، وأن نحاول توحيد لغة الكتابة ولغة الكلام ..) (١) .**

انه حكم الواقع ..

ويسأل الرجل الكبير من ينكرون هذا الرأى :

(أو يريد أهل العلم أن يضحوا العلم وهو غرض للغـة ، وهى واسطة ؟ أو يفهم فى حق أهل العلم فى مصر ، وفى هذا العصر ، أن يكونوا أكثر غيرة على لغة العرب ... من العرب القرشيين أنفسهم فى أيام الدولة العباسية ؟ وهل يقبل منا أن ننكر مذهب ادخال الألفاظ الأعجمية الضرورية

---

(١) المنتخبات ﺣ ٢ ص ١٣٣ .

الادخال الى لغتنا بعد أن أدخلها الله تعالى فى كتابه العزيز ، الذى هو قرآن عربى مبين ؟؟ !!) (١) .

والمسألة عند لطفى السيد ليست مسألة نظريات انما هو يستمد أحكامه من واقع الحياة ومنطق الواقع .. (لقد دخل فى اللغة العربية فى عهد الحضارة الاسلامية ، أسماء كثيرة وأفعال ليست بالقليلة ، بعضها استعمل ودخل فى اللغة ، وبعضها هجر بالمرة . كذلك دخل فى اللغة الفرنساوية فى جيلنا هذا كلمات كثيرة من اللغة الانجليزية ، قبلها الجمهور والكتاب . ودخل فيها أيضا كلمات كانت تستعملها العامة ولا يستعملها الكتاب ، ولا المجالس الرسمية والشبيهة بالرسمية فلما غلب استعمالها وجرت على ألسن الخواص ، بحكم استفاضتها على ألسن العوام اضطر المجمع اللغوى الفرنساوى أن يقبلها ودونت بعد ذلك فى معاجم اللغة ..

والنتيجة الطبيعية لهذا أن اللغة ملك الأمة . وللكتاب الحرية فى الزيادة عليها بأساليب جديدة ، وألفاظ جديدة ، اذا قبلها الجمهور راجت وأصبحت من لغة الأمة ، فاذا رفضها الجمهور ، بارت ثم بانت) (٢) .

ولطفى السيد حين ناقش القضية من جوانبها كلها وأحاط بأطرافها لم يغفل اعتراضين بعيدين وإن كانا يبدو ان ظاهرى الصلة بالموضوع . **أحدهما :** (أن الاعتراف بما أدخلته الأمة من الألفاظ الأعجمية قد يكون فيه شبه تمصير للغة العربية ، فيتعطل بذلك عامل من عوامل الجامعة الاسلامية **والثانى :** أن ذلك وتصحيح الألفاظ العامية المصرية واستعمالها فى الكتابة معطل للغة العربية الفصحى !) .

أما الاعتراض الأول فيجيب عليه بقوله : (اننا وإن كنا لسنا **من أنصار** هذه الجامعة **المستحيلة** بوصف كونها دينية ، **لاقتناعنا بأن أساس الأعمال السياسية هو الوطنية ، وروابط المنفعة** دون غيرها ، فإننا مع ذلك لا نرى

---

(١) المنتخبات جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٢) المنتخبات جـ ٢ ص ١٤٠ .

الاعتراض وجيها ، ولا من هذه الجهة • لأن القائلين بالجامعة الاسلامية يجب عليهم أن يقبلوا فيها الترك والفرس والهنود والصينيين والجاويين والشراكسة ، وهم لا يعرفون من اللغة العربية شيئا ومجموع عددهم أضعاف مجموع عدد من يتكلمون العربية من المسلمين • فإذا كانت الجامعة الاسلامية وحدة ، وكانت اللغة داخلة فى مشخصات هذه الوحدة ، وعاملا من عواملها وجب أن تكون لغة هذه الوحدة هى لغة الأكثرية والأكثرية غير عربية ، فلا خوف على الجامعة الاسلامية الموهومة ، من إدخال المصطلحات العلمية فى مصر فى جسم اللغة العربية • ذلك ولأننا اذا فرضنا أن اللغة العربية ستكون هى اللغة الرسمية فى هذه الجامعة الاسلامية التى لا أدرى من أى المواد يخلقونها ولا من أى الرقع يلفقون ثوبها ، فإنه يسر هذه الجامعة الاسلامية أن تحيا هذه اللغة حياة جديدة وتكون هى لغة علم الاجتماع وعلم السيكولوجيا ، ولغة الفلاحين فى مصر ، والجمالة فى بلاد العرب جميعا) •

وأنا أرجح ترجيحا يكاد يبلغ مرتبة اليقين أن سر عطف رجلنا الكبير على اللغة العامية هى أنها اللهجة المصرية أو اللغة العربية المصرية •

* * *

وبعد أن لقيته فى كتبه ، لقيته فى بيته •• كان بيده كتابه •• (المنتخبات) قال : اقرئى لى ••

ووجدتنى أقرأ له فى جذل •• إن كلمته فى شيخوخته المهيبة الجليلة الوقور أمر ترغب النفس فيه حين تنفر من أوامر أخرى •

وجدتنى أقرأ وأقرأ واذا بالباب يفتح ثم يسفر عن زائرين •• انهما بهى الدين بركات (باشا) ومصطفى الصادق (باشا) وسلما وجلسا فكنا نحن الأربعة جلوسا حوله متجهين بعيوننا وحديثنا اليه حتى ما كان منه بيننا • قلت :

كيف ترى رسالة المجمع إذن .. هل هى التسجيل ؟

— نعم .. إن المجمع ليست مهمته اختراع لغة جديدة .. قد يقبل (النحت) فى المصطلحات العلمية إلا ما كان منها باسم صاحبها لأن طبيعة بيئتها تعينها على السيرورة .. مدرس وطلبته .. أسماء يعطيها ويحفظونها ولكن رجل الشارع كيف نفرض عليه ألفاظا لا يألفها وهيهات أن يستعملها .

— قلت وما رأيك فى « سيارة » مثلا .. لقد سارت واستعملهـا الناس ..

— ان اللغات القومية لا تستعمل اللفظ المشترك .. ان اللفظ يجب أن يكون له مسمى واحد أما نحن فنقول : العين والعين الجارية ، وعين الأعيان وعين بمعنى جاسوس وهكذا ..

(وسيارة) هذه فى القرآن معناها القافلة .. اشارة الى قوله تعـالى :

(أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) (١) .
، (وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة) (٢) .
، (وجاءت سـيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) (٣) .

— ومع هذا فأنا شخصيا لم أقل سيارة قط ، بل أقول .. العربية .. وهنا أخذ السيد بهى الدين بركات بطرف الحديث :

— نعم .. اللغات القوية لا تستعمل اللفظ المشترك .. إن كلمة (فوا) الفرنسية اذا نطقت تفيد معانى ثلاثة :

---

(١) ٩٦ سورة المائدة .
(٢) ١٠ ك سورة يوسف ١٢ .
(٣) ١٩ ك سورة يوسف ١٢ .

فوا = مرة
فوا = عقيدة
فوا = كبد

ولكنهم فى الكتابة يكتبون كل لفظة تختلف عن الأخرى فلا يلتبس على القارىء معنى ولا تنتابه حيرة .. أما عندنا فلفظة « علم » قد تكون بمعنى :

عِلْم ، وعَلَمٌ ، وعَلِمَ ، وعَلَم ... الخ ..

ان من حقنا التعديل فى اللغة حتى تتواءم مع هذا العصر الطائر ..

* * *

لقد كانت اللغة قديما حروفا مجردة .. وفى دار الكتب كتابات من غير نقط ومن غير شكل .. ثم أدخل الأقدمون عليها النقط ثم فكروا فى الشكل .. لفظة كلفظة حيث مثلا مع عدم النقط يحمل عليها ألوان من المعانى والمفاهيم فهى قد تكون حيث ، خبث ، جنت ، حنت ، جيب ، خيب ، حنث ... الخ ..

وهنا قال لطفى (باشا) كمن يتوقع سؤالا عن التشكيل حلا للمشكلة :

ـ قد تقولون الشكل .. ولكن الشكل صعب .. عالى وواطى فى رأى العين وهو فى الكتابة عسير ويستلزم تحريك القلم كثيرا ثم لا يسلم النطق بعد هذا ، مع وجود الشكل ، من الأخطاء ..

وهنا تذكرت مجلة الموسوعات التى أصدرها رجل الوطنية المصرية محمد فريد عندما استقال من الحكومة .. فقد كتب أحمد لطفى السيد وقتئذ مقالا فى هذه المجلة عن اصلاح الكتابة العربية .. نادى فيه بأن تقرأ العربية كما يقرأ الفرنسيون الفرنسية .. انهم يقرؤن ليفهموا حين نفهم نحن ولابد أن نفهم أو نتفهم لنقرأ وهذا عسير .. فضلا عن أنه يعوق انتشار

اللغة بيننا أنفسنا • إن طفلنا يجمع نفسه ليفهم حتى يستطيع أن يقرأ ولو أنه كان يقرأ متخففا من هذه المهمة لتركز انتباهه كله فى القــراءة وانطلق فيهــا •

***

وأحمد لطفى السيد الأستاذ يرى أن إصلاح الكتابة العربية مرهون بتسكين الحروف •• كل الحروف •• يجب أن تكون ساكنة ولا تتحرك إلا بحروف العلة •• وهو يعجب للكسائى إذ يقول :

الفتحــة = ألف محذوفة

و الكسرة = ياء محذوفة

و الضــمة = واو محذوفة

ويتساءل أحمد لطفى السيد فى حيرة : لِمَ نحذفها ؟ **يجب اثباتها** وهنا قال السيد مصطفى الصادق :

— ولكن هــذا الاثبات يشــغل حجما أكبر وورقا أكثر •• مما يكلفنا — لو فعلنا — أكثر من ثلاثين مليونا من الجنيهات •

وفى سماحة القلب النقى وفى فكاهة الروح الانسانى الصافى قال رجلنا الكبير باسما :

— هذا الكلام لا يقول به الا معاليك واليهود •

إن السنين التى تضيع من أعمارنا فى تعلم القراءة والكتابة والتى يمكن توفيرها بتيسير اللغة ، ألا تساوى هذه الثلاثين مليونا ؟ اننا نضيع من عمر الطفل بضعة أعوام لترقية قراءاته وكان الأحرى أن تنفق فى ترقية عقله • إن نشر المعرفة إنما يكون بنشر صوابها حتى لا يوجد من يقــول سَمو الخديو عن سمو ، أو من يقول : كر ، ومر عن « كرومر » •

***

ودعوة لطفى السيد الى تسكين الحروف اذا تأملناها ، وجدنا أنها ترتبط بدعوته الى التآخى بين العامية والفصحى فإنه عندما تحدث عن العامية فى مصر ، ذكر أن لها مشخصات ثابتة تحددها من جميع الجهات وتجعلها متميزة تميزا تاما ومن أقوى هذه المشخصات ، **أن أواخر الكلمات فيها ساكن دائما** .

اذن التسكين عملية تيسير **والتقــاء معا** ..

ولا يحتج علىّ بأن هذا الرأى قديم (١) فلطفى السيد متمسك بكل كلمة جاءت فى كتبه .. مصرّ عليها .. سمعتها منه أكثر من مرة . إن كل آرائه مبنية على نظرية التطور وهى نظرية تدين بها الحياة النامية دائما .. المتجددة أبدا .. إن **التطور** سنة الأيام فالزمن سائر لا يتوقف .. من استيقظ وجاراه عاشه ولحق به ومن تحداه تخلف هو بينما الزمن يسير .. يســير ..

* * *

حقيقة كبرى عرفها واعتنقها الرجل الكبير .. ان الخطين العريضين فى حياة رجل الفكر أحمد لطفى السيد هما :

ايمان كامل **بالتطــور** ، وايمان مطلق **بالحــرية** وهو بهذا الايمان العالى .. الغالى .. أستاذ الجيل .

* * *

عدته فى مرضه فإذا به يطلب أن يدخلونى حجرته . كان فى سريره مهيبا يروع كما هو فى مكتبه على رأسه وحول رقبته وأكتافه شال حرير أبيض ناصع البياض كالثلوج التى تتوج أعلى القمم ..

---

(١) اقرا المنتخبات حـ ٢ ص ١٤٠ .

كان وجهه يظهر من الشال والتجاعيد تزيده مهابة ووقارا •• رأسه الكبير وعيناه الصغيرتان المتوهجتان لم يخب بريقهما لأنهمـا تستمدان شعلتهما من الذكاء •• ذكاء القلب وذكاء الروح ••

ورجلنا يتمتع بكليهما و •• يتمتع مع الذكاء بالصفاء •• بالاشراق •• باليقظة الواعية ، بالسلام النفسى •• وكلها مجتمعة ومتفرقة تضفى عليه لا بل تسكب عليه نورا فوقه نور •• كان وجهه يظهر من الشال وحوله هالة من هذا كله كأنه « الزمن » ويملؤك هذا الشعور فتندفع الأسئلة على لسانك فى كل شىء أو فى أى شىء المهم أن تسأل لتتزود من التجارب والحكمة والمعرفة • ألست أمام « الزمن » أو على الأقل أمام جزء غنى منه ملىء ؟ ألست أمام أستاذ الجيل جيلنا وجيلين قبلنا وأجيال بعدنا كما أعتقد •• ؟ نعم سل ما بدا لك إنك أمام أحمد لطفى السيد •• الأستاذ •

— ما الذى جذبك الى الفلسفة فقرأت لأرسطو وترجمت عنه كل هذا ؟

وببساطة العظيم المتواضع الذى لا يحتاج الى التعمل ولا يلجأ اليه قـــال :

— مصادفة يا بنيتى •• كثير من الأشياء يأتيه المرء مصادفة حتى ولو تأثر به بعد ذلك •• لم تكن الفلسفة فى تقديرى واتجهت اليهـا ، حين كانت الرياضة لى هدفا ثم لم يتحقق •

ووجدتنى أمام قصة شائقة •• فتهيأت للاستماع ••

— كنت تهوى الرياضة اذن ؟

— حتى هذا تستطيعين نسبته الى المصادفة •• كان صابر باشا وكمال بك (خوجات) فى المهندسخانة •• وكنت أمتحن أمامهما امتحان الشفوى فى البكالوريا فنصحانى بالالتحاق بالمهندسخانة وأغريانى بها ••

ونجحت فى البكالوريا ، واحتشدت لدخول المهندسخانة فيصادف أن تعلن فى ذلك الوقت عن استعدادها لقبـول ساقطى البكالوريا •• فأنفت ورفضت دخولها •• ويصمت قليلا ويقلب كفين نحيلتين ويقول فى صـوت مبتسـم •• غرور شباب ••

— وما الذى دفع المهندسخانة الى مثل هذا العرض ؟

لتجتذب طلابا •• لم تكن المهندسخانة تستهوى جيلنا •• كان قصارى هم التلميذ منا أن ينال البكالوريا ويشتغل والعمل فى هذه المرحلة لا يعنى نقص الطموح ، كلا بل لعله دليل عليه فى أيامنا •• انه مظهر قدرة أن يشق الفتى طريقه بالبكالوريا وينجح ويسهم فى دفع عجلة الحياة ••

ويصمت مرة أخرى صمتا أطول ثم يقـول :

لقدآ غدت المهندسخانة أملا ومطمحا للشباب •• انى أؤمن بالتطور • ان جيلكم أحسن من جيلنا ، أحسن فى كل شىء •• فى التفكير ، فى العلم بل فى الخلق أيضا أقولها على الرغم من نقد ناقديه •• انه التطور • كل شىء فى الدنيا يتطور •• سنة الحياة تأبى التوقف •• ويصمت •• كل شىء يتطور ، اذا استثنينا الأديان ، فطبعها المحافظة •• هيه ، دعيها ولكن ما عداها متجدد دائما •• متطور أبدا •

وابتسمت مؤمنة وأرسطو بعد فى الصورة لما يزل •• فقلت :

— ولكن أرسطو •• ألم يترك عندك انطباعات خاصة ؟ ألم تتأثر به فى ناحية ما ؟

— قطعا تأثرت به •• انى أحفظ عن الشيخ النجار هذا البيت أو هذا القول •• سمه ما تشائين ••

« دا البرابرة يكرموا ذا الفضل منهم ومحمد يندهوله محمدين »

ونضحك من (محمد يندهوله محمدين) فيلتقطها لطفى السيد بلماحيته ويقـول :

— أليست القاعدة النحوية : كثرة المبنى تدل على كثرة المعنى •• كان العرب يبنون الأسماء حسب المعانى فمثلا « شقدف » وضعوها للهودج يحمله جملان فاذا ثقل الجمل بمن فيه من نئومات الضحى ، واستدعى الأمر أربعة جمال سمى الهودج « شقنداف » ••

ويضحك هو هذه المرة ويقول : « يظهر أن الشيخ النجار كان يلمح هذه القاعدة النحوية •• » •

ثم يصل موضوعنا وما انقطع فيقول : احفظ هذا من سبعين سنة خلت لأنه راقنى بالطبع وقتئذ والدليل أنى أذكره ولا أزال ، فكيف لا أتأثر بأرسطو ؟ إن المرء يتأثر بكل شىء يقرؤه درى بهذا أم لم يدر ولكن ليس معنى هذا أنى تأثرت به كاتبا •• لقد كان بيانه صعبا شأن علمائنا القدامى •• أما البيان الناصع فأفلاطون صاحبه •• إن من يقرأ أفلاطون يحس كأنه يقرأ لجان جاك روسو •• ويصمت •• : إن أفلاطون كاتب لا يجارى •• إنه أستاذ أرسطو الذى جلس منه مجلس التلميذ من الأستاذ عشرين عاما •• واليونانيون يقولون إنه من نسل الآلهة •

ولطفى السيد مع هذا انتقد أرسطو عندما كان رئيس تحرير (الجريدة) انتقادا مرا •• إن رجلنا الذى يعشق الحرية ويتعبدها نفر من تبرير أرسطو ، **الرق** • وإن رجلنا رجل الوطنية نقم على أرسطو قوله : ان هناك أمما خلقت للطاعة وأمما خلقت للأمر •• انها الغطرسة اليونانية ! ! ومست هذه الكلمة جروح أحمد لطفى السيد المصرى الذى يعانى من الاحتلال البريطانى ويكافحه فهاجم أرسطو بملء حبه لمصر •• بملء ألمه لاستعمارها •• بملء كبريائه الجريحة •• بملء ابائه المشبوب •• كلمة ألهبت غضب الحليم فنسى أرسطو حين ذكر مصر •

***

وأحمد لطفى السيد الوفى لوطنه ، وفىّ للناس •• للمعانى ••

الذِكر . جاءه (تلميذه) الشيخ طه .. الدكتور طه .. طه باشا كما يقول لطفى السيد فى توال يؤيد التطور الذى يؤمن به ، وفى اعزاز يمازجه فخر .. جاءه طه حسين الطالب بالأزهر على إثر اقصائه عنه وبيده مقال حانق على الشيخ حسونة شيخ الجامع الأزهر .. وطلب الى لطفى السيد رئيس تحرير (الجريدة) نشره فنظر اليه لطفى السيد قائلا :

— ألا تعرف أن الشيخ حسونة (خوجتى) ؟

— لا ..

— اذن اعرف .. اعرف أنى لا أقدر أن أكتب فى الجريدة ضد الشيخ حسونة أبدا .. انه أستاذى خمس سنين .

(وكان الشيخ حسونة أستاذ الشريعة فى مدرسة الحقوق) .

— ولكنك .. رجل الحريات وحرية الكتابة إحداها .

— ألست مسلما ؟ والشافعى يقول : ما من عام إلا وخصص .. والقاعدة خاصة بالشيخ حسونة .

وأشرق وجه الرجل الكبير وهو يقول : انى أحب الشافعى . لقد اختلف الشافعى مع الحنفية فى قضية (الأمر فى القرآن) فالحنفية يقولون « الأمر للوجوب » ويرفض الشافعى فى رحابة أفق هذا الرأى مستندا الى القرآن نفسه فالآية :

« اذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » لا تحتم الانتشار . هب أن أحدهم أراد البقاء وقتا فى المسجد .. كما أن الآية : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، من الفجر) لا يعنى استمرار عملية القضم والخضم حتى مطلع الفجر ..

الشافعى قال : لابد للوجوب من قرينة أخرى غير الصياغة ، والقرينة هى الامكان .

ويصمت لطفى السيد برهة ثم يقول فى صوت عميق (أنا أحب الشافعى — ويردف ضاحكا — وإن كان ضدكم إنما هو معذور) لقد قال النبى « النساء ناقصات عقل ودين .. » .

— أحقا نحن كذلك ؟

— لقد فتحت لكن الجامعة .. يكفى هذا دليلا على ثقتى وحبى .. وتهللت ..

وعاد الأستاذ الى الحديث .. فذهب اليه نفر من الصحابة قائلين :

ناقصات عقل نحن معك ولكن « دين » هذه تحيرنا .. هل من تفسير ، فقال :

— تقعد احداهن فى عقر دارها شطر عمرها لا تصوم ولا تصلى ..

وهنا قال الشافعى : مادام الشطر هو النصف فان مدة الحيض تعتبر خمسة عشر يوما — فى أقصى تقدير بالطبع ..

ويعود الى الشيخ طه الذى يبدو أنه لم يقتنع يومئذ . فمال عليه لطفى السيد وقال له :

— أفصح هل الغرض ذم الشيخ أم الرجوع الى الأزهر ؟

فقال الشيخ طه :

— الرجوع الى الأزهر ..

— اذن التقينا ..

وهنا أمسك لطفى السيد بسماعة (التليفون) وخاطب الشيخ حسونة فى أمر طه ورفيقيه الزيات والزناتى .. فقبل الشيخ رجاءه وعادوا الى الصفوف التى انشعبت عنهم عندما خالفوا الجمهرة فى أمر (الحجاج) .

* * *

ويتمكن لطفى السيد من جلسته وتسبح عيناه النافذتان فأحس أنه يخترق حجبا غير منظورة •• لعل حديث العهد الخالى أغراه فعادت به الى الماضى حنة شوق أثارها حديث (المهندسخانة) والدكتور طه •

ولم يخطىء تقديرى فقد عاد الينا لطفى السيد ، وهو معنا ، من سبحاته ، وابتسم ابتسامة المقبل على رواية نادرة فكهة أو ملحة مستحبة •• وتهيأنا •• وأعطيناه كامل صغونا •• وتهدى الينا الصـوت الهـادىء العميق ••

— كنت أصدر صحيفة (الشرائع) مع نخبة من رفاق صباى •• منهم ثروت واسماعيل صدقى ويضحك العظيم المتواضع وهو يقول :

تصوروا كنا نعلم الناس فيها القانون ونحن مازلنا بعد ، تلاميذ فى مدرسة الحقوق ! ! أرأيتم الادعاء ؟

ولمـا كنا نطبعها فى صحيفة (المحروسة) فقد تصادف أن قابلت يوما عبد الله النديم هناك فلما وقعت عين الرجل علىّ قال لى :

— لى رجاء صحح لى (الأستاذ) لأنى مدعو عند الأباظية والقطار لم يبق على موعده غير نصف ساعة •

وقبلت بالطبع بل سررت بهذا التكليف فهو امارة •• « وصول » •

وقعدت على الفروة •• على الأرض ، بالردنجوت الذى كنت ارتديه تقليدا لطلبة باريس •• وبينما أنا فى جلستى تلك ، منهمكا فى التصحيح اذ بعمدة يخب فى الحرير ، يقتحم المكان وهو يصيح : بشير •• بشير •• فلم يرد عليه أحد ، فاذا بالرجل ينظر الىّ ويصيح فىّ هذه المرة :

— قوم انده بشير ••

— موش فاضى ••

— قوم انده بشير ••

— موش فاضى ••

ويبدو أن العمدة لم يمض على مغادرته القرية غير قليل فهو لم تتعود أذنه بعد ، كلمة « لا » ، ولم يتصور أن يعصى له أحد أمرا •• فنظر الى حانقا وهو يقــول :

— انت صنعتك ايه ؟

بالطبع (صنعتى ايه) حتى أخالفه فلا أحضر له « بشير » مكبلا بالأغلال اذا أمكن ، على كل حال قلت :

— تلميذ بالحقوق ••

— بتعمل ايه ؟

— اصحح « الأستاذ » •

وكنت أتوقع أن ارتفع ولو قليلا فى عين الرجل فتعتدل لهجته وتتراجع نظراته • ولشد ما كانت دهشتى حين سمعته يقول :

— أنت •• أنت تصحح الأستاذ •• ؟

ما ينفعش الا الغلابة اللى زيكو ، انما أولاد الناس الطيبين يروحوا البلد يلاقى الواحد منهم الفرس مستنيه ••

ماذا أقول ؟

الحقيقة انى وقعت فى حيرة عاصفة •• لقد تملكنى شعور بالغيظ والغضب هل أعرف هذا الرجل بأهلى وقومى •• هل أقول له ان عندى فرسا فى البلد ينتظرنى كأولاد الناس الطيبين ؟ وتذكرت فى حيرتى صديقى اسماعيل صدقى الذى وعدنى فى هذا اليوم أن يمر بى ليصحبنى فى نزهة بالجزيرة أو دورة الجزيرة كما كان يسميها •

— يارب اسماعيل ييجى بعربية أبوه علشان أثبت للرجـل انى ابن ناس ..

ويضحك لطفى السيد وهو يقول : ولكن اسماعيل تأخر وانصرف العمدة وضاعت الفرصة .

نسيت أذكر لكم أن العمدة اللبيب انما جاء ليطبع « كرت فزيت » .

❋ ❋ ❋

وانتقل الحديث من موضوع الى موضوع فلما بلغ قدماء المصريين حلق وشمخ :

كم كانت فرحتى عندما نصب المسئولون تمثال رمسيس فى ميدان المحطة .. انه ليس تمثالا فحسب .. انه جزء من مصر .

ثم التفت الىّ وقال :

« أليس كذلك يا ابنتى ؟ .

— نعم انه كذلك .. ان مصر لا تتجزأ فى عيوننا ، فى ضميرنا .. فى قلوبنا . ان مصر فى احساسى هى مصر الفرعونية ومصر القبطية ومصر الاسلامية ومصر الحاضرة على السواء .. لا نستطيع أن نتخلى عن يوم واحد من أيامها .. عن لمحة واحدة من تاريخها .

وتهلل الرجل الكبير وأشرق وجهه بنور غامر وهو يهتف :

— أنت مصرية .. مصرية أصيلة .. ما أهنأ قلبى بجيلكم .. كان قومنا فى وقت من الأوقات لا يذكرون الفراعنة الا فى مجال الفخر .. كل وظيفة الجدود فى نظرهم تغذية العزة القومية فحسب .. حين يقتضى انحدارنا منهم ، الشعور بهم شعورا مستغرقا يملأ علينا جوانب نفوسنا ونعمق له نحن فيها .. شعور الحى بذاته .. شـعور المصرى بمقومات وجوده .. شعور الوطنى بأعراق ماضيه .

كان لطفى السيد يترسل فى حديثه العذب وأنا أسمع بحواسى كلها .. كل شىء فىّ غدا مرهفا لينهل منه دون أن يفوته عبارة .. كلمة .. حرف .

واذ لمح زوجى استغراقى ، نبهنى الى راحة الرجل الذى نكبره والذى نؤثره . فانتزعت نفسى عن متعة تستهويها وتستبقيها لولا حرصى على راحته وإن كان بنا حفيا .. وما كنت أدرى أنه اللقاء الأخير بأستاذ الجيـــــل .

* * *

عباس محمود العقاد

عصره — بيته — مولده — أبواه — أسوان — طفولته — المرض — مقومات شخصيته (فرديته — عصاميته — ارتفاعه على التقليد) — حرية الشيوعية — ثورته على الشعر العربى التقليدى — مقاييسه الفنية — العبقريات واحترامه للانسان — العقاد وديوان الأوقاف — ساعات بين الكتب — الانسان الثانى — مجمع الأحياء — نفوره من الوظائف — تحديه للاستعمار — تاريخه معه — تاريخه فى الصحافة — تاريخه فى التدريس — تاريخه السـياسى — حرية الملكية — سجنه — رفضه المناصب — اللغات الملكية — سجنه — رفضه المناصب — اللغات التى علمها نفسه — أسلوبه — تعدد جوانبه ومواهبه — العقاد شاعرا — الدكتور طه حسين يقول (لا أؤمن فى هذا العصر الحديث بشاعر عربى كما أؤمن بالعقاد) — لازماته فى الكتابة — العقاد والمرأة — ظاهرة النور فى أدبه .

لقد رأى العقاد عظمة شكسبير أعجوبة خارقة ورآه كاتب الأعاجيب وان لم يكن فى سيرته خبر غريب • ولكن العقاد أعجوبة خارقة فى سيرته وفى أعماله على السواء • فقد ولد شكسبير فى عصر يعين على نماء البذرة الكامنة فى صاحب الموهبة وازدهارها • كان عصر شكسبير فى انجلترا عصر الفن والمسرح والغناء ولكن العقاد ولد فى عصر تكتنفه فى مصر ، الظلمات من كل ناحية • ففى السياسة احتلال يكبل الحريات ، وفى الأدب عفن يجمد الأقلام ، وفى المجتمع ركود فى كل شىء تختنق فيه العبقرية إلا إذا ظاهرتها من نفس صاحبها إرادة ماردة تتحدى وتتخطى وتستعلى على الأحداث ، والناس ، واليأس ، والجحود ، كما فعل العقاد •

* * *

منيت مصر بالاحتلال سنة ١٨٨٢ وولد عباس محمود العقاد فى ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩ • وكأن مصر بعد الغاشية ولدت من جديد • فإن وليد أسوان كان حدثا ضخما فى حياتها هز فيها كل شىء : الأدب والسياسة والوزارات والأحزاب والملك نفسه •

واذا كان زمن المولد لا ينبىء بمستقبل الوليد فإن مكان المولد ببيئته الخاصة والعامة يصلح ركيزة للشخصية الفريدة الواعدة •• ركيزة فحسب تمده بالعرق أو بالفطرة أو بالعوامل المساعدة بما يعينه على قطع الطريق الملىء بالجلاميد الى أعلى القمم فى تاريخ الفكر المصرى والأدب المصرى والخلق المصرى والشخصية المصرية بكل ما يدخل فى مضمون هـذه الكلمة من وراثات التاريخ وصفات الانسـان على هـذه البقعة من الدنيا ذات الأسرار •

ولد العقاد فى بيت عرف صاحباه بحب العزلة وطول الصمت والتقى • فقد كانت أمه من أسرة تنتسب نفسها الى النبى صلى الله عليه وسلم • وسواء أصحت هذه النسبة أم لم تصح فإنها تضفى على القائلين بها جوا خاصا يليق بها • وهذه السيدة التى ولدت لمصر موسوعتها الحية كانت

لا تعرف القراءة والكتابة إلا أنها **بالغة الذكاء** خاصة فى المسائل الرياضية : **حازمــة** حتى لقد كان الأهل يطلقون عليها « المشدة » وهو مقدم الفعله الذى يسوقهم بالقوة الى العمل ، **دءوب**، ولوع بالنظافة ، حريصة عليها ، وعن هذه الأم أخذ العقاد الجانب الذهنى كما أخذ ملامح الوجه .

أما والده فقد كان على رزانة فيه ، يؤدى عمله بلا إفراط ذكاء . كان أمين المحفوظات بأسوان . وكانت فى عهدته مستندات أملاك مديريتى اسنا وأسوان اللتين هجرهما أهلهما أثناء حرب الدراويش مخلفين وراءهم أموالهم ثم عادوا . فكان الحصول على سند ملكية يهون لدى صاحبه فى سبيله أى ثمن ومع هذا تعفف الرجل فلم يستغل وظيفته ، ومثل هذه الظروف محك الأخلاق الرجـــال .

وبهذه الصفات المميزة استطاعت هذه الشجرة المباركة أن تمكن لنفسها فى وادينا العجيب الخصب فثبت أصلها فى الأرض وبلغ فرعها الســـماء بما غذيه من مواهب العقل والقلب وصفات الاصرار والصبر ، وسمات التعفف والترفع والاباء حتى اجتمع له من صفاته النوابغ شعور بالمناعة يبلغ حد العجب أو الخيال .

* * *

ونشأ العقاد فى **مدينة** يلتقى فيها الماضى السحيق بالحاضر . ففى أسوان خاصة فى الشتاء تلتقى أحدث صور الحضارة الحديثة بآثار الماضى العريق لا فى المتاحف وحدها بل فى البيوت فالحياة هى الحياة والوسائل هى الوسائل كأن كل شىء ثابت فى مكانه لم يتحرك إلا الزمن .

وفى ملتقى الحياتين شب العقاد . فتح عينه الطفلة على الفتـــــاة الباريسية والليدى الانجليزية ثم المرأة الأسوانية المحجبة حتى ليعز على المرء أن يعرف أمه فى الطريق . وهو وإن لم يعط هذا النقيض أهمية فى

طفولته إلا أنه قد لمسه فى سن الوعى وملأ عليه احساسه • فقد منحه بسطة فى الأفق كما أعطاه قابلية الاحساس بسعة الحياة • وطبعه على الاستعداد للتقابل وعدم الاحساس بالتنافر •

ومرة أخرى تظهر مدينة أسوان فى الصورة التى تراها وتقرؤها وتلمسها عيوننا اليوم • فلما كانت مدينة سياحية بل مشتى عالميا فقد غصت بالمكتبات لمنفعة السائحين وهى بالطبع عامرة بكتب الآثار والتاريخ والقصص والمجلات • فكان العقاد يتردد عليها ويعب منها ما وسعته الطاقة والرغبة • وكان ذا نفس طلعه يندس بين السائحين ويتحدث اليهم ليمرن على الكلام بالانجليزية • وقد مكن له من طلبته أيضا المجالس المختلطة التى كان يدعى اليها • فقد كان بعض الأجانب ممن يزورون معالم المدينة يدعون ناظر المدرسة والطلبة المتقدمين فتسنى للعقاد فى حداثته أن يجالس صفوة الأجانب رجالا ونساء • ولاشك أن الأمر هاله بادىء ذى بدء ولكنه واجه الموقف واستفاد منه •

يقول العقاد عن أسوان فى مذكراته :

« كانت البلدة التى نشأت فيها بلدتى أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشىء فى مثل سنى أن يأوى الى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر فى كل ما يسمع أو يبصر من الشئون العامة ، بغير تضليل أو تهويل •• وتهب الزوبعة القوميـة فلا تفاجئنا فى وسـط غبارها لتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منها رويدا رويدا فلا تصل الينا حتى تنكشف على جلاء » ••

يضاف الى هذا كما يقول العقاد حالتان طارئتان على أسوان ــ فى ذلك الحين ــ لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة • هما حملة السودان وبنـاء الخـزان •

ففى أثناء حملة السودان كان الحاكم العسكرى ومحافظ المدينـة

وقاضى المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح طائفة من الانجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية • وكان كل بيت فيه « ولد من أولاد المدارس » مرجعا نافعا لقراءة الأوراق الرسمية أو ترجمة العرائض الى « الحكام » على حسب الاجتهاد • وكان « نصف الفرنك » نفحة سخية يحصل عليها « الولد » المترجم الذى يستطيع أن يخط فى الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعانى مفهوم بالاشارة أو التخمين • فأما « الولد » الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد فى معاملته الى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرابة أو الجوار •

أما بناء الخزان فقد جلب الى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرأون الصحف الافرنجية طوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع الى النظر فى هذه الصحف وفى صحف السائحين ، فلا يفوتنا « مع تتابع النظر » أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها ، وأن نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح •• » •

« آخر ساعة العدد ١١٩٣ — ٤/٩/٥٧ »

* * *

نستطيع أن نقول فى العقاد ما قاله فى كتابه عن برناردشو من أن نشأته فى أسوان (ونشأته فى أسرته ، ونشأته من أبويه ، ونشأته فى جيله السياسى ، ونشأته فى جيله الثقافى — كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر حياته ، أو عنصر من عناصر استعداده وعمله فى حياته الفنية والثقافية) • هذا الفتى الذى صنعته أسوان على عينها رفض طفلا أن يلبس البنطلون القصير كما رفض وهو فى السابعة من عمره تلميذا صغيرا أن يدعوه المعلم باسم « عباس حلمى » كما جرت عادة أهل ذلك العهد الذى كان الطفل فيه لا يذكر اسم أبيه بل يطلق عليه أحد الأسماء التقليدية

حلمى—صبرى—لطفى — شكرى (على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه فى الأسماع) •

وهكذا عرف الطفل فى العقاد • الرفض ، مبكرا • عرف الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالذاتية هذه الصفات التى رسمت طريق حياته •• وحياتنا بالتطلع اليه والاستمداد منه والتأسى به •• بل لعل موقف طفولته البطولى بالنسبة الى سن السابعة وبالنسبة الى الشائع بين لداته مما لم يجز عليه ولم يقبله يفسر قوله عن نفسه صادقا فى (سارة) (أنه مطبوع على أن لا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى انسان من النساء أو من الرجال) • وهو جبروت لم يتخل عنه حتى فى السجن ، عالم السدود والقيود ! • دخل العقاد السجن فجعلت نفسه المماردة — وهو ما لم يسمع به من سجناء • (العالم الخارجى جزء لاحقا بالسجن مضافا اليه) ويرى العقاد تلك الشيمة فى النفس — الانسانية • والحقيقة أن (الشيمة) لا يقدر عليها الا نفس العقاد •• هى وحدها التى تستطيع أن (تنقل مركز الكون كله الى حيث تكون) •

* * *

وفى مطلع حياته كان يقرأ كرفاق صباه صحف عبد الله النديم ولكن على طريقته هو (ولفتتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ووجدتنى ذات يوم أقطع الورق قطعا على قدر المجلة وأعمد الى مكان العنوان منها فأكتبه متأنقا وأعارض عنوان « الأستاذ » بعنوان « التلميذ ») هنا تطل شخصيته •• تطل الذات لتأخذ (موقفا) فى موقف يغلب فيه التسليم والاتباع •

(أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضا من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التى تردد صداها زمنا فى البيئات المصرية ، وهى المقالة التى جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثانى والعشرين من السنة الأولى •

فكتبت مقالى الافتتاحى وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم ») •

ومرة أخرى تطل **الذات** العقادية الشموس فيستشرف الى أبعد من هذا الى اللامحدود ولا يرى نفسه تلميذا فى مدرسة النديم ولا يشعر بأن (الرجل قدوته المختـــارة بين أمثـــلة النبـــوغ التى يتمناها أو بين « الشخصيات » المثالية التى يجلها ويحب أن ينتمى اليها) • على أن الرجلين يلتقيان فى أكثر من وجه شبه فكلاهما تعلم صناعة التلغراف ، وكلاهما اشتغل بالتعليم فى مدرسة خيرية وكلاهما طورد من البوليس وتنكر مستخفيا •

ولكن الأمر لا يعدو وجوه الشبه التى تصنعها المصادفات أو مقارنات الكتاب فى معرض التأريخ وكتابة السير • فان العقاد يمتـــد **امتناعـــه** على الاقتداء فينسحب على غير النديم حتى ممن يفوقونه فليس بين العظماء السابقين واحدا اتخذ منه العقاد مثله الأعلى على اعجاب بهم وتقدير•وان تأثر التأثر الذى يفرضه،ولو بدون وعى،الاعجاب والتقدير، خاصة ، فى مطلع حياته حين كان يحتفى بقـــراءة كارليل ، وماكولى ، وهازلت ، ولى هنت ، وأرنولد وغيرهم من أئمـــة المقـــالة فى القـــرن التاسع عشر •• وترك هؤلاء انطباعاتهم عليه فترجم عنهم حينا وترسم نهجهم حينا آخر فيما كتبه عن أدباء العرب والفرس ومســائل النقـــد والتعليق •

واذا كان العقاد لا يطيب له أن يكون هناك أشخاص فى حياته يجرى ذكرهم فى قلمه أو يعرض حديثهم على لسانه فلعلها من الموافقة التى تلتقى فى الهوى على غير خلاف أن نذكر فى باب المؤثرات شيئا يحسب له لا شخصا يحسب عليه عند الرجحان • والشىء الذى كان له فى حياته مكان أو أثر هو المرض الذى ألم به فى فجر شبابه وان لم يذكره العقاد بل لعله يخصه باغفال ، — ومع هذا يرى له كاتب كالأستاذ محمود تيمور (الأثر الأعظم

فى تكوين حياته وابراز طابعه) — فقد اضطره المرض أن يحيا حيـاة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية كى تشبع نهمها الى القراءة والدرس فى ذلك المعزل •

وكان من أثر الاحتجاز فى صومعة القراءة والدرس أن تمكنت فى خصائص (العقاد) ملكة التأمل فى الحقائق ، والتعمق فى الأفكار ، فاكتست فصوله تلك الصبغة ، من أسلوب رصين وتفكير دقيق ، واحاطة شاملة •

وهذا المرض كان من أثره أن استقر فى قلب (العقاد) حب الحياة والتشبث بها والكفاح فى سبيلها ، فانه لمـا واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقا بالحياة ورغبة فى التمتع بأطايبها ، فكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم فلم يجمع العقاد مالا ولم يدخره بل أنفقه على فكره وعلى نفسـه وعلى من يلوذ بحماه • وكان من عقبى ذلك الظفر أنه أورثه زهوا وعزة ، وثقة بالنفس ورهافة شعور بالكرامة ، وأزكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والاصرار • فتجلى فى حياته وفى انتاجه هذا اللون من القوة والصراع وصلابة القناة فكان بصفاته الفريدة حدثا ضخما فى حياته وفى حياتنا • كان العقاد يذهب الى رئيس الحكومة ومجلس الوزراء منعقد فيخرج من الاجتماع للقائه فى موعده لأنه يعرف خطر موعد العقاد •

كان دقيق التفكير •• دقيق النظام •• دقيق الموعد •• دعاه نائب قنا ثم تأخر عن استقباله بالمحطة فلم يغادرها العقاد انتظارا للقطار العائد وعبثا حاول الرجل استرضاءه • فلما أعيته الحيل نقل سرادق الاحتفـال الى المحطة حيث هو •

* * *

وتقديسه للذاتية هو الذى جعله يرفض تعريف ابن خلكان لشاعره الأثير ابن الرومى مع ما فى ظاهر هذا التعريف من مدح بالغ فى رأى كل عين الا عين العقاد ، (فالنظم العجيب والتوليد الغريب والغوص على المعـانى

النادرة واستخراجها من مكانها وإبرازها فى أحسن صـورة واسـتيفاء المعنى حتى لا يبقى فيه بقية) كل هذا مما يبهر القـارىء ، يراه العقاد ناقصاً بل الناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه كما يقول • فالغوص على المعانى الخ •• لهو ولعب فارغ كلعب الحواة والمشعوذين إن لـم يكن صاحبه صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير • **إن المزية الكبرى للشاعر إنما هو الطبيعة الفنية** (هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ومن الثروة أو الفاقة ومن الألفة أو الشذوذ • وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم • وأن يكون موضوع حياته هـو موضـوع شـعره وموضوع شـعره هـو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة « باطنية » لنفسه يخفى فيها ذكـر الأماكن والأزمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منـه حيـاة الإنسـان) •

والشعر الجيد يساوى عنده الطبيعة الفنية (أما المعانى والتوليدات فهى وسائل إلى غاية لا قيمة لها إلا فيما تؤديه وتنتهى إليه • ويستوى بعد ذلك من أدى إليك سريرة نفسه بتوليد وإغـراب ، ومن أداها إليك بكلام لا إغراب فيه ولا توليد) •

فالشعر من الشاعر (**هو إهابة الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه** وليس لباسا للزينة فى مواسم الأيام ولا لباساً يلبسه للابتذال فى عامـة الأيام) •

حتى الصحافة لم تستطع أن تجنى عليه جنايتها عـلى الأدباء فظل أسلوبه له طابعه الذى لا يتغير طابع الدراسة والاستقصاء والتمحيص• وهذا صدى لفرديته واعتزازه بذاته حتى لتغلب شخصيته فلا تطغى عليها شخصية أخـرى فردية أو معنوية •• إن الصحافة تغلب بالكثرة وهـو معتكف متعـال متفـرد •

ومما يتصل بصفة « الذاتية » عند العقـاد ، **إيمانه بالإنسـان** • فالعقاد الكاتب السياسى الذى هز الوزارات والعروش كان لا يرى رأى من يبررون القتل السياسى وكان يأخذ على الشيخ جمال الدين الأفغانى أنه أوعز بقتل الشاه •• روى لى مرة أنه شاهد فيلما يقضم فيه Atilla زور عدوه فتقزز من المنظر حتى لم ينم ليلته فلما وقعت حادثة دنشواى هزته هزاً عنيفاً تضاءلت معه بشاعة هذا الحـادث حتى خيل إليـه أن انجلترا لو تجسمت لقضم زورها كما فعل Atilla تماماً • لقد كـان وقت الحادث فى أسوان حين طلعت عليهم اللواء بهذا العنوان (يا دافع البلاء) • والتفوا حول الجريدة أربعة يقرأون فأغمى على أحدهم وانخرط الباقون فى البكاء • لقد سمعته يقول **أن دنشواى أصابته بصدمة لم تتكرر فى حياته** • ومع أنها حادثة فردية وهناك من الحوادث القومية ما هـو أضخم منها ، ولكنها من الناحية الإنسـانية كانت تثيره وتفزعه وكـان يتناولها بمنطقه المعهود وعقله الثاقب فيرى أن الاعتزاز بالقوة إلى حـد استباحة كل شىء ، يجرح كرامة الإنسان [1] • وكـان العقاد مؤمنـا بالإنسان إيمانا يبلغ حد التطـرف والمغـالاة من حفاظ عـلى الكرامـة والشخصية جعله يغضب من التلويح البعيد غضبة إنسان آخر مما يجرح أو يسوء • **وكان تقديس العقاد للإنسان** وتقديسه للفرد وتقديسه للذاتية وراء الـكثير من آرائه وكتاباته بل لعله مفتاح أشـياء كثيرة عنـده : **فتمجيده الديمقراطية** التى تكفل حرية الفرد وأهـم ما فيها عنـده (أن يشعر **كل فرد وكل فريق** بأنه صاحب رأى فى حكومة بلاده وبغير ذلـك لا تتحقق له مزية) فالديمقراطية بلغته الحاسمة الحتمية (إما أن تكون ثقة شعبية أو لا تكون شيئاً) وحيثيات هذا الحكم العقادى يفصله تفصيلا كتابه (الحكم المطلق فى القرن العشرين) •

---

(١) ومع هذا كله لم يهزه جلاء الانجليز ليقينه منه . لقد كان فى لجنـة الدفاع سنة ١٩٤٨ واثارت اللجنة موضوع بناء الثكنات للجيش المصرى فعارض العقاد الفكرة وكانت حجته الناطقة أن ثكنات العدو ستخلو قريبا .

وحربه الشيوعية إذ يستحق كما يقول فى كتابه (أفيون الشعوب) أن يسمى مذهبا هداماً كل مذهب يقضى على جهود الإنسانية فى تاريخهـا القديم والحديث ولا سيما الجهود التى بذلها **الإنسان** للارتفاع بنفسه من الإباحة الحيوانية إلى مرتبة المخلوق الذى يعرف **حرية الفكر وحرية الضـــــــمير** •

ثم ثورته على الشعر العربى التقليدى ومعظمه مدح بل إغراق فى المديح والتبعية يمسخ شخصية الشاعر ويذيبها فى شـــخص ممدوحه ، وهدر القيم الفنية أثناء هذا لأن الفن عند هؤلاء وسيلة لا غاية •

وتقديره **(العبقريات) أى التفرد أى الامتياز الخاص ومقاييســه الفنية** • بل إن الإسلام نفسه لم يأت تفضيله له كما ذكرت إلا باعتباره العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً وعاملا لروحه أو عاملا لجسده وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ، ومسالما أو محاربا ، ومعطيا حق نفسه أو معطيا حق حاكمه وحكومته أى أن شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية مما فصله فى كتابه (الإســلام فى القرن العشرين) هو المزية الخاصة فى العقيدة الإسلامية وهو المزية التى توحى **إلى الإنسان أنه (كل) شامل** فيستريح من فصام العقائد التى تشــطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق •

والقرآن كتاب الإسلام من مزاياه الواضــحة الجـديرة بالاعتبار مزية (التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف) والتفكير فريضة إسلامية أى **الذاتية أى احترام الإنسان** •

(وحين يكون العمــل بالعقل أمــرا من أوامر الخالق **يمتنــع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله** ، أو خوفا منه ولو كان هــذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال) [1] •

---

(١) كتاب التفكير فريضة اسلامية .

كل هذه الخطوط الكبيرة فى شخصية العملاق الذى خلد إلى أسوان، وخلد فيها تنبع من حقيقة كبرى تملأ عليه نفسه ، وهى تقديس الانسان.

* * *

وعقيـدة احترام الانســان ، اقترنت فى رأيه وضـميره بالكرامة الشخصية فزهدته بل نفرته من الوظائف الحـكومية التى تولاها والتى كان سرعان ما يضيق بها . فحين عيّن بالقســم المالى بادىء الأمــر فى مديرية الشرقية فكر فى الاستقالة لينشىء صحيفة اختار لها اسم « رجع الصدى » ثم عــــدل عنها .

وفى الفترة ما بين ١٩١٢ ، ١٩١٤ التى عمل فيها بديوان الأوقاف لم يكن راضيا كل الرضا مع أن عمله فى قلم السكرتارية من ذلك الديوان كان مزيجا من الصـحافة والوظيفة . وكـان (ديوان الأوقاف فى تلك الحقبة مجمع الأدباء والشعراء من شيوخ وشـبان . كان فيـه محمد المويلحى وأحمد الأزهرى صاحب مجلة الأزهر وأحمد الكاشف وعبـد الحليم المصرى وعبد العزيز البشرى وحسين الجمل واخوان هذا الطراز) ومع هذا ما إن فاتح حافظ عوض ، العقـاد ، فى الاشراف على صـفحة الأدب بصحيفة المؤيد حتى سارع الى القبـول . على أنه لم يلبث أن استقال لسمة من سمات الكرامة فى نظره وتقديره وكانت استقالة رابحة فقد خلا بعدها الى القراءة والتأليف .

ويصف العقاد هذه الفترة بأنها كانت موسما خصبا حقا بثمـرات التـأليف (لأ ننى انتهيت من كتاب : « ســاعات بين الكتب » فى نحـو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل فى أهم مذاهب الفكر الحديث . وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشــه السوبرمان . وهـذا الكتاب الذى ظهر بعد ذلك باسمه وأعيد طبعه مرات ، لأن « ساعات بين

الكتب » التى كتبتها فى أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو ستين صفحة .

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة سميته « الانسان الثانى» ولم يبق منه كذلك غير صفحات .

وأتممت رسالتى « مجمع الأحياء » تلخيصا للآراء فى فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ، وهو الكتاب الوحيد الذى تم ونشرته تماما بعد تأليفه بفترة وجيزة .

ونظمت فى هذا الموسم الأسوانى أكثر من نصف قصائد الجزء الأول من الديوان ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لأنها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها فى نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول) [1] .

ولعل كرهه للوظائف وعدم استعداده الطبيعى أو الخلقى لها هو الذى أقنعه بعدم التأهيل لها بمؤهلاتها التقليدية من شهادات كانت فى زمانه ، خاصة لا تقصد فى الأعم الأغلب الا لما تهيئه لصاحبها من وظيفة تنسبه الى الميرى وتحسبه عليه . فاكتفى العقاد من مدرسة الدولة بالشهادة الابتدائية حين لم يقنع من مدرسة الحياة بما هو أكبر بكثير . فظل حياته طالبا فى تلك المدرسة وأستاذا بها يتعلم عليه فيها حملة الإجازات بمختلف مراتبها وألقابها .

***

وهذا القلم الذى استقر نصف قرن بين أصابع العقاد فى ثبات واعتداد كان له درعا وكان له سلاحا فحين نشبت الحرب العالمية الأولى ومست أسوان بالتجنيد الاجبارى والاعتقال المتكرر والاتاوات لتعلات

---

(١) العدد ١٢٠٥ من آخر ساعة ٢٣/١٠/٥٧ .

ملفقة ، شهر العقاد سلاحه الخاص : القلم . فكتب ونشر فى تحدٍ ظاهر هو سمة من سمات العقاد حتى أن السلطات عندما نفت ناظر مدرسة المواساة إلى جزيرة مالطة تعمد أن يشغل مكانه (تحديا للأمر) كما يقول.

ويبدو أن التحدى أفاده هذه المرة فإن مدير الإقليم حين ضاق به تعذر عليه نفيه إشفاقا أن يقال أنهم يضطهدون المدرسة الإسلامية الوحيدة فى البلدة وإن احتال للأمر فصدمه بمفتش الداخلية الإنجليزى حتى اضطر العقاد أن يرحل من أسوان متنكراً . ولكنه لم يكف عن حربهما حتى أودى بهما فى النهاية . فإنه لم يكد يطأ أرض القاهرة حتى لاذ (بجعفر والى باشا) وكان صديقاً . وكان فى ذات الوقت وكيلا للداخلية فكان يصطحبه كل يوم إلى مكتب المستشار ليشهده على كذب التقارير ضده التى تفد كل يوم من أسوان منذرة بخطر وجوده فى الإقليم ، مما أدى إلى إحالة المدير إلى المعاش قبل موعد الحركة الإدارية فخرج من أسوان ولحق به المفتش . ومن الطريف أن المدير الذى خلفه كان يدعى « مقبل باشا » . فأبرق العقاد إلى أصدقائه فى أسوان يقول :

شر مدبر وخير مقبل

* * *

وحين كان العقاد يعمل فى وظيفة بمصلحة الإيرادات بقنا — وهى مركز أدبى قديم — أنشأ مع أهل الأدب بها — جمعية أدبية كانت تجتمع يوم الخميس من كل أسبوع فى مبنى الكنيسة باتفاق مع قسيسها البروتستنتى .

ثم خلف الصعيد وسافر إلى القاهرة وعمل بالكتابة والصحافة .

وتاريخ العقاد فى الصحافة يبدأ بصحيفة « الدستور » التى أصدرها الأستاذ « محمد فريد وجدى » منذ نصف قرن . فقد كانت أول صحيفة يومية عمل فى تحريرها وأول صحيفة أيضا واظب عليها . فقد عمل بها من العدد الأول إلى العدد الأخير مضطلعاً بنصف أعباء التحرير والترجمة

والتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار • فقد كان هو المحور الوحيد مع صـــــاحبها •

وقد كان العقاد يوقع مقـالاته الأولى باللقب وبالحـرفين الأولين من اســـمه :

« ع • م العقاد » متأثراً بالمجلات الأجنبية التى كان يقرؤها • ومن الطريف أن هذا لفت إليه النكتة المصرية فكان رفقاؤه يسمونه « عـم العقاد » ويتفكهون « ماذا تقول يا عمنا » •• الخ ••

ولكنه فى سنى الحرب انصرف أكثر وقته إلى التدريس • ولـكن علاقته بالصحافة لم تنته وان كانت قليلة متقطعة على تعدادها وتنوعها • فقد اتصل بألوان من الكتابة الصحفية أتاحت له الوقوف على طرف من أسرارها وخباياها • وفى هذه الفترة كتب إلى المجلات الشهرية والصحف الأسبوعية كما اشتغل بالصحافة اليومية فى غير القاهرة •

وقد عمل العقاد رقيبا نزولا على رغبة « جعفر والى باشا » وكيل الداخلية • ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالرقيب العام مستر « هور تيلور » فى ذلك الوقت فألقى اليه باستقالته ولما يمض عليه غير أسبوع •

* * *

ثم اشتغل بالتدريس فى مدرسة وادى النيل الثانوية على مقـربة من مكتبة المقتطف والمقطم حيث كان يكتب فى فلسـفة المعرى وفلسـفة شوبنهور مقارنا بينهما • وقد استدعاه ذات يوم الدكتور يعقوب صروف واقترح عليه الرحلة إلى الخطوط الأمامية فى صحراء سيناء ليصفها بثـا للطمأنينة فى النفوس • ولكن العقـاد رفض لأن الدفاع فى ذلك الوقت كانت تقوم به دولة الحماية وهو يناوئهـــا •

ثم انقطعت به الأسباب حينا قبيل انتهـاء الحرب العالميـة الأولى

فآوى الى بيته الذى اختاره بحى الإمام الشافعى متعمدا ليكون بعيدا عن القاهرة بتكاليفها ، فلم يكن يفد عليها إلا مرة فى الاسبوع هى : يوم السبت • وفى إحدى هذه الزيارات علم أنه مطلوب للتحرير فى صحيفة « الأهالى » بالاسكندرية •

وكانت « الأهالى » إحدى ثلاث جرائد كانت شبيهة بالرسمية • فقد عمل على إنشائها « محمد سعيد باشا » رئيس الوزارة فى ذلك الحين لتكون لسان حاله • ومن الطريف أن اسمها هو الاسم نفسه الذى كان إسماعيل أباظه باشا يصدر به صحيفته • وقد وقع الاختيار على هذا الاسم بذاته (لأن اسم « الأهالى » يقابل اسم « الشعب » واسم « الأمة » مصبوغا بالصبغة التى تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة كما يقول العقاد •

ولما شرعت صحيفة (الأهالى) فى مهاجمة الرأى السياسى الذى كان يتشيع له العقاد ، تركها وعمل بجريدة الأهرام حيث كان يدافع بقلمه عن القضية المصرية • وقد حدث عندما أعلن ملنر بلاغه أن ترجمته الحكومة فى بلاغها الرسمى (أن الغرض من التحقيق اعطاء الاستقلال « تحت أنظمة دستورية ») وشايعتها الصحف بايعاز منها ما عدا الأهرام فقد رأى العقاد هذه الترجمة مدلسة وانفرد بترجمتها « تحت أنظمة حكم ذاتى » • حدث هذا فى ظل الأحكام العرفية • وكان هذا النزوع إلى اشهار الحقيقة والبر بها ، أحد الأسباب التى عرضته للنفى يوما •

* * *

كما حارب العقاد الملكية فى مصر بلا هوادة من أجل الدستور وإرساء قواعد الحياة النيابية • فقد حدث أن سلم عبد الخالق ثروت الدستور للسراى حيث ظل بلا إعلان لأن الملك فؤاد كان يريد أن يسقط من الدستور عبارتين أولهما (الأمة مصدر السلطات) ، والأخرى (الوزارة مسئولة أمام البرلمان) • وفى سبيل هذه الغاية حاول إستمالة بعض

الوفديين فإذا العقاد يفتح عينه على المكيدة فكتب مقـالة يقول فيها إن الدستور كما كتب يعلن وإذا كانت به أخطاء فإن البرلمان يناقشـها . وقدر لهذه المقالة إحدى اثنتين إما أن يرفض البـلاغ نشرها فتنكشف الحقيقة ، وإما أن ينشرها فتحبط المؤامرة . ونشرت المقالة وأبطل التدبير الذى بُيت بليـــل ..

ثم توالت الوقائع . حدث أن أقال الملك فؤاد الوزارة الوفدية وأقام وزارة يرضاها وهذا نذير يهدد بإلغاء الحياة النيابية . فوقف العقاد على منبر البرلمان يعلنها مدوية ان شعبنا قادر على سحق أكبر رأس تتعرض للدستور . وحفظهـا له الملك فؤاد .

على أن العقاد لم يكتف بهذا بل ظل يكتب مقالات عن الرجعية يرتد الهجوم فيها بلا مشقة إلى الملك فؤاد فأفضى به الأمر إلى السجن .

***

وحياة العقاد سلسلة طويلة من الكفاح .. الكفاح بكل ألوانه .. الكفاح الأدبى والسياسى والمادى أيضاً . فقـد صـارع الرجل الزمن والأحداث والسلطات فى عهود شتى حتى استطاع أن يزحزح كل القوى المعوقة وينفذ إلى مكانه الطبيعى فى الحياة . وكان يقضى الليـل يقـرأ على ذبالة مصباح ويقضى النهار على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول .. وتعقبه فى أعقاب الحـرب العالمية والاسـتعمار والسلطات المالئة له ، ولكنهم لم ينالوا منه شيئاً غير أن أخرجـوه من بلده أسوان ليعود . واضطهدته الملكية حتى أودعته السجن وعرف مرارة الغبن والجحود فعاش منفردا معتدا ، جميعا بنفسه كثيرا بشخصه الفرد .. غير آبه بمن يعيبون عليه التفرد أو العزلة أو الاعتداد . خلص للأدب والعلم فخلصا له . وعاش بين كتبه لا يمل صحبتها ولا تمله .. كلاهما غنى لصاحبه وكفاء .. وقد انتظمت حياته على القراءة والكتابة فهـو

إما أن يستزيد وإما أن يزيد .. رفيقه فى العمر كتاب هو قارئه أو هو كاتبه فليس غيره على الحالين صاحب وخدين .

وقد أوتى العقاد الكتابة بكل ملكاتها ومواهبها ففاض بالشعر وتوسع فى المقال والنقد والتاريخ .. واللغويات والدين والفلسفة والعلوم وعالج القصة . وبهذه المواهب المتنوعة المتعددة ، مصحوبة بالقدرة على التأمل النافذ من ذهن موسوعى استطاع العقاد كما يقول الدكتور عثمان أمين أن يفتتح فى عالم الفكر **طريقا طويلا بلغ فيه بجهده وصبره غاية قلما يبلغها مفكر واحد فى عصر واحد** .

ولما تنسك العقاد فى مكتبته **رفض المناصب** وقد عرض عليه منها ما يغرى . عرض عليه سعد زغلول قبل موته أن يكون مديرا لدار الكتب فاعتذر . انه الاكتفاء الذاتى لو صح هذا التعبير فى دنيا الأفراد . لكأن العقاد أودع رفضه كل صفاته من جبروت وصرامة واعتداد واستعلاء وزهد فى المناصب وما تضفيه .. إنه الأغنى بالقلم .

وهكذا عاش العقاد لقلمه وعاش به . . عاش ولوعا بالمعرفة الانسانية على اختلاف ألوانها . يخف إليها فى مظانها . عصامى صنع نفسه على غير مثال فى الرجال وشق طريقه فى الحياة بسلاح الذكاء الفطرى والموهبة الأصيلة التى يزيدها الصقل والتجربة والطموح تألقا ومضاء .

وهو يجيد من اللغات غير العربية ، الإنجليزية إجادة تامة .. روى لى مرة إنه كان إذا كتب فى العربية تمثلت الجملة فى ذهنه لأول وهلة ، انجليزية ثم يخرجها على الورق عربية وذلك من طول قراءته للإنجليزية وتشربه لها . وإنه ليستعين بها على فهم الإيطالية والأسبانية اللتين يفهمهما بقدر ما هو مشترك بينهما وبين الإنجليزية .

أما الفرنسية فقد تعلمها أقصد علمها نفسه أثناء سجنه .

وفى الأدب العربى كان العقاد يؤثر من كتابه ابن المقفع وصاحب الأغانى ، ومن الشعراء ابن الرومى .

وعملاق الفكر العربى والأدب العربى كان أسلوبه بخصائصه المتميزة يمثله ويعلن عنه . **أسلوب العقاد** أسلوب منطقى يعتمد على المقدمات والنتائج حتى لتحس إزاء مقالته أن أفكارها مرتبة ترتيبا يتميز فيه البدء والختام قبل أن يخط فيها حرفاً . وأدب العقاد كما يقول الدكتور عثمان أمين (أدب الفكرة الواعية فى أرفع منازلها) . وقد كان ملاك الرأى عند العقاد فى الفن والأدب هو أن (الفن والأدب وجدان إنسان ، ولن يكمل الإنسان بغير ارتفاع فى طبقة الحس وارتفاع فى طبقة التفكير ، وأن التمام فى مزاياه الإنسانية أن يتم له الحس ويتم له التفكير) (١) .

الصرامة والجد والتوقر طابع جلى فى (أدب العقاد) شعره وترسله .

وأسلوب العقاد أسلوب علمى ما لم تغلب عليه طبيعة الموضوع إن كان أدبا خالصاً . الجملة عنده بنيان مرصوص . والكلمة فى مقاله لها موقعها الذى لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخطر ، فهو بحق إمام من أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وهو لا يرتاح إلى الجمل المعترضة ومن ثم يدخلها فى السياق . ويتحكم فيه السياق نوعا ما حين يملى عليه التعبير المختار أو يوحى به .

ومع ما لأسلوبه من الطابع العلمى إلا أنه يميل إلى الايقاع ونهاية الفواصل فى غير حشو أو فضول . وهو يوثر المعنى على اللفظ وان كان يستهويه السجع أحيانا فى موضوعات التهكم والدعابة كما يختاره فى الموضوعات الوجدانية وما إليها مما يلحق بالأغراض الشعرية . (فإن السجع ينبه الذهن إلى المعانى فى هذه الأغراض ويزيدها جلاء وتوكيدا ،

---

(١) ديوان بعد الاعاصير .

كأنه اللحن الذى يضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ليست للكلام الذى يسمع بغير تلحين) .

* * *

وهو متعصب للفصحى ولا يقبل التساهل فيها ويرى أن الكتابة الإنسانية ، ما كانت باللغة الباقية ذات القواعد .

ولكن تعصبه للفصحى فى الحقيقة كان رد فعل للهجوم عليها من جهات عدة . وكان العقاد يرى (الحملة على اللغة فى الأقطار الأخرى إنما هى حملة على لسانها أو على أدبها وثمرات تفكيرها على أبعد احتمال، ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شىء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير فى ضربة واحدة . لأن زوال اللغة فى أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربى أو المسلم قواما يميزه من سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الأمم فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا ايمان) (١) .

ولم يقف العقاد عند هذا الحد بل انبرى يبرز المزايا العلمية لهذه اللغة فى كتاب كامل حين مست الحاجة إلى ابراز هذه المزايا غاية المساس لأنها فى يقينه (قوام فكر وثقافة وعلاقة تاريخية ، لا لأنها لغة كلام وكفى) (٢) .

* * *

وهو يزور عن النقد المتشائم ويعزف عن أصحابه . وإن كان لاينكر على النقد أنه أصدق المذاهب على أن يداف فيه العطف وتمتزج به الرحمة Huminity Sympathy كالذى تطالعه العين فى أدب المعرى وشوبنهور .

---

(١) كتاب (اشتات مجتمعات) ص ١٢٧ .

(٢) كتاب (اللغة الشاعرة) .

والعقاد فى نقده يراه قوم متعصبا لرأيه ، فأفكاره قضاء من حقه التسليم • ونسوا أن أفكاره هذه ، حياته •• أنها زوجه والولد • أنها نور عينيه • • أنها دنياه وعالمه حين يفكر الآخرون ولكن ساعة من نهار ، أو سانحا من خاطر ، أو حتى اهتماما مقصودا ، ولكنه أحد اهتمامات كثيرة هى فى مجموعها لا تلهيهم عن مناعم دنيا تعفف عنها العقاد وترفع عليها واستبدلها بعالم الفكر ومحرابه ليتعبد فيه ويتهجد وكأنه الكاهن حتحور كما كان يلقبه تلاميذه الصغار حين كان هو نفســه صغيرا فى حســاب السنين •• لا بل إن العقاد وحده جمع من الفراعين أصــحاب البطولات المعدودة والأمجاد الباقية •

لـــك أن تقـــول وأن تعيــــدا
صــــادفت من فيض مـــــزيدا

تــــروى مآثــر واحـــد
وكأنمـــا تــــروى عديدا

اننى آتى بالتفسير للظاهرة الإنسانية العجيبة التى نسميها العقاد ثم انتهى بعد المطاف إلى وصفه هو لما أريد •• وما أحوجنى إلى وصفه هذا ، للعظمة ، لأصل إلى تعريف قريب لشخصه العظيم •• وبعض قوله فى هذا المضمار فى كتابه (عبقرية محمد) يقــول العقاد : (إن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب ، وإن كانت معــروفة الأســباب ، وناهيك بالعظمة التى ترتقى هذا المرتقى •

من تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين فى وقت واحد لأنهــا **متعددة الجوانب** فيراها أناس على صورة ويراها غيرهم على صورة أخرى وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف فى الوقتين المختلفين •

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هنـــــــاك •

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظـر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر ووصفه هذا للعظمة ينطبق عليه ، فقد كان كابن سينا المعجبون به على الجملة أكثر من محبيه ، لأنه رزق أسباب الحسـد من جميع نواحيه . فكان رجلا عظيم الذكاء عظيم الاعتـداد بالنفس عظيم النشاط ممتلئا بالحياة (١) . لكأنما كان يصف نفسه من خلال ابن سينا .

وآثر فنون المعرفة عند العقاد بترتيب :

* الشعر عربيا وأجنبيا وما يلحق به من نقد ودراسة .
* البحث فيما وراء الطبيعة .
* فى العلوم .

* * *

لقد شارفت كتب العقاد المائة .

ومن عجيب أن هذه التحليقات التى أغنت أدبنا وتاريخنا ، هـذه الآفاق التى أحسنت إلينا ، أساءت الى ربها شاعراً ! **فشعر العقاد قيمة إنسانية كبرى بما أعلى من شأن (الإنسان) وليس شعرا عربيا فحسب.** وكانت **أحب صفات العقاد إلى نفسه صفة « الشاعر »** . ولكن بحوره فى الكتابة على اختلاف ألوانها غلبت صفة الكاتب وصـفة المفكر وصـفة الأديب . يضاف إلى هذا أن العقاد شاعرا يقترن فى أذهان الناس برفيقيه الشاعرين المازنى وعبد الرحمن شكرى عضوى مدرسة الديوان . والذى حدث أن المازنى زهد فى الشعر وخلص للنثر ، وشكرى زهد فى كل شىء : الشعر والناس والحياة ، وآض إلى عزلة رهيبة أسـلمته إلى العـزلة الـكامـلة .

هذه العوامل مجتمعة ومتفرقة ألهت النـاس وأنستهم مالا يغفـل

---

(١) كتاب (الرئيس ابن سينا) ص ١٧ .

عنه فى مجال التاريخ والتقدير وهو **مثالية** العقاد فى الشعر ، **وتفرد العقاد** فى الشاعر . وقد سبقنى إلى هذا القول الدكتور طه حسين الذى أعلن سنة ١٩٣٤ على الملأ : **أنى لا أؤمن فى هذا العصر الحديث بشاعر عربى كما أومن بالعقاد** . ولم يقل الدكتور طه حسين وهو أعلم بمواطن الكلام هذا القول ، تحية مجامل فطالما تعارض الرجلان فى الأدب وفى غيره مما تتشاحن فيه الآراء ، ولكنه قال عن علم رجل الأدب بالعقاد الذى خلق لنفسه بالدرس المتصل الطويل الذى لا يعرف حدا ، (**قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا ، قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب** لأنهم من أقل الناس قراءة فى هذا العصر . **خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيرا إلا فى أوروبا** حيث يلتمس الشعراء الفن لا فى الأدب وحده بل فى العلم وفى كل شىء آخر) .

وحين يحدد الدكتور طه حسين مكان العقاد فى الشعر ومتى ؟ منذ ربع قرن يعلن مرة أخرى (**أن المدرسة القديمة قد ماتت بموت حافظ وشوقى** وأن المدرسة الجديدة — أى مدرسة العقاد — قد أخذت تؤدى حقها وتنهض بواجبها فتفرض المصريين والعرب جميعا فإذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضا ، وإذا الشعور المصرى والقلب المصرى والعواطف المصرية أصبحت لا ترضى أن تصور كما كان يصورها حافظ وشوقى ، إنما تريد وتأبى إلا أن تصور تصويراً جديداً . وهذا التصوير هو الذى حمل الملايين على إكبار العقاد) .

لماذا أكبر الدكتور طه حسين العقاد وآمن به وحده دون غيره من الشعراء فى هذا العصر ؟

(لأنى حين أسمع شعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة) .

ثم لماذا ؟ (ثم لأنى إذا قرأت شعره مرة ومرة — لم أستطع أن أقول لنفسى : قد قرأت هذا الكلام من قبل أو أين قرأت هذا . أفى شعر البحترى أم عند أبى تمام أم سبق أبو نواس إلى مثل هذا الكلام ،

كلا .. **إنما تقرؤن العقاد فتقرؤنه وحــده** ، لأن العقــاد ليس مقلدا ، ولا يستطيع أن يقلد ، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته ، وشخصية العقاد فوق الفساد . خذوا ما شئتم من دواوين الشــعراء المعاصرين الذين أكبر منهم كثيرين وأحب منهم كثيرين . أنا واثق أنكم لن تمضوا فى قصيدة حتى تذكروا شاعراً من المتقدمين ، أو أن تذكروا شــاعراً من الغربيين المحدثين ولكن انظروا فى العقاد خذوا بيتا من العقاد أو قصيدة أو مقطوعة **فلن تروا إلا العقــــاد**) .

لقد وجدتنى فى هذا المقال منساقة إلى وصف العقاد بنوابغ الصفات مما قد يحمل على أنه تحية وفاء ما أضــيعنا إن لــم نؤدها ، أو إعجاب تلميذة بأستاذ عظيم ، ولكنى أصف العقاد مطمئنة إلى أن الوصف مهمــا بدا مغاليا أو ظُنَّ به الغلو والاسراف فانه يجد سنداً من أعمال العقاد يدعمه ويزكيه فيغدو صحيحاً لا اسراف فيــه بل يجد ســنداً من أقوال أفذاذ لم تستطع المعاصرة أو المنافسة أن تحجب كلمة الحق أو حتى زهو الفخــــر واشــــادة التقــدير . . .

***

وكان العقاد يخطط لحياته فلا ينجز مشروعا حتى يرسم آخر فلا يستريح بينهما **إلا أسبوعا** . **والراحة** هنا معناها أنه يتخفف فى القراءة فيختار الموضوعات الخفيفة والشيقة . فاذا فــرغ الأسبوع الموعــود شرع فى وضع الكتاب الجديد . وكان آخر اهتماماته سلسلة أتم بعض حلقاتها . وهذه السلسلة كتب أربعة عن :

الله ــ الــكون ــ الانســان ــ الشــيطان .

وقد أنجز العقاد منها كتابه (إبليس) وكتابه (الله) الذى احتشدت له ملكاته كلها . وبعد رحلته الفلسفية الطويلة فيه ، انتهى إلى القول بأن **(الايمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة . لأن الإنسان غير المؤمن إنسان**

(**غير طبيعى**) فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأســه وانعــزاله عن الكون الذى يعيش فيه ، وإن الحس والعقــل والوعى والبــديهة جميعا تستقيم على الإيمان بالذات الإلهية ، وأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم).

كما انتهى بحثه فيه إلى أن (**العقيدة الدينية هى أقرب الفلسفات إلى المعقول** وليس قصارى الأمر فيها أنه أمر تصديق وايمان .

لابد من وقفة فى كل تفسير للوجود .

فوقفة المؤمن أصح من وقفة الفلاسفة فى النهاية : كل ما هو محدود فقد يحيط به القياس ، ولا إحاطة بما ليست له حدود . « البارى » قديم سرمد لا يحده الزمان ولا المكان . ليس كمثله شىء وهنا يحسن الوقوف.

ألأنه عقيدة وكفى ؟

كلا ، بل لأنه منطق سليم ، ولأنها نهاية شوط العقول) .

ومن مشروعاته فى الكتابة لو أن العمر امتد به ، الكتابة عن الغزالى وعن بعض الشعراء مثل توماس هاردى وهاينى .

* * *

وإذا كان الدكتور زكى نجيب محمــود يشــبّه شــعر العقاد بأنه (أقرب شىء إلى فن العمارة والنحت وأن القصيدة عنده بناء من الصوان ، والقلم فى يده هو أزميل النحات ، وأنه لا يصوغ قطعة من العجين اللين ولا يقيم بناء من الطين الطرى المطواع فلا الفكرة عنده قريبة المنــال ، ولا المادة سهلة التشكيل . القصيدة عنده هى المسلة القــديمة قدت من حجر الجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع الى السماء فهاهنا العمق ... والســـــموق معــا) .

إذا كان الدكتور الباحث يقصر هذا الوصف على شعر العقاد وهــو

أكبر مجالى أدبه ، فإن هذا الوصف يصدق فى غير زيادة أو تحريف على أدب العقاد كله شعره ونثره على السواء . فكل كتاب للعقاد وراءه جهد دارس متعمق محيط . وكل كتاب للعقاد بصورته التى هو عليها من حيث التناول والصياغة ومادة الموضوع ونفاذ الرأى والتحليل (مسلة) قدت من حجر الجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع فى السماء . وليس بكتاب للعقاد ما احتوى على فكرة قريبة المنال أو مادة سهلة التشكيل .

ولكن أقرب كتبه اليه كتابه (ابن الرومى) . إن بينه وبين الشاعر تجاوب الفن حتى ليراه فى النوم على صورة واحدة كما حدثنى مـرة .. وهو يرى فى ابن الرومى شاعراً وصافاً لا نظير له فى آداب الدنيا عـلى كثرة ما فيها من وصف ووصافين . فهو حين يكتب عنه يجد رضى نفسه فى الكتابة . إنه يرتاح حين يعطيه حقه ويرفعه إلى حيث يجب أن يكون..

لقد كتب العقاد عن عمر ، الذى نال بكتابه عنـه جائزة الآداب . ولكنها كتابة الإنسان الذى يؤدى واجبه ويقول ما يعتقد . ولكن كتابه (ابن الرومى) فيه **ذاتية واضحة** تحب فى اعجاب وتتعصب فى حماسة ..

***

وقد ترجـم كتاب (الله) إلى الفارسـية كمـا ترجمت بعض كتب الأسـتاذ فى ألمانيا وروسيا وفرنسـا .

وترجمت إلى الايرانية والاردية والملايو كتبه :

(عبقرية محمد) ، (أبو الشهداء) ، (عبقرية الامام) .

***

ولكتابه الأول (خلاصة اليومية) قصة هو يرويها :

(كان يأسا من معنى الحياة .. كل غاية فى الحياة .. لاننى قبـل ذلك بشهور عكفت على القراءة فى كتب (الفلسـفة المادية) وأكثرت من

النظر فى مذهب النشوء والارتقاء فلاح لى أنه أصدق من أقوال خصومه المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الأوربيين باسم الدين . ولاح لى من النظرة الأولى على غير روية فيه أنه يهبط بالانسان إلى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجاً واحداً يرتفع عليه .

وكذلك كتبت فى مقدمة كتابى « خلاصة اليومية » أن الانسان حيوان راق ولكنه حيوان .

وقصة (الخلاصة) هذه هى قصة الأمل الذى بقى عندى يومئذ فى شهرة الأدب وفى عدد الأيام التى أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب وكنت أظننى مبالغاً إذا حسبتها بأكثر من الأيام .

هو الموت إذن كما أستقر فى خلدى بلا أثر ولا خبر ، وهو الموت إذن أمضى اليه صفر اليدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ومن كل مجد يبقى بعد ذويه .

و « اليومية » هذه هى دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات وأبادر إلى إيداعه أبيات الشعر التى نظمتها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رءوس الموضوعات التى نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادر الأحاديث العابرة التى أعاودها فى مناسباتها . وقد اجتمع عندى من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات. فلما وقع فى وهمى أننى سأذهب بغير أثر ولا خبر تصفحت هذه الدفاتر ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها وبعثت بها إلى صديق فى القاهرة أقول له إن هذه الصفحات هى كل ما أتركه إذا تركت الحياة : فان وجدنى أهلا للذكر ووجدها أهلا للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقى ، وإلا فلا حرج عليه أن يهمل نشرها ويسلمها للنسيان .. يطويها حيث طواها فى زاوية من زواياه .

ثم طبعت خلاصة اليومية بعد أن أضفت إليها وحذفت منها ، وكان

من التوفيقات التى لم أترقبها أنها نفدت فى أقل من ستة شهور ، فلم يبق من ألفى نسخة طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجاح غريب لكتاب ولدته فكرة يائسة من الحياة) :

ولكنه لم يخرج من الدنيا فى ذلك الوقت الذى قدره لأن الله أراد بنا خيراً فعاش العقاد ليملأ الدنيا لمصر مجداً ، وعاش ليملأ حياتنا أدبا وعلما وفكراً ، وأملا فى (الطموح) ، وفى (الكرامة) وفى (الإنسان) .. فى الإنسان الذى كان العقاد بشخصه وسيرته وكتابته أشرف مثل له وأكرمه على الحيـــاة والنـــاس .

* * *

وللعقاد مدرسة ولكنها لم تتبلور إلا فى الأعوام الأخيرة فقد كانت قبلا شبه علاقات متفرقة بأفراد متفرقين ثم اتضحت معالمها . ومن أبرز أبنائها الأستاذ على أدهم والدكتور زكى نجيب محمود . والدكتور عثمان أمين والأستاذ العوضى الوكيل والدكتور محمد غلاب والأستاذ عبدالرحمن صدقى والفنان صلاح طاهر والأستاذ عبد الفتاح الديدى والدكتور نظمى لوقا والشاعر محمود عماد والشــاعر محمــد طاهر الجبــلاوى تلميذه وصـــــديقه .

ومن تلاميذها الأستاذ أنيس منصور والأستاذ جلال العشرى .

ومن أصدقاء مدرسة العقاد الشاعر عزيز أباظة والمرحوم كــامل الشناوى والأستاذ طاهر الطناحى والأستاذ صالح جودت .

* * *

وأدب العقاد على جديته وصرامتــه لا يخــلو من المرأة حبيبة ، وصديقة . فالعقاد من ذلك الرهط الذى كان يؤم صالون (مى) الأدبى ويغشى مجالسها . ومى هى بعينها (هند) فى (سارة) وفى الديوان .

وظاهرة فى أدب العقاد أن كل اسم فى (الديوان) أو (سارة) من حيث الوزن العروضى له نظيره الحقيقى حتى تلك التى يدعوها (يا بنية) فى ديوانه (أعاصير مغرب) و (بعد الأعاصير) •

وكانت (سارة) شخصية مستوفية ثقافة وجمالا • ذات أنوثة متأصلة عارمة طاغية حتى ليؤثر عنها قولها (لو خيرونى أن أكون رجلا أبيت) •

ولعل هذه المستويات الرفيعة من الثقافة والنماذج الرائعة من الجمال هى التى زهدت العقاد فيما هو أدنى ، أو لعله التنسك فى محراب الفكر حتى لا يعطى من نفسه أحداً سواه • يعزز هذا ما رآه العقاد من تمزق صديقه المازنى عند وفاة ابنته فآل يومئذ على نفسه ألا يواجه هذا الموقف المروّع وأشفق عليها من مجرد احتمال الثكل • وكان العقاد مرهف الإحساس شديد التأثر لا يطيق الألم فى نفسه أو نفوس الآخرين وخاصة الألم الذى لا قِبل للإنسان بدفعه أو تفاديه •

وجوهر الرأى عنده فى قضية المرأة كما جاء فى أكبر كتبه عنها (المرأة فى القرآن الكريم) أن :

ملاك العدل والمصلحة بين الجنسين أن تجرى الحياة بينهما فى الأمة على سنة التعاون والتقسيم (لا على سنة الشقاق والتناضل بالمطالب والحقوق •

وليس الخلاف بينهما بالخلاف الذى ينفض بالصراع على كفاية واحدة يدعيها كلاهما فى مقام الخصومة ، ولكنه خلاف على كفايتين أيهما أصلح لهذه وأيهما أصلح لتلك ، وإن صلح كلاهما لكفاية الآخر فى كثير من الأحيان •

وهو حين يرى وظيفتها المثلى التى تستقل بها : حماية البيت فى ظل السكينة الزوجية من جهاد الحياة ، وحصانة الجيل المقبل لإعداده بالتربية

الصالحة لذلك الجهاد .. حين يرى هذا يعلن فى غير مواربة أن حصتها هذه **ليست بأصغر الحصتين. ليس تدبير السكينة فى الحياة بأهون من تدبير الجهاد** ، وليس العمل الصالح لسياسة الغد بأهون من العمل الصالح لسياسة اليوم .

* * *

وقبل أن أضع القلم أريد أن أقف وقفة قصيرة عند ظاهرة لا تخطئها عين الدارس لأدب العقاد بل القارىء العادى وأعنى ظاهرة **(النور فى أدب العقاد)** .

والنور ظاهرة من ظاهرات كثيرة فى تراث الرجل الكبير فقد أحب النور ، واختار بيته فى مدينة النور ، وفتحه للنور كما فتح عقله الكبير للنور .. كل النور .. من الشرق والغرب فغدا عقلا نورانيا موسوعيا فى عصر التخصص والتحديد . وهو بهذه الصفة ظاهرة فذة بين الأعلام المعدودين . وهو بهذه الصفة عاش قرونا طويلة لا تقاس فى عداد السنين بالستين والسبعين التى نعرفها .

والنور الذى أحبه العقاد النور المادى والنور المعنوى على السواء فقد أحب العقاد النور لأنه كان صريح النفس لا يخاتل ، صريح الرأى لا يخافت به ولا يجمجم فيه بل كان حراً كالنور ، نافذا مثله يكشف المعميات والخوافى ، على غراره . واختلف الناس فى طبيعة النور الذى أشرق على مصر من أسوان اختلافهم فى معنى العظمة والعظيم فقال المبصرون هو النور والاشراق ، وقال المذعورون بل النار والإحراق . ثم غدا العقاد سيرة مجيدة . وإذ هدأ روع الخائف تعلق بما كان يذكره ، والتقى معنا على تمجيده والوفاء له . وحق له الوفاء والتمجيد .

إنسان شفاف مضىء يحب النور ويعيش فى النور بل كان يتعشق النور حتى ليقول : (أحبه صافيا وأحبه مزيجا ، وأحبه مجتمعا وأحبه

موزعا . وأحبه مخزونا كما يخزن فى الجواهر ، وأحبه مباحا كما يباح على الأزاهر . وأحبه فى العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون ؟

ويوم سكنت فى هذا المكان ، ونظرت من هـذه النـافذة ، أعجبنى أننى أفتحها فلا أرى منها إلا النور .. والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور ..

وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصـل الأرض بالســـماء !)

فى بيتى ص ٥

إنسان عميق لا يرى الأشياء سطحها ولكنه ينفذ خلالها كالشـعاع حتى النهار الذى يتكرر فى حياة الانسان كل يوم ما عاش فلا يثير التفاته بله تفكيره شأن المكرر المعاد .. هذا النهار ينظر إليه العقاد نظرة متوهجة غنية مبتكرة فهو نهار مبتكر (عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ! .. خلقا مبتكراً يخيل إليك أنه يتلألأ فى فضـائه الأول للمرة الأولى .. وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور فى أبعـد مكان من الفضاء ، وفى أبعد فترة من الزمان ؟ هاهنـا شىء عـلى الأقل تستطيع أن تقول أنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين) .

فى بيتى ص ١١

وقد غنى العقاد للنور فى كتابيه (أنا) و (فى بيتى) غناء عذبا . والبعثة المحمدية « مطلع النور » ، ورسالة محمد (رسالة النور) ص ١٢٩

النور عنده مصدر كل شىء حتى **الربيع** : (إن الربيع ليغنى لأنه حى ولا سبب للغناء غير ذلك ولا حاجة إلى سبب غـيره لمن يحس ويعيش . والربيع حى لأنه موسم الحرارة والضياء . وهل الحياة إلا حرارة وضياء؟ إنك لتؤمن بالروح وحده أو بالجسم وحده ثم تقول إن النور هو مصدر كل شىء وأصل كل حياة فلا تكون إلا على صواب ، وما كـان نور العين

ولا نور الروح إلا شيئاً واحداً فى العنصر والقرار ، وإلا عنصرا واحدا لكل ما يظهر فى هذه الدنيا للبصائر والأبصار) .

ص ٣٩ ســاعات بين الكتب

وقد يكون هذا القول مجملا أو مكتنزا على عادة أقواله . ولهــذا أرانى بحاجة إلى التمــاس مزيد من إيضــاح أو تخــريج فيعين كتابه (الفصول) على الغرض فيسأل معنا : ما هو الربيع ؟ أليس هو فصــل الحب ؟ أليس هو الموسم الذى تشرق فيه ألوان الأزهار فتتزاوج كمــا يتزاوج الأحياء ؟ ألا تنكشف للعشاق عــلاقة هــذه الأزهار بالغــرام فيتراسلون بالأنوار الندية ، والرياحين الشذية . ويخرجون إذا أقبــل الربيع إلى المنازه والخلوات فيختارون من الأماكن مــا تحف به الورود المتعانقة والطيور المتعاشقة . وتفاجئهم بهجة الحب داخل نفوسهم ومن خارجها فى نفثة واحدة من نفثات الطبيعة الحية ؟ وأى ميلاد يؤلف بين نسبها ونسبنا وأية قربى تمت بها الأزهار إلينا ألصق من القــربى التى تجمع فى موسم واحد بين توالدنا وتوالدها ، وحياتنا وحياتها وامتزاج الجمال والحب فيها بامتزاج الجمال والحب فينا ؟

ولم يحقق لنا العلم ما هو سر تأثير ألوان الزهر على أبصارنا ولا ما هو سر تأثير الزهر بذاته فى شــعورنا . ولــكنا قد نرى علاقة النور بالألوان . ونرى علاقة الحرارة بالنور ، ونرى علاقة الربيع بالحرارة ، ثم نرى علاقة العواطف الغرامية بالربيع . فكلها عناصر ربيعية تظهــر بباعث واحد فى زمن واحد ولا نرى منها إلا ما هو من الحــرارة قابس ، وبالضوء مزدان ولابس ، وفى الحب مغروس وغارس) .

وليس هذا من حلى الأسلوب كما يوحى التوافق بين أواخر الجمل فى الصوت والحروف فان العقاد يمضى قائلا :

الحرارة تنبعث من الشمس إلى جوف الأرض فتتخللها فتنبت البقل والثمرات ــ ذلك هو الربيع .

والحرارة تبسط نورها على الأزهار فينسج على أوراقهـا اللطيفة ألوانه ويحليها بأصباغه ونقوشه . ذلك هو سحر الألوان وبهجة الأزهار .

والحرارة تجرى الدم فى العروق فتتيقظ العواطف التى أنامها الظل وتتحرك الحياة الكامنة فيملكها الشوق إلى تجديد الحياة فى مخلوق جديد، ذلك هو الحب . فالربيع والأزهار والحب أشقاء لم يولد بعضها بعضـا ولكنها تولدت على السواء من أم واحدة هى الحرارة . أو هى الشمس أم الحب والحياة فى هذا النظام) (١) .

كان العقاد يحب النور وما أكثر ما قرأ العقاد فى صباه على ضـوء شمعة أو فتيل مصباح . . وما أكثر ما فى حياة هذا القـلم من عجائب ومقـــــابلات .

* * *

أنا لم أقل كل شىء عن ظاهرة واحدة من ظاهرات عديدة فى أدب العملاق إن هى إلا لمحة من نوره تسعى على ضوء ذكرى **حياة طويـلة جهيرة كبيرة العطاء** ، وحياة عريضة غنية لها تاريخ فى التاريخ . **وهى مَعْلم من معالم النهضة الأدبية الحديثة** يقف صاحبها بين أعلامها قمة شـامخة باذخة . حياة ثرة المنابع كثيرة الجوانب كالنهر العظيم تتفرع عنـه فى سيره الجداول والعيون . أملت له ، فى العمر ، الأيام وأملى لها ، وأمدته وأمدها ، وعاشت فى أدبه وعاشها . وعـلى جلال السن وهـالة المشيب رحل عنها وهى ما زالت ترتجيه ، وما زال عنـده الكثير مما هو بسـبيل كتابته والبحث فيه . كانت الكتابة روح حياته ومعناها فلم يحل بينـه وبينها إلا سفره إلى أسوان . وهو معنى ضخم لا ينفذ إليه إلا الأقلون ليعيشوه . وحتى هؤلاء ، يقف بينهم ، بذكره العريض ، نموذجا وحـده ، عبـاس محمـود العقـاد . .

* * *

(١) الفصول ص ١٣٢ ط المكتبة التجـارية .

وبعد فليست هذه الصفحات إلا خطوط عريضة من ترجمة العقاد •

إن العقاد كقمة الهـرم الأكبر لا يرقى إليه صـاعد إلا من قاعدة واسعة • فالعقاد لم يكن شاعراً فحسب ، أو كاتبـاً فحسب ، أو ناقداً أو عالماً فحسب ، بل كان هذا كله مجتمعاً ، وكان أكثر منه •

إن القول فى العقاد يطوّف ما يطوف ثـم يقصر عن الإحاطة أو ما دونها • إن هى إلا لمحات جانبية لأن القـول الحق فيـه والتقييم الدارس لا يتأتى إلا بالوقوف على الأصول التى درسها العقاد ، وورود المنابع الثقافية التى عب منها العقاد • وهو أمر تشكل ضخامته صعوبة كبيرة للدرس والتقييم إلا أن يسعف صبر صابر وتفرغ مخلص وجـد دءوب • ولعل هذا يفسر طواف الدراسـات والكتب بمشـاهير الكتاب والشعراء دون العقاد من تهيب لمجالاته ، وتقدير لوعورة الطريق •

حين ترجم العقاد لابن الرومى قال (لأن تكون ترجمة ابن الرومى صورة خير من أن تكون قصة ، لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال) • ولكننا إزاء العقاد •• إزاء العملاق نجـد أنفسنا أمام قصة نادرة بين قصص الواقع تكاد تـكون أسطورة بمـا اجتمع لها من ألوان التفرد والترفع والامتياز •

* * *

مؤلفات الأستاذ العقاد

وبعض تراث العقاد فى حياتنا الفكرية ما أذكره على سبيل المثال لا الحصر .

شـــعر :

- ديوان العقاد (أربعة أجزاء) ١٩٢٨ .
- يقظة الصباح ١٩١٦ .
- وهج الظهيرة ١٩١٧ .
- أشباح الأصيل ١٩٢١ .
- أعاصير مغرب ١٩٤٢ .
- بعد الأعاصير ١٩٥٠ .
- أشـــجان الليل .
- وحى الأربعين ١٩٣٣ .
- هدية الكروان ١٩٣٣ .
- عابر سبيل ١٩٣٧ .
- ديوان من دواوين ١٩٥٨ .

أدب واجتماع وتاريخ :

- **الفصول ١٩٣٢ .**
- الشذور ١٩١٥ .
- مطالعات فى الكتب والحياة ١٩٢٤ .
- مراجعات فى الأدب والفنون ١٩٢٦ .
- اشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ١٩٦٣ .
- ساعات بين الكتب جا ١٩٢٩ جـ٢ ١٩٤٥ الجزءان معا سنة ١٩٥٠

— عالم السدود والقيود ١٩٣٧ .
— يسألونك ١٩٤٦ .
— بين الكتب والناس ١٩٥٢ .
— إبليس ١٩٥٨ .
— على الأثير ١٩٤٧ .
— مطالعات ١٩٥٦ .
— عقائد المفكرين فى القرن العشرين ١٩٤٨ .
— جحا الضاحك المضحك ١٩٥٦ .
— فى بيتى ١٩٤٥ .
— القرن العشرين ما كان وما سيكون ١٩٥٨ .
— ١١ يوليو وضرب الاسكندرية ١٩٥٢ .
— اليد القوية فى مصر ١٩٢٨ .
— جوائز الأدب العالمية ، مثل جائزة نوبل ١٩٦٤ .

قصـــة :

— ســـارة ١٩٣٨ .

دراســـة ونقـد ولغـة :

— الديوان فى النقد والأدب مع الأستاذ المازنى ١٩٢١ .
— ابن الرومى حياته من شعره ١٩٣١ .
— شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ١٩٣٧ .
— رجعة إلى أبى العلاء ١٩٣٩ .
— قمبيز فى الميزان ١٩٣١ .
— أبو نواس الحسن بن هانىء ١٩٦٠ . (كتاب الهلال)

— شاعر الغزل (عمر بن أبى ربيعة) ١٩٤٣ .

— جميل بثينة ١٩٤٤ .

— شاعر أندلسى وجائزة عالمية ١٩٦٠ .

— اللغة الشاعرة ١٩٦٠ .

— التعريف بشكسبير ١٩٥٨ .

الترجمـــــــة :

— (عرائس وشياطين) مجموعة من الشعر العالمى ١٩٤٥ .

— (ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى) .

المذكـــــــرات :

— خلاصة اليومية ١٩١٢ .

— اليوميـــــات ١٩٦٣ .

وفى الفلسفة :

— مجمع الأحياء ط١ ١٩١٦ .

— الله ١٩٤٧ .

وفى الســـــياســـة :

— الحكم المطلق فى القرن العشرين ١٩٢٨ .

— هتلر فى الميزان ١٩٤٠ .

— أفيون الشعوب ١٩٥٦ .

— فلاسفة الحكم فى العصر الحديث ١٩٥٠ .

— الشيوعية والانسانية ١٩٥٦ .

— الشيوعية والإسلام ١٩٥٦ .
— النازية والأديان ١٩٤٠ .
— الصهيونية العالمية ١٩٥٦ .
— لا شيوعية ولا استعمار ١٩٥٧ .

العبقريات والشخصيات الإسلامية :

— عبقرية محمد ط[1] ١٩٤٢ .
— « الصديق ١٩٤٣ .
— « عمر ١٩٤٢ .
— « الامام ١٩٤٣ .
— « خالد ١٩٤٨ .
— « المسيح ١٩٥٣ .
— أبو الأنبياء .. الخليل إبراهيم ١٩٥٣ .
— داعى السماء (بلال) ١٩٤٥ .
— ذو النورين (عثمان بن عفان) ١٩٥٤ .
— الصديقة بنت الصديق ١٩٤٣ .
— أبو الشهداء ١٩٤٥ .
— عمرو بن العاص ١٩٤٤ .
— معاوية بن أبى سفيان فى الميزان ١٩٥٦ .
— فاطمة الزهراء والفاطميون ١٩٥٣ .

الإسلاميات :

— الاسلام والاستعمار ١٩٥٧ .
— مطلع النور ١٩٥٥ .

— الديمقراطية فى الاسلام ١٩٥٢ .

— أثر العرب فى الحضارة الأوربية ١٩٤٦ .

— الفلسفة القرآنية ١٩٤٧ .

— حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ١٩٥٧ .

— الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ١٩٥٩ .

— التفكير فريضة اسلامية ١٩٥٧ .

— الانسان فى القرآن الكريم ١٩٦١ .

— الاسلام فى القرن العشرين ١٩٥٤ .

— ما يقال عن الاسلام ١٩٦٣ .

التراجـــــــم :

— حيـــاة قلم ١٩٦٣ .

— سعد زغلول ١٩٣٦ .

— روح عظيم (غاندى) ١٩٤٨ .

— تذكار جيتى ١٩٣٢ .

— بنيامين فرانكلين ١٩٥٦ .

— محمد على جناح ١٩٥٢ .

— برنارد شو ١٩٥٠ .

— الشيخ الرئيس ابن سينا ١٩٤٦ .

— عبد الرحمن الكواكبى ١٩٥٩ .

— سن يانسن ١٩٥٢ .

— فرانسيس باكون ١٩٤٥ .

— ابن رشـــد ١٩٥٣ .

— الفارابى ١٩٤٤ .

— الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ١٩٦١ •
— رجال عرفتهم ١٩٦٣ •

المـــــرأة :

— الانسان الثانى ١٩١٢ •
— هذه الشجرة ١٩٤٥ •
— المرأة فى القرآن الكريم ١٩٥٩ •

أما الكتب التى قدم لها ، أو عَرَّف بها أو نقدها ••• أما المقالات والبحوث فى شتى المعارف فقد سجلتها دار الكتب فى نشرة بيليوجرافية باســـم عباس محمـــود العقـــاد •

طه حســــين



نشـأته فى الصـــعيد ــ ألمه الكبير وأثره ــ حادثات هز ت صباه ــ تاريخه فى الأزهر ــ قصصه فى الربع . ــ حياته فى القاهرة ــ ذكرياته عن المشـــايخ ورأيه فيهم ــ الدكتور طه والشيخ المرصفى ــ الدكتور طه والأستاذ الزيات والأساتذ الزناتى معركتهم مع الأزهر وخروجهم منه ــ دور لطفى السيد فى المعركة ــ طه حسين يضل فى قطار الصعيد ــ الأسرة تريد انقطاعه عن التعليم ــ عود الى القاهرة ــ الجمع بين الأزهر والجامعـــة ! ــ الســـفر الى أوربا ــ طرائف عن حياته من وثائق الجامعة ــ معاركه السياسية والأدبية ــ أدبه ــ شـعره ــ فن الصـــورة عنده (الحركة . التفصيل . التنغيم . التـــكرار . المقابلة . التضاد) ــ مدرسة طـــه حسين .

أحد المشاعل التى رفعها صعيد مصر على طـريق الحياة المصرية الأدبية فى القرن العشرين • ففى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٩ ولد طه فى عزبة « الكيلو » وتقع على مســافة كيلو متر من « مغـــاغة » بمحافظة المنيا بالصعيد الأوسط • وهو سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه وخامس عشر من أشقائه • (وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشـــباب والأطفال مكاناً خاصاً يمتاز عن مكان إخوته وأخواته • أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ الحق أنه لا يتبين ذلك إلا فى غموض وإبهــام • والحق أنه لا يستطيع الآن أن يحكم فى ذلك حكما صادقا • كان يحس من أمه رحمة ورأفة ، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا ، وكان يشعر من إخوته بشىء من الاحتياط فى تحدثهم اليه ومعاملتهم له • ولكنه كـــان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمــه شــيئا من الإهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخـرى وكان يجــد إلى جانب هــذا اللين والرفق من أبيه شيئا من الاهمال أيضا ، والازورار من وقت إلى وقت• وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه ، لأنه كان يجد فيه شيئا من الاشفاق مشوبا بشىء من الازدراء •

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله ، فقد أحس أن لغـــيره من الناس عليه فضلا ، وأن إخوته وأخواته يســـتطيعون مالا يســـتطيع ، وينهضون من الأمر مالا ينهض به • وأحس أن أمه تأذن لإخوته وأخواته فى أشياء تحظرها عليه • وكان ذلك يحفظه ، ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزن صامت عميق ، ذلك أنه سمع إخوته يصفون مالا علم لديه ، فعلم أنهم يرون مالا يرى) (١) •

لقد أصاب الرمد عين طه حسين وهو فى السادســة من عمــره ، وأطفال القرية حين يشكون يهملون • فإذا التفتت إلى أحدهم أم فهى تسقط من حسابها ، الطبيب مكتفية (بعلم) جاراتها وأشباههن فى الجهل •

---

(١) الأيام جـ ١ ص ١٧ — ١٨ •

وعلى هذا النحو فقد صبى أغلى حواسه جميعاً على يد الحلاق (١) . . فقــــد عينيــه .

وأرى هذا الحدث أكبر الأحداث فى حياته شأناً .. لقد ساءه مرات ولكنه أحسن إليه مراراً ... لقد أورثه معه غير علة من علل الجسم ، ولكنه أكسبه غير صفة حميدة من صفات النفس . فقــد وجه قراءاته ، وحبب إليه الصمت ، وعلمه حسن الاستماع . ثم استعلى على مصابه به فكان منه طه حسين الذى ملأ السمع والبصر فى مصر وفى غيرها من بلاد العــــالمين .

ومن حوادث هذا (الحادث) أنه خطر له طفلا يأكل مــع أسرته أن يتناول اللقمــة بكلتا يديه ويغمسها من الطبق المشــترك فيضــحك إخوته وتبكى أمه ويرشده أبوه فى هدوء حزين (٢) .

***

حادثة كما ترى تمنى بعدها أن يخلو إلى طعامه . ولما عز عليه ذلك طفلا ، التزمه عندما صار أمره إليه حتى تزوج .

حادثة أخذته بألوان من الشدة فى حياته . صار قليل الأكل عــلى رغبة فيه حتى لا يوصف بالشره أو يتغامز عليه أحد . كان يسرف فى تصغير اللقمة حتى حنق عمه عليه فكره عمه هــذا . كان يســتحيى أن يشرب على المائدة حتى لا يضطرب القدح من يده . فكان طعامه جافــاً ما جلس على المائدة ، حتى إذا فرغ منه شرب من حيث يغسل يديه وعب حتى يروى . ولم يكن ذلك المــاء نقياً دائماً فغدا ممعوداً .

ثم حرم على نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شىء ، حتى لا يثير

---

(١) اقرأ الأيام جـ ١ ص ١٢٠ .
(٢) الأيام جـ ١ ص ١٩ — ٢٠ .

ضحكاً ولا إشفاقاً . ولهذا انصرف إلى الاستماع إلى القصص والأحاديث (ومن هنـــا تعلم حسن الاســـتماع) .

حادثة كما يقول (حدت ميله إلى الاستطلاع ، وملأت قلبه حياء لم يفارقه إلى الآن) .

وهكذا عمقت هذه الحادثة جذورها فى نفسه وتركت ميسمها عليها. فمن ذلك الوقت (عرفت لنفسه إرادة قوية ، ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألوانا من الطعام لم تبح له إلى أن جاوز الخامســة والعشرين . حرم على نفسه الحساء والأرز وكل الألوان التى تؤكــل بالملاعق لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة . وكان يكره أن يضحك إخوته ، أو تبــكى أمه ، أو يعلمه أبوه فى هدوء حزين) (١) .

* * *

لم يعد بعد هذه الحادثة طفلا يلعب ويمرح بل اقتضب طفــولته اقتضابا فيه كثير من القسر وفيه كثير من القســوة على نفســه . ترك رفاقه فى الملعب وانضم إلى رفاق أبيه فى ندوة العصر فى فنــاء البيت المنبسط أمام المنظرة تطل عليه عنبات ندية من آيات القرآن الذى كان سيدنا يؤثر أن يقرأه فى هذا الفناء كل يوم قبل أن تطــلع الشمس . فإذا التقى والده بأصحابه يستمعون إلى واحد منهم — وهـو بينهـم يسرى بأذنه ويسمع بكامل صغوه — قصص الغزوات والفتوح وأخبار عنتر والظاهر بيبرس وأخبار الأنبياء والنساك والصــالحين ، وكتبا فى الوعظ والسنة . ولم يكن صبينا (غافلا عما يسمع ، بل لم يكن غافلا عما يتركه هــذا القصص فى نفوس السامعين من الأثر) (٢) .

فإذا دخل الليل ترقب مجلس الشاعر فلا يفوته إنشاده أخبــار

---

(١) الأيام جـ ١ ص ٢٠ .
(٢) الأيام جـ ١ ص ٢٥ .

الهلاليين والزناتيين إلا أن تقسره أخته على النوم . هذا فى الليل أما النهار فكثيرا ما كان يخلو فيه إلى نفسه ، يميل إلى حديقة المعلم جرجس التى كان يحبها حتى ليقضى فيها الساعات بعيدا عن الناس .. وصحبتهم .. إلى حد غير بعيد . فقد كان لا يطيق العزلة الخالصة ولا يحب الخلطة الخالصة .

وهناك حديقة أخرى كانت له بها وقفات يداعب لبلابها يتخطى السور ، ويتدلى فى فضول على الطريق . وما به حب اللبلاب ولكنه الشوق إلى عزيزة وأمينة أختى عثمان ومحمود رفيقيه .

كما عرف أغانى القرية بل و (تعديدها) من أخواته وأمه . وحفظ أيضا أوراد جده التى كان يتلوها أثناء إقامته عندهم فى الشتاء من كل عام . (ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الأغانى والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملة صالحة . وحفظ إلى ذلك كله القرآن) (١) .

وبحفظ القرآن صار شيخا صغيرا كما كانوا يدعونه . كان عمره تسع سنوات وعمر الزمن ١٨٩٨ م .

ولكن هذه المشيخة التى اقترنت باسمه قبل الأوان كلفته من الأمر عسيرا . فإن أباه أمثل بزهو الأبوة وهو بين صحبه ، أن يقرأ عليهم ولده ما حفظ من القرآن . فنادى به وطلب اليه أن يقرأ سورة الشعراء فتعثر . فصرفه إلى النمل ، ثم القصص فلم يكن أحسن حظا . لم يذكر الشيخ الصغير من السور الثلاث إلا أن أولها (طسم) ثم ارتج عليه بعدها فى كل مرة .

* * *

---

(٢) الأيام جـ ١ ص ٢٧ .

(كان هذا اليوم مشئوما حقا ، ذاق فيه صاحبنا لأول مرة مرارة الخزى والذلة والضعة وكـــره الحيـــاة) (١) .

ومن الغريب أنه عاد فحفظ القرآن ثم نسيه وتعرض لهذه التجربة مرة أخرى فى صورة أشد عسرا ونكرا . وكان الامتحان هــذه المرة فى ســـورة ســبأ وفاطر ويس .

على أن الشيخ الصغير لم يطق الفشل فى هذه ، فذهب إلى الكرار حيث القرمة وأخذ الساطور وأهوى به إلى قفاه ضربا . وأقبلت أمــه على صرخته فأوسعته ذما وتقريعا ، وجذبته ملقية به فى زاوية من زوايا المطبخ . (ولبث صاحبنا فى مكانه لا يتحرك ولا يتكلم ولا يبكى ولايفكر كـــأنه لاشىء) (٢) .

على أنه فيما بعد قرأ القرآن على مفتش الزراعة وأتقن التجويد برواية « حفص » وكاد يبــدأ فى رواية « ورش » لولا أن ســافر إلى القاهرة .

وفى هذه المرحلة من حياته عرف طه حسين (علماء القرية) واختلف اليهم . وعرف مشـــايخ الطرق الصــوفية . وكان بينهــم وبين أسرته صلات قوية . (ترك فيها آثارا باقية من الأخبار والقصص ، وأحاديث الكرامات والمعجزات التى كان أبواه يستمرئان التحدث بها إلى أبنائهما) .

وبهذا كله تأثر طه حسين .

ومن المحادثات التى هزت صباه ولا تزال ، مــوت أخيه ، (ومن ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيرا تاما) . عــرف الله حقا وأخــذ

---

(١) الأيام جـ ١ ص ٤٠ .
(٢) الأيام جـ ١ ص ٦٠ .

يتقرب اليه • (من ذلك اليوم عرف الصبى أرق الليل) • (ومن ذلك اليوم عرف الصبى الأحـــــلام المروعة •

وهكذا وفى طه لأخيه ولم ينفك وافيا •

❊ ❊ ❊

كانت أمنية الشيخ حسن ، وهو الموظف بشركة السكر ، أن يرى ابنه (طه) قاضيا ، وأن يراه من علماء الأزهر قد جلس إلى أحد أعمدته تتحلق من حـوله ندوة واســـعة المدى •

وعمل الأب لهذا وأرسل ابنه إلى القاهـرة مخلفـا وراءه الريف والثوب الفضفاض الذى كان يلبسه قبل أن يهبط إلى القاهرة (والذى كان يمتاز من ثياب أترابه من أهل الريف بضيق كميـه وتكسرهما بعض الشىء عند آخرهما ، وبهـذا التكسر المنظـم به عند الخصر ، ولـكنه لا يحيط بالجسم كله وإنما هما قطعتان قد خيطتا على جانبى الثوب من يمين وشمال ، ثم وصلت إحداهما بالأخرى أزرار من الصدف • وكان يضع على رأسه ذلك الغطـاء الرقيق الأبيض الذى يسـمونه الطاقية وإنما هو يصطنعه المترفون من أهل المدن فى الأقالـيم يقلدون به بعض قلانس الفرنجة ويسمونه (الطاقية الافرنجيـة) • فلما وصـل حياته بالقاهرة وقع له ما نفره • فقد سمع الشيخ يقول : (ولو قال لها أنت طلاق أو أنت طلام أو أنت طلال ، أو أنت طلاة ، وقع الطلاق ولا عبرة بتغـــير اللفظ) (١) •

إن الدكتور طه (يقســم) فى الأيام أنه احتقر العلم منـذ ذلك اليوم) • وإن كان أخوه بعد ذلك قدمه إلى أستاذه الذى علمه مبادىء الفقه والنحو ســـنة كاملة •

---

(١) الأيام جـ ١ ص ١٤٤ .

لقد صدمه الإفتاء على هذا النحو العقيم الضيق الحصر . وهو الذى كان فى أول عهده بالأزهر (يشعر أنه فى وطنه وبين أهله ، لا يحس غربة ولا يجد ألماً . وإنما هى نفسه تتفتح من جميع أنحائها ، وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقى .. ليتلقى ماذا ؟ ليتلقى شيئاً لم يكن يعرفه ، ولكنه كان يحبه ويدفع إليه دفعاً . طالما سمع اسمه وأراد أن يعرف ما وراء هذا الاسم ، وهو العلم) (١) .

***

كان يجد فى الأزهر كما يقول (راحة وأمناً وطمأنينة واستقراراً كأن هذا النسيم الذى يترقرق فى صحن الأزهر حين يصلى الفجر يتلقى وجهه بالتحية فيملأ قلبه أمناً وأملا) حتى إذا قطع به صاحبه الصحن وصعدا معاً هذه الدرجة اليسيرة التى يبتدىء بها الأزهر نفسه ، امتلأ هذا القلب خشوعاً وخضوعاً . وامتلأت نفس طه حسين إكباراً وإجلالا حتى ليخفف الخطو (على هذه الحصر المبسوطة البالية التى كانت تنفرج أحياناً عما تحتها من الأرض ، كأنها تريد أن تتيح لأقدام الساعين عليها شيئاً من البركة بلمس هذه الأرض المطهرة) (٢) .

وفى القاهرة كان يقيم مع أخيه وصحبه فى غرفة هى أشبه بالدهليز قد تجمعت فيها مرافق البيت مادية وعقلية . وكان مجلسه من هذه الغرفة منكمشا متطامنا (كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة ، يمشى خطوة أو خطوتين فيجد حصيرا قد بسط على الأرض ألقى عليه بساط قديم ولكنه قيم . هنالك يجلس أثناء النهار ، وهنالك ينام أثناء الليل تلقى له وسادة يضع عليها رأسه ولحاف يلتف به) (٣) .

كان فى هذه الغرفة يشعر شعورا قاسيا بالغربة والوحشة لأنه

---

(١) الأيام ج ٢ ص ١٦ — ١٧ .

(٢) الأيام ج ٢ ص ١٧ — ١٨ .

(٣) الأيام ج ٢ ص ٦ — ٧ .

لا يعرفها ولا يعرف فيها شيئا حتى الهواء الذى كان يتنفسه بها كـــان يجد فيه ألمـــــا وثقـــلا •

***

وفى القاهرة كان يتردد على حانوت الحاج فيروز وكانت له أهميته عند طلاب العلم فى ذلك العهد • وهو الحانوت الثانى فى حياة طه حسين التعليمية • أما الأول فكان حانوت الشيخ محمـد عبد الواحد وأخيـه الشاب الحاج محمود • فقد كان إذا فرغ من الكتاب مضى إليه (فجلس هناك متحدثا متندرا مسـتمعا لما كان يقـوله المشـترون من الرجـال والمشتريات من النساء من هذه الأحاديث الريفية الساذجة التى تمتـع باختلافها وطرافتها وسذاجتها أيضا) (١) • وربما قل الطارئون عـلى الحانوت من المشترين والمشتريات ، فيحلو للصبى أن يخلو لصاحبيـه يتحدث مع أولهما فى أخبار الشيخ ماضى وآثاره وكراماته ومقاماته ، ويقرأ عليه الثانى كتب القصص والوعظ فلا يشوب هـذا الصفاء إلا ملعونة من النساء أو الفتيات تفد على الدكان لتشـترى بعض الملح أو الفلفل أو الخيط أو غير هذا من سقط المتاع ، فينقطع الحديث •

***

ومن الأشياء التى نشأت بينه وبينها صداقات فى القاهرة ، شارع الحلوجى • ذلك الشارع الضيق حتى لتكاد تبلغ جانبيه إذا مددت يديك عن يمين وشمال كما يقول • ولكنه شارع الكتب مطبوعها ومخطوطهـا على اختلاف أقدارها • (كم كانت للصبى فى ذلك الشارع الضيق وقفات خصبة ممتعة لم ينسها قط حين تقدمت به الأيام ، واختلفت عليه أطوار الحيـــاة) (٢) •

---

(١) الأيام جـ ٢ ص ٣٥ •
(٢) الأيام جـ ٢ ص ١٤ •

ومن أراد أن يعرف حنان طه حسين للأشياء فليقرأ قصته مع (الصندوق) .

* * *

وحياة طه حسين فى القاهرة شريط حافل بكلمات وحركات وصور. فمن الحركات التى لا تنسى حركة صاحبه أو رفيق الطريق . كان إذا انتهى درس ليبدأ آخر أقبل عليه ذلك (الرفيق) فيأخذ بيده فى غير كلام ، ويجذبه فى غير رفق . ويمضى إلى مجلس آخر فيضعه فيه كما يضع المتاع وينصرف عنه (١) .

كان طه حسين يحس هذه الحركة . ويزيد احساسه ألما ، مشيته. (كان مستخذيا فى نفسه من اضطراب خطاه وعجزه من أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الهادئة ، ومشية صاحبه المهتدية العازمة العنيفة) (٢) .

* * *

وفى أول عهده بالقاهرة كان السكون يطول عليه فيرهقه فيغفو جالسا . وقد يسلمه الإغفاء إلى النوم فلا يفيق إلا مذعورا على صوت يدعوه (بهذه الكلمة التى رنت فى أذنه أعواما وأعواما : « مولانا أنائم أنت ؟ ») (٣) .

كان سكون العصر يضطره إلى النوم . أما سكون العشية فكان يضطره إلى اليقظة . ولعل دخول الليل وزحف الظلمة على نفس الكفيف المتوحد أروع ما كتب الدكتور طه حسين أو من أروعه على الأقل .. كان

---

(١) الأيام ج ٢ ص ٢٢ . ص ٩١ — ٩٢ .
(٢) الأيام ج ٢ ص ١٥ .
(٣) الأيام ج ٢ ص ٣٧ .

إذا فرغ من طعامه (عاد إلى سكونه وجموده فى ركنه الذى اضطر إليه . وقد أخذ النهار ينصرم وأخذت الشمس تنحدر إلى مغربها . وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب هادىء حزين . ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة فيعرف الصبى أن الليل قد أقبل . ويقدر فى نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه . ويقدر فى نفسه أن لو كان معه فى الغرفة بعض المبصرين لأضىء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة . ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون ، وإن كان ليراهم مخطئين فى هذا الظن . فقد كان فى ذلك الوقت يفرق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور . وكان يجد فى المصباح إذا أضىء جليساً له ومؤنسا . وكان يجد فى الظلمة وحشة لعلها كانت تأتيه من عقله الناشىء ومن حسه المضطرب .. والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه ، صوتاً متصلا يشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلىء وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما ، ويبلغ قلبه فيملؤه روعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويخفى رأسه بين يديه ، ويسلم نفسه لهذا الصوت الذى يأخذه من كل مكان)[1].

« ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون وإن كان ليراهم مخطئين فى هذا الظن ، فقد كان فى ذلك الوقت يفرق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور » .

أنا لا أستطيع أن أنسى هذه الجملة مهما قرأت .

❋ ❋ ❋

وفى القاهرة التى قدم إليها طه حسين من قلب الريف ليسعى إلى الأزهر ، تلقفته مدارس كثيرة لم يكن الربع الذى عاش فيه أقلها شأناه فإن ما اكتسبه فيه من العلم بالحياة وشئونها والأحياء وأخلاقهم لم يكن

(١) الأيام ج ٢ ص ٣٨ — ٣٩ .

فى تقديره ، أقل خطرا مما اكتسبه فى بيئته الأزهرية من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد (١) .

وفى القاهرة اختلف طه حسين إلى جامع محمد بك أبو الدهب ودار الكتب . أما الجامع فقد كان يعرفه حق المعرفة وكانت له فيه قصص عندما كان يسمع دروس النحو والمنطق فى جميع أماكنه وزواياه . أما دار الكتب فقد آثرها على درس (القشور) أى النحو والمنطق ، فكان يذهب إليها مع الظهر ويبقى بها حتى الغروب موعد إغلاقها .

وكما امتحنت الأيام طه حسين ، امتحنه الناس .

أنبىء ذات يوم بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان فى حفظ القرآن توطئه لانتسابه إلى الأزهر .

(وسعى إلى مكان الامتحان فى زاوية العميان خائفا أشد الخوف مضطربا أشد الاضطراب . ولكنه لم يكد يدنو من المتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة ، وأمتلأ قلبه حسرة وألما . وثارت فى نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط ، فقد انتظر أن يفرغ المتحنان من الطالب الذى كان أمامهما ، وإذا هو يسمع أحد المتحنين يدعوه بهذه الجملة التى وقعت فى أذنه ومن قلبه أسوأ وقع : « أقبل يا أعمى » (٢) ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه فى غير رفق وقاده إلى المتحنين فى غير كلام ، لما صدق أن هذه الدعوة قد سيقت إليه ، فقد كان تعود من أهله كثيرا من الرفق به وتجنبا لذكر هذه الآفة بمحضره . وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يشغل قط عن ذكرها) (٣) .

ونجح طه حسين فى هذا الامتحان وألبس سوار الخيط ذى القطعة

---

(١) اقرا الأيام جـ ٢ ص ٩٨ .
(٢) الأيام جـ ٢ ص ١٠١ .
(٣) الأيام جـ ٢ ص ١٠٢ .

الرصاص علامة النجاح ولكنه لم يحس لهذا النجاح ، الحلاوة ، التى يسعد بها كل ناجح . لقد (ظل مشغولا عن السوار بدعـوة الممتحن له وصرفه إياه) .

وتمضى الأيام طويلة حافلة وتتراكم الأحداث على الجـرح حتى لتكاد تغطيه أو تنسيه فإذا بشيخ من شيوخ الأزهـر .. شـيخ كبير يغضب إذ يجادله طه حسين فى العـلم فيقـول للفتى فى حدة سـاخرة (أسكت يا أعمى ما أنت وذاك !) .

وهاج جرحه ورد على الشيخ فى حدة الطعين : (إن طول اللسان لم يثبت قط حقا ولم يمح باطـــلا) .

إن هذا الشيخ الذى شاء أن ينكأ جرحه الكبير كان مغضوباً عليه من القصر حتى منعه من إلقاء درسه . فانتصر له طه حسين وذهب إليه فى نفر من الطلاب وتمنوا عليه أن يواصل درسه عليهم فى بيته . وجاهروا بمناصرتهم له فأعلنوا فى الصحف ! كان طه حسين يراه أملا فغدا الأمل ألما تذكـــره الأيـــام .

❋ ❋ ❋

وفى ليلة ! وما أكثر لياليه . أطفأ أخوه المصباح لينصرف . ولكنه لم ينصرف وحده هذه المرة ، لقد سبقه إلى الباب نحيب مكتوم .. لقد أجهش بالبكاء فتى أنطفأ مصباحه . ولكن وحدته لم تطل أكثر من أيام بعد هذا فقد حضر إلى القاهرة رفيق طفولته ، طالباً للعلم فتغيرت حياته كلهـــا منـــذ ذلك اليـــوم .

تنفس فى كيانه حب الحياة ثم ضج صوتها فى أرجائه فضـاقت به الغرفة التى شهدت أيامه .. لم يكن يدخلها إذا عاد إلى الربع إلا ليتخفف من عباءته ثم يعود ليجلس أمامها مع صاحبه وقد (أخذ أكثر الطـريق على المارة) فلم يخل لهم منه إلا موضع أقدام الرجل الواحد أو الرجلين

وفى هذا المجلس كان الصبيان يلهوان بالحديث قليلا وبالقراءة كثيرا . وقد يفرغان لما كان يجرى فى الطبقة السفلى من حركة وحديث . ويسمع أحدهما ، ويرى الآخر ويفسر لصاحبه ما يرى .

وكذلك عرف الصبى الربع أكثر مما كان يعرفه . (وعرف من شئون أهله أكثر مما كان يعرف . وسمع من أحاديثهم أكثر مما كان يسمع . عاش جهرة بعد أن كان يعيش سراً) (١) .

* * *

خطط الصديقان حياتهما وعود كل منهما صاحبه عادات لازمته . فمما تعود طه ودأب عليه ألا يمر بمسجد سيدنا الحسين أو يزوره إلا قرأ الفاتحة . (وقد تقدمت به السن واختلفت عليه أطوار الحياة ، وما يذكر أنه مر بمسجد سيدنا الحسين إلا قرأ فى نفسه هذه السورة الكريمة من سور القرآن) (٢) .

كيف كان الصديقان يعيشان ؟ كيف كانا يدبران طعامهما ؟ كيف كانا يسعيان إلى الأزهر ؟ ذلك حديث عجيب وشائق مع هذا . أليس شائقا وعجيبا أن يفطر طالبان ويتعشيان بقرش وقد يحتالان على هذا القرش اليتيم فيقتطعان منه ثمن (البليلة) أو التين فى بعض الأحيان ؟

وفى هذه المرحلة اختلف طه حسين إلى الأزهر ، وإلى مسجد محمد بك أبى الذهب ، وإلى مسجد الشيخ العدوى .

* * *

وفى هذه المرحلة عرف الطالب الشيخ ألوانا من الأساتذة . فشيخ يتفاهم بحذائه أو قبضة يده . فإذا ألحف طالب فى السؤال فنصيبه لكمة

---

(١) الأيام جـ ٢ ص ١١٠ .
(٢) الأيام جـ ٢ ص ١١١ .

إن كان مجلسه قريبا من الأستاذ البركان ، أو رمية من حذائه إن كان فى الصفوف الخلفية .

وشيخ كان معجبا بشعره حتى لينشـده فى درس الفقـه . وويل للطلاب إذا قطعوا عليه غناءه . وقد حفظ عنه طه حسين بيتا كان يتغنى به مترنحـا :

كـأن عمتـه من فوق هامتـه
شنف من التبن محمول على جمل

وقد حاول طه حسين ، مجادلة شيخ الفقه مرة ولج فى الجدال . يقول طه حسين . (وتصايح الطـلاب من جوانب المسجد الحسينى بالشيخ أن حسبك فقد نفد الفول . فأجابهم الشيخ فى غنائه الظريف : لا والله لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون . ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع ، فقد كان هو أيضا حريصا على أن يدرك الفول قبل أن ينفذ (١) .

وشيخ كان يفسر لهم القرآن فيكثر من الأخطاء ولا سيما حين كان يعرض للغة والأدب . ولكن هذا أمره أسهلهم فقد كانوا يضحكون منـه ويحصون عليـه أغلاطه ليتندروا منهـا .

وشيخ لقى منه بلاء عظيما ومع هذا يضحك منه كلما تذكره ضحكا شديدا . فقد كان يجلس قبالته فى الدرس . وهنا نترك الرواية للدكتور طه نفسه . (جلس الشيخ على كرسـيه وأخـذ فى القراءة ، فقـال : « المقصد الثانى فى التصديقات » يقلقل القاف ويفخم الصاد ، ويمـد الألفات والياءات مدا متوسطا ، ثم يعيد هذه الكلمات نفسـها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويمد الألف والياء فى « الثانى » ولكنه لا يقـول « فى التصديقات » وإنما يقول (فى مين ؟) فلا يرد عليه أحد . فيرد على نفسه ويقول « فى التصديقات » . ثم يعيد الكلمة نفسها على هذا

---

(١) الأيام جـ ٢ ص ١٥٠ .

النحو نفسه ، فإذا انتهى من قوله « فى مين ؟ » ولم يرد عليه أحـد ، ضرب بظهر يده فى جبهة الغلام وهو يقول :

« ردوا يا غنم ، ردوا يا بهائم ، ردوا يا خنازير ! » .

يفخم الغين والخاء إلى أقصى ما يستطيع فمه أن يبلغ من التفخيم، فيقول الطلاب جميعا (فى التصديقات) (١) .

وكم تعذب طه حسين بهذه الضربات وإن كانت تضحكه فى سره . فقد كان يخاف الأستاذ إن ضحك جهرة . فلما توالت الضربات لإصرار الطلاب الخبثاء على عدم الرد ، رأى طه حسين أن الأسلم التقهقر إلى الوراء والجلوس فى مكان بعيد ينجو فيه من كف الشيخ الغليظ . ومـا زال يتأخر يوما بعد يوم فى مجلسه حتى بلغ باب القبة ، فخرج منه ذات ليلة ، ولم يدخله بعد ذلك (٢) .

ولكن طه حسين كان يعد أشد عيوب المشايخ ايلاما لنفسه (الغيبة والنميمة) أساتذة وطلابا حتى كرههم طه حسين جميعا وعاف مجالسهم. وتأكد فى نفسه هذا الشعور بعد خروج الأستاذ الامام من الأزهـر . وكان تلاميذ الشيخ محمد عبده مبثوثين فى الأزهر . وكان الظن بهم أن يهبوا لنصرته مهما فدحهم الثمن . ولكن الأستاذ الامام خلف الأزهـر واتخذ دارا للافتاء فأسفوا فيما بينهم ولم يزيدوا . وقليلون هم الذين زاروه فى عين شمس ، وانصرف عنه الكثيرون !

وهزت هذه الواقعة نفس طه حسين بالألم والشجن والغيظ أيضا.. ولم يكن فى ذلك الحين قد عرف الأستاذ الامام .

ولم يلبث الشيخ محمد عبده ، بعد أن خرج من الأزهر أن خـرج من الدنيا بأسرها . فروع فقده مصر ، ولم يكن الأزهريون أكثر الناس

---

(١) الأيام جـ ٢ ص ١٤٠ ، ١٤١ .
(٢) اقرأ الأيام جـ ٢ ص ١٣٩ — ١٤٠ .

روعا ! (وكذلك عرف الفتى فى ألم لاذع ولأول مرة فى حياته الناشـئة أن ما يقدم إلى عظماء الرجال من ألوان الإكبار والإجلال وضروب التملق والزلفى ، لغو لا طائل تحته ولا غناء فيه ، وأن وفاء النـاس ينحل فى أكثر الأحيان إلى كـلام لا يفيد) (١) .

* * *

قضى طه حسين أعوامه الأولى فى الأزهر منتميا إلى رواق الفشنية وبدأ يتطلع بعد هذا إلى المرحلة الثانية ، مرحلة المنتظرين . فرفع ورقة إلى شيخ الرواق يطلب إليه أن يقيد اسمه بين أسـماء المنتظـرين . وختمها بالجملة التقليدية فى ذلك الحين : (جعلكم الله ملجأ للقاصدين).

ثم انتقل طه حسين من صفوف المنتظرين إلى رهط المستحقين بعد أن نجح فى امتحان الانتساب إلى رواق الحنفية . وبهذا أصبح طـه حسين مستحقا . (ونال رغيفين فى كل يوم فكثر الخـبز فى الغرفة ، وفرحت الأسرة فى الريف) .

ونال طه حسين أكثر من هذا خزانة فى الرواق يحفظ فيها نعليـه ورغيفيه أو أحدهما . وليس هذا بالشىء القليل الشأن فقد كانت النعال لها جاذبية خاصة فى الأزهر ، حتى أصبحت سرقتها من الأمور المألوفة الشائعة . حتى ازدهر بفضلها فن الاعلان فى الأزهـر فكان أصـحاب النعال المسروقة يلصقون على جدران الأزهر من حول الصـحن أوراقا يعلنون فيها (أن نعالهم قد ضاعت وأن من ظفر بها فردها إلى صاحبها فى مكان كذا ، أو رواق كذا ، فله الأجر والثـواب ، ومن احتفظ بهـا متعدياً قطعه الله من هذا المكان !) (٢) .

* * *

---

(١) الايام جـ ٢ ص ١٤٧ .
(٢) الايام جـ ٢ ص ١٤٨ .

ولكن هل انصرف الطالب الشيخ إلى علومه الأزهرية وحدها وخلص لها ؟ كلا لقد أقبل على شىء آخر يبدو فى نظر الكثيرين متعارضاً مع الاتجاه الأزهرى .. لقد أقبل الشيخ طه على .. الأدب حفياً به أول الأمر ، ثم متفانياً فيه . أحب الأدب ولمَّا يدرسه ، حديثاً يُروى . كان أخوه وصحبه يتذاكرون طرائف الشيخ الشنقيطى وإن كانوا لم يسيغوا ما يحمِّلهم من (معلقات) . ولكن أخاه حاول أن يحفظ هذه المعلقات . ونجح فى حفظ معلقة امرىء القيس ، ومعلقة طرفة اللتين كان يردد أبياتهما بصوت مسموع . فيلتقط الصبى منه ويحفظ عنه حتى إذا آنس منه ميلا إلى الحفظ أشركه فيه ، وإن كان الصبى فى حقيقته لم يفهم لما يردده معنى . وبهذه الطريقة حفظ طه حسين عشر مقامات الحريرى ، وطائفة من خطب الإمام على فى (نهج البلاغة) ، ومقامات بديع الزمان الهمزانى ، وقصيدة أبى فراس :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهى عليك ولا أمر

(وكذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط . وجمع فى نفسه أطرافاً من هذا الخليط من الشعر والنثر . ولكنه لم يقف عند شىء من ذلك ولم يفرغ له ، وإنما كان يحفظ منه ما يمر به حين تتاح له الفرصة ، ثم يمضى لشأنه وفناقله) (1) .

❋ ❋ ❋

وانصرف الطلاب الكبار عن درس الشيخ المرصفى فلم يعد طه حسين يسمع حديث الأدب الأثير عنده . ولكنه لم يلبث أن ترامى إليه أن الشيخ المرصفى سيجعل يومين من أيام الأسبوع لقراءة المفصل للزمخشرى فى النحو . فأقبل عليه حفياً بالدرس والدارس ، كما حضر

---

(1) الأيام جـ ٢ ص ١٥٨ .

بالطبع دروس الأدب فى دورها من الأسبوع .. ومنذ ذلك الحين لـــزم الشـــــيخ المرصفى .

لم يكن الشيخ المرصفى أقل به كلفاً . فقد اصطفاه فيمن اصطفى من تلاميذه بعد أن كشف مواهبه وعرف مزاياه من قــوة ذاكرة ووعى شامل لما يسمع وإن طال عليه العهد وبعد به التاريخ .

وقد التقى الأستاذ والتلميذ فى بغضهما لشيوخ الأزهر ونقدهمـــا لهم ، وفى شىء آخر هو حبهما الراسخ للحرية خالصـــة من القيود .. كل القيود والأغـــــــــلال .

* * *

وليس كالشيخ المرصفى فى درس الأدب ونقده ــ وعنه أخــذ طه حب النقد وحريته ــ ومع هذا لم يثبت معه من تلاميذه الذين تقاطروا عليه أول الأمر إلا قليلون امتاز منهم وظهر عليهم ثلاثة هم : طه حســين ، وأحمد حسن الزيات ومحمود الزناتى . وكون الثلاثة جماعة سار ذكرها فى الأزهر ، وذاع نقدها له ، وشاع رأيها فيه ولم يــكن مدحا . وزادوا أن جهروا بقــراءة الكتب القــديمة وتفضــيلها على الكتب الأزهرية . (يقرءون كتاب سيبوية أو كتاب المفصــل فى النحو ، ويقــرءون كتابى عبد القاهر الجرجانى فى البلاغة ، ويقرءون دواوين الشعراء لا يتحرجون فى اختيار هذه الدواوين لا فى السر ولا فى الجهر ، وإنشاد ما كان فيها من شعر المجون أحيانا ، فى الأزهر . ويقلدون هذا الشعر ، ويتناشدون ما ينشئون من ذلك إذا التقوا) (١) .

وحفظها لهم الأزهريون وباتوا يتآمرون بهم ويدبرون بليل .

وبينما هم يستمعون يوما إلى الشيخ عبد الحكم عطا ــ وكان من

---

(١) الأيام ج ٢ ص ١٦٧ ــ ١٦٨ .

عادته أن يقطع درس البلاغة دقائق للاستروواح فيقبل هو على نشوقه ، ويقبل الطلاب على أقداح الشراب يطفئون به نار الفول .. بينما هـم فى هذه الهدنة القصيرة من الدرس ، إذا بأحد المشدين يأتى فيدعو طه والزيات والزناتى إلى غرفة شـيخ الجامع . وهنـا بدأت معركتهـم مع الأزهر .. معركة لم تعرف الهدنة إلا بعد أن خلفوا الأزهر لائذين بالجامعـــة الجـــديدة .

انصرف الثلاثة من الأزهر بل انصرفوا عن الشيخ المرصفى ، وكان أملهم الباقى فى الرجال لترفعه عن الدنايا وتعففه عن الصغار على خلاء يده وشدة حاجته التى كان يسترها عن الناس فلا يعرف إلا خاصـته المقربون الذين كانوا يرون ويصمتون ويعجبون أيضـاً . ومع الصمت والعجب يرتفع فى أعينهم (الأستاذ) أقدارا .

وكان الشيخ المرصفى يرى رأيهم فى شيخ الجامع الذى أحنقهم فى ذلك الحين بل كان يذهب فيما يزعمه لهم متندرا أنه لم يخلق للعـلم ولا للمشيخة ، وإنما خلق لبيع العسل الأسود فى سرياقوس . وكـان قد فقد أسنانه فكان ينطق السـين ثاء ، فـلم ينس تلاميذه (بائـع العثل فى ثرياءوث) .

ويقول طه حسين (ولكن بائع سرياقوس هذا كان شـديداً حازماً وكان مهيبا صارما ، يخافه الشيوخ جميعا ومنهم الشيخ المرصفى . فقد أخذ يقرأ كتاب المغنى وذهب إليه تلاميذه ، مطمئنين ، وما يعنيهـم أن يقرأ الشيخ هذا الكتاب أو ذاك . حسبهم أن يقرأ الشيخ وأن يسمعوا منه ويقولون له وقد سمعوا منـه . فلما هـمّ الفتى أن يقول له بعض الشىء أسكته فى رفق وهو يقول : « لأ ، لأ ، عاوزين ناكل عيش » . ولم يعرف الفتى أنه حزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هـذه الجملة من أسـتاذه ، فانصرف عنه ومعه صـديقاه وإن قلوبهم ليملؤها حـــــزن عميق) (١) .

---

(١) الأيام جـ ٢ ص ١٧٠ — ١٧١ .

وخرج طه حسين والزيات والزناتى من الأزهـر •• ولـكن لطفى السيد ، كريما ، شفع لهم عند الشـيخ حسـونة فعادوا إلى الأزهر •

(ومنذ ذلك الوقت اتصل الفتى بمدير الجريدة وجعل يتردد عليه ، حتى جاء وقت كان يلقاه فيه كل يوم • وفى مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشىء طالما تمناه ، وهو أن يتصل بهيئة الطرابيش بعد أن سـئم بيئـة العمائم • ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء • وكان هو ، فقيرا متوسط الحال فى أسرته ، سىء الحال جداً إذا أقام فى القاهرة ، فأتاح له ذلك أن يفكر فيما يكون من هذه الفروق الحائلة بين الأغنياء المترفين والفقراء البائسين) (١) •

عاد طه حسين إلى الأزهر ولكن صفاءه لم يعـد • كان يحتمـله احتمالا حتى ينقذه الصيف من ضيقه وتبرمه من (الأزهر والأزهريين) ولم يعد يقبل على الدروس إقباله الأول المتطلع المتحفز إلى السـؤال والمناقشة والمداعبة أحياناً ، بل كان النـوم يلحقه فى مجلسـه أيا كان الأستاذ صاحب الدرس ، فيوقظه الطلاب « جادين أو هازلين » •

***

كانت الأجازة الصيفية فرصته الواسعة للقراءة المتنوعة المجـدية والتفكير • وما أكثر ما كان يخلو إلى القراءة ويستغرق فى التفكير • وفى هذه الفترة قرأ ترجمات فتحى زغـلول عن الفرنسـية والسـباعى عن الانجليزية •• قرأ جورجى زيدان ويعقـوب صروف والشـيخ رشـيد وقاسم أمين وكثيراً من آثار الأستاذ الإمام •

ثم ما لبث أن أنكر أجازاته أيضاً فقد تحولت أسرته عن مسـقط رأسه إلى أعلى الأقاليم ثم إلى أقصى الصعيد بعد أن سـبقها عائلها إليه • وكان الفتى الذى حفظ مدينته وحفظ طريقه فيها يتهيب المدينـة

---

(١) الايام ج ٢ ص ١٧٣ •

الجديدة إلى حد النفور ، وإن كان قد انتهى أمره إلى الاطمئنان إليها ثم الكلف بها على الرغم مما لاقاه فى طريقه إليها • وما لاقاه حدث يروى فإنه من الأحداث التى تمس جرحه الكبير •

ركب القطار السريع مع الأسرة فى منتصف الليل فبلغ بهم المدينة الجديدة فى الساعة الرابعة من اليوم الثانى • وكانت المدينة جديدة على القطار أيضاً فلم يقف بها إلا دقيقة واحدة وكأنها للاستطلاع فقط •

وكانت الأسرة المكدسة فى القطار جمعا وفيرا من الأبناء والنساء بينهم حفنة من الأطفال وكومة متضخمة من الأمتعة • ولما لاحت المدينة الجديدة للقطار والركاب تدافعت الأسرة فى طريقها إلى الباب يحدو كبارها ، الأطفال والنساء والمتاع أيضاً • وكل يهيىء نفسه للنزول حتى إذا وقف القطار تواثبوا إلى الرصيف مخلفين فى العربة ذلك الذى أغلقت نافذتاه فلم ير المدينة الجديدة ، ولم ير الطريق إلى باب القطار ولم يره ، بدوره أحد •

وذعر الفتى تفترسه الوحدة والعجز والحيرة فى جلسته اليائسة بين الغرباء الذين لم يلبثوا أن أحسوا ما به فأخذوا يهدهدون ألمه ويسكنون روعه حتى وقف القطار فى أول محطة • فأخذوا بيده وأودعوه مكتب التلغراف فى عجلة ليلحقوا بالقطار •

واستقر بالأسرة المقام فى دارها الجديدة بعد أن طافت بحجراتها فى جولة مستطلعة • ثم أخذ الشيخ مجلسه بين أبنائه وبناته يتحدث إليهم بعد غيبة طويلة ثم جاء ذكر ابنه طه فذعروا واستطاروا •• وفكر الشباب فى مكتب التلغراف فهرولوا إليه ليجدوا النبأ فى انتظارهم •• إن أخاهم فى المحطة المجاورة فأرسلوا إليه من جاء به (ردفا على ظهر بغلة كانت تسعى هادئة مرة مهملجة به مرة أخرى فتضيف فى قلبه فرقا إلى فرق وذعرا إلى ذعر)(١) •

---

(١) الأيام ج ٣ ص ١٧٨ .

ورد الفتى إلى أهله وسكن روعه وأمن من خوف ولكنه لم ينس قط مجلسه عند صاحب التلغراف وقد اجتمع إليه جماعة من موظفى المحطة (فلما رأوا عنده هذا الفتى أنكروا ثم عرفوا أمره ، فأظهروا العطف عليه والرقة له . وقد رأوا شيخا ضريرا ، فما شكوا فى أنه يحسن قراءة القرآن أو يحسن الغناء . وهم يطلبون إليهأن يغنى لهم شيئا فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن الغناء طلبوا إليه أن يقرأ لهم شيئا من القرآن . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن ألحوا عليه وأبوا إلا أن يسمعوه . واضطر الفتى إلى أن يقرأ القرآن خجلا وجلا مستحييا ضيقا بالحياة لاعنا للأيام . وإذا صوته يحتبس فى حلقه ، وإذا الدموع تنهمر على خديه ، وإذا القوم يرفقون به وينصرفون عنه ، ويتركونه وحيدا أو كالوحيد حتى يأتى من يرده إلى أسرته) (١) .

***

وانقشعت سحابة لتطل فى الأفق غيرها . كان هذا العام مرحلة انتقال فى كل شىء .. فأسرته انتقلت إلى أقصى الصعيد وأخوه سينتقل إلى مدرسة القضاء ، وابن خالته صفية فى النجوى ، وزميله فى الدراسة ورفيقه فى الطريق ، التحق هو الآخر بدار العلوم .

وتحدث أخوه الشيخ فى الأسرة بتجميد حاضره ومستقبله بعد أن أقفر الربع من طلابه . لقد كان الأمل والهدف معا أن يظفر طه بدرجة العالمية من الأزهر . ولكن الآن ماذا عساه فاعلا بلا ساعد يتكىء عليه أو عين تقرأ له .. « أكبر الظن أنه لن يظفر بها » . وقهقه من وراء الغمام القدر .. وابتسمت الأيام .. أمه وحدها هى التى بكت لأن طيبتها صدقت نبوءة أخيه .

وكانت ليلة ثقيلة طويلة لقى الفتى فيها من نفسه عذابا شديداً ثم

---

(١) الأيام جـ ٢ ص ١٧٩ .

أصبح لا يقول شيئاً ولا يقول له أحد شيئاً ، فقضى نهاره ثقيلا طويلا . ثم أقبل عليه أبوه الشيخ مع المساء فمسح رأسه وقبله وقال له : ستذهب إلى القاهرة ، وسيكون لك خادم خاص . هنالك أجهش الفتى بالبكاء وأجهشت أمه بالبكاء أيضاً .

* * *

ومرة أخرى التقى بالقاهرة وقد اطمأن إلى رفيق حتى ليتخلف أحيانا كثيرة عن الأزهر لينقطع إلى ذلك الغلام الصغير يقرأ له فى الشعر مرة وفى التاريخ أخرى وفى القصص أحيانا كثيرة .. كان يرتاح إليه على الرغم من تعثره فى القراءة التى كان يصلح معوجها لنفسه فى نفسه.

ولقد كان لهذا الخادم مهمة أخرى . كان لسيده « إرادة » . بغيره يستطيع مرافقه أن يطلب إليه ما يريد . والدكتور طه يحكى أنه أراد أن يترك صديقا فى بعض الطريق (ولكنه قد احتاط لذلك عامداً أو غير عامد ، فأبى علىّ أن أصطحب غلامى الأسود الصغير . واستطاع على هذا النحو أن يخرجنى من غير خادمى ، وأن يتحكم فى أذنى وفى رأسى وفى رجلى كما أراد) (١) .

* * *

ولم يكن خادمه الأسود دليله إلى الأزهر وحده ولكن إلى الجامعة أيضاً . كانت الجامعة قد أنشئت وذلك سنة ١٩٠٨ فرأى فيها الفتى حلمه ، وعرف فيها طريقه ، وقر عندها شوقه الحائم .. (وإذا هو يجد للحياة طعماً جديداً ، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لاسبيل إلى الموازنة بينهم وبين أساتذته فى الأزهر) (٢) .

---

(١) أديب ص ٧٤ .
(٢) الأيام ج ٢ ص ١٨١ .

كان مبهوراً يخيل إليه أنه يسمع من المحاضرين فى الجامعة الأعاجيب مع أنه لم يكن يسمع كما يقول (إلا أيسر الأشياء وأهونها) (١) .

وهكذا لم تعد له غاية فى الربع بعد أن دخلت الجامعة حياته ، فانتقل بدوره إلى بيت جديد فى درب الجماميز . وكذلك لم تعد له ، مع الجامعة ، غاية فى الأزهر فأصبح يسعى إليه لماماً تحثه لقيا صديق أو زيارة الشيخ المرصفى . (وفى الحق أن الفتى قد قطع الصلة بينه وبين الأزهر فى دخيلة نفسه وأعماق ضميره ، ولكنه ظل مقيداً فى السجلات) (٢).

* * *

ولكن الأزهر شده إليه من جديد بفضل النظام الجديد للانتساب ، فإن صديقاً لأخيه كتب إلى المشيخة طلباً باسم طه لقبوله منتسباً نظامياً. وهكذا غدا طه الذى أريد له أن يظل بالريف ، طالباً بالجامعتين فى وقت واحد ! الجامعة الأزهرية والجامعة المصرية . ولعله كان يردد فى نفسه وهو يجمعهما فيها ، قديماً إلى جانب جديد ، فخر مهيار بضم المجد من أطرافه . فقد كان لا ينقصه الاحساس بقدره منذ فرض احترامه ؛ صغيراً ، على أسرته فى البيت ، وعلى قريته فى الريف ، وعلى جيرته فى الربع .. ثم على الحياة والتاريخ .

وفى الجامعة سمع دروس أحمد زكى بك (باشا) فى الحضارة الإسلامية ، ودروس أحمد كمال (باشا) فى الحضارة المصرية القديمة ، ودرس أجناسيو جويدى Ignazio Guidi فى أدبيات الجغرافيا والتاريخ . وجلس طه حسين إلى ليتمان ونللينو وسانتلانا . وكان لدروس سانتلانتنا فى تاريخ الفلسفة الاسلامية أثر عميق لا يمحى .

وقد صحب أستاذه سانتلانا إلى بعض دروس الأزهر فجلسا مرة

---

(١) اديب ص ٤١ .

(٢) الأيام جـ ٢ ص ١٨١ — ١٨٢ .

إلى الشيخ سليم البشرى يستمعان إلى درس فى التفسير . وكان موضوع الدرس الآية (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) . « سورة الأنعام » . فاعترض الدكتور طه على روح التفسير وصاح : إن هذا جبرية مطلقة . فرد الشيخ البشرى غاضبا : من أين تعلمت هذا الكفر ؟ من أساتذتك الإفرنج ؟ فهمس إليه سانتلانا أن أسكت .

وحضر طالب الجامعة طه حسين ، بها ، الأستاذ ميلونى . وكانت دروسه فى تاريخ الشرق القديم وخاصة تاريخ بابل وآشور وشومر ، كما حضر الأستاذ ماسينيون ١٩١٢ — ١٩١٣ عن الاصطلاحات الفلسفية (١) .

❋ ❋ ❋

وكان يختلف إلى الجامعة مع طه حسين صديقه بالأزهر أحمد حسن الزيات أحد الثلاثة الذين دوى صوتهم فى الأزهر وأثاروا غضبته ، كما كان أحد الثلاثة الذين استأثروا بمودة الشيخ المرصفى . وكان الشيخ المرصفى صديقا حميما للمستشرق الفرنسى (بلاج) الذى كان مفتشا عاما للغة العربية بالمدارس الفرنسية . فكان يطلب إلى الشيخ المرصفى أن يختار له أكفاء للتدريس بالمدارس الفرنسية فاختار تلميذه أحمد حسن الزيات فكانت هذه نقطة تحول لا فى حياة الزيات نفسه بل فى حياة صديقه طه أيضا . فإن (بلاج) فى ذلك الوقت كان يترجم حكايات لافونتين ثم يعهد بها إلى مدرس اللغة العربية الجديد أحمد حسن الزيات — بعد أن حاز إعجابه — لينظمها . واشتدت حركة ترجمة بلاج فرأى أن يكافىء (الزيات) . فكلف دوزيتيه مدرس الفرنسية بمدرسة الخرنفش بإعطاء دروس فيها للزيات الذى كان يعود إلى رفيقه فيقرأ عليه ما تلقاه فتتشرب ذاكرته ما يسمع ، من فرحة . ثم يتلقى الصديقان

---

(١) اقرأ كتاب (الى طه حسين) فى عيده السبعين .

معا دروسا أخرى على « لاتوش » أحد مدرسى مدارس برلتز لتعليم اللغات الحية . وهكذا تسنى لطه أن يحضر دروس الأدب الفرنسى التى كان يلقيها الأستاذ لوى اكليمان فى الجامعة المصرية .

* * *

وطال تردده زمنا على الأزهر والجامعة معا لغاية فى نفسه .

(كنت أريد أن أكون شيخا من شيوخ الأزهر مجدداً فى التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون بالشيخ محمد عبده . استعين على ذلك بما أسمع فى الجامعة وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد فى الصحف ، وما التقط من أحاديث المثقفين . فأصبحت وأنا أنشد انصرافا عن الأزهر ، ونفورا من دروسه وشيوخه ، وحرصا على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه) (١) .

وتحقق هذا المأرب بعد أن حصر فى الجامعة رسالة للدكتوراه فى « ذكرى أبى العلاء » . وقدمها فنوقشت بين يدى الجمهور فى ١٥ مايو سنة ١٩١٤ . فكانت أول إجازة علمية تمنحها الجامعة الوليدة فقررت إيفاده فى بعثة إلى فرنسا . وهكذا غدا الحلم حقيقة تبهر صاحبها والناس .

ولعل من أطرف وثائق الجامعة القديمة كما يقول الأستاذ سامى الكيالى ذلك الالتماس الذى قدمه إليها الطالب طه حسين لكى تقرضه خمسة عشر جنيها يشترى بجزء منها ملابس افرنجية بدلا من زيه الأزهرى ، ويسدد بالباقى أجرة الغرفة التى كان يسكنها ، استعداداً للسفر فى البعثة إلى باريس فصرفت له كما صرفت له المكافأة التى وقفها الدكتور علوى باشا ابتداء من عام ١٩١٣ على روح ابنه المرحوم

(١) أديب ص ٤٢ .

حسين علوى — وقـــدرها عشرة جنيهــات لمن ينبــغ من طلاب الجامعة المصرية عن سنتى ١٩١٣ — ١٩١٤ نظـرآ لتفوقه فى الدراســة ونواله إجازة العالمية فى قسم الآداب بدرجات عالية جداً (٢) •

***

وعند عودته إلى مصر سنة ١٩١٩ عين أستاذاً للتاريخ القـــديم (اليونانى والرومانى) • واستمر فى هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥ تلك السنة التى غدت الجامعة فيها حكومية بعد أن كانت أهلية فعين الدكتور طه أستاذا لتاريخ الأدب العربى فى كلية الآداب •

ويعتبر هذا المنصب بداية مرحلة فى حياة طه حسين • وفى ســنة ١٩٢٦ أخرج كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى أحدث ضجة أذاعت اسم طه حسين وإن عمه منها رشاش • فقد لغّت الصحف فى المعركة ، ولجت المجالس حتى أنزلت النيابة الستار بإصدار قرار يقضى بسحب كتــاب (فى الشعر الجاهلى) من الســـــــوق •

ولكن الستار لم يسدل على هذه المعركة إلا ليفتح من جــديد على أخرى وكأنها كانت فصلا من رواية طويلة •• فعندما عين ســنة ١٩٢٨ عميدا لكلية الآداب أثار هذا التعيين أزمة سياسية • حاربه وزير المعارف الوفدى لصلته بالأحرار الدستوريين فطلب إليه أن يستقيل ولـكنه أبى أن يستجيب حتى يعين أولا فكان له ما أراد • وعين يوما وقــع فى نهاره بعض الأوراق وقدم فى مســائه اســتقالته • وأتى من جــديد ميشــو الفرنسى ، عميـــــــدا •

وعادت كلية الآداب تتطلع من جديد إلى طه حسين وذلك فى ســنة ١٩٣٠ — فوافق وزير المعارف الذى لم يلبث غير يومين حتى طلب إليــه أن يستقيل من الحكومة ليضطلع برئاسة تحــرير جــريدة « الشعب »

---

(٢) اقرأ (مع طه حسين) ص ٢٤ •

لسان حال حزب الشعب الذى أنشأه رئيس الحكومة اسماعيل صدقى باشا • ولكن الدكتور طه آثر العمادة على الصحافة فعادوا من جديد يلمحون باسم رئيس الحكومة فلم يثنه ذلك عن قراره •• ومرت العاصفة مخلفة آثارها الظاهرة والمطوية •

* * *

ولم يمض على هذا الهدوء النسبى أكثر من عامين حتى واجهته الحكومة من جديد طالبة إليه أن تمنح كلية الآداب ، الدكتوراه الفخرية بعض السياسين وهم : على ماهر وابراهيم يحيى وعبد العزيز فهمى وتوفيق رفعت • ومرة أخرى قاوم الدكتور طه الرغبات القاهرة « سمُوا بالدكتوراه أن ترتخص وتمنح لهوى » مع تقديره لهذه الأسماء •• ودعاه وزير المعارف « حلمى عيسى » آنذاك ، وخاطبه فى الأمر ولكن إصراره لم يهن وموقفه كالعادة لم يتغير • فلجأت الحكومة إلى كلية الحقوق مخلفة كلية الآداب التى يغالى بها • ولكن حلمى عيسى لم يصمت على مضض كما فعل صدقى باشا سنة ١٩٣٠ بل نقله فى ٣ مارس إلى وزارة المعارف فنفذ النقل ولكنه رفض العمل • وشنها حملة عاتية فى الصحف • وكانت ضجة فى الصحافة لها صداها فى الجامعة حتى تحرك صدقى باشا وحاول تطويعه ليتعاون مع حلمى عيسى ولكنه أبى ، للمرة الكم لست أدرى — أبى وطلب إليه بدلا من « التعاون » أن يعيده إلى منصبه فى الجامعة • ولم يطق صدقى الصبر هذه المرة فأوعز إلى أحد النواب أن يقدم استجوابا فى مجلس النواب أشعل الفتنة فيه وامتدت منه إلى الحياة خارجه فاصطنع صدقى العلاج للمشكلة الناشبة فأصدر قراراً فى ٢٩ مارس سنة ١٩٣٢ بإحالة الدكتور طه حسين إلى التقاعد •

وهنا لزم الثائر بيته دون أن يغمد قلمه فكان يكتب فى جريدة السياسة اليومية مجانا • وتولى رئاسة تحريرها فترة غياب الدكتور حسين هيكل •

* * *

وبعد سنة من هذه الحادثة أى فى مارس سنة ١٩٣٣ طلب إليه مصطفى النحاس أن يكتب فى جريدة « كوكب الشرق » مع صاحبها حافظ عوض فقبل . ولكنه ما لبث أن اختلف مع حافظ عوض لامتناعه عن دفع الغرامة عن أحد الكتاب . ولم يتردد فى الاستقالة من كوكب الشرق ثم اشترى امتياز جريدة « الوادى » وأشرف على تحريرها حتى ديسمبر سنة ١٩٣٤ إذ أعيد إلى الجامعة فى وزارة نسيم ، استاذاً فى كلية الآداب التى عين عميداً لها خلال عامين (مايو سنة ١٩٣٦) . واستمر فى العمادة ثلاث سنين (مايو سنة ١٩٣٩) . ولقد أعيد انتخابه ولكن الحكومة القائمة لم ترض عن هذه النتيجة فاضطر إلى الاستقالة من العمادة ليظل استاذاً . حتى بعد انتدابه مراقباً للثقافة فى وزارة المعارف حتى فبراير سنة ١٩٤٢ . وهو تاريخ مجىء الوفد إلى الحكم فعينه نجيب الهلالى وزير المعارف وقتئذ مستشارا فنيا لوزارة المعارف ثم انتدبه مديرا لجامعة الاسكندرية فى اكتوبر سنة ١٩٤٢ ، واستمر فى هذين المنصبين حتى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (١) . وفى هذا التاريخ أحيل إلى التقاعد مرة أخرى فظل « متقاعدا » حتى ١٣ يناير سنة ١٩٥٠ . فترة هدوء استمرت ست سنوات . .

***

فلما كانت سنة ١٩٥٠ (١٣ يناير) قلب طه حسين الصفحة إذ عين وزيراً للمعارف . فأحدث الثائر القديم ثورة فى التعليم إذ قرر مجانية التعليم الثانوى والتعليم الفنى منذ البداية . وامتد أمله إلى التعليم العالى فاستعصى عليه الملك وكأنه أحس نذر الخطر تزحف إليه من وراء هذا التغيير الجذرى . . وأذكى طه حسين من بين رماد الركود الجذوة المقدسة جذوة الروح المصرية حين تهب فجأة تصنع الأحداث وتأتى العظائم . حوّل الكثير من المدارس الأولية إلى ابتدائية وأنشأ آلاف

---

(١) اقرأ كتاب الى طه حسين فى عيده السبعين .

الفصول وكأن أيامه الأولى قد استيقظت فى نفسه ولِمَ نذهب بعيداً وقد قالها طه حسين فى بساطة الواثق من نفسه :

« اللهم اشهد أنى ما ذهبت قط إلى الجامعة أو إلى وزارة المعارف إلا كانت هذه القصة ملء قلبى ، وإلا ذكرت أنى كنت سعيداً حين تعلمت على حساب الدولة فمن الحق علىّ أن أتيح بعض هذه السعادة لأكبر عدد ممكن من شباب مصر ولو استطعت لأتحتها لهم جميعا » (١) .

وظل طه حسين فى وزارة المعارف كالنار المقدسة تصهر كل شيء وتجلو معدنه حتى شبت فى القاهرة نار أخرى آثمة دمرت كل شيء ، حتى الحكم .

استقالت الوزارة واستقال طه حسين وكان الوقت ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ وبعدها خلص طه حسين للانتاج الفكرى الخالص .

* * *

وهكذا عاش طه حسين صاحب رأى . وهو إذا آمن بشيء أو حتى بإنسان انتصر له ودافع عنه وفرضه فرضاً . وهكذا كان معارضا شديد المعارضة . وهو معارض منذ سافر إلى القرية أول مرة وهو طالب بسيط فى الأزهر ، فاستخفت به القرية وهى التى تحتفى بأخيه كلما شق دروبها بل تحتفى به غائبا فترفع الصوت فى السؤال عنه والاطمئنان عليه . فآذى ذلك نفسه فمضى ينقد كل شيء : دلائل الخيرات التى كان

---

(١) جنة الحيوان ص ٩٧ .

وقف كتاب (الفن فى حياتنا) للاستاذ فتحى غانم وقفة طويلة عند سر تعلق طه حسين بالتعليم . وعزا الى التعليم كل شيء فى حياته . والقول صادق فى جملته وان كنت اختلف معه فى التفاصيل . فقد كان المؤلف ينظر طول الوقت من زاوية واحدة مادية صرفه ثم يقسر الأقوال والأفعال قسرا على السير فى هذا الاتجاه تأييدا لرأيه الخاص .

يعتز بقراءتها والده ، ومجالس الشيوخ وامتد نقده إلى المحكمة الشرعية نفسـهـا .

وهكذا انتقم الصبى لنفسه ، وخرج من عزلته ، شـغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه . وتغير مـكانه فى الأسرة ، مكانه المعنوى إن صح هذا التعبير ، فلم يهمله أبوه ، ولم تعـرض عنه أمه وأخواته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والإشفاق ، بل على شىء أكثر وآثر عند الصبى من الرحمة والإشفاق . وانقطع ذلك النذير الذى سمعه الصبى فى أول الأجازة بأنه قد يبقى فى القرية ، يقطع عن الأزهر ويصبح فقيها يقرأ القرآن فى المآتم والبيوت .

***

وكانت بداية لها ما بعدها فمضى يجادل شيوخه فى الأزهر حتى خرج من الأزهر عقب جدال . حتى السلطان نفسه عارضه فكان إذا غضب على شيخ ، انتصر له طه حسين وأعلن انتصاره له فى الصحف وسعى إلى داره ولزم درسه فيها (لا حبا فى علمه ولا تهالكا على شخصه ، ولكن تحديا لذلك السلطان الذى كنا نراه جائراً متحكما ولا نريد أن نذعن لجـوره ولا لتحكمه) (١) .

***

ولعل أهم وقفاته فى معترك الآراء ، رأيه فى الشعر الجاهلى ، ورأيه فى مستقبل الثقافة فى مصر . وحديثه فى هذا الكتاب خاصـة عن الدين واللغة ، وفصله بينهما وبين مصائر الأمم وتشكيل الوحدات السياسية ، واستشرافه الدائب إلى مصر الأولى " مصر الفرعونية واعتزازه بنسبها

---

(١) أديب ص ١٩ .

أساسا (١) نصدر عنه مهما تقلبت ظروف أو تبدلت دول .

***

عاش طه حسين حر الرأى غاليا فى التجـديد كما يقول صـاحبه الأديب (١) . وقد يسفر طه حسين كدعوته إلى المصرية الخالصـة ، وقد يعمد إلى الرمز . وكتابه (جنة الحيوان) يغلب عليه طابع النقد السياسى الملفوف فهو من هذه الناحية من نماذج الأدب الرمزى . ومن توابع الرمز ما تجده فى أدب طه حسين من ظاهرات مثل (تلميذ فتى) (وأستاذ شيخ) وسيدة (أديبة أريبة) وهم وسيلته إلى النقد والسخرية .

ولكن حرية طه حسين حرية عقليـة فإذا تجـاوز الأمر العقليـات والمعنويات تحفظ طه حسين الانسان وحافظ إلى حد التزمت . فهو يكره

---

(١) انظر كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) وبعض ما جا عقبه :
— من المحقق ان تطور الحياة الانسانية قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لاتصلحان اساسا للوحدة السياسية ، ولا قواما لتكوين الدول . ص ١٦ .
— فقد تخففت اوروبا من اعباء القرون الوسطى ، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية ، لا على الوحدة المسيحية ولا على تقـارب اللغات والأجناس . ص ١٨ .
— ان مصر فرعونية وستبقى فرعونية ويجب أن تبقى فرعونية .
— ان الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين وانها ستبقى كذلك ، بل يجب أن تبقى وتقوى .
— ان المصرى مصرى قبل كل شىء ، فهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف .
— لا تصدق ما يقوله المصريون من أنهم يعملون للعروبة ، فالفرعونية متأصلة فى نفوسهم وستبقى كذلك .
— ان الاكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة الى الدم العربى ، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء .
— لا تنخدعوا ، لو كان للغة وزن فى تقرير مصير الامم ، لما كانت بلجيكا وسويسرا ولا أمريكا ولا البرازيل ولا البرتغال .

(١) أديب ص ٩٨ .

المجون ويقبّحه وينهيه فى صوره المختلفة نهـايات مظلمة • فالمجـون (يفسد المروءة ويذهب بنضرة الأجسام والنفوس) (١) •

❊ ❊ ❊

وقد عاش طه حسـين حيـاته يحاضر ويكتب فى النقـد والوصف والتراجم والتاريخ الأدبى والمقالة والقصة • وهو صاحب مدرسة ومنهج فى النقد خاصة • وفى أدب طه حسين نوافذ لنا عـلى الآداب الأجنبيـة وخاصة الأدب اليونانى ، وهو شديد الإيمان بهما بعيد التأثر • • • وقد لخص وترجـم عنهما كثيرا من القصص والروايات التمثيليـة والمذاهب الأدبية وعـرّف بكثير من أعلامهـا • فذهب الأدب الفرنسى بكتابيـه (لحظات) و (صوت باريس) اللذين ضمنهما من القصص والتمثيليات ما يحكى حياة فرنسا ويعكس صورة أدبها بخصائصه وسماته المميزة • كما ترجم عن الأدب الفرنسى كتاب (روح التربية) تأليف جوسـتاف لوبون Gustave Le Bon ، و (قصص تمثيلية) لطائفـة من أشـهر الكتاب الفرنسيين وغيرهما مما تسعه قائمة مؤلفاته بعد •

وذهب الأدب اليونانى بكتبه : (قادة الفكر) ، (صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان) ، (آلهة اليونان) ، وترجم عن أرسطو طاليس (نظـام الاثنيين) • ومن الأدب التمثيـلى اليـونانى ترجـم مسرحيات : « الكترا » و « انتيجونا » و « اوديبوس ملكا » (٢) •

وقد أثرت هذه الجهود فى الترجمة والتعريف ، الأدب العربى الذى استأثر بأيامه • وعندما يصل الحديث إلى الأدب العربى تتعدد كتب طه

---

(١) جنة الحيوان ص ٨٦ •

(٢) بمناسبة الأدب اليونانى نشير الى ترجمة للدكتور طه حسـين كتبها يونانى دكتور فى اللاهوت وآداب اللغة العربية هو ، د • اوجين ميخائيليدس نشرت فى العدد الثامن من مطبوعات معهد الدراسات الشرقية لمكتبة دار البطريرك فى الاسكندرية •

حسين . وأظهرها فى التراجم ما كتبه الدكتور طه عن أبى العلاء ، وفى النقد كتابه الذى أثار ضجة شملت الحياة الأدبية المصرية فى حينه . ولم تهدأ حتى سحب الكتاب من السوق فلم يظهر إلا بعد أن عُدل بالحذف والإضافة حتى اسمه مسه التغيير فصدر باسم (الأدب الجاهلى) . وكم معركة خاضها طه حسين واحترق بها بسبب هذا الكتاب . ومعارك طه حسين الأدبية تاريخ حافل هو جزء من تاريخ الحركة الأدبية فى مطلع القرن العشرين .

وكتاب (فى الشعر الجاهلى) له قصة لا تغفل :

ففى سنة ١٩٢٦ فى جلسة مجلس النواب [1] برياسة سعد زغلول (باشا) صاح نائب (الأستاذ عبد الخالق عطية) :

« حدث يا حضرات الأعضاء حادث فى الجامعة المصرية » وتنادى بالويل والثبور وعظائم الأمور . المهم أتعرفون ما الحادث ؟ ولعل الحاضرين يومئذ تساءلوا مثلنا باللفظ أو باللحظ لأن النائب المحترم قال فيما قال :

(هو كتاب فى الشعر الجاهلى ذلك الذى تضمن طعنا ذريعا على الموسوية الكريمة والعيسوية الرحيمة وعلى الإسلام دين الدولة المصرية بنص الدستور) .

ثم ندد النائب بشراء إدارة الجامعة الكتاب ولو بدعوى منع انتشاره . ثم سانده الشيخ مصطفى القاياتى فساق نصوصا كثيرة من الكتاب . ومن الطريف أن الشيخ بعد أن أطال فى الاستشهاد ختم بيانه قائلا :

(إذا لم أطل بينكم الليلة فى سرد النصوص الواردة فى هذا الكتاب وذكر الكلمات الشنيعة التى لا تدل إلا على زندقة فلأننى لا أريد إدخال

---

(١) مضبطة الجلسة الخامسة والخمسين لمجلس النواب يوم الاثنين ٦ ربيع الاول سنة ١٣٤٥ الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦ .

الحزن على قلوبكم ولأنى لا أود أن أرى دموعكم تسيل جزعا على دينكم وشرف دولتـــــــــكم) •

وجاء دور وزير المعارف فاعترف بشراء إدارة الجامعة جميع نسخ الكتاب وحفظها فى مخازنها كما اتخذت الاجراءات اللازمة لمنع طبع نسخ أخـــــرى منـــه •

ولكن هذا الرد لم يرو غلة • فتقاطرت الاقتراحات :

— اقتراح بإعدام الكتاب كلية •

واقتراح بإلغاء وظيفة صاحبه (وكأن الوظيفة هى الشخص) •

واقتراح باحالة المؤلف إلى النيابة العمومية وإقامة الدعوى ضده •

ولم يلبث النائب عبـــد الحميد البنان أن قـــدم بلاغاً إلى النيـــابة العمومية للتحقيق مع الدكتور طه حسين (فيما كتبه طعناً عـــلى الدين الإســـــــلامى) •

وقد انتهت هذه الجلسة الصاخبة بطرح الثقة بالوزارة كمـــا انتهت الضجة بإحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة العمومية للتحقيق معه •

ثم عادت الضجة فرفعت عقيرتها من جديد ولما يمضى عام •

ففى مايو سنة ٢٧ أثار الموضوع محمود رشـــاد (باشـــا) • وفى يونيه ٢٧ أثاره سعيد الروبى (بك) بلا طائل •

وفى ٢٩ يونيه سنة ١٩٢٧ أثير الموضوع على يد النائب عبد الحميد سعيد الذى طالب بإبعاد الدكتور طه عن الجامعة ومحاكمته إدارياً وكان يعضده فى المناقشة سعد زغلول •

وفى ٥ مايو سنة ١٩٣٠ أثار الموضوع الأستاذ عبد العزيز الصوفانى ودارت حوله مناقشة حادة دون جدوى •

وقد انبثقت عن الكتاب دراسات من مختصين بقصد تقويمه .

ففى سنة ١٩٢٧ ألفت وزارة المعارف لجنة من أساتذة اللغة والدين وهم : الشيخ محمد عبد المطلب والأستاذ الشيخ محمد حسنين الغمراوى (بك) والأستاذ أحمد العوامرى (بك) وطلبت إليها أن تقدم تقريراً عما إذا كان قد ورد به ما يمس الدين الإسلامى .

فانتهت اللجنة إلى إدانة الكتاب .

وقد جر الشعر الجاهلى إلى مهاجمة كتاب الدكتور طه (حديث الأربعاء) سنة ١٩٣٢ . ومن الطريف أن النائب الثائر على هذا الكتاب

— الدكتور عبد الحميد سعيد — ضم إلى مخاوفه الكثيرة من آثار الدكتور طه حسين ، خوفه من **جمال أسلوبه** ! باعتباره **جذاب خادع خلاب** يؤثر فى الناشىء المسكين) (١) .

وأدت هذه الأزمة إلى إحالة الدكتور طه إلى التقاعد .

❊ ❊ ❊

وفى هذه المحنة المطبقة ارتفع صوت العقاد الحر الجرىء يدافع عن الدكتور طه حسين كما لم يدافع عنه أحد . لم يثنه حملة سعد زغلول — الذى كان العقاد يكبره — على الكتاب مع الثائرين عليه .

وقف العقاد يدافع عن حرية الرأى ، وحرية البحث العلمى ، وعن حرية الإنسان .. تحت قبة البرلمان فى مجلس الشيوخ وسط بلبلة عاصفة لا تعرف مغبتها ..

---

(١) محضر الجلسة التاسعة عشرة لمجلس النواب يوم الاثنين ٢٩ شوال سنة ١٣٥٠ الموافق ٧ مارس سنة ١٩٣٢ .

ولكنه ، قوياً ، كشأنه دائماً لم يُبال . وكشأنه ، نبيلا ، لم يدخل حقيقة العلاقة الشخصية أو الفكرية بينه وبين طه حسين بل ارتفع على الخصومات والمودات واختار الطريق الأليق به وهو طريق الحق وإن كان وعراً مشكلا .

* * *

ومن كتب طه حسين فى الدراسات الأدبية (من حديث الشعر والنثر) ، (من بعيد) ، (حديث الأربعاء) .

وقد (أدّب) الدكتور طه ، التاريخ العربى فى كتابه (على هامش السيرة) الذى نزع فيه إلى الوصف التصويرى والقصصى .

ومن كتبه الذائعة (مستقبل الثقافة فى مصر) وله : (ألوان) (مع المتنبى) ، (حافظ وشوقى) ، (فى الصيف) ، (جنة الحيوان) .

وفى باب القصة :

(شجرة البؤس) و (دعاء الكروان) .

له الكثير مما يحسب للأدب المصرى .

ويؤثر الناس فى الشرق والغرب ، من بين كتبه جميعاً كتابه (الأيام) الذى حرصت اللغات على نقله إليها ولكن طه حسين يرى رأيا آخر . سأله أحد الصحفيين عن أقرب كتبه إلى نفسه فقال : إن الكتاب الذى أحبه وأوثره لا يعجب الناس وهو كتاب « أديب » . وإعجابى به يرجع إلى أننى وصفت فيه كثيراً من شئون حياتى الخاصة ، وما كان يحيط بها فى أوائل هذا القرن الذى نعيش فيه . لقد تحدثت فيه عن الجامعة القديمة ، وعن سفرى إلى أوربا . وهى ذكريات أحبها وأوثرها . صنعت هذا الكتاب على أن ما فيه تخيلات مما يخطر فى مخيلات الكتاب . والحقيقة أنه ليس فيه شىء من التخيل ، بل هو مجموعة من الحقائق . ولكن الناس معجبون بكتاب (الأيام) .

---

(١) كتاب (مع طه حسين) ص ٦٦ — ٦٧ .

ومن الطريف أن طه حسين كان ينظم الشعر فى مستهل حياته الأدبية • ومن شعره هذا قصيدته التى سماها (ليت للحب قضاة) والتى نشرت بجريدة (مصر الفتاة) ومنها :

شف قلبى ما يعانى	من تباريح الهوى
يعشق الحسن ولكن	ليس يحظى بالوصال
أنا من وصل حبيبى	بين صد ونوى
من عذيرى من بخيل	ضن حتى بالخيال (١)

أحسب الأمر رياضة شعرية وإن كان الدكتور طه فى نثره عرفنا بعزيزة وأمينة ، وزوجة المفتش التى لم تبلغ السادسة عشر ، وفرنند التى عرفه بها مثلنا صديقه الأديب ولكن هذه كلها فى شرعة الهوى نسائم لطيفة تسرى فيكون منها رَوْح وريحان ثم تمضى بها الحياة فلا تخلف منها إلا ذكرى عاطرة ولكنها عابرة • أما حبه الكبير الباقى فقد كان معه ، فى فرنسا ، على موعد باركته شريعة الله •

ويبدو أن نزعة الشعر عاودته بعد غيبة طويلة فقد بدأ مقال الغانيات بهذا المطلع المنغوم :

ـ من أين أقبلت يا ابنتى !

ـ من حيث لا تبلغ الظنون • •

ـ ماذا تريدين يا ابنتى ؟

ـ أريد مالا تقدرون • •

ـ كيف تقولين يا ابنتى ؟

ـ أقول مالا تصدقون !

ـ أسرفت فى الرمز يا ابنتى • •

---

(١) كتاب (غرام الأدباء) فى ١١ — ١٢ •

— بل ما لكم كيف تحكمون !

وينظر الشيخ حوله فلا يرى من يحـــاوره ، وينكر الشيخ نفســه لولا شكوك تساوره • فقد رأى شخصها الجميل ، تظله هذه الغصون ، ولم يزل صـــوتها الضئيل ، يثير فى نفســـه الشجون • وكانت الشمس قد تولت كالأمـــل الخائب الكذوب ، وظلمه الليل قـــد أظلمت ، كاليأس (إذ يغمـــر القلوب) •

❊ ❊ ❊

وبعد فهذه قصة حياة أو صورة حياة أما « فن الصورة » فموضوع يجد فيه الدارس سمات فنية للتسجيل والتحليل ما اشتملت عليه •

والصـــورة عند طه حسين تعتمد على **الحركة والتفصيل والتنغيم والمقابلة والتضـــاد** •

ولأمر ما يهتم طه حسين بالوجه خاصة كل قســـمة فيه : الجبهـــة والعين والأنف والشفة والصوت فهو مرة (ضئيل نحيل) ، ومرة محطم (لا يكاد السامع يســـمعه حتى يستحضر إناء من الزجـــاج وإناء من الفخار قد أصابه شـــق يسير فهو لا يرسل الصـــوت إذا مس إلا حدثنا بهـــذا الانحطام) (١) •

ما أبعد الفارق بين هذا الصوت وصوت (خديجة) (٢) •

وطه حسين لا يكل من الغوص فى التفصيلات • ولو صحب شخصا

---

(١) جنة الحيوان ص ٤٧ — ٤٨ •

(٢) (كان صوتها اذا ما تكلمت ، رخصا عذبا صافيا ممتلئا لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر فى النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر فى ظلمة الليل كأنه السهم ، واشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالا ونورا) المعذبون فى الأرض ص ٤٦ •

من أشخاصه يوما كاملا فإنه لا ينى يفصل فى وصفه حتى حين يذهب إلى النـوم .. إنه يتبعه ويتتبعه فلا يدعه حتى يستسلم للنوم (٣) .

ويذكرنى هذا بالدكتور محمد كامل حسين فقـد سمعت منـه رأيه فى أدب الأكفاء المكفوفين .. إنهم فى رأيه فئتان :

فئه متحديه كبشار وطه حسين .

وفئة هادئة مسلمة كالمعرى وإن بدأ متحديا يلعب الشطرنج ويقول :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل   عفـاف وإقـدام وعزم ونائـل

ثم آض إلى واقعه فإذا باللغة هى وحدها دنياه ... هى مجـال علمه وتفكيره وتفوقه فعكف عليهـا وألزم نفسه فيها بما لا يلزم للتميز مادام لا مجـال للتمايز خارجهـا ...

وفى لزومه مالا يلـزم ، لـون من الرهبنة والصبر والعكوف ... وهى صفات دينيه ...

يظلمه من يراه ملحـدا .

أما الفئة المتحـدية فعلماها : بشار الذى عبر بالصـورة ، وطه حسين الذى يصر على وصف الألوان والحركات والقسمات .. حين كان المعرى يختار المعنويات .

وريشة طه حسين فى رسم الصورة كريشة رسام الكاريكاتير تخدم **المبالغة والسخرية والإطراف** . ومن طرائف قوله (أقبل فحيا ثم تقدم يسعى حتى إذا بلغ مكانه جلس وكأنه الكثيب المنهـال فكان الناظر إليه يسـأل نفسه لأول وهلة أيرى انسانا جالسا أم يرى كومة من الرمل قد استخفى فيها شخص ضئيل لا يـكاد يظهر منه إلا تقاطيع وجهـه

---

(٣) اقرأ وصفه لسمير الليل . جنـة الحيوان ص ٨١ .

ضئيلة غائرة خليقة ألا ترى . . لولا هذا الصوت الذى يخرج منها ضئيلا نحيلا ، ولولا هذا الشرر الذى يتطاير من عينين صغيرتين لا تفتح عنهما الجفون إلا فى بطء بطىء وثقل ثقيل **كأنما تشد بخيط قد ركب فى قفاه ، وقام شخص من ورائه يجذبه متكلفا بين حين وحين)** (١) .

وهذه « مشية » :

(رشيق الحركة كثير الاضطراب لا يعرف السعى الهادىء ولا المشى المطمئن وإنما كان يجرى على الأرض أو كان يجرى فوق الأرض ، كأنه شىء من هذه الحيوانات الصغيرة الخفيفة التى ملئت نشاطا وقوة وحياة والتى تريد أن تطير فى الجو لولا أن الله لم يرزقها جناحين) (٢) .

وهذه (**جلسة**) لا تكف هى الأخرى عن الحركة !

(ولم تكن هذه حاله إذا انتقل من حيز إلى حيز فحسب ، وإنما كانت هذه حاله أيضا إذا استقر فى مكان وأقبل على عمل من الأعمال . فقد كان متحركا دائما مضطربا دائما ، لا تكاد العين تلحظه إلا رأت شيئا فى شخصه يتحرك ، فوجهه ملتفت مرة إلى يمين ومرة إلى شمال . ورأسه يرتفع حينا أو ينخفض حينا آخر ، ويداه تذهبان وتجيئان ، ورجلاه تداعبان الأرض مداعبة متصلة ، ولسانه لا يكاد يستقر فى فمه وإنما هو متحرك ببعض القول) . (٣)

حتى (الشخص المعنوى) متحرك مضطرب !

« ولم يكن شخصه المعنوى أقل حركة واضطرابا من شخصه المادى . فقد كان عقله مفكراً دائماً ، وكان قلبه متوثباً دائماً . وكان انطلاق لسانه فى فمه مصوراً دائماً لهذا العقل الذى لا ينى فى التفكير ،

---

(١) جنة الحيوان ص ٢٩ .
(٢) جنة الحيوان ص ٣٠ .
(٣) جنة الحيوان ص ٣٠ .

ولهذا القلب الذى لا يفتر عن الشعور » (١) .

***

وهو فى تصويره يستعين بالحركة ناطقة وصامتة نشيطة وساكنة أكثر مما يستعين بالألوان لأن الحركة قد تنبع من النفس فتدرك دون حاجة إلى الحس المباشر . فإن قبض الحيوية فى نفس الفنان قديرى بالخيال ، وبالتصوير ، وبقدرة الخلق الموهوبة له مالا يراه ذو العينين الواسعتين الذى يبصر ولا يرى أو قد يرى ولا ينفذ إلى أبعد من السطح (٢) .

وكاتبنا الحساس الذكى الإحساس ليس بحاجة إلى اصطناع الألوان بما فى مثل هذا الاصطناع من حرج . وهو فى غنى بوسائله الكثيرة فى التصوير والتعبير . إنك معه لا تتألم ولا تتذكر شيئاً بل تسعد معه وتسعد له حين كان الرافعى يذكر (النسيان) من شدة قرع الطبول فلا تشك لحظة فى أن بسمعه وقرا يثوده وإلا فكيف يجوز أن يستعمل المسكين — وهو كبير المحصول اللفظى فى اللغة واسعه — فى الغزل الذى يحلو الهمس فيه والسرار ، الألفاظ : — دمدم — عاصفة — زلزال — مدمر — الرعد — انفجار — قنابل — مدفع !! (١)

والحركة فى صور الدكتور طه نشيطة دائماً حتى إذا آضت إلى قرار . وهنا تحضرنى صورة ، أقصد **(لوحة) الجائعات** يحضر أمامهن الطعام (أقبل من فى الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء القرية البائسات على الطعام مسرعات تتزاحمن بالمناكب ، ويتدافعن بالأيدى ،

---

(١) جنة الحيوان ص ٣٠

(٢) ومن صور الدكتور طه التى تعتمد على الحركة المدركة ، صورته تصور كلاما أخف منه الخصام (الأم محنقة على ابنتها والفتاة نافرة من أمها لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين احداهما فى عين الأخرى ، انما تتفاهمان بالاشارة أو الجمجمة . فاذا التقت أعينهما فما أسرع الاطراق الى راسيهما ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة منتحلة احداهما الى أن تولى مدبرة لتنأى عن صاحبتها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث .) دعاء الكروان ص ٣٠ .

(٣) كتاب (دراسة فى أدب الرافعى) — للكاتبة — ص ٨٣

ويتزاجرن باللفظ واللحظ ، ويرتفع فى أثناء ذلك منهن دعاء لصاحب الدار أن يوثق الله حزامه ، ويعلى مقامه ، ويصرف عنه الداء وينصره على الأعداء ... حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قل الكلام ، وقرت الأجسام واضطربت الأيدى وعملت الأفواه) (١) .

هنا تبدو الحركة قارة هادئة ولكنها تنم عن عنف كالهدوء الذى يلى العاصفة هذه المرة مثل (وقرت الأجسام) . ويؤيد هذا (الهدوء الصاخب) قوله واضطربت الأيدى وعملت الأفواه .

***

وأرق ما يكون طه حسين حين يعبر عن ليل البصر تعبيرا شفافا ملؤه الحنان .

(عليه من مظاهر الشيخوخة هذا الشعر الذى وخطه شيب وهذه التجاعيد التى تظهر فى جبهته ، وهذه التجاعيد الأخرى التى تمتد حول أنفه من يمين ومن شمال ، وهاتان العينان اللتان لا تنفرج عنهما الجفون إلا فى شىء من الجهد حتى يخيل إلى من يراه وقد أغمض جفنيه وتحدث أو تحرك أنه إنسان يحيا من وراء ستار) .

ثم يمضى الدكتور طه فى تفاصيل دقيقة لقسمات الوجه لست أدرى من أين واتته إلا أن تكون صورا مترسبة فى ذاكرته منذ الطفولة أو صورا مطبوعة من قراءاته الواسعة (٢) .

وهاتان الشفتان المنفرجتان اللتان لا تجتمعان إلا فى شىء من العناء سواء تكلم صاحبنا أو لبث صامتا ، وهذا التهدل والترهل فى وجهه

---

(١) دعاء الكروان ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) لشد ما يذكرنى الصف عند الدكتور طه بكتابه (مع أبى العلاء فى سجنه) حيث يقول (... واقتنع أنا مما يجدون بما يبلغنى من رقة الهواء ونقاء الجو وصفائه وبما يحمله النسيم من العرق ، وبما يلقى فى نفسى من أوصاف لا تحقق لها شيئا ولكنها تثير فيها كثيرا من الخواطر والمعانى وضروب الخيال) ص ١٢ .

الضخم ، وجسمه الذى يريد الشحم أن يكسوه فلا يستطيع ، وهـذه الحركات البطيئة المتكسرة والمتعسرة التى تخيـل إلى من يراها انهـا تصـدر عن مجمـوعة عصبية قـد شملها الفتور وأخـذ يشبع فيهـا الفنـاء .. (١)

***

والصورة عند الدكتور طه لها **أبعاد وفيها مسافات :**

(وهذا التنفس السريع الـذى يتبع بعضـه بعضا فى أناة ، كأنه تنفس المكدود المجهود والذى يسمعه القريب عن مصدره والبعيد عنـه كأنه يخرج من أنف كثرت فيه الأعشاب فهو لا ينفذ من بينها إلا نفوذا عسـيرا) .

وصور طه حسين أو أغلبهـا صـور غريبة لا تقع عليهـا العين فى طريقها كل يوم بل يخيـل إليـك أن صاحبها التقطها من أماكن خاصـة بطريقته الخاصة . وهى حتى بعد أن عمل فيها تبدو (غلطة من غلطـات الطبيعة وفلتة من فلتات الدهر ، ووهما من أوهام الظروف) (٢) .

***

وطه حسين إذا رسم شخصية حدثك عن ماضيها واضطرابها فى الحياة وتطوراتها وتطور انفعالها حتى تطور النوم . فسمير الليل (يبلغ سريره فيلقى نفسه عليه إلقاء ويستسلم للنـوم استسلاما ، وما أكثر ما كان يقبل على السرير وهو يبغضهما أشد البغض ، ويمقتهما أقبح المقت ، ولكن لابد مما ليس منه بد . على أن النـوم لا يلبث أن يطبق عليـه اطباقا ويضمه ضما **عنيفا ثقيلا قصيرا أيضا**) (٣) .

***

---

(١) جنة الحيوان ص ٤٧ — ٤٧ .
(٢) اقرأ (جنة الحيوان) ص ٧٥ — ٧٧ .
(٣) جنة الحيوان ص ٨١ .

ولفن الصورة فى أدب طه حسين معرض كبير حافل فيه للأزهر قسم قائم بذاته تحت عنوان (الأيام) . ومن أبرز صور هذا القسم صورة صحن الجامع العتيق يجمع أنماطا من الناس وألوانا من الأصوات ففتى يقرأ القرآن ، ومتهجد مستغرق فى سبحاته ، وأستاذ آخذ فى درسه بينما يندو إلى حلقته طلابه مهرولين تتساقط عليهم كلما دنوا منه أسماء ينبع بعضها بعضاً ، تسبقها (حدثنا) ، وتفصل بينها كلمة (عن) .

وصور الشيوخ فى حديثهم وضحكهم ولازماتهم فى الضحك والحديث بل فى شرابهم وطعامهم .

تكاد ترى فى هذا الركن من معرض طه حسين الشيخ عبد الحكم عطا وهو (يكلف نفسه فى الفهم والافهام جهداً عظيماً وعناء ثقيلاً . حتى إذا بلغ منه الجهد غايته رفه على نفسه بهذه الجملة يوجهها إلى طلابه بين حين وحين فى لهجة منياوية عذبة مضحكة : « فاهمين يا سيادى » ؟) [1]

والشيخ الشنقيطى الحافظ الراوية وقصته مع (عمر) التى شغل بها وشغل الناس وتعرض بسببها لكثير من الشر والألم . كل هذا من أجل رغبته فى إثبات أن « عمر » مصروف لا ممنوع من الصرف ! وإصراره على هذا إصرار جاليليو على أن الأرض تدور .

والشيخ المرصفى ، وكان الفتى طه حسين يؤثر درسه على غيره من الدروس ، ومنزله المتهدم الخرب القديم فى حارة (الكراكى) بباب البحر والدكة الخشبية الضيقة الطويلة العارية المستندة إلى حائط يتساقط منه التراب .. هذه الدكة التى كانت مجلس الأستاذ وتلاميذه الذين كانوا يستارون سيرته بقدر ما يطيقون فهو على الضنى والاملاق لمترفع متعفف يحسبه الجاهل ، غنيا ، من الاستغناء والاستعلاء والوقار ،

---

(١) الأيام جـ٢ ص ١٥٠ .

قويا ، من الصبر والقناعة والدعة ، وهو الذى (ينفق الأسبوع أو الأسابيع لا يطعم إلا خبز الجراية يغمسه فى شيء من الملح) (١) .

* * *

وفى معرض طه حسين صور طريفة (للربع) حيث كان يعيش . فهناك صورة المائدة المستديرة (الطبلية) وقد جلس إليها الصبى طه حسين مطرقا إلى الأرض محنى الظهر كأنه القوس (ويده تذهب وتجيء فى أناة وخوف واستحياء بين هذا الرغيف قد **ألقى** أمامه على المائدة ، وهذا الطبق (من الفول) قد قام بعيدا عنه فى وسط المائدة . ويده تصطدم **بهذه الأيدى الكثيرة المسرعة التى تهوى لترتفع ، وترتفع لتهوى ، وتنزح الطبق فى أثناء ذلك نزحا** . والصبى معجب بذلك منكر له ، لا يكاد يلائم فى نفسه بين هذا التهالك على الفول والمخلل ، وذلك التهالك على العلم والدرس وما كانت تعرف به هذه الجماعة من النجابة والنشاط وحدة الذكاء) (٢) .

وصورة طه حسين نفسه يرد نفسه عن الأكل وهو يشتهيه ، ويحرم الشاى وله رغبة فيه لأنه (كان يجلس بين الطاعمين خجلا وجلا ، مضطرب النفس مضطرب حركة اليد . لا يحسن أن يقتطع لقمته ، ولا يحسن أن يغمسها فى الطبق ، ولا يحسن أن يبلغ بها فمه . ويخيل إلى نفسه أن عيون القوم جميعا تلحظه ، وأن عين الشيخ خاصة ترمقه فى خفية ، فيزيده هذا اضطرابا . وإذا يده ترتعش ، وإذا بالمرق يتقاطر على ثوبه ، وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيه) (٣) .

حتى إذا خلا إلى طعامه أتى عليه كله . وأغلب ظنى أنه يعوض حرمانه وحريته فى الأكل كسائر الناس . وإن ذهب إلى أنه كان يفعل

---

(١) الأيام جـ٢ ص ١٦٦ .
(٢) الأيام جـ٢ ص ٢٥ .
(٣) الأيام جـ٢ ص ٥١ — ٥٢ .

هذا (مخافة أن يَبقى منه شىء ويعود أخوه ويرى ذلك فيظن به المرض ، أو يظن به الحزن . وكان أبغض شىء إليه أن يثير فى نفس أخيه هما أو قلقا ..) (١) .

صورة طه حسين يتفزّع فى الظلام فى الغرفة القديمة المشققة الجدران فكانت الحشرات وصغار الحيوان تتوشه أو هكذا يخيل إليه . (وكانت هذه الحشرات وهذه الصغار من الحيوان كأنما وكلت بالصبى إذا أقبل الليل عليه وهو قابع وحده فى ذلك الركن من أركان الغرفة فهى تبعث من الأصوات الضئيلة ، وتأتى من الحركات الخفيفة السريعة حينا والبطيئة حينا آخر ما يملأ قلب الصبى هلعا وروعا) (٢) .

فإذا أقبل أخوه وحده أو مع أصحابه فأضىء المصباح انقطعت هذه الأصوات والحركات كأنها لم تكن . وكان الصبى من أجل هذا ومن أجل أشياء أخرى غير هذا لا يجرؤ على أن يذكر من أمر هذه الأصوات والحركات شيئا . وأيسر ما كان يخاف إن تحدث ببعض ذلك أن يُسفه رأيه وأن تُظن بعقله وبشجاعته الظنون . فكان يؤثر العافية ويكظم خوفه من الحشرات وصغار الحيوان . (٣) .

صورة طه حسين يثير فى نفسه آذان العشاء أملا قصيراً يتبعه يأس طويل .. أملا فى إضاءة المصباح يهدد وحشته ويضىء وحدته (المنكرة) ، ويأسا من الأنس والنوم . فقد كان أخوه يضىء المصباح ريثما يضع محفظته فى مكانها ويطمئن على صحتها ، ويأخذ ما يحتاجه من الغرفة ، ويلقى إلى الصبى الضرير الوسادة المعهودة ، واللحاف (ثم يطفىء المصباح وينصرف ويغلق الباب من ورائه ويدير فيه المفتاح ، ويمضى وهو يظن أنه أسلم الصبى إلى النوم وإن كان لم يسلمه إلا إلى أرق متصل مخفيف) .

---

(١) الأيام جـ٢ ص ٣٨ .
(٢) جـ٢ ص ٢٩ .
(٣) جـ٣ ص ٣٩ .

ويعود أخوه وقد ارتوى من الطعـام والشراب ومؤانسة الصحاب فيوقظ المصباح ويدع الصغير وقد حسب أنه (مغرق فى نوم هادىء لذيذ ، وما ذاق الصبى فى حقيقة الأمـر نوما ، وإنمـا انتظر جـزعا فزعـا عـودة أخيه) (١) .

ويزيد فى بؤس الصبى ، وحـزنه على نفسـه أنه لا يستطيع أن يتحرك من مجلسه حيث يوضع كأنه خلق بلا إرادة ... وهو مريد . فقد كان يكره ويأنف أن يراه أحد المارة متردد الخطى متعثر السـير متهيب الطريق . كان إذا همّ بشىء ... أى شىء خيل إليه أن الدنيـا كلهـا شفاه تهمس وعيون تلمز وأيدٍ تهمز وأصابع تشير .

ولو أن هذه الصورة حزينة قاتمة إلا أنها أجمـل صـور طه حسين وأقربها إلى القلب الإنسانى حتى لتلمسه لمسًا .

***

وفى معرض طه حسين صورة للحاج على الرزاز وقد بلغ أرذل العمر ثم لا يتورع فى مجلسه عن سقط القول وسفه الحديث وإن تكلف أمـام الناس التقى والـورع .

وصورة طريفة للحاج على الرزاز وهو يؤاكل القوم ويراقبهم بعين النسر ويتسقط أخطـاءهم أو ورطات الشراهة فى نفس البطين فيقـرع الأشقياء بلسانه ويخزهم باللفظ المسنون (منبها هذا إلى أنه يخدع نفسه عن قطعة البطاطس بقطعة اللحم ، ومنبها ذاك إلى أنه يسرف على نفسه وعـلى أصـحابه بمـا يغترف فى لقمتـه الغليظة من جامـد الطعـام أو سـائله) (٢) .

***

---

(١) الأيام جـ٢ ص ٣٩ — ٤٠ .
(٢) الأيام جـ٢ ص ٥٠ — ٥١ .

وحب طــه حسين للتفصيل فى الوصف يجــره أحيانا إلى **الإطـالة** بل إلى الإمعان فيها .. نجد هذا فى قصة (صالح) أولى قصص كتابه (المعذبون فى الأرض) وسأحلل هذا بعد قليل .

وعلى ذكر كتاب (المعــذبون فى الأرض) نقــول إنه يضم صــور **القرويين** والموظفين وصغار التجار والمرضى والكادحين ، فى سخرية مــرة من المجتمع عازيا إلى الفقر والحاجة (انتشــار الوباء فى غــير مشقة ، وانتشار الفساد الخلقى وانتشار الرشــوة ، وانتشار السرقه ، وتقطيع الصلات بين الناس ، وانتشار الظلمة فى الضمائر والقلوب ، وانتشــار اليأس حتى من روح الله ، وانتشار الذلة والمسكنة والهوان ، وانتشــار الإذعــان للظــلم والاستسلام للعسف والانقياد للاستبداد والاستخفاف بالحرية والكرامة ، والازدراء لكل ما يجعل الإنســان إنسانا فضلا عن الازدراء لكل ما يجعل الإنسان إنسانا متحضراً ممتازاً — كل هذه الآفات والمخازى ليس لها مصدر إلا هذا الشقاء) [١] .

وسخرية طه حسين سخرية تجربة بلت الحياة والناس **سخرية حزينة** لا سخرية ضاحكة .. إن تحليله لكلمة (إلى اللقاء) [٢] تؤيد هذا ولكنه أصبح يتلقى المودات والعداوات بالرضا لأنها جميعاً تعطيه ثقة بالنفس فهى (دليل على أن له فى نفوس هؤلاء الناس جميعاً مكانة ما ، **فإن الحب والبغض أوضح آيات التقدير**) .

* * *

وطه حسين يخدّم فيما يخدّم حين يصوّر ، **التناقض والمقابلة** ، ولا أقصد بالطبع المقابلة المعهــودة فى علم البديع أى المقابلة اللفظية ، وإنما أعنى المقابلة فى الوجــوه والصفات .. المقابلة فى الشخصيات فهو

---

(١) المعذبون فى الأرض ص ١٥ .
(٢) كتاب (فى الصيف) ص ٥ — ٦ .

يضفى على (خديجة) حلل الحسن حين تذهب محبوبة أمها بالدمامة كلها !.

وفى (شـجرة البؤس) جعـل من ابنتى خالد أعجـوبة فالأولى (سميحة) آية الملاحة والأخرى (جلنـار) لعنة القبح كأمها وشوكة فى روض الجمـال .

وقد خـدم المقابلة كثيراً فى (دعـاء الكروان) فصورة (الرجـل الذئب) ص ١٤٣ تعتمـد **على المقابلة فى الشـعور واللفظ وعلى السرعة** فى الحركة النفسية والحركة الظاهرة . وعلى هذا الأساس اعتمدت صورة المرأة اللعـوب (ص ١٤٤) التى تدنى وتقصى وتعطف وتصـدف وتلين وتقسو وتعذب وتشفق .

وفى (دعاء الكروان) رسم الدكتور طه للبنت الموعـودة بالخطبة صورة قائمة على المقابلات فى المظهر وحقيقة الشعور . فصاحبتها تصطنع غير ما تحس ، وتتكلف غير ما تشعر [1] .

وأحيانا يخدّم **المقابلة فى الصورة وفى الأسلوب معا** فقد رسم صورة للبائسين المترفين إذا أقبل كل عـلى طعامه ، تجمع الجمـال والقبح فى مكان واحد فى تواز لا يلتقى فيه النقيضان (فما أبعد ما بين هذه الأيدى الغليظة الخشنة قد تقلص جلدها وتقبض وهى تغوص بما فيها من الخبز غوصا فى القصاع فتصيب منها ما تستطيع ، وما بين تلك الأيدى الرقيقة الناعمة المترفة التى لم تكن تمتد إلى الأطباق إلا هينـة ، والتى لم تكن تمس ما فى الأطباق إلا بهذه الأدوات التى يعرفها أهل المدن خاصة ، بل يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة !

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفارغة التى يلقى فيها الطعام إلقاء على عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدرده الحلوق ! وكأن الطبيعة لم تودع هذه الأفواه حسا تجد به لذة ما تأكل وما تشرب ، وإنما اتخذتها طريقـا

---

(١) انظر دعاء الكروان ص ١٠٨ .

إلى الحلوق ثم إلى الأجواف ، وما بين تلك الأفـواه الصغيرة الضعيفة التى لم تكن تفتح إلا بمقدار والتى لا تلتهم ولا تلتقم ولا تنتهى بما فيها إلى حلوق تزدرد ، وإنما تطيل المضغ وتستمتع بما يمسها من الألوان ، ثم تنتهى به على مهل إلى حلوق تسيغه فى أناة ورفق ، كأنما الأكل فن من الفنون لابد فيه من الروية واصطناع المهل والأناة !) (١) .

وهـكذا ترى جانبين وبعـدين وعمقين تتقـابل فيهما المحسوسات تقابل الأضداد الذى يزيد الخطوط حدة .

فهنـا	وهنـاك
ــ أيد خشنة تقلص جلدها وتقبض	ــ أيـد ناعمـة رقيقة مترفـة
ــ تغوص غوصـا فى القصـاع	ــ تمتـد إلى الأطبـاق الهينـة
ــ وأفواه فاغـرة تزدرد الطعـام	ــأفواه صغيرةشبه مضمومة تطيل
بـــــلا استشعار اللــــــذة	المضغ وتستمتع بما يمسها منألوان

***

وهو يخدّم فى الصورة **التضاد** من حب وبغض وأمل ويأس ووعيد وخوف وشهوة وزهد وقرب وبعد (٢) .

***

وهو غالبا **لا يحدد صوره بالأسماء** فيقول (بيت من بيوت الريف) وما به حاجة إلى التحديد لأن الصورة تكيفها أشياء (ثابتة) .. تكيفها عوامل جذرية حتى لتصلح أن تكون نموذجاً فى بابها يتكرر ولا يختلف .

***

---

(١) دعاء الكروان ص ٣٥ .
(٢) انظر ص ١٤٤ دعاء الكروان .

أما ظاهرة التفصيل فإن عملية الاملاء ، ترفدها حافظة واعية ماسكة لا يتسرب منها شيء فهى تزخـر بالكثير من التفاصيل وقد مرنت عـلى الاختزان دون أن يشتتها سيل المرئيات .. كل هذا أمد صوره بحشـد حاشد من التفاصيل . والمثل عندى أسوقه فى صورة بيت من بيوت الريف الذى تبسط فى تصويره فى الصفحات من ١٢٠ — ١٢٤ من دعاء الكروان .

وعملية الإملاء تقف أيضاً وراء **ظاهرة التكرار** فالعين تســارع إلى اللفظ المعاد فتمحوه ولكن الأذن تستطيع الترجيع ولاسيما الأذن الطروب التى سمعت القرآن ووعته ، وأشربت موسيقاه طفلة . وفى القـرآن ، لأغراض بلاغية ونفسية تكرار يعذب على الترديد . وطالما ردد أديبنـا القرآن وطالما سمعه مرددا .

***

ومن أدوات الدكتور طه فى التصوير : **الجمل القصيرة السهلة الموقعة** فى كثير من الأحيان . وبمناسبة التوقيع أقول إنه فى صوره يعتمـد كثيرا على الصوت حتى ليلونه فيقول (صوت أبيض) . وهو يرفعه ويخفضه ويمطه ويقصره ويجعله مؤذياً فى السمع ويرسله أغنا طروبا .

والدكتور طـه حسين موسيقاه موسيقى العاطفة .. واللفظ عنـده يستخدمه لإبراز العاطفة . وفى هذه الموسيقية يكمن السر فى قدرته على الاستهواء والإقناع ، المؤقت على الأقل .. إنه يستطيع أن يأخذ القارىء إلى جانبه إذا رضى أو كره . وهو أقرب ما يكون إلى القلب حين تصدق عاطفتـه وتلمس تأثره . والعاطفة عنـده على غلبتها متزنة لا بكاءة ولا تمثيلية .

وهو كاتب خفيف الظل تسرى عذوبة روحه إلى لفظه .. أو لعلهـا عذوبة اللفظ وخفته فى الحركة والايقـاع يضفى على روحـه . فقصته (شجرة البؤس) الموضوع قاتم ولكن سخريته فى تعليقه على الأحـداث

(١) شجرة البؤس ٣٧ .

والناس تشيع الابتسام إن لم تبعث على الضحك . فأبو خالد (ونظراته التى كان يلقيها) إلى زوجه المغيظة و (جهده الصالح) ، حتى **الشمس** أراد الدكتور طه أن يداعبها فوصفها بأنها (تسعى إلى الغرفة فى استحياء ثم يزول عنها الحيـاء قليلا وإذا هى تغمر الغرفة فى جرأة أشبه شىء بالوقاحـة [١]) .

***

وقصة شجرة البؤس تصور القيم والعادات التى تحكم أهل الريف . تصور تحكم (الشيوخ) وكراماتهم الموهومة ، فى الناس ، حتى يبلغ بهم الوهم أحيانا أن يجعلوا منهم دولة فى الدولة فى حياتهم وبعد الحياة حتى ليحج أهل القرى ابتغاء الثواب (للشيخ) ! لا لأنفسهم [١] .

***

كما صور الريف فى كتاب (دعاء الكروان) وقابله بالمدن فى طـراز البيـوت والأثاث وأسلوب العيش ومسـتوى النـاس وطرائق التفكير والتعبير . وأبرز ما فى هذا الكتاب جبروت المرأة التى لم يقتصر تصويره لهـا على (آمنة) البطلة ، (أو سعاد) ، وإنما صورها تاجرة ، عرافـة ، سيدة ، وتابعـة ، **كائدة** ذات تدبير حتى أطلق فى الكتاب أكثر من صيحة استغاثة : (يالقوة النساء) ص ١٤٤ (ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد ؟) ص ١٢٨ .

انه يعتقد فى جبروت المرأة واستعصائها على القهـر (فهى لا تغلب إلا إذا أحبت ولا تقهـر إلا إذا أرادت ، ولا تذعـن إلا إذا رغبت فى الإذعـان) ص ١٤٩ .

---

(١) شجرة البؤس ص ٧٢ .

المرأة فى قصة (دعـاء الكروان) « سيطرة » « وهيمنة » تنسحب حتى على الأقوياء فهى سند للبوليس وعين ، وهى ساحرة كاهنة تستل الأسرار من خباياها فى الصدور • وهى فاتنة قادرة على اللعب برؤوس الرجال وقلوبهم • وعندما شبت المعركة بينها وبين الرجـل فى القصـة كانت أقدر منه على التحكم فى نفسها وأعصابها ، وأضبط منه لأهوائها ، وأقوى منـه فى التمثيـل ، وأروع فى تكييف الموقف وتخـديم الابداء والإخفـاء • كانت تجـذبه وتلقيه ، وتنشره وتطويه • وتحرمه وتمنيه ، وتطمعه وتزدريه • كانت متحكمة مالكة زمـام نفسها وزمام الأمـر كله حتى سلم المسكين فى النهاية وألقى سلاحه ثم جاءها كما تقـول (ماثلا بين يدّى يتلطف ويترفق ثم يستعطف ويستجدى ثم هذا هو جاثيا بين يدّى كأنه يتقدم إلىّ بالصلاة ، ثم هذا هو باكيا فى صمت ثم هذا هو مجهشا بالبكاء) • ص ١٤٦ •

ويزداد العجب إذا علمت أن الرجل فى القصة مهندس شاب وسـيم غنى مترف والمرأة فى القصة خادمته ! •• خادمة يائسـة شقية تتقاذفها أمواج الحياة المتلاطمة ولا مرفأ لها ترسو عليـه أو تركن اليه • تطاردها الأشباح والرعب كله عبر ماض تعيس قاس أسـود لا شية فيـه تشبه النـور !!

***

ويمثل أسلوب الدكتور طه **بلاغة الإسهاب** وكأنه يتحدى بهذه البلاغة التقليدية : بلاغة الايجاز • ولكنه الاسهاب الذى لا يورث ملالة أو سأما بل لعله يروق لك بقدر ما يخـدعك عن نفسه فتحسه قدرة من قـدرات الكاتب تعينه على مد أبعاد الصـورة وتوسيع آفاقها • إن العبـارة عند طـه حسين كاللحن المميز لا يخطئه السامع بين الألحان (وكـذلك أنفق أبو العلاء نصف قرن من حياته يواجه هذه الخواطر إذا أصبح ، ويواجهها

أثناء الليل إن أبطـأ عليه النـوم ، ولعله يواجهها أثناء النـوم إن صـورتها له الأحـلام) [١] .

أو بعبارة أخرى : لقد ملكت « الخواطر » على أبى العلاء نفسَه . ولكنها قدرة طه حسين على الاستهواء حتى ليحلو لك أن تدور معه أو وراءه حتى إذا خلصت من أسره وقرأته للنقد لا للمتعة راعتك الحقيقة فتبتسم منها وتبتسم لها وتبتسم أيضا من نفسك . هذا المضمون سهل المنال ولكن السر فى هذه الهالة حوله ..

وأسلوب طه حسين بهذه الخاصية مدرسة كثير تلاميذها وبعضـهم يحسب أنه على تقليده لقادر وما أكثر ما يحاولون وإنما :

يصنع الصانعون وردا ولكن وردة الروض لا تضارع شكلا

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه ص ٤٣ .

مؤلفات طه حسين

- ذكرى أبى العلاء ١٩١٥
- آلهة اليونان ١٩١٩
- دروس التاريخ القديم فى الجامعة المصرية — نشرت فى صحيفة الجامعة المصرية من عام ١٩١٩ — ١٩٢٤ ١٩١٩
- صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان ١٩٢٠
- قادة الفكر ١٩٢٥
- فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ١٩٢٥

رسالة الدكتوراه التى قدمها إلى السوربون سنة ١٩١٧ وقد ترجمها الاستاذ محمد عبد الله عنان .

- حديث الأربعاء ١٩٢٥
- فى الشعر الجاهلى ١٩٢٦
- فى الأدب الجاهلى ١٩٢٧

(الكتاب السابق بعد الحذف والإضافة)

- الأيام (الجزء الأول) ١٩٢٩
- فى الصيف ١٩٣٣
- حافظ وشوقى ١٩٣٣
- على هامش السيرة (الجزء الأول) ١٩٣٣
- دعاء الكروان ١٩٣٤
- من بعيد ١٩٣٥
- أديب ١٩٣٥

ــ الحيــاة الأدبية فى جزيرة العرب	١٩٣٥
وهذا الكتاب طبع مرة أخرى سنة ١٩٥٨ فى « ألوان »	
ــ مع أبى العــلاء فى سجنه	١٩٣٥
ــ من حديث الشعر والنثر	١٩٣٦
ــ القصر المسحور بالاشتراك مع الأستاذ توفيق الحكيم	١٩٣٧
ــ مــع المتنبى	١٩٣٧
ــ الحب الضــائع	١٩٣٨
ــ مستقبل الثقافة فى مصر	١٩٣٨
ــ الأيام (الجزء الثانى)	١٩٣٩
ــ (لحظــات) جــزءان	١٩٤٢
ــ على هامش السيرة (الجزء الثانى)	١٩٤٢
ــ على هامش السيرة (الجزء الثالث)	١٩٤٣
ــ صــوت باريس	١٩٤٣
وهو الذى طبع مرة أخرى سنة ١٩٥٦ بعنوان (من هناك)	
ــ أحــلام شــهرزاد	١٩٤٣
ــ شــجرة البؤس	١٩٤٤
ــ جنــة الشــوك	١٩٤٥
ــ فصول فى الأدب والنقد	١٩٤٥
ــ صــوت أبى العــلاء	١٩٤٥
ــ عثمــان	١٩٤٧
(الجزء الأول من الفتنة الكبرى)	
ــ رحلة الربيــع	١٩٤٨
ــ المعذبون فى الأرض	١٩٤٩
ــ مرآة الضمير الحــديث	١٩٤٩

ـ الوعـد الحـق	١٩٥٠
ـ جنـة الحيـوان	١٩٥٠
ـ بين بين	١٩٥٢
ـ علـى وبنـوه	١٩٥٣
(الجزء الثانى من الفتنة الكبرى)	
ـ خصـام ونقـد	١٩٥٥
ـ نقـد واصـلاح	١٩٥٦
ـ من أدبنـا المعـاصر	١٩٥٨
ـ مرآة الاسـلام	١٩٥٩
ـ من لغـو الصيف	١٩٥٩
ـ من أدب التمثيل الغـربى	١٩٥٩
ـ أحـاديث	١٩٥٩
ـ الشيخان	
(أبو بكر وعمر بن الخطاب)	١٩٦٠

كما حقق الدكتور طه (نقد النثر) لقدامة بن جعفر بالاشتراك مع الأستاذ عبد الحميد العبادى سنة ١٩٣٣ .

وشرح (لزوم ما لا يلزم) لأبى العـلاء المعـرى بالاشتراك مع الأستاذ إبراهيم الابيارى ـ العدد رقم ١٣ من مجموعة ذخائر العرب الجزء الأول ١٩٥٥ .

كتب مترجمة

وترجم الدكتور طـــه :

— الواجب : تأليف جـــول سيمون Jules Simon

ترجمه عن الفرنسية بالاشتراك مع الأستاذ محمد رمضان ١٩٢٠ — ١٩٢١

— نظام الاثينيين : تأليف ارسطو طاليس • ترجمه عن اليونانية ١٩٢١

— روح التربية : تأليف جوستاف لوبون ترجمه عن الفرنسية ١٩٢١

— قصص تمثيلية : تأليف جماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين ١٩٤٢

— أندروماك لراسين ١٩٣٥

— من الأدب التمثيلى اليونانى : سوفوكليس

ترجمة مسرحيات : « الكترا » و « إياس » و « انتيجونا »

و « أوديبوس ملكا » ١٩٣٩

— زاديج أو القدر عن فولتير ١٩٤٧

— أوديب شيوس — من أبطـــال الأساطير اليونانية ترجمـــة

عن أندريه جيـــد ١٩٤٧

ما ترجم من مؤلفـاته

١ ــ « **الأيام** » الجزء الأول :

1. E. H. Paxton : An Egyptian Childhood, the Autobigraphy of Taha Hussein. London 1932. إلى الإنجليزية
2. Taha Hussein : Le Livre des Fours, Souvenirs d'enfance d'un Egyptien. Paris 1934. إلى الفرنسـية
3. Kabiluk, Atamara. وترجمتها إلى العبرية كابلوك وأتمارا
4. Tsingtin. وترجمتها إلى الصينية
5. Krackovsky Dny : وترجمتها إلى الروسية بعنوان
6. Taha Hussein : Barndomsaribyn. Internationella Bokklubben. Lidingo, 1956. Inledning och oversatining : Carl Elof Svenning.

وترجم إلى الفارسية • ولخص الدكتور اسماعيل أدهـم كثيراً من فصوله إلى الألمانية والتركية •

٢ ــ « **الأيام** » الجزء الثانى :

ترجمة جاستون فييت ونشرت ترجمته مع ترجمة لوسرف للجـزء الأول فى مجلد واحد بعنوان :

Taha Hussein : Le Livre des fours. Traduit par Jean Lecerf et Gaston Wiet. NRF, Gallimard, Paris 1949.

وترجمة كراشكوفسكى إلى الروسية وظهرت الترجمة سنة ١٩٦٠ •

٣ ــ « **دعاء الكروان** » : إلى الفرنسية

Taha Hussein : L'Appel de Karawan. Traduit par Reymond Francis. Paris, Denoel, 1947.

٤ — « شجرة البؤس » :

إلى الفرنسية

L'arbre de la Misère. Traduit par Gaston Wiet, dans Revue du Caire.

٥ — « أديب » .

Taha Hussein : Adib, ou aventure occidentale. Traduit par Amina et Mounis Taha Hussein, Le Caire, 1960.

٦ — « مستقبل الثقافة بمصر » :

ترجمة ملخصة بعنوان :

Taha Hussein : The future of Culture in Egypt. Translated from the Arabic by Sidney Glazer. Washington, 1954.

٧ — « الوعد الحق » :

ترجمه إلى الفارسية أحمد آرام بعنوان : « وعد راسته » تهران سنة ١٣٣٠ هجرية شمسية فى ١٦٤ ص .

٨ — « على وبنوه » :

ترجمه إلى الفارسية أحمد آرام بعنوان : « على عليه السلام ودوفرزند زركَوارش طبع فى تهران سنة ١٣٣٣ هجرية شمسية . فى ٢٨٤ ص .

وترجمه إلى الأوردية بروفيسور محمد منور ّ دايم — بعنوان « الفتنت الكبرى » طبع فى لاهور بغير تاريخ . فى ٥٢٢ ص .

بين الدكتور طه حسين والاستاذ العقاد

يهوى الأدب العربى المقابلة بين الألفاظ ، و يهوى أصحابه الموازنة بين رجلين ملأ أدبهما الدنيا وشغل الناس .. هما الاستاذ العقاد والدكتور طه حسين . وكثيرا ما تحصر المقارنة نفسها فى زاوية أو تختار السير فى طريق مسدود حين تبدأ من النهاية ، فتسأل أيهما أقوى ؟ وهو سؤال لا يصح أن يكون وسيلة أو غاية . فالبحث الموضوعى الشامل فى وجوه التلاقى والتباين يملك وحده الجواب أو يفضى اليه أو على الأقل ، يدنى منه . فاذا توخينا (الموضوعية) وتحرينا الدرس وصلنا الى عدة نتائج :

الاستاذ العقاد والدكتور طه حسين **كلاهما تيار فكرى جديد** فكان العقاد أحد ثلاثة كونوا مدرسة الديوان (١) التى ثارت على الشعر التقليدى الغارق فى المدح والذم والفخر ، وثأرت لكرامة الانسان فى الشاعر ... ثارت على وحدة البيت أو بيت القصيد ورأت القصيدة وحدة متكاملة . وكما انصب نقد العقاد على شوقى ، ونقد المازنى ، على حافظ . نقد دكتور . طه حسين ولكن حافظا وشوقيا فى كتابه (حافظ وشوقى) .

---

(١) هذه المدرسة حركة تكونت من الاعلام الثلاثة الاستاذ عبد الرحمن شكرى والاستاذ عباس محمود العقاد والاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى سنة ١٩١٠ بينما الديوان لم يصدر الا سنة ١٩٢٠ وكانت هذه المدرسة عند مولدها تسمى (مدرسة المذهب الحديث) ولكن التسمية « مدرسة الديوان » جاءت بعد نشر الديوان .

بل إن الدكتور طه حسين خرج على الإجمـــاع وتمرد على الإمارة وقال فى خطــابه بمسرح الأزبكية عام ١٩٤٥ :

(ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : اسرعوا واستظلوا بهذا اللــواء فقد رفعه لكم صاحبه) .

وابتسم بعض الخبثاء وقالوا إنه يبايعه بإمارة الشعر لتخلو لــه إمـــارة النثر .. ولكنها فكاهة مصرية أكثر منهـــا حقيقة فما بالعقـــاد أو د . طه حسين حاجة الى المقايضـــة الأدبية وكلاهمـــا فى دولة الأدب مكين ، ومن نفسه على يقين .

على أن الدكتور طه لم يطلق الحكم بلا بينة ولم يرسله ، وهــو رجل الأدب ، بغير علم .. ولم يترك الموقف غامضا بل قال :

(تسألونى لمـــاذا أومن بالعقـــاد فى الشعر الحديث ، وأؤمن بــه وحـــده ؟ وجوابى يسير جدا ! لماذا ؟ لأنى **أجــد عند العقاد ما لا أجــده عند غيره من الشعراء .**

... ثم لمـــاذا أيضـــا أومن بالعقـــاد ؟ لأن العقـــاد ليس مقلدا ، ولا يستطيع أن يقلد . ولو حاول التقليد لفســدت شخصيته وشخصية العقـــاد فوق الفســـاد .

خذوا ما شئتم من دواوين الشعراء المعاصرين ، الذين أكبر منهــم كثيرين ، وأحب منهم كثيرين ، أنا واثق أنكم لن تمضوا فى قصيدة حتى تذكروا شاعرا من المتقدمين ، أو أن تذكروا شاعرا من الغربيين المحدثين ، ولكن انظروا فى العقاد خذوا بيتا من العقـــاد ، أو قصيدة أو مقطــوعة **فلن تروا إلا العقـــاد) .**

ــ كلاهما اهتم بالفرد فدافع العقاد عن حرية الانســان ، ودافــع طه حسين عن حق الانسان فى العيش والتعليم •

ــ كلاهما اهتم بالفرد فثار على الجمود ارتفع العقــاد على التبعية حتى فى العقيدة ففكر لنفسه ومر كالغزالى بمرحلة الشك ووصــل بنفسه لا بالتلقين ، الى اليقين •

ــ وثار دكتور • طه على قداسة الأدب الجاهلى وشك فيه وشكك • ومع دفاع العقــاد عن العربيــة ، إلا أنه كرجــل فكر وحــرية وجماليات ، دافع عن الدكتور طــه فى الأدب الجــاهلى ، التزاما بالدفاع عن الحــرية •

ثم تنفرج زاوية اللقاء ليغدو كل منهما على طرف •

فمن اهتمام العقاد بالفرد واعتــداده بالتالى ، بنفســه لم يهو الترجمة لأن المترجم فى رأى الناس هو الرجل الثانى وهو معنى لا يطيقه العقــاد ••

ــ لم يترجم الا مجموعة قصصية ثم عــدل وان كان أشرف عــلى مسلسلة لفرانكلين •

ولــكن دكتور طــه ، حبــه للأدب اليــونانى والأدب الفرنسى جعله يترجــم عنهما كثيرا •

ــ التقيا فى كتابة القصة ثم انفرجت نقطة الالتقاء مرة أخرى إذا لم يكتب العقاد إلا قصة واحدة ووحيدة (ســاره) وهى قصته هو وقصة حبه ولــكن د • طه كتب « شجرة البؤس » و « دعــاء

الـكروان » وكتـب مـع الحـكيم « القصر المسـحور » عن شهرذاد ... الخ .

كلاهما كتب فى الاسلاميات بدءا بالرسول الكريم ثم بالصفوة من صحبه وبين هذا تناولا أحداث التاريخ الاسلامى .

وكانت الاسلاميات فى الأربعينات ظاهرة أدبيـه دينية فقـد كتب قبلهما الدكتور هيكل (فى منزل الوحى) ، (محمد) .

ولـكن الدكتور طـه فى كتابه (على هامش السيرة) **أدّب التاريخ** أما العقاد فى عبقرياته الإسلامية فقد فلسف التاريخ ومَنْطَقِه بحـركة الذهن عنده وهى قوية قادرة ، وقدرة المناقشة لديه التى تخدّم المقابلة ، والمضاهاة ، والعـلم ، والأفعال اليومية ، بل تخـدّم الزمن نفســه بما تعين عليه أحداثه قبـل ظهور السيرة وبعدها ثم تناول الشخصية من جميع جوانبها النفسية للنفاذ الى موطن التفوق . ووجـه القوة هنا عند العقاد **فى قـوة الصفة عند البطـل** حتى تغدو خصيصة أقوى من الامتياز التقليدى المقترن بهـا عند الناس .

ومرة أخرى يلتقيـان :

كلاهما ترجم لحياته أى كتب سيرته الذاتية فضمنها العقـاد كتابيه (حياة قلم) وكتـابه (أنـا) .

وضمنها طه حسين كتابه : الأيـام .

كلاهما احتفل بالكروان ذلك الطـائر المصرى الذى لم يلتفت اليـه الشعر المصرى الذىساير عشاق البلبل وإن لـم يره الشعراء أو نادرا ما رأوه حتى ليعجب العقـاد قائلا (من العجيب أنـك لا تقرأ صـدى

للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون على كثرة ما يسمع الكروان فى أجوائنا المصرية من شمال وجنوب) .

وأعجب منه أنك لا تقرأ فيما ينظمون إلا مناجاة البلابل وأشباهها على قلة ما تسمع فى هذه الأجواء !

فكأنما العامة أصدق شعورا من الشعراء ، لأنهم يلقبون المغنى بالكروان ولا يلقبونه بالبلبل ، فيصدرون عن **شعور صادق** ويتحدثون بما يعرفون .

بدأ العقاد بأن نظم فى الكروان عدة قصائد بل أهدى اليه ديوانا هو ديوانه (هدية الكروان) .

ثم كتب د . طه حسين قصة (دعاء الكروان) الذى صدرها بهذا الإهداء المطبوع :

(الى صديقى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

سيدى الأستاذ :

أنت أقمت للكروان ديوانا فخما فى الشعر العربى الحديث ، فهل تأذن لى أن اتخذ له عشا متواضعاً فى النثر العربى الحديث ، وأن أهدى إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص) .

وبعد هذا يتوهم بعض الناس أنهما قطبان متنافران وليس هذا من منطق الأمر فالصحراوات نفسها لا تخلو من واحات تنعم بالراحة وتفىء بالظل .

ولا يعنى هذا بالطبع أنهما التقيا على طول الخط بل كثيرا

ما تعارضــا واختلفا فى الرأى والاتجــاه ... بــل كان بينهمــا ما بين المتعاصرين والمتنافسين من حساسيه ولكن كلا منهما كان يعرف قدر صاحبه. يقول الدكتور طه حسين الذى كان يحسب للعقاد الحساب كل الحساب .

(لنا نحن النقاد مع العقــاد مواقف يا لها من مواقف ... نختصم فيها حول المعنى اختصاما مرهقا عنيفا ، ونختصم معه فى اللفظ اختصاما نضيق نحن به ويضيق به الناس ولكنا حين نختصم معه فى معنى أو لفظ أو حين نشتط عليه فى النقد ، لا نزيد على أن نعترف له أنه الشاعر الفذ ، ولولا أنه الشاعر الفــذ لما خاصمناه) .

ويقول فى موضع آخر (لقد هاجمت العقاد فى غير موطن من مواطن الخصومه ، خاصمته فى السياسة وخاصمته فى الأدب ، وخاصمته فى السياسة والأدب أيضا . ولكن هذه الخصومة لم تغض من مقدار العقاد فى نفسى . وما أظن أن بين لدات العقاد وأترابه ومعاصريه من يقدره مثلما أقــدره أنا وأكبره . وليس يعنينى أن يكون رأى العقاد فىّ كرأيى فيه .. والذين عاصروا خصوماتى للعقاد يذكرون من غير شك أننى أثنيت على أدبه فى جريدة السياسة حيث كانت الخصومة بين الوفــد والدستوريين كأعنف ما تكون الخصومات ، وقد كانت الحــرب ســجالا بينى وبينه . ولــم يمنعه ذلك من أن يقوم مقام الرجــل الكريم فى مجلس النــواب يدافع عنى حين كان الوفديون جميعا علىّ حــربا) .

وعلى ذكر الحرب ، العقاد وطه حسين كلاهما عنده طاقة **الصــمود والقدرة على التحدى** .

فالعقاد فى ٢٣ يونيه عــام ١٩٣٠ فجر قنبلتين فى البرلمان . هــدد الملك فؤاد بتحطيم أكبر رأس تهدد الدستور .

كانت صيحته مفاجأة حتى لحزبه حزب الوفد حتى استنكرها بعض نوابـــه ...

وكانت صيحته علامة كبيرة سرت بعدها اليقظة وســارت المظاهرات ودخل العقـــاد السجن وكان مريضا يتوقى البرد والحـــر ولكنه بعد تسعة أشهر فى القيود والبرد والحر ، خرج يقول :

وكنت جنين السجن تســعة أشهر   وها أنا ذا فى ساحة الخلد أولد
عداتى وصحبى لا اختلاف عليهم   سيعهدنى كل كمــا كــان يعهـد

وبالصلابة نفسها كانت وقفة طــه حسين فى الجامعـــة حين أرادت الوزارة الاعتداء عــلى استقلالها بالتدخــل فى اختصاصات عميد كليـــة الآداب ... طه حسين ويقف الى جانبه مدير الجامعة لطفى السيد .

طراز فذ من الرجال تنجبه مصر فى كل جيل لا تعقم أبداً .

والعقاد وطه حسين فيهما من شخصية مصر ظاهرتان أخريان :

الأولى : **كلاهما زرع نفسه** عــلى طريقـــة مصر فى زراعـــة الأرض باستنبات النبات ، وزراعة الفكر باستنباط المعانى ، وزراعة الصخر بتشكيل الحجر ونقشـــه وتلوينه .

الأخرى : **الارتفـــاع فوق الأحداث**

فارتفع العقـــاد على المرض .

وارتفع د . طه طلى العاهه .

العقاد وطه حسين بعد هذا كله تعارضا .

تعارضا واحتدم بينهما **الخــلاف حول المدرسة الإنجليزية فى الأدب والمدرســـة الفرنســـية .**

وتعارضا حين تعصب **العقاد للثقافة العربية ومن شـواهد هذا كتابه (اللغة الشاعرة) وتعصب الدكتور طه للثقـافة اللاتينية** وتعصب مـرة أخرى للفكر اليـونانى وكتب كتابه (قادة الفكر) وترجـم عن المسرح اليونانى ، وترجم عن الأدب الفرنسى الذى تأثر به تأثراً واضحا ٠

تعارض العقاد والدكتور طه فى **اللون السياسى** ٠

فالعقاد بدأ وفديا ثم خـرج على الوفد ٠

والدكتور طه بدأ خصما للوفد ثم انضـم الى الوفـد وصـار من وزرائه ٠

العقاد وطه حسين اختلفا فى النظرة الى المرأة فالعقاد سلط عليهـا منطقه واعتداد الرجولة فيه حتى نظمه قوم ، **بنثره** ، فى سلك أعدائها ٠٠٠ وإن كان ((**شعره**)) يتغنى بها ويقبل منها الوجه والكفين ٠

أما الدكتور طه ففنان يرى فى المرأة قوة خطـيرة ٠ كما فى قصته دعاء الكروان [1] ٠

الأستاذ العقـاد والدكتور طـه حسين متباينان فى أسلوب الكتابة وأسـلوب الشخصية :

فى أسلوب الكتابة العقاد خير من تتمثل عنـده دقة اللفظ العـربى ومطابقته للفكرة ٠٠٠ الكلمة **عنده قفاز محبوك** ولو أنه أمـد له فى الاتساع نصف نمره لأراح بعض الناس ولكنه يأبى لأن المسألة عنده تتصل بطاقة

---

(١) انظر ص ١٥٥ — ١٥٦

القدرة ولهذا لا يتذوقه إلا متخصص وإن كان هذا لم يمنعه من أن يقول مثل هذه الخفقات الشاعرة فى يسر وسهولة عذبه :

صفحة الجو على الزرقاء كالخد الصقيل
لمعة الشمس كعين لمعت نحو خليل
رجفة الزهر كجسم هزه الشوق الدخيل
حيث يممت مروج وعلى البعد نخيل
قل ولا تحفل بشىء إنما العيش جميل

هنا بلغت السهولة والبساطة مبلغا جعلت الأبيات على غزارة مشاعرها عفوية بريئة طفلة •

والدكتور طه جمال أسلوبه فى قدرته **على الاستهواء** حتى ليتأتى له تسحيرك بالمعنى الواحد يزفه اليك فى حفل من الأسباب والترسل ويحلو لك أن تدور معه أو وراءه حتى إذا خلصت من أسره وقرأت المقال للنقد لا للمتعة راعك أن المضمون سهل المنال ولكن السر فى هذه الهاله حوله • ويحسب الكثيرون أنهم على تقليده قادرون وما أكثر ما يحاولون ••• وإنما :

يصنع الصانعون وردا ولكن وردة الروض لا تضارع شكلا

أما أسلوب الشخصية فالعقاد رفض الوظيفة وقيودها حين تقلب الدكتور طه فى الوظائف حتى بلغ الوزارة •

العقاد كاتب صومعه حين كان **الدكتور طه رجل مجتمع وصاحب أسلوب وأستاذ جامعة ورجل دولة** • أستاذ يشرح ويفصل ويطوف

ويطوّف ويربط وينقــد ويعرض ويستوزر ويحـــكم ويتمتع **بهــالات** وشيات • الدكتور طه حسين مع هذا كله وبهذا كله **أســتاذ متخصص •** ولكن العقاد بغير **هذا كله موسوعى** تجــاوز اهتمــامه الأدب الى العلوم والفنون فى وثوق ورسوخ شيد به المشتغلون بها على أعلى مستوى •

الدكتور طه **استاذ أدب ورجل دولة •**

والعقــاد **رجل فكر وراهب صومعة وشــاهد عصر وطــراز عبقرية** وتفــرد شخصية •

أحمد حسن الزيات :

مولد الرسالة — قصص وطرائف — لجنة التأليف والترجمة والنشر — دور الزيات فى الرسالة — مدرسة الرسالة — الرسالة ومولد توفيق الحكيم الأدبى — الرسالة تحتجب — سفارة الرسالة فى الدول العربية — موقف الزيات من القصر الملكى وموقفه معه — مقال (فلاحون وأمراء) مقال (ليس بعد الدين وازع) مقال (الامتيازات والدين) — مصادرة الرسالة — النائب العام الأديب — صاحب الأدب الأخضر — نشأته — تعليمه — الزيات والأزهر — الزيات والمستشرقين — الحقوق الفرنسية — الزيات فى فرنسا — صاحب رسالة وصاحب دعوة — الدعوة الى اصلاح الأزهر — الدعوة الى اصلاح المجتمع — مهاجمة الاقطاع ورعوسه — صور ساخرة — مهاجمة الشيوعية — القرية فى أدب الزيات — صور ولوحات — الزيات يصف نفسه — حبه الأول — كتبه

مولد رسالة

في يوم ١٥ يناير سنة ١٩٣٣ كانت آلات المطبعة تدور دورات سريعة حاسمة ووراءها أيد كثيرة تتلقف الصفحات المحبرة وتطويها هي الأخرى في سرعة حاسمة أيضاً . فما إن بلغ النهار متوع الضحى حتى أهلت على دنيا الأدب مجلة جديدة قشيبة الثوب مضيئة ، قسيمة الوجه وسيمة ، عربية الملامح أصيلة .. ولكنها لم تجر على عادة المواليد في البكاء أو الصمت فقد تكلمت وهي في المهد صبية . واستقبلت الدنيا باسمة متفائلة واستقبلتها الدنيا حفية متهللة .

ما أحق يوم النصف من يناير أن يسمى في تاريخ مصر يوم الفكر .. ففيه ولد أستاذ الجيل لطفي السيد ، وفيه ولدت مجلة الرسالة .

وصدر العدد الأول من الرسالة في عشرة آلاف نسخة ، فإذا بها تنفد عن آخرها في مصر والسودان دون أن تلحق بها الدول العربية الأخرى فاشتد الطلب من سوريا والعراق على العدد النافد . ولم تستطع الأعداد التالية على غناء فيها وروعة أن تنسيهم ذكره أو تلهيهم عنه ، فلم يجد صاحب الرسالة ندحة عن إعادة طبعه . وطبع العدد الأول مرة ثانية فكانت فاتحة عهد . فأخذت الرسالة تصدر في ١٥٫٠٠٠ نسخة . ثم ارتفع الرقم إلى ٢٠٫٠٠٠ نسخة حتى إذا أهل العام الهجري في مسرى الأيام صدر عدد الرسالة الممتاز في مطلع السنة الهجرية في ٣٠٫٠٠٠ نسخة . قد يبدو هذا الرقم أمراً عادياً الآن ولكنه في ذلك الوقت كان رقما قياسياً خاصة بالنسبة إلى المجلات .

* * *

ولمولد الرسالة قصة . وكم من قصص في حياتها وأحداث . أما قصة المولد فتبدأ بعد عودة الزيات من العراق . كان الرجل موعودا قبل سفره إليه بأستاذية الجامعة المصرية . وكانت الجامعة الأمريكية قد

سبقتنا إلى اجتذابه . ففى سنة ١٩٢٢ اختارته رئيساً للقسم العربى بها . وسرعان ما سارت له بها سمعة طيبة .

وفى سنة ١٩٢٦ بعد مضى عام على عودة الزيات من فرنسا بعد حصوله على ليسانس الحقوق من جامعة باريس ، طلب الدكتور طه من لطفى السيد الذى أصبح مديرا للجامعة أن يستدعى الأستاذ الزيات للتدريس بها ، ومعنى هذا من وجهة نظر الروتين أن يلتحق الزيات بالجامعة بدرجة خامسة حين كان فى ذلك الوقت رئيس قسم بالجامعة الأمريكية ويتقاضى سبعين جنيهاً شهريا فرفض بالطبع .

وفى هذه الأثناء أى سنة ١٩٢٩ انتدبته شخصياً حكومة العراق ليضطلع بتدريس الأدب العربى بدار المعلمين العالية فى بغداد لمدة ثلاث سنوات .

وزكّى أستاذ الجيل سفر الزيات إلى بغداد ليكون مبررا أمام المالية حتى يشغل فى مصر درجة أستاذ بعد عودته استنادا إلى ماضيه فى التعليم ومناصبه .

ومكث الزيات فى بغداد ثلاث سنوات ١٩٢٩ — ١٩٣٢ هى خير أيام حياته عرف فيها كل رجالات العراق . وعرف فيها النجاح والمجد ، فقد ألقى عدة محاضرات أحدثت دويا هناك فى المحيط الأدبى .

وعلى مجد الشهرة وبريق المجد لم ير الرجل تجديد العقد موفياً بعهده للطفى السيد . وكان أن حضر إلى مصر وإذا به يجد الدكتور طه قد فصل من الجامعة من أجل كتابه (فى الأدب الجاهلى) ، واستقال لفصله لطفى السيد .

لقد ترك الزيات الجامعة الأمريكية على الرغم منها . ولكنه لا يرى العودة إليها الآن .. أما الجامعة المصرية فقد أقفرت ممن كان مطمح النظر أو معقد الرجاء .

وكان لقاء بين الأستاذ الزيات والدكتور طه وجرى حـــديث للأدب ما دار فيه .. حاول الأستاذ الزيات إقناع الدكتور طه بإنشاء مجـــلة أدبية فى وقت كانت المجلات الهزلية تحتل السوق بعد مـــوت السياسة الأسبوعية . وأبدى الدكتور طه مخاوفه . ولأدع الوصف للزيات يصور على طريقته هذا اللقــــاء :

فى ذات عشية من عشايا نوفمبر من عام ١٩٣٣ زرت أخى طـــه حسين فى داره بالزمالك . وكنت منذ أربعة أشهر قد رجعت من العـــراق بعد أن أغلقت دار المعلمين ببغداد . وكان هـــو قـــد أنزل عن كرســـيه فى كلية الآداب من جامعة فؤاد .

فقلت له بعد حديث شتى من أحاديث الذكرى والأمل :

ما رأيك فى أن نصدر معاً مجلة أسبوعية للأدب الرفيع ؟

وقال :

وهل تظنك واجـــداً لمجلة الأدب الرفيع قـــراء فى مجتمع ، ثقافة خاصته أوربية ، وعقلية عامته أمية ، والمذبذبون بين ذلك لا يقرأون — إذا قرءوا — إلا المقالة الخفيفة والقصة الخليعة والنكتة المضحكة ؟

فقلت له : لعل من بين هؤلاء وهؤلاء طبقـــة وسطى تطلب الجـــد فلا تجده ، وتشتهى النافع فلا تناله .

فقال وهو يهز رأسه ويمط شفتيه : حتى هذه الطبقة ، إن كانت ، ستقبل على الجد النافع أول الأمر لأنه تغيير وتنويع ، فإذا ما ألح عليها ، لا تلبث أن تسأمه وتزهد فيه .. والمثل أمامك فى السياسة الأسبوعية .

فقلت له : ربمـــا كان لإقبـــال القراء على (السياسة الأسبوعية)

ولإدبارهم عنها سببان آخران غير التغيير والسأم .. كانت هذه المجلة أول ما صدرت قوية غنية خصبة فأصبحت حاجة ، ثم اعتراها ما يعترى الكائن الحى من الوهن والانحلال فصارت فضلة .

فقال لى بعد نقاش طويل : أنت وشأنك .. أما شأنى فهو المقال الذى أكتبه والرأى الذى أراه .

وكان يظاهرنى على تفاؤلى أصدقائى الأدنون من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فكانوا بهذه المظاهرة نقطة الارتكاز ومبعث المدد (١) .

وهكذا أصر الأستاذ الزات على خوض التجربة متكفلا بتكاليف الإصدار . وكأن قراره ارهاص بأمر عظيم . وكان أن خرجت الرسالة إلى الحياة سنة ١٩٣٣ تعمل عمل الرسالات فى بث الوعى وجمع الشمل وتوحيد الصفوف وإشاعة معانى الخير والحق والجمال ترسلها مع الضوء شعلة الأدب التى رفعتها اليد الملهمة على طريقنا عشرين عاماً .

❋ ❋ ❋

ومن قصص المولد قصة طريفة ضحكت منها القاهرة وتندر بها الناس ... فإن الخطاط الذى عهد إليه أن يعلن المولد على الجدران نظر فى الإعلان الذى كلف بكتابته فإذا به مسطور على هذا النحو (مجلة الرسالة يحررها الزيات وطه حسين) . وعرت الخطاط هزة أمام الاسمين الكبيرين . ورأى من سوء الأدب أن يكتبهما بلا ألقاب عرفها الناس لهما . فتطوع الرجل الطيب ، بإضافة الأستاذية تأدباً وكرامة . فكتب مجوداً : (مجلة الرسالة يحررها الأستاذين الزيات وطه حسين) .

❋ ❋ ❋

وكانت (قفشة) تلقفتها مجامع عاصمتنا الكبرى واحتشدت لها

---

(١) كتاب وحى الرسالة « ج ٤ ص ٧٢ ، ٨٣ » .

قدرتنا التقليدية على التفكه والدعابة فكان هذا خير إعلان عن المجلة الجديدة مد لها في الظهور ومكّن لها من الرواج .

* * *

وســارت الأيام ...

وبدا لحزب الوفد أن يعين الدكتور طه في جريدة (كوكب الشرق) . وكان رئيس تحريرها أحمد حافظ عوض ، ثم خاطبوه في شأن الزيات . فقبل نيابة عنه . وما درى أن الزيات يهوله هذا الأمر إشفاقا على المجلة الوليدة التي أحاطت بمولدها الأماني وحف بها الرجاء .

— أما كان أجدر بنا أن نتشاور في مثل هذا الأمر ، من أجل الرسالة التي أحسن الشعب استقبالها والتي يتهددها اشتغالنا بسواها ..

— ولكني قبلت نيابة عنك ..

— إذن نعرض المسألة على إخواننا ..

وكان الزيات يعني أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر . وحدث أن أيد هؤلاء رأي الزيات . فترك الدكتور طه الرسالة مغضباً . واضطلع بها وحده الأستاذ الزيات يعاونه كوكبة من أرباب الأقلام وأهل الفكر .

* * *

ثم أخذ الدكتور طه يكتب في جريدة الوادي ولكنها لم تلق النجاح المنشود .. وفي الوادي هاجم الدكتور طه الأستاذ توفيق الحكيم هجوماً عنيفاً تحت عنوان (أخلاق الأدباء) هدد بقطع الصلة بينهما .

ولما كانت الرسالة قد شهدت مولد توفيق الأدبي وعرضت تقديم طه له فقد نشر الزيات فيها مقال الدكتور طه ليعرف قراء الرسالة النهاية بعد أن عرفوا البداية على صفحاتها . فأحنق ذلك الدكتور طه

وهاجم الأستاذ الزيات أيضا فى الوادى تحت العنوان نفسه (أخـلاق بعض الأدباء) • فرد عليه الأستاذ الزيات رداً مهذباً ولكنه على صـقله لا يخلو من قسوة تحت عنوان (بين أسلوبين) وكان ذلك سنة ١٩٣٤ •

وكانت هذه المقالات من المعارك الأدبية التى لهـا دوىّ فى ذلك الحـين • وقد شغلت الرأى العام الأدبى طويلا فى حينها •

***

كانت الرسالة فى ذلك الوقت تطبع ١٥ ألف نسخة توزع منهـا فى مصر بـين ستة آلاف وسبعة آلاف نسخة والبـاقى تستوعبه البـلاد العربيـة •

وسارت السفينة بين تيار مُوات وريح رخاء • ثم ارتطمت بصخرة أخرى • فقد أثار المرحوم الدكتور أحمد أمين موضوعاً من لون جديد •• كُتاب الصف الأول فى مجلة الرسالة لِمَ لا يعتبرون مساهمين فيهـا ؟ لم لا تتشـكل لجنة تحرير من أحمد زكى وفريد أبى حديد ومحمد عوض محمد وأحمد أمين والزيات ، ويحدد للزيات مرتب معلوم ، ثم تخصم التكاليف ويقسم الباقى بعد هذا على أعضاء لجنة التحرير هذه ؟ ••

وحين يتعلق الموضوع بالمال تكفهر النذر وتتأزم الأمور • ولـكن الزيات واجـه الموقف بحكمة ورحـابة نفس فرضى الوضـع الجـديد وأفسح لـه •

وسارت سفينة الرسالة فى هذا التيار سنة ثم كف أحمد أمين عن الكتابة فيها وآخرون ••• (١) وبقى على عهدها أو عهد صاحبها الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ فريد أبو حديد •• وظل يكتب فيها من وقت إلى آخر الدكتور محمد عوض محمد ، بل بلغ من وفاء الدكتور عـزام

---

(١) اقرأ مقال (بلغنا العدد الألف) فى « وحى الرسالة » ج ٤ ص ٧٥ .

للرسالة أن وقف قلمه عليها وهـواه .. لقـد ظل الدكتور عزام بعـد احتجاب الرسالة من دون الناس أجمعين يعمل لعودتها هنـا وهناك . وكأنه حين تقاصرت دون بغيته الأسباب آثر أن يحتجب معها فخلت منهما دنيانا حتى لم نعد نراها أو نراه .

* * *

وحدث فى هذه الأثناء أن أنشأ الأستاذ أحمد أمين مجلة (الثقافة) ووراءها جمع من لجنة التأليف والترجمة والنشر .. ووقف وراء الرسالة العالم العربى كله فابتسم لها الحظ ، وتدفق عليها المـال ، ومدت لها الأيام فى العمر فعاشت عشرين عاما متجاوزة عمر المجلات الأخـرى . فقد بلغت الثقافة خمسة عشر عاما بالكاد وأفلت — الباقيات بين عشية وضحاها .

* * *

وكانت مجلة الرسالة فى عهدها الأول تنتقل بين المطـابع ، فكانت تطبع أول صدورها فى مطبعة الاعتماد ثم فى مطبعة الرغائب فى شـارع محمد على ، ثم فى مطبعة عبد الرحمن .

وفى سنة ١٩٣٥ اشترى صاحبها مطبعة ، بل ارتفعت باسمها عمارة فى عابدين وملأت الرسالة حياة صاحبها فكانت مطبعتها تحتل الدور الأول ومكتبها يشغل الدور الثانى حين اتخذ الزيات بيته فى الدور الثالث ليكون مع المطبعة والمكتب فى ملأ واحـد .

والحقيقة أن الزيات فى هذه الفترة — ولِمَ أقول هذه الفترة — ظل الزيات عمر الرسالة يقوم بمهمة معلم الانشـاء .. كان يراجع موادها كلها ويصححها بل يعيد كتابة الكثير منها . كان يكفيه من معظم أصحاب المقـالات استقامة المعنى أو سـلامة الموضـوع .. اما الصياغة .. اما الأسلوب فعليه وحده يقع عبؤه راضـياً بل مختارا . فقـد كان فى استطاعته أن يقصر عمله على لمسات يشيعها هنا وهنـاك ، ولكنه هـو

الذى وطد نفسه على إعادة الصياغة من جديد كلما تعثر الأداء أو قصَّر الانشـــاء أو عطل الأسلوب .

* * *

لم تقعد بالزيات همته عن شىء يـُهدى للرسالة . لم يفت فى إصرار الرجل إلا مصلحة الضرائب التى تطوح تقـديرها حتى فرض فى أولى شطحاته على المجلة ٢٤٨٥٥ جنيها فلجأ إلى لجنـــة التقدير فنزل الرقم إلى ١٢٦٠٧ جنيهات . بالتقدير الجزافى أيضاً . ولم يرتد الحجز عـــن المطبعة والدار وفاء للدين المزعوم . فلم يكن للزيات ندحـــة عن دفـــع الآلاف المفروضة أقساطا . ثم رفع قضية سنة ١٩٤٧ فصلت المحـكمة فيها سنة ٥٥ . ومن الطريف أن الحساب أسفر عن حق الزيات فى ٦٠٠ جنيه تؤدى له ، ولـــكن قعد بها إلى اليوم ، الأداء .

* * *

بداية النهــاية :

كانت الحرب العالمية الثانية حربا على الناس وعلى الرسالة . فحين صعب استيراد الورق وصعب التوزيع فى الخارج ، هبط الطبع والتوزيع إلى ٤٫٠٠٠ نسخة ، حين زادت التكاليف . وكما يشتد الظلام توالت النذر واحترف الكتاب الكبار ، وخذلت اشتراكات وزارة المعارف . ولم ترفد من الحكومة اعانات ، ولم تسعف من الشركات اعلانات .

وظلت الرسالة وسط هذا كله كالشمعة يحيط بها هوج الريح وحالك الليـــل ، ثم تضىء ، يؤخر انطفاءها بذل نفر قليـــل من الكتاب يكتبون لها بلا أجـــر :

كالدكتور عزام والعبادى وفريد أبى حديد وأحمد زكى ، وإقبـــال الناشئين عليها ولهفتهم على النشر فيها لقاء الظهور فقط .

ومن عوامل صمودها ملكها للمطبعة التى اشترتها كمـــا أسلفنا فى

وقت كان سعرها فيه رخيصا فكأنها استهلكت ثمنهـا وأصبحت تطبـع مجـانا .

وكان صباح .

واستيقظ الناس على صوت حييّ هادىء عربى اللسان بايغ البيان رخيم النغم يتهـدج من حزن ويتهدى فى تأثر .. وسرى فى الأسماع هاتفاً : الرســالة تحتجب [١] .

والناس بين مصدق ومكذب فإذا بالصوت يؤكد من جديد : « نعم فى هذا الوقت الذى نشأ فيه لتوجيه الارشاد وزارة ، ولتنمية الانتـاج مجلس ، ولتعميم الاصلاح خطة ، تسقط (الرسالة) فى ميدان الجهـاد الثقافى صريعة بعد أن انكسر فى يدها آخر سلاح ، ونفـذ من مزودها آخـر كسرة ، فكأنها جندى قاتل اليهود فى فلسطين علىٰ عهد فاروق ، أو فدائى جاهد الانجليز بالقنـاة فى حكومة فاروق . ولكن فاروقا دال ملكه وزال حكمه فبأى سبب من أسباب الفساد يؤتى المجاهد من جهـة أمنه لا من جهة خوفه ، ويقتل بيد شيعته لا بيد عدوه ؟

تموت الرسالة اليوم فى ضجة من أناشيد النصر فى مصر ، وأهازيج الحرية فى السودان ، فلا يفطن إلى نزعها هاتف ولا يصغى إلى أنينها منشد .. ومن قبل ذلك بشهر ماتت أختهـا (الثقافة) . وكان الناس يومئذ فى لهو قاصف من مهرجان التحرير ، فلم تبكها عين قارىء ، ولم يرثها قلب كاتب ، كأن عشرين سنة للرسالة ، وستة عشرة سنة للثقافة قضتاها فى خدمة الأدب والعلم والفن والاســلام والعروبة لم تهيىء لهما مكانا فى الوجود ، ولم تنشىء لهما أثرا فى الخواطر .. وكأن هاتين المجلتين اللتين أنشــأتا فى أدب العصر مدرستين نشىء فيهمـا جيـل ،

---

(١) أعلن صاحب الرسالة احتجابها فى مقـال نشره بالأهـرام فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٥٣ تحت عنوان (الرسالة تحتجب) .

وابتدأت بهما نهضة ، واجتمعت عليهما وحـدة ، لم تكونا إلا ورقا مما ينشر فى الطريق للاعلان ، يجىء به الموزع وتذهب به الريح .

وعلى أثر هذا المقال كتب العقاد وطه والمدنى وسامى الكيالى فى رنة حزن بالغ ولهجة لوم شـديد .

وهكذا احتجبت الرسالة فى ١٥ فبراير سنة ١٩٥٣ بعـد أن حاول صاحبهـا مسـاندتها (بالرواية) فما اسـتطاع . فأثارت باحتجابها ومقالة صاحبها فيها مناحة قامت ولم تقعد ، وهى وان هـدأت حدتهـا وسكنت دعوتها ظلت تتجدد آنا وتجـد وتتراخى حينـا وتفتر ، بـل تستحيل إلى خمود .. فكانت عروض الجهات الثقافية الرسمية بروقـا خلّبـا تومض ثم تختفى .

وظهرت مجلة أدبية أخرى تحاول أن تقتفى أثرها وتعمل عملهـا وتغنى غناءها ، ولكنها على امكانياتها احتجبت ولمـا يمض عليهـا ثلاث سـنوات .

***

ولكن المعانى التى أشاعتها الرسالة لم تحتجب . فقد كانت مجلة منهج محدد الغاية ، وخطة مبلورة المضمون ، وطابعا واضح الشكل .. حتى لكأنها ولدت .. وعاشت من أجـل :

ـ إحداث ثقافة أدبية خاصة تعتمد على وصل الشرق بالغرب وربط القـديم بالحـديث .

ـ بعث الروح الاسـلامى النبيل متوسلة إلى هـذا بالدعوة إلى إصلاح الأزهر ومحاربة الخرافات وإحياء تراث الشرق والغرب وإعلاء ثقافة عصرية عربية متحـررة .

ـ ثم العنـاية بالأسلوب .

وكل هذه المعانى نشأت من طبع الزيات صاحب الرسالة .. إنها ميوله الخاصة .

* * *

لقد كان أدباء البلاد العربية ، قبل الرسالة لا يكاد يعرف بعضهم بعضا فجاءت الرسالة وربطت البلاد وأهلها .. وصلت بعضها ببعض بما كتبت عن الأدب العربى فى كل بلد عربى فى تواصل وجدية ووفاء . فكانت سفارة متنقلة بين أقطار العروبة وكانت للوحدة الحاضرة نقطة الابتداء . فقد مهدت الرسالة للقومية العربية بما نشرته من أدب كل شعب .

لا بل إن السفارات مجتمعة لم تعمل عمل الرسالة . واحدة .

لقد سافر على أمين إلى الشرق بعد احتجاب الرسالة وعاد يقول :

« لو أن الحكومة أغلقت سفاراتها فى الشرق وأبقت على الرسالة لكان خيرا لها وأجدى عليها » .

لقد سقطت مجلات عدة فلم يشعر بها أحد اما الرسالة فكان احتجابها كارثة أدبية أثارت الأقلام والناس .

لم تترك الرسالة بلدا عربيا إلا دخلته دخول المرموق يعامل بالإعزاز ويستقبل بالتجلة . ولا غرو فقد كانت المجلة الوحيدة التى يقرؤنها ويكتبون فيها حتى لقد كان السوريون يُسمون يوم الثلاثاء الذى كانت الرسالة تصل اليهم فيه ، يوم الرسالة ولا يقول قائلهم يوم الثلاثاء .

كما كان الأديب من كتاب الرسالة عندما يزور بلدا عربيا ، لا يميزونه باسمه بل بهذه الصفة فكأن كتاب الرسالة فى هذه الظاهرة كأهل بدر .

كانت الكتابة فى الرسالة شهادة للكاتب ترفع من اسمه وتعلى بين الكتاب مكانه .

* * *

كانت الرسالة مدرسة ربت جيلا ، وربطت شعوباً ووصلت بلادا ووثقت علائق . ورفعت مشاعل وأشاعات معانى ، وعرضت حضارات ، وبثت دعوات ، ونهجت سبلا ، وأوضحت .. مناهج ، وشرعت للبيان وسائل ، ونشرت له رسائل ورفعت أعلاما .

فى هذه المدرسة تربى ومنها خرج : درينى خشبة ، وعبد المنعم خلاف ، ومحمد عبد الله عنان ومحمود شاكر ومحمود الخفيف وعلى الطنطاوى وأنور العطار (نثرا وشعرا) وعبد الحميد يونس وعباس خضر (الذى كان مصححا فى الرسالة) وأنور المعداوى ورشاد رشدى .. ووديع فلسطين .

ومن الشعراء : عبد الرحمن شكرى ، وأحمد رامى ، وعلى محمود طه ، وابراهيم ناجى ، والهمشرى ، والعوضى الوكيل ، وطاهر أبو فاشا ، وأحمد عبد المجيد الغزالى ، ومحمود حسن اسماعيل ، وأحمد الزين ، ومحمود غنيم .

ومن شعراء الأسكندرية : عبد اللطيف النشار وعثمان حلمى .

ومن شعراء مدرسة أبولو : الشابى والتيجانى اللذان انضما مع الهمشرى إلى أبى شادى .

ومن شعراء العراق الذى قصر نشر شعره على الرسالة . كما كان الرصافى ينشر فيها من وقت لآخر .. وأفسحت الرسالة لقلم المرأة مكانا فيها فأذاعت من الأسماء : سهير القلماوى ، أسماء فهمى ، زينب الحكيم ، وداد سكاكينى ، وداد صادق عنبر ، جميلة العلايلى ، وغيرهن .

بل إن الرسالة أظلت : أحمد أمين ، ومحمد عوض محمد ، فريد

أبو حديد ، وأحمد زكى . حقا لقد كتبوا قبل الرسالة . فكتب فى مجلة السفور الزيات وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الحميد العبادى وفريد أبو حديد وأحمد زكى . ولكن (السفور) هذه كانت مجلة أسبوعية لا تتجاوز أربع صفحات ، ولم تكن بالمجلة السيارة الواسعة الانتشار فلم تذع لهؤلاء الذين فتحنا عيوننا عليهم . ووقر فى نفوسنا احترامهم ، شهرة : ولم يدوّ لهم فيها صيت وإنما ظهروا فى الرسالة ، وبها .

وغير هؤلاء أظهرت الرسالة الكاتب الاسلامى مصطفى صادق الرافعى ولم تكن كتاباته قبلها ذات شهرة .

وللرسالة يدين الأدب ، ونحن من ورائه ، بكاتبنا توفيق الحكيم . فالرسالة هى التى أعلنت مولده الأدبى . والرسالة هى التى أخرجت كتابه « أهل الكهف » . وصاحب الرسالة هو الذى اقترح عليه كتابه النفيس (يوميات نائب فى الأرياف) (١) .

وكثيرون ما فتئوا يذكرون العنوان الرفيع ذا الأدب الرفيع (من برجنا العاجى) . بل إن (توفيق) بعد أن صارت له شهرة وطار له صيت ظل يلقب طويلا بصاحب البرج العاجى .

ومالى أعدد الأسماء .. هل هناك أديب قرأه الناس فى حياة الرسالة لم يكتب فيها أو يستظل بها أو يشتهر من ورائها ؟

وسارت بهم وساروا وكان أشد الكتاب لصوقا بها :

الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور زكى مبارك والأستاذ مصطفى عبد الرازق والأستاذ العقاد والأستاذ المازنى والأساتذة ساطع الحصرى

---

(١) نشر مسلسلا فى مجلة (الرواية) أخت « الرسالة » عام ٣٧ .

ومحمد اسعاف النشاشيبى ومحمد عبد الله عنان ومصطفى صادق الرافعى .

* * *

لقد كيفت الرسالة صاحبها نفسه لكتابة المقال وهو قصصى النزعة . وعند الكثرة الكاثره هو أكتب كتاب المقالة الأدبية المثالية (١) ولولا الرسالة لظل الزيات مدرساً ومؤلفاً .. كان من المحتمل أن ينقطع للتدريس والتأليف الأدبى والترجمة . لقد فجرت الرسالة ينابيعه فسجل فيها تجارب حياته وأحداث عمره وأتراح قلبه وأفراح أيامه .

وقد اختار كما يقول : « هذا النوع من الصحافة المجاهدة المستشهدة » ووقف بالرسالة على الأعراف بين آخر النقص وأول الكمال ، يأخذ بيد الأدنى ليصعد ويثبت أقدام الأعلى ليستمسك ، ثم يدفع المرتفع صعداً فى السماء ليكون باستعداده أقرب إلى الحق المطلق والخير المحض والجمال الكامل .

وقنع من المشايعة أن يصحبه فى هذا الطريق من تهيئهم فطرهم السليمة لبلوغ الغاية منه . وهم بحكم الندرة فى الكمال والكرم قلة . ومن السهل القريب أن تصلح القلة لتصلح الكثرة ، وأن ترفع الخاصة لترفع العامة . وليس وراء القلة مال يبتغى ولا جاه يرتجى ، وإنما سبيل المال والجاه لمن أرادهما ، العامة يستميلها بالتهريج ، والسياسة يستغلها بالدجل ، والحكومة يستدرها بالملق . والعدة إلى ذلك يسيرة المنال : حنجرة صلبة تخطب . وبراعة مداهنة تكتب ، ونية فاسدة تملى . ولو أرادت الرسالة زهرة الحياة الدنيا لعرضت ضميرها للبيع وقلمها للإيجار . ويومئذ تتحول أكداس الورق فى مطبعتها العجيبة من أوراق طبع إلى أوراق نقد .

ولكن الله الذى حبب فى سبيله إلى المجاهد الأول الاستشهاد وليس

---

(١) اقرأ مقال (أحمد حسن الزيات) للاستاذ جمال الدين الالوسى مجلة (المورد) المجلد السابع العدد الثالث ١٣٩٨ — ١٩٧٨ .

فى مزوده إلا حفنة من سويق ، أو قبضة من تمر ، حبب إلى (الرسالة) الجهاد فى الميدان المجدب الموحش ، ولا عدة لها إلا الصدق والصبر والزهد المتظفر بنصر المجاهد إذا فاز ، أو بأجر الشهيد إذا قتل) .

* * *

نسبة (الجهاد) إلى الرسالة ليس من تعبير البلاغة وإنما هو من شواهد التاريخ ووقائع الحال . فقد تهددت الرسالة السلطات ، وصادرت الرسالة أكثر من مرة ... الحكومات . ولعل الكثيرين يذكرون مقال الزيات المدوى فى الرسالة « فلاحون وأمراء » على إثر إهانة الأمير عمرو ابراهيم لأحد الأعضاء المصريين بنادى محمد على وعنجهية صاحب السمو الذى شاء أدبه وولاؤه لمصر التى رفعتهم أن يقول : (الفلاحين ما يدخلوش الكلوب) . وبلغت الكلمة الصفيقة صاحب الرسالة فكتب مقاله : (فلاحون وأمراء) .

وفزع السادة الأمراء وذهب جمعهم إلى محمد محمود (باشا) فنظر اليهم فى شموخه المعروف وقال لهم بملء فمه .. بملء تعصبه لقومه ، بملء اعتزازه بأهله :

أنا معه ..

وصكت الكلمة الأسماع السميكة المصمتة ، وارتج على أصحابها ، ولكن « محمد محمود » لم تقف ثورته فذهب إلى القصر مهتاجا ، وأرسل بعدها إلى الزيات وأمر بزيادة اشتراكات المجلة .

كما وقف وراء الزيات من رجال الصحافة ، مصطفى أمين الذى حكم عليه بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ .

ومرة أخرى يرتطم صاحب الرسالة بالقصر فى مقالة (ليس بعد الدين وازع) على إثر زواج فتحية من رياض غالى . وفزع القصر لولا أن توسط فى الأمر محمد حسن يوسف وكيل الديوان وقتئذ .

* * *

وتاريخ الرسالة وصاحبها من القصر يبدأ قبل هذا بكثير . يبدأ حين صودرت الرسالة لأول مرة فى عهد فؤاد . فقد حدث أن رسب أحد المجاورين فى الأزهر ممن ينتسبون إلى جنوب افريقية . فجاء أبوه الأزهر وأخذ يكيل للمعهد العتيق السباب . وتفاقم الأمر حين وردت إشارة من دار المندوب السامى بنجاحه ... وما للمندوب وما للأزهر ؟ وانتفض الرجل الهادىء الحيى الطبع ، الدمث القلم والخلق ، ولكن الأمر كان أكبر من حلمه فكتب مقاله (الامتيازات والدين) . ولم يقف بالهجوم عند المندوب وحده بل هاجم من يديرون الخد الأيسر من قومنا . وكان الظن بشيخ الأزهر ألا يكون بين صفوفهم .. وأحنق المقال الشيخ الكبير والقصر فطلبا إحالة الكاتب للنيابة .. وطلب النائب العام صاحب الرسالة وخاطبه فى الأمر .. وكان النائب العام وقتئذ لبيب (باشا) عطية وكان أديبا متذوقا ، . وسأل النائب ، الكاتب عما إذا كان يستطيع الاتيان بشاهد يؤيد الحادثة موضوع المقال . ؟

وواضح أن النائب الأديب كان يلتمس مخرجا لصاحب الرسالة . للرجل الذى استولى مقاله عليه حتى أعاد قراءته مرات . ولكن الزيات كان يعلم أنه ليس هناك من يجرؤ أن يدلى بهذه الشهادة . ولم تغب عن النائب المجرب الوسائل فأوحى إلى شيخ الأزهر وزكى الابراشى أن هناك تكتلا بين العلماء ضدهما ، وأن الأمر له ما بعده وأن من الخير أن يسحبا الشكوى . وانصاعا لظاهر الحال .

* * *

وهكذا كانت الرسالة بين المجلات ، قمة شامخة . مبدأ وهدفا وأسلوبا ووسيلة وغاية ، ولا أحاج هنا بالهلال والمقتطف والكتاب وما إلى هذا مع تقديرى لها جميعا وما أدت ، فقد كانت اهتماماتها فردية أو محدودة . كان (الهلال) يعنى بالتاريخ ، (والمقتطف) يحتفل

بالعلم و (الكتاب) ، يحتفى بالأدب وإن لم يكن له غرض معين ، كما أن (الثقافة) هى الأخرى لم يكن لها طابع خاص مميز .

أما (مجلة الكتاب المصرى) فقوامها الترجمة . وفى ركاب هذه المجلات المعدودة مجلات أخرى أصدق ما يقال فى وصفها أنها فقاقيع تظهر لتختفى بعد عددين أو بضعة أعداد على الأكثر . وكأنها ولدت لتعلن أن الثبات للمبدأ ، والبقاء للأصلح ، والاستمرار للأقوى ، والرجحان للأكرم .

* * *

وفى ٢٥ يوليو سنة ١٩٦٣ عادت الرسالة ثانية إلى الظهور ولكن وسط ظروف كثيرة لا تعين على تواصل أو بقاء .

وبعد الرسالة أقف عند تاريخ صاحب الرسالة حتى يتكامل التاريخان وتلتقى السيرتان .. كما التقتا فى الحياة على دعوى ، وفى الفن على أدب ، وفى الهدف على رسالة .

صـــاحب الرســـالة

أما صاحب الرسالة أو صاحب الأدب الأخضر فقد نشأ الزيات فى حضن الريف — ريف الدقهلية عند كفر دميره التى يحـــدها من الشرق والغرب السهول الخضر والمروج الغين فنشأ بحـــكم البيئة مطبوعاً على الألوان والألحان • وأدب الزيات فيـــه من خلق القرية وعليه طابعهـــا فهو ودود عفّ شفّ رفاف كالنسائم، أريحى كالشمائل ، ملون كالأصائل ، أصائل القرية فى أمسيات الربيع •

وأدب الزيات فيه من القرية شجاها وآلامها وهو ساحة دعـــواها وإشكالها وهو مجلى مناها وآمالهـــا •• يصف الفلاحين كمن كابـــد ، ويدافع عن الأجراء كمن عانى وشقى : و (وحى الرســـالة) بأجـــزائه الأربعه للريف فيه أثر ظاهر وللفلاح بين موضوعاته أكبر نصيب •

مولـــده :

ولد فى الثانى من ابريل سنة ١٨٨٥ فى كفر دمـــيره القديم مركـــز طلخا مديرية الدقهلية لأبوين من كفر الدمـــيرة وإن كانت الام من أرومة حجازية حيث كانت عائلتها تعيش بالمدينة المنورة ثم هاجـــر جدها الى مصر • واستقر فى طلخا وكان يطلق عليها عائلة المدنى •

أما أبوه فينتهى نسبه الى الشيخ مجاهد فى نبروه وله مقام فيها •

وقـــد كان أبواه قرويين متوسطى الحال يعيشـــان على الزراعـــة كسائر أهل القرية التى لا يملك فيها أحد من الأرض شيئا • فقـــد كانت طلخا مركزا للاقطاع يملكه من الغرب باشـــا (البدراوى) ، ومن الشرق أمير (عمر طوسون) • وبينهما الفقر والبؤس • ولهذا صدى كبير فى أكثر ما كتب فى الرسالة مما يدور حول الفقر والفقراء ولمسقط رأسه أكثر من صورة فى كتاباته (اقرأ مقال نصيب قريتى من الثورة) •

وهو الابن الثالث لأبويه بين خمسة من الاخوة وأختين •

وكان لوالده نزوع أدبى فقــد كان يكلفه بأن يقــرأ له القصص الشعبى • (اقرأ مقال أول ما تعلمت الأدب) جريدة الشعب •

أما أمه فقد أثرت فيه بخلقها ورجاحة عقلها • كانت فى غاية الذكاء راوية محدثة عن الاسرة والبلدة •

وكان إخوته جميعاً يشتغلون بالفلاحة — ماعدا واحدا درس بالأزهر وتوفى — ولعل ملازمة أسرته للأرض وارتباطها بها هو السر فى احساسه المستمر بالأرض ووعيه لمشاكلها •

* * *

دخل أحمد الكتاب فى الخامسة من عمره وظل به حتى بلغ الحادية عشر • وفى هذه الأثنــاء أتم القرآن الكريم حفظا وتجويدا وكان فقيه الكتاب (الشيخ حسن) يعتمد عليه فى كتابة الأحجبة لحسن خطه كما كان يقرأ له القصــائد الدينية لضعف بصره (أقرأ مقال الشــيخ حسن « كتاب وحى الرسالة ») •

وعندما فرغ من الكتاب أرسله أهله الى رجل آخــر فى الدقهلية فى بلد اسمها الربع فجودله القرآن وعلمه القراءات السبع فى سنة •

وعندما كان فى الثانية عشر من عمره مرض بالملاريا • وحين كان فى دور النقاهة بدا له أن يسبح فى بحر شبين قريباً من الشاطىء • وعلى الرغم من هذا أشرف على الغرق لضعفه • ولم ينقذه إلا رجــل من أهل البلد معروف كان يدعى الشيخ بيومى مد له يده وأنقذه ثم أركبه زورقاً عاد به • وكان الشيخ بيومى هــذا يشتغل بالقراءة والزراعة فى وقــت واحد •

ولم تترك هذه الحادثة رواسبها فى نفسه فلم يكف بعدها عن السباحة ٠

وفى هذه المرحلة من عمره انتقل الى الأزهر فى القاهرة ٠ وكان سنه وقتئذ بين الثانية عشر والثالثة عشر ٠

وفى الأزهر عُرف عنه ميله الى الأدب حتى لقد كانت دراسته للأدب وعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وبيان أكثر من جانب الفقه ٠

وقد نشأ ميله الى الأدب من قراءة القصص الشعبى وكثرة حفظه للأشعار حتى تهيأ له أن يقول الشعر محاكاة لما فى القصص منه ٠

ولم يكن شعره موزونا ٠ كل ما فيه انه مقفى ٠٠ واشتهر فى بلدته بالشعر حتى أن العمدة — وهو أحد أقاربه — كان فى المناسبات يطلب اليه أن يقول الشعر ٠

وآنس الوالد فى ابنه هذه الموهبة فعمل على تقويته بأن اشترى له ديوان المتنبى فكان أول شاعر فى حياته حفظ له شعرا ٠

❋ ❋ ❋

ولم يكن الأدب ، شعره ونثره ، فى ذلك الوقت يدرس فى الأزهر أو حتى يعترف به كانت الدراسة فيه لغوية وفقهية ، والعلوم كلها عقلية ونقلية ٠

وهفا الى الأدب مثله رفيقاه طه حسين ومحمود زناتى ٠ وكان الثلاثة ينشرون بشائر أدبهم فى صحف ذلك العهد اليومية والاسبوعية ٠ كان للزيات شهرة فى النثر حين اشتهر طه بالشعر ومحمود زناتى بالرواية ٠ يروى الكثير من النوادر والأشعار حتى لقب بالزمخشرى حين أطلق على (الزيات) اسم ثعلب صاحب كتاب الفصيح ، وعلى (طه) اسم المبرد ٠

وعلى ذكر الأدب والأزهر تخايل الكاتب صورة الشيخ محمد عبده . فهو أول من أدخل درس الأدب فى الأزهر يظاهره رجلان هما الشيخ محمد محمود الشنقيطى والشيخ سيد المرصفى .

وقد حضر الزيات ، الشيخ محمد عبده ، حين كان يدرس فى الرواق العباسى . كان ناشئا مأخوذا بسحر بلاغته ولكنه درس على الشنقيطى المعلقات ، وعلى المرصفى المفصل للزمخشرى ، والحماسة لأبى تمام ، والكامل للمبرد ..

وقد حدث فى هذه الأثناء أن كان الشيخ المرصفى يدرس (الكامل) للمبرد وفيه خطبة للحجاج منها قوله : (ماذا يطوفون إنما يطوفون برمة وأعواد) . قاصدا قبر الرسول بالبقيع . وارتفعت أصوات تنادى بكفر الحجاج من أجل هذا التطاول . وتميز من بينهـا صوت معتدل فالزيات وطه والزناتى قالا لا داعى للرمى بالكفر . إن أحـدا لا يمارى فى إن الرسول بشر . فالحجاج لم يكفر وإنما أساء الأدب .. وشاعت قولتهم بين أرجـاء الأزهر وتلقفها خصومهم الذين أشـاعوا أن الثلاثة كفروا ووافقوا الحجاج فيما كفرته من أجله الجمهرة . وهنا قامت ضجة ارتفعت على إثرها شكوى الى شيخ الأزهر وكان فى ذلك الوقت الشيخ حسونة النـواوى .

وعُقد لهم مجلس لمحاكمتهم مكون من الشيخ حسـونة والشـيخ محمد بخيت مفتى الديار فى ذلك الحـين . وأصدر المجلس حكمه وكان قاضيا ، فقد حكم عليهم (بالقطع) وهـو اصطلاح معناه قطـع اسم المحكوم عليه من الأزهر أى شطبه من سجلاته وطرده .

وهذه السنة التى صدر الحـكم فيها هى بالذات السنة التى تقدموا فيها للامتحان لنيل إجازة التدريس .

ولم تطل فترة الطرد من الأزهر فهى لم تمتد أكثر من أسـبوع

طافوا فيه بدور الصحف يتظلمون من الحكم فلم يجـدوا نصيرا إلا فى أستاذ الجيل لطفى السيد • وكان يومئذ رئيس تحـرير الجريدة التى كان يصدرها حزب الأمة • فدخلوا عليه مكتبه بسراى البارودى وأفضوا بشكواهم • فخاطب الشيخ حسونة فى أمرهم • وقبل الرجل شـفاعته فيهم وعادوا الى الأزهر •

ولكن لم يجـد الثلاثة بداً من ترك الأزهر بعد أن أيقنوا أن لا بقاء لهم فيه • وخرجوا الى الشارع لا يتبينون لهم هدفاً واضحاً • فكانوا يختلفون الى مسجد الحسين تارة وحيناً الى مسـجد المؤيد أما سحابة النهار فكانوا يقضونها فى دار الكتب يدرسون ويعكفون على الأسفار • فقرءوا الأمالى والأغـانى والحماسة ودواوين الشعراء الفحول وغـير هذا من أمهات الكتب • حتى إذا أنشئت الجامعة الأهلية سـنة ١٩٠٨ سارعوا الى الالتحاق بهـا • كانت الدراسـة بالجامعة مساء تستغرق ساعتين من الخامسة حتى السـابعة •• فلم تغـير كثيراً من برنامجهم اليومى فظلوا عكوفا على دار الكتب صباحهم حتى إذا حل المساء اتخذوا طريقهم الى الجامعة •

تتلمذوا فى الجامعة على نللينو وجويدى وسانتللانا وليتمان • • وكانت الجامعة فى أول عهدها جل أساتذتها من المستشرقين الذين استعانت بهم للتدريس بهـا •••

* * *

كان الشيخ المرصفى صديقا حميما لمستشرق فرنسى كان مفتشا عاما للغـة العربية بالمدارس الفرنسية وكان هـذا المستشرق اسـمه الفرير بلاج وكان دائما يطلب الى الشـيخ المرصفى أن يختار له « أكفـاء » للتدريس بالمدارس الفرنسية •• وفى سـنة ١٩٠٧ اختـار له الشـيخ المرصفى ، تلميذه أحمد حسن الزيات •

وذهب الزيات الى عمله بمدرسة الخرنفش وهو لا يعرف طريقـة

التدريس ولكنه حـاز إعجـاب المفتش بلاج الذى كان يترجم حكايات لافونتين ويعهد بها الى الزيات مدرس العربية الجـديد لينظمها كمـا سبقت الاشـارة .

واشتدت حركة ترجمـة بلاج للقصص الفرنسى حين استوثق من الزيات الـذى كان يعيد صياغة جميع ما ينقله بلاج الى العربيـة (١) كان الزيات يصب مترجمات بلاج فى القالب العربى الأصيل . ومن آثاره فى هذا الميدان كتاب (بحر الآداب) وهو خمسة أجـزاء للمطالعة وكتاب سفينة النجاة (فى النحو) ، وسفينة البلغاء (فى المعانى والبديع) : وقد ساعد الزيات فى هذين الكتابين الشيخ سيد الشايب ...

حقيقة آن للحقيقة أن تسجلها ...

* * *

وقد استمر الزيات مدرسـا بالخرنفش من سنة ١٩٠٧ إل سـنة ١٩١٤ وفى هذه الأثناء أيضا كان يدرس بالجامعة المصرية .. وكان يتعلم اللغة الفرنسـية .. وقد أعانته الفرنسية كثيرا أثناء دراسته بالجامعة حتى حصل على أجازة الليسانس سنة ١٩١٢ .

وفى سـنة ١٩١٢ اقتضت ظـروف الزيات أن يشتغل بالتدريس . وكانت أمنيته التدريس فى دار العلوم المجال الوحيد للتدريس فى ذلك الوقت ولكن حال بين الزيات وبين دار العلوم ضعف نظره الذى أورثـه إياه رمد أصابه فى طفولته .

وفى سنة ١٩١٤ أخذ الزيات يدرس اللغـة العربية لطلبة البكالوريا بمدرسة الإعدادية الثانوية . وقد أثرت هذه المدرسة فى حياته بل فى حياة

---

(١) كافأ (بلاج) الزيات على عمله بتعليمه الفرنسية على النحـو الذى أوردناه فى ترجمة الدكتور طه حسين .

الشعب فقـد جمعت صفوة منهـم المازنى والعقـاد وأحمد زكى وفريد أبو حـديد وغيرهم •

وظل الزيات مدرساً بالاعدادية من سنة ١٩١٤ حتى ١٩٢١ •

ولما اندلعت الثورة المصرية سنة ١٩١٩، كان عمادها طلبة المدرسـة الاعدادية والمدرسة الإلهامية ومدرسة الحقوق الخديوية •

من هذه المدارس الثلاث خرج طليعة الثورة ومنهم تكونت اللجنـة التنفيذية للطلبة وعـددها ٢٥ طالبا ثم تحرك الأزهر والمدارس الثانوية والابتدائية وجموع الشعب كلها تباعا ••

وهنا نقف لنتبين دور الزيات فى الثورة • وكان دورا مستترا وإن يكن فعالا ، فقد كان يكتب المنشورات السرية التى كانت تصدرها الجمعية التنفيذية للطلبـة •

* * *

وفى سنة ١٩١٨ كلف ثروت باشـا — رئيس الجامعـة وقتئذ — سكرتيره فريـد الرفاعى بالبحـث عن كُتاب يمـدون جـريدتى مصر والاستقلال وكان يحتضنهما • فلجـأ الرفاعى الى طـه والزيات ومحمد المرصفى فقبل طه والمرصفى • أما الزيات فقد رفض ابقـاء على مركزه بالاعدادية ، والاكتفاء به ، وضنا بالمخاطرة فى الانضمام الى معارضـة مكروهة من الشعب •

* * *

انتهت الثورة المصرية • وفى سنة ١٩٢٢ اختارت الجامعة الأمريكية الأستاذ الزيات رئيسا للقسم العربى بها بمرتب قدره ستون جنيها مصريا وسرعان ما سارت له بها سمعة طيبة •

وظل الزيات بالجامعة الأمريكية من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٢٩ •

وفى سنة ١٩٢٢ دخل الحقوق الفرنسية وكانت الدراسة بها ليلية ومدتها ثلاث سنوات ، أمضى منهـا سنتين فى مصر والثالثة فى فرنسـا « حيث امتحن هناك وحصل على ليسانس من كلية الحقوق جامعة باريس سـنة ١٩٢٥ • وبذلك يكون الزيات قد حصل على الليسانس مرتين •

١ — ليسانس الآداب من الجامعـة الأهلية (المصرية القديمـة) سنة ١٩١٢ •

٢ — ليسانس الحقوق الفرنسية من باريس سنة ١٩٢٥ • وخيره فيما أكسبه من معلومات فحسب إذ أن طريقه أدبى •

❋ ❋ ❋

وفى طريقه الى فرنسا استبدل فى الباخرة الزى الأفرنجى بالـزى الأزهرى ولم يعد اليه بعد ذلك ••

وبعد عودته تزوج للمرة الثانية سنة ١٩٢٦ فقد تزوج للمرة الأولى سنة ١٩٠٢ من إحدى قريباته وأنجبت منه بنتا سماها (سعاد) عاشت سنتين ثم توفيت • ولحقت بها أمها بعد زواج دام سبع سنوات • وقـد أنجب من زواجه الثانى رجاء سنة ١٩٣٣ عقب عـودته من العراق وفى سنة ١٩٣٤ ولد له عـلاء •

❋ ❋ ❋

وهو يحسن من اللغات « الفرنسية » التى بدأ يتعلمها سنة ١٩١٧ • وهو يعتقد أن محب الاطلاع تكفيه لغة واحدة حيـة توفر له الروائع العالمية فى كل اللغات بما هو مترجم اليها منهـا • ولئن يتقن المرء لغـة واحدة فى رأيه بعد لغته بالطبع خير من التوزيع بين لغات كثيرة يلوكها ولا يحسنها • وهكذا كانت الفرنسية نافذته الى العالم الغربى •

وقد حـاول أن يتعلم الانجليزية ولكنه أقلع معتقـدا أنه مجهـود

ضائع • لا سيما بعد أن سافر الى أوربا فلم يجد صعوبة إذ استطاع بالفرنسية وحدها أن يتفاهم فى أى بلد حل فيه •

* * *

والزيات رجل هادىء معتدل لا يسرف فى شىء مطلقا فهو بعيد عن الإفراط والتفريط ، بعيد عن الهزات وخاصة الهزات المالية ليسر حاله • أما شبابه فلم يخل بالطبع من عاطفة متأججة [1] •

أما الحادث الذى زلزل كيانه فهو موت ولده رجاء الذى ولد لـه سنة ١٩٣٢ وهو على أعتاب الأربعين وعلى خلاء بيته من البنين والبنات وملأ الطفل الذى أقبل على شوق ولهفة ، حياته دفئاً حلوا وأملا واعـداً ثم اختطفه الموت فى عامه الخامس • ريع والده وكان الأب يحس الثكل بعاطفة مضاعفة عاطفة الوالد وعاطفة الفنان •• وطفق قلمه يسح كعينه باكيـا •• رجـاء •

* * *

أما الحادث الآخر الذى هزه فهو فقد كتابه (العراق كما رأيته) • لقد كتبه فى مدة إقامته بالراق • كان كل ما حـوله جـديدا يوحى • الناس والمكان والأخلاق • وكان كتابه مجموعة الانطباعات الأولى التى لا تتكرر بالقوة نفسها والتأثير نفسه •

وعندما عاد الى مصر سنة ١٩٣٣ وأراد طبعه صادف أن نزل القاهرة فى ذلك الوقت الزعيم العراقى ياسين الهاشمى واطلع على الكتاب • • لقد قرأه فى ليلة وباركه ولكنه أوصى صاحبه أن يتريث بعض الشىء فى نشر القسم السياسى منه • وعاد الزيات بالكتاب الى بيته فإذا بتجارب

---

(١) أقرأ مقاله (رجلان وامرأة) فى كتابه وحى الرسالة .
و (كتاب) (غرام الأدباء) لعباس خضر .
ومقال الأستاذ الزيات (الغرام الأول فى القرية) .

مجلة الرسالة تنتظره • كان من دأبه مراجعتها كلها بنفسه فوضع الكتاب بجـانبه وانشغل بتجارب الرسالة وهو فى أثناء هـذا يلقى بالبروفات على الأرض •• وعندما دخلت الخادم تجمع فضل الأوراق كما اعتادت لتلقى بها فى القمامة كان من بينها أصول كتاب العراق !!

والعجيب أن الزيات قضى سحابة يومه كله لم يتذكر الكتاب بـل أياما بعد هذا • وفى يوم بعيد تذكر الكتاب وطفق يبحث عنـه فى كل مكان فى البيت دون أن يعثر عليـه • وأخـيراً تذكر كل شىء ! أيقن أن الخـادم طوحت به ، غير عامدة ، مع أوراق البروفات • وأسـقط فى يده •• ولكن ماذا يعمل •• لقد انتهى كل شىء ••

وذهب الكتاب ولم ينشر منه إلا بضع صفحات مثل مقال (حديقة فى بغداد) •• إنه يذكر منه كثيراً ولكن كتابته مرة أخرى شىء آخر ••

* * *

ومن الأحداث التى تأثر بها فى حياته إصابته برمد فى طفولته ترك على كلتا العينين سحابة لعبت دوراً كبيراً فى حياته وكيفت مستقبله فقد حرمته من دخـول دار العلوم وحرمته تولى أى وظيفة حكومية فاضطر الى أن يشق طريقه فى العمل الحر ، وهو طريق وعر يستأدى صاحبه العمل فى تواصل وصبر ودءوب ••

على أنه يحس هذا الضعف الآن إذ يعوقه عن القراءة بالقـدر الذى ينبغى لمثله والذى يتمناه • فقد اعتاد أن يفهـم بعينه حين درج طـه وألِفَ أن يفهم بأذنه • والزيات من أجـل هـذا لا يستطيع التركيز لو قرىء له •

وكان الزيات يهوى أن يكون مدرسا فلم يستطع التدريس إلا فى المدارس الحرة بسبب هذا النقص ، هذا حين كان رفقاؤه كلهم فى وظائف محمودة ترفع الى الشهرة وتدفع الى الظهـور والازدهار والانتـاج

أيضاً • أما الزيات فقد كان من هذه الناحية كالعقاد كلاهما لا سند له من حكومة أو جاه •• اشتغل بالتعليم والصحافة والتأليف • صاغ نفسه بنفسه من يدرى لعله لو كان نظره سليما لكان قعد عن الكفاح واستسلم الى الرتابة والروتين الحكومى فهو بطبعه لا يعمل إلا ومن ورائه حافز يستحثه •• من يدرى •

* * *

وفى سنة ١٩٣٣ أنشأ مجلة الرسالة •

ومولد الرسالة كان آخر عهده بالوظائف فقد تفرغ لها واكتفى بها يستثنى من هذا المناصب الشرفية أو المناصب التى لا التزام فيها يكبل صاحبه •• ونستطيع أن نعرض بعامة للأعمال التى تقلدها الزيات :

١ — التدريس بمدرسة الفرير من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩١٤ •

٢ — من سنة ١٩١٤ — سنة ١٩٢٢ كان مدرسا أول بالاعدادية الثانوية •

٣ — عمل بالجامعة الأمريكية من ١٩٢٢ — ١٩٢٩ رئيسا لقسم اللغة العربية •

٤ — بعد هذا اتصلت أسبابه بالعراق حيث كان استاذا بدار المعلمين العليا ببغداد من سنة ١٩٢٩ — سنة ١٩٣٢ •

٥ — من سنة ١٩٣٣ — سنة ١٩٥٣ كان للرسالة •

أما المناصب الشرفية فأولها :

عضوية المجمع اللغوى من سنة ١٩٤٨ الى ١٩٦٨ •

عضوية لجنة النشر بالمجلس الأعلى منذ نشأته وهو عضو المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، كما عمل الزيات مديرا لمجلة الأزهر ورئيسا للتحرير شهورا فى سنة ١٩٥٣ •

وقد استقال منها وفاء للشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر الـذى استقال فى ذلك الوقت • وكان الشيخ عبد المجيد هو الذى أسند اليـه الادارة ورئاسة التحـرير • ثم عاد الى مجلة الأزهر فى عهد الشيخ شلتوت منذ فبراير سنة ١٩٥٩ •

ومن وجوه نشاطه الأدبى أنه :

عضو فى المجمع العلمى العربى — دمشق •

عضو فى المجمع العراقى — بغداد •

عضو فى لجنة التأليف والترجمة والنشر •

عضو فى لجنـة وضع كتاب تاريخ الأمـة العربية الذى تخرجـه وزارة التربية والتعليم فقد ناطت به وضع التاريخ الأدبى للعصر العباسى الثانى والثالث أى تاريخ العرب فى بغـداد والقـاهرة وقرطبة فى ٢٠٠ سـنة •

* * *

وشقت الرسالة طريقها صعدا ولاقت منذ ولادتها سنة ١٩٣٣ حتى احتجابها سنة ١٩٥٣ نجاحا كبيرا •

لقد دعا الزيات على منبر الرسـالة الى الوحدة بين العـرب والى الجامعة الاسلامية والى بعث الاسلام الصحيح ••

دعا الزيات الى اصلاح الأزهر (١) وتخليصه من المضمضة بالألفاظ الاصطلاحية والجمجمة بالجمل المعقدة على أنهـا العلم والأدب • وهى دعوة طبيعية من الزيات أحد ثلاثة ثاروا على نظم التعليم الأزهـرية فى شبابهم (٢) • نعا على الأزهر فقده المرونة البصيرة فبقى على حاله كما

---

(١) وحى الرسالة . ج ٢ ص ١٨٣ .
(٢) أنظر : وحى الرسالة . ج ٣ ص ١٧٧ — ١٨١ .

كان فى العصور الوسطى • المرونة التى توجهها سنة الحياة ولا يكون بدونها اصلاح ولا تطور • ولم يصب الأزهر بهذا الجمود إلا لانه فقد هذه المرونة ، فلم يبال فعل الزمن فى الدنيا وفى الناس (لذلك لم يعلم التاريخ جامعة من جامعات الأرض بقيت فى القرن العشرين على ما كانت عليه فى القرون الوسطى غير الأزهر) (٣) •

* * *

كما اتخذ الزيات سنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ من السياسة وأحداثها على مسرح الحياة المصرية موضوعا للكتابة • فمقاله (نهاية مأساة) على أثر ضيق مصر بالمعاهدة ثم مقال (ماذا بعد هذا ؟) ثم مقال (سبعون عاما) ثم مقال (فدائيون وأنانيون) •

حتى إذا هبت الثورة سح بمقالاته (تجلد يا قارون) (ثورة فيها ريح النبوة) ، (نصيب قريتى من الثورة) ، (من عهد الى عهد) ، (مهرجان الحرية) •

وله مجموعة أحاديث سجلها فى ختام الجزء الرابع من (وحى الرسالة) بعنوان (الأدب والثورة) تضم المقالات :

١ — علاقة الأدب بالثورة •

٢ — كيف مهد الأدب للثورة •

٣ — كيف تسنى للأدب أن يجمع الشمل ويمهد للثورة •

٤ — أهو جوع الروح أم جوع الجسد •

ومجموعة أخرى (حياتنا الفكرية بعد الثورة) •

* * *

وهكذا نرى (الزيات) صاحب رسالة وصاحب دعوة •• أما الرسالة

---

(٣) وحى الرسالة • ج ٢ ص ٢٧٢ •

فجامعة للبيان والثقافة الرفيعة وإشاعة القيم العليا فى الفن بين طلابه وأساتذته على السواء . وأما **الدعوة فجامعة لاصلاح المجتمع** بمحاربة الجهل والفقر والمرض بالتخطيط .. والتشريع والكتابة وعرض النماذج والصور والاستنفار والتنفير ، والاغراء بالتحرك ، والتحذير من الجمود والجحود والطمع والاثرة والغضب والبغى .

* * *

وكتاب الزيات الأول (وحى الرسالة) دعوة متصلة ضد الغنى الفاحش . دعوة متصلة لبقاء المجتمع وإعادة تنظيمه على أسس سليمة تنبع من أديان الشرق ونظم الغرب . وقد وضحت معالم هذه الدعوة حين ولدت وزارة الشئون الاجتماعية فانتقل الزيات من فن المقالة الى منهج العمل وخطة الاصلاح . أو بعض هذه الخطة المدارس الشعبية الليلية واشتراط الالمام بالقراءة والكتابة لطلاب الرخص للسعى أو لخدمة ، وتكييف هذه المدارس فى الريف ، وأحياء المدن لتكون وحدات اجتماعية لتقوية المدارك وتهذيب العادات وتنظيم المعيشة وتدبير الصحة (١) .

وبعض هذه الخطة سن القوانين لحماية العامل والفلاح من صاحب المال ومالك الأرض ومكافحة البطالة بتيسير سبل العمل للعامل ، وتدبير رأس المال للصانع ، وتمصير المعامل والمصانع والمتاجر والمصارف والشركات يداً ولسانا ليحل الوطنيون فيها محل الأجانب (٢) .

وكانت مثل هذه الدعوة فى مثل تلك الأيام ضربا من الفدائية أو طلب المحال .

* * *

---

(١) أنظر وحى الرسالة ج ٢ ص ١١١ .
(٢) أنظر وحى الرسالة حـ ٢ ص ١١٥ .

وقد هاجم الزيات الاقطاع هجوما عنيفا ومن مقالاته التى كان لها دوى فى ذلك العهد مقال (فلاحون وامراء) ومقال (ياارياح الخريف . هبى) فى ١٥ / ١٠ / ٩٥١ وهو ثورة عارمة . ومنه : (هبى يارياح الخريف هبى . هبى واقلعى ذلك النبات الدنىء الذى يتطفل على أشجار الوادى فيتغذى على أصـولها ، ويتسلق على فروعهـا ، حتى إذا أدرك الهواء والضياء والرفعة ، التف بعساليجه وكلاليبـه على أعاليها التفاف الأفعوان ، فيكظم أنفاسها فلا تنسم ، ويشـل حركتها فلا تميس ، ثم يقول مشيرا بأطرافه الرخوة الى كل عابر ، أنظر ألست أنا الأمير وهـذا الشجر هو الفلاح ؟ واذا لم يسخر الله لى الشجر فكيف أنمو ، وإذا لم يسخر الفلاح للأمير فكيف يسمو !) .

ومن مقال (هبى يا رياح هبى)

(هبى يا رياح الخريف هبى ، هبى واقشعى هذا السحاب المتراكم الذى ارتفع ارتفاع الدخـان وانتفش انتفاش العهن ، فحجب الشمس ، وحصر الأفق ، وأحر الأرض ، ثم لا نجد من ورائه مطراً يدفع الجدب ، ولا ظلا يمنع الحرور) (١) .

* * *

والزيات الذى يطربنا غناؤه إذا وصف أو صـور كان فى نقـده الاجتماعى صوتاً راعداً يقرع الأسماع الصم . ولم يخش فى نقده أحدا فقد نقد الأمراء ورئيس الوزارة (٢) . ووزارات المعـارف والصحة (٣) وأطباء المستشفيات الحكومية (٤) كما نقد مجلة الشئون الاجتماعية (٥) ووزارة الشئون الاجتماعية نفسها (٦) .

---

(١) وحى الرسالة جـ ٤ ص ٤٤ — ٤٥ .
(٢) وحى الرسالة جـ ٢ ص ١٢١ .
(٣) وحى الرسالة جـ ٢ ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(٤) وحى الرسالة جـ ٢ ص ١٢٧ .
(٥) وحى الرسالة جـ ٢ ص ١١١ — ١١٢ .
(٦) وحى الرسالة جـ ٢ ص ١٠٨ .

لقد ربطط الزيات بين الدين والتضامن الاجتماعى • ومن صرخاته فى هذا الشأن قوله : (هيهات أن يكون فى الأرض إيمان مادام فى الأرض فقر فإن أسباب الفقر محدودة من الطمع والشح والأثرة • وهذه الخلال السوء لا تطمئن عليها نفس مؤمنة) (١) •

وهو يرى الفقر سبب الاستجداء والاستخذاء والجريمة والرذيلة •

❋ ❋ ❋

وتوسع هجوم الزيات فثار على طغيان الحاكم وطغيان الأدب وإذا علمت أن هذا حدث سنة ١٩٣٤ علمت الى أى مدى كان الرجـل يحمل أمانة النقد والدفاع عن هذا الشعب •

نقد الحكم والسلطات فى مقال (عهد وأى عهد) ٢٦ / ١١ / ١٩٣٤ ومقال (ضحايا الحكومة والأوقاف) •

نقد البيروقراطية (٢) وحـارب (الصـدقة الجاهلية) (٣) التى تحسب البر فى بناء السبل والاضرحة وفى الوطن (الفقير الذى لا يجـد القـوت والمريض الذى لا ينـال الدواء ، والجاهل الذى لا يسـتطيع التعلم ، والجندى الذى لا يملك السلاح) •

ندد بهجرة القرية وأنانية الملاك هواة المدن (٤) كما ندد بالرشاوى من (الخراف والسمن والفاكهة) التى يملكها باشا القرية •

نقد النيابة والنظام البرلمانى (٥) •

حتى أقاصيصه كانت نقدا اجتماعيا كقصة (جلاد الشيطان) (٦)

---

(١) وحى الرسالة ج ٢ ص ٢٠ •
(٢) وحى الرسالة ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧ •
(٣) وحى الرسالة ج ٢ ص ١٨١ •
(٤) وحى الرسالة ج ٢ ص ٢١٤ •
(٥) وحى الرسالة ج ٢ ص ٢٣٥ •
(٦) وحى الرسالة ج ٤ ص ١٧٦ •

وقصة (سيدنا الشيخ حسن) (١) وقصة (الغرام الأول) (٢) وقصة (فى سبيل الأرض الطيبة) •

* * *

وهو بقدرته الراسخة على التعبير والتلوين كان يوفر لنقده **العبارات المثيرة الباقية** مثل (إن بين أبناء الذهب وأبناء التراب أطباقا من اللحم والشحم والحديد والأسمنت ترتد عنها أصوات الضارعين أصداء خافتة) (٣) أو قوله (ثوروا على الفقر قبل أن يثور) « ١٥ يناير سنة ١٩٥١ » أو قوله (شق الله هذه الأشداق المنفوخة يا سادة) (٤) •

كما كان يوفر له **الصور الساخرة المرورة مثل** لوحته (ناخب ونائب) ووجود هذه الصورة فى الجزء الثانى من (وحى الرسالة) لا يزهدنى فى نقلها هنا لتعزز ما ذهبت اليه وتفصح عما أكون قد عجزت عنه : (بين غداة وعشية أمسى غنينا الطافح عضوا بالتزكية فى مجلس النواب • والفوز بالتزكية معناه امتناع المنافس لا انقطاع النظير ، وخلو الميدان لا بطولة الفارس • ومع ذلك نصب البك السرادق وقدم — الحلوى ، وتقبل التهنئات وسمع بأذنيه الطويلتين القصائد العور والخطب البتر فى الاشادة بالكفاية العالية فيه ، والثقة الغالية به ، والخير المرجو منه • وللريف شعراء وخطباء كعصافير الحصاد تقع فى الجرن ولا تقع فى الروض ، وتزقزق للحبة ولا تزقزق — للزهرة ، وتكرر أغرودتها الواحدة ولا تقصد بها معنى غير فرحتها هى بسعة البيدر وضخامة العرمة •

---

(١) وحى الرسالة ج ٤ ص ١٩٠ .
(٢) وحى الرسالة ج ٤ ص ١٩٩ .
(٣) وحى الرسالة ج ٢ ص ٢٣ .
(٤) وحى الرسالة ج ٢ ص ٢٥ — ٢٧ .

وكان البك وحده هو الذى صدق هذه التفاعيل العروضية (سخرية) فانتفش انتفاش الديك ، وراح يعــد ويمنى ، ويعدد ويمن ، ويفخــر ويفيش ، ويزعم أنه باجتهــاده وجهاده سيجعل المجلس يبسط الأرزاق ويطيل الأعمار وسيضمن لكل ناخب فى دائرته قصراً فى الدنيــا وقصرا فى الجنــة (١) .

ويقول (اقبل البك على المهنئين يوزع عليهم تحياته الشريفة فلمــا أعدناها على ترتيبه خرجت لحسن حظ الأدب منظومة فى هذا البيت .

أهلا وسهلا ، طيبــون ، وحشتنا   سلمات ، ازيك ، وكيف الحال (٢))

وهى صورة لاذعة السخرية من الانتخابات المزيفة . ولها عنــده أشــباه (٣) .

* * *

ولم تكن دعوة الزيات مجرد إثارة وعى وشحن النفوس الغافلة بل كان له **منهج للمدينة ومنهج للقــرية** .

فقد دعا إلى سن القوانين لحماية العامل والفلاح من صاحب المال ومالك الأرض ، كما دعا إلى تمصير المعامل والمصانع والمتاجر والمصارف والشركات ، كما دعا إلى إعادة تخطيط القرية على نمط يكفل لها الشمس والهواء والجمال والذوق والراحة . وتفاصيل هذا كله يمكن الرجوع إليه فى الجزء الثانى من وحى الرسالة . ولكن دعوته هذه بأبعادها المختلفة كانت تستمد من الذيمقراطيــة السليمة خطتهــا . **وقــد هاجم الزيات**

---

(١) وحى الرسالة ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) وحى الرسالة ج ٢ ص ٣٣٧ .

(٣) أنظر (وحى الرسالة) ج ٣ ص ٣٠٩ .

الشيوعية الهدامة فى مقاله (الشيوعية على المصطبة) [1] فهى (لا تسوى بين الخلق فى الغنى والحرية ، وإنما تسوى بينهم فى الفقر والعبودية) .

وقد سخر من الشيوعية فى موضع آخر حين قرر استحالة المساواة المزعومـة — فشمول العلم أمر تقتضيه الفطرة وتجيزه القدرة ، ولكن شمول الغنى شىء تأباه الطبيعـة ويمنعـه العجز .. (ومادام الناس مختلفين فى الذكاء والقوة فلابد أن يختلفوا كذلك فى النفـوذ والثروة ، والتفاوت فى الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر فى الطبيعة ونظام مسلم فى الدين) [2] . وهنا التمس الأديب المصلح الحل فى سن القوانين التى تحفظ حق الوطن والمجتمع فى مال الأغنيـاء بالضرائب التصاعدية وبإشاعـة الأغنيـاء العلم والخـير ، بالمدارس والملاجىء والمستشفيات كالشعوب الكبيرة فى انجلترا وأمريكا [3] :

لقد أرادة الزيات فى دعوته الاصلاحيـة أن يعالج الفقـر بعلاج الاسلام له [4] . والاسلام (عالجه بالسفارة بين الغنى والفقـير على أساس الاعتراف بحق التملك والاحتفاظ بحرية التصرف فلا يدفع مالك عن ملكه ، ولا يعارض حر فى إرادته إنما جعل للفقير فى مال الغنى حقا معلوما لا يكمل دينه إلا بأدائه ذلك الحق هو الركن الثالث من الاركان الخمسة التى بنى عليها الاسلام . فلا هو فرع ولا نافلة ولا فضلة) [5] .

وفى وحى الرسالة تعميق لمشكلة الفقـر من خلال تكييف النفسية المصرية ، وثورة على القناعة الزائفة فى الفقير لأنها تقتل طموح النفس (لأن الفقير يملك أن يمسك روحه بنصف قرش ، وما أيسر ما يجد قرشين

---

(١) أنظر (وحى الرسالة) جـ ٣ ص ٣ ص ٣١١ .
(٢) أنظر (وحى الرسالة) جـ ٢ ص ١١٣ .
(٣) أنظر (وحى الرسالة) جـ ٢ ص ٢٨ .
(٤) فصل الزيات هذا العلاج تفصيلا فى الجزء الثانى من وحى الرسالة ص ٣٢٤ — ٣٢٩ .
(٥) وحى الرسالة جـ ٢ ص ٣٢٦ .

فى اليوم بالعمل الحقير أو السؤال الملحف . ومتى حصل المرء من بلده على الكفاف والراحة والأمن ، نشـأ فى نفسه فضيلة القناعة الزائفـة . والقناعة فى الفقـير كالثروة لـدى الغنى ، كلتاهما تقتل طموح النفس وتسكن قلق الروح وتخمد نشاط القريحة ، وتحمل الرجل على الرضى بالدون والتسليم بالواقع) (١)

وعلى هذا النمط حلل نفسية الفلاح ونظرته إلى الحياة (٢) .

وكم من صورة رسمها الزيات للقرية المصرية فى ماضيها وحاضرها(٣) .

❋ ❋ ❋

اذكروا إذا جاء دور الأدب فى إذكاء النهضة ودفع التطور وإشعال الثورة هذه الصورة التى تلفح نارها النيام الذين يرون المغتصب المتأبه المتأله فيقولون بلهجة المؤمن الراضى : (آمنت بالله ، ولو لم يستحق ماهو فيه ، لمـا كان الله عز وجل يعطيه) .

وهنا يصرخ رجل الأدب ، المصلح .

(وأقسم ما أعطاه الله ولكنه هو الذى أخذ .. وما كالن ليستقيم فى ميزان العدل أن يعطى الرى انسان حتى يطفح ، ويمنعه انسـان حتى يلتهـب) .

ويمضى الزيات فى تشريح الواقع :

(أعرف فى بعض مراكز (الغربية) عشرين بادة يملكها من الشرق أمير ومن الغرب باشا ، فليس لأحد من الاهلين فيها شبر أرض ولا جذع شجرة .. إنما هم أجزاء أو مستأجرون سخرتهم الغفلـة والاستكانة

---

(١) ج ٢ ص ١٣٧ — ج ٢ ص ١٢٥ .
(٢) ج ٢ ص ٣٦ — ٣٧ .
(٣) ج ٢ ص ٢٢٤ ج ١ ص ٢٢٠ ع ج ٢ ص ١١٧ ، ج ١ ص ١٩ .

لرجلين كسائر الرجال ، ليس لبطنيهما سعة البحر ، ولا لعزميهما قوة الدهر ولا لنفسيهما عظمة الله ، إنما هما فمان تملأهما المضغة ، ومعدتان تكظهما الأكلة ، ولكن لهما عينين كعين الجحيم لا تمتلىء ونفسين كجوف الرمل لا يرتوى ، فهما يعصران من أجساد هذه الألوف الجاهدة ذهبا يكتنز ، وقصورا تشاد وسلطانا يرهب ، وقطعانا تسعى ، ومراكب تطير ، ورغائب تبتغى ، ولذائذ تنال ، وأوسمه تناط ، وألقابا تكتسب ، ثم لا تدركها بهؤلاء العبيد رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة .. وهما لا يتركان لفلاحيهما المساكين ما يمسك الروح ويستر البدن ، ثم يلزمانهم أن يؤدوا أجرة الأرض ونفقة الإدارة قبل أن يأكلوا ، فاذا أوف الزرع أو رخص السعر وعجزوا عن الوفاء ، سلطا عليهم النظار والمحضرين فأخذوا الدور التى يأوون إليها والبهائم التى يزرعون عليها ، وخلفوهم فرائس للمرض والفاقة ، لا يجدون وسيلة للطب ولا حيلة للجوع . فإذا فزعوا إلى فضل الامير والباشا زم بأنفه واستكبر أن يفتح عينيه على هذا الهوان والقذر ، ولعله ساعتئذ كان يمسح خرطوم كلبه أو يرجل عرف جواده) [1] .

لقد أطلت الاستشهاد هنا لان أى وصف لن يبلغ من عكس السخرية والوخز ما تبلغه الحقيقة الادبية أو قد يحمل على المبالغة فى اشادة التلميذ بالأستاذ .

ومضى الزيات فى تشريح الأغنياء ، فعلة حب الباشا للمستنقعات أن نفقة ردمها على حسابه ، وحجة بغضه للمدارس أنها تصرف الأطفال عن العمل فى أرضه .

ومن عباراته اللاسعة :

(إن أرباب الحكم والتشريع والتنفيذ هم من سلائل النعمة وكناز

---

(١) ج ٢ ص ١٠ — ١١ .

المـال ، فلا يخطرون ببالهم الفقر ولا يحطبون فى حبالهم الفقير • وهم يظنـون إذا محـا الاحسان الفاقـة ، ونفى التعليم الجهالة ، أنهـم لا يجدون الخدم ولا يملكون العبيد • والجاه من غير أذلاء يرمقونه زفه من غير نظارة ، والمال من غير فقراء يعبدونه ملك بلارعية) (١) •

* * *

وكتابة الزيات عن القرية والفلاح كتابة إنسانية ذكية فهو لم يكتف بالمطالبة بحقوقه المـادية المشروعة بل دعـا إلى إشعاره (الإنسانية) و (الآدمية) • دعـا إلى إثارة (القلق الروحى) فى نفسه فإن (هذا الفلاح لا يصلحه تنظيم قريته ولا تجميل داره ، إنما يصلحه تربية ذوقه وإرهاف حســه • فإن صاحب الذوق يبنى الدار الجميلة ويخط الحديقة البهيجة ، أما فاقده فخليق به أن يجعل القصر زريبة والبستان مزبلة) (٢)•

حتى كلاب القرية رسم لهـم صـورة لطيفة فكهة زاد فى قيمتها ، تخديمها فى وصف المجتمع الإنسانى •

(عندنا فى دارنا الريفية عصبة من كلاب الحراسة مختلفة الأسنان والألوان والجنس تعيش فى حال مدنيــة عجيبة : فى الليل تتعاون على النباح وتتساعد فى الهجوم ، فاذا لمح أحدها سواد إنسان أو ريح ذئب استنبحها جميعا واستعداها جميعا ، لا تسأله ماذا نبح ولا لماذا عدا • وفى النهار تربض متقابلة فى ظلال الشجرة ، أو ترقـد — متجاورة على قش الرز ، تتهارش حينا ، وتتفلى حينا والصغير يعمد إلى الكبير فيعضه وهو هادىء مستسلم ، والضعيف يجروء على القوى فيركبه وهو وادع مستكين •

ثم هذبناها فتهذبت ، ودربناها على النظام فتدربت وألقى فى روعها

---

(١) ج ٢ ص ١٩ •
(٢) ج ٢ ص ٢٢٥ •

أن تأخذ بطرف من مدنية الكلاب الأوربية فأحسنت لثم الفـم وأتقنت ملق العين وأجادت بصبصة الذيل ثم أسرفت فى الرقة وأغرقت فى الظرف حتى ليكاد كل كلب منها أن يقول : **ضعوا على رأسى قبعة** .

تلك حال كلابنا ما دامت خارجة من سلطان البطن عاليه وسافله ، فإذا قدم اليها الكلاب وجبة الغذاء ، أو عثر أحدها على عظمة فى حواشى الفناء انقلب — التراحم قسوة ، والتعاطف جفوة ، والتهارش حربـا ، والتفلية عضا ، والمدنية وحشية ، والايثار أنانية . فالأم تنكر ولـدها ، والأخ لا يعرف أخاه ، والطعام الوافر المختص والمشترك تتنازعه المخالب الحـداد والأنياب العضل ، فيخرج بالخطف مـن فم إلى فم ، وينتقل باللقف من يد إلى يد . والكلاب الضعاف والجراء الصغار يقفن منكمشات على بعد ، يسألن بالحق ويتوسلن بالقرابة فلا يرين إلا النظر الشزر ولا يسمعن إلا الزئير المهـدد ، حتى إذا غاب الطعام فى الأجواف ، ولعقت الألسن آثاره على الخراطيم ، أشبلت الأم على ولدها وأقبل الذكر على أنثاه وعطف الأخ على أخيه ، وعادت الى الكلاب حياتها المدنية من مرح الهراش وحنان التفلية وألفة النباح) (١) .

ولا أحسب كلاب قرية كفر دميره بدعا فى هـذا الشـأن فما هى إلا مثل (للمتمدينين) من بنى آدم .

***

والزيات الذى قام قلمه بعملية تعرية للقرية المصرية ليسمع صوتها أهل القبور ، هو عينه الذى غنى لها أعذب الغناء . وفى أدب الزيات من القرية صور ولوحات تردك إليها وتعطفك عليهـا وتصلك بهـا وتسرح خيالك فيها . ففى جمع القطن يرش قلمه النغم على أطراف الحقل وبين خطوط الزرع حتى لتخال من الوصف أن كل شىء فى القرية موقع : خطو

---

(١) ج ٣ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

أسراب فتيات الجنى ، وأهازيج العرائس فى طرقات القرية • وضحكات الصبايا فى الأزقة المطاولة • فإذا أفضى بهن الطريق إلى أعلى الحقل حيين بأصواتهن الرخيمة الشادية شجيرات القطن وقد انعقدت على أوراقهـا أكاليل الحباب وسال على أطرافها رضاب الندى ، ومشين فى أخاديـد الأرض منحنيات على الفروع الموقرة بالثمر الغالى فى لباقة ويضعنه فى خفة وهن يتفكهن بالنكات ويتروحن بالأغانى ويتساررن بالمنى ، ثم فى طفول الشمس يمرحن كالغزلان ويصدحن كالعصافير •

هذه صور لها نظائر فصورة (العيد فى القرية) (١) صورة متحركة وتشتد حركتها حين (يقوم العمدة فى أهل حارته فيزورون الحارة الأولى ، فيهنئون ويجلسون ريثما تدار القرفة وتوزع السجائر • ثم يقومون جميعا إلى الحارة الثانية فالثالثة فالرابعة وهلم جرا إلى آخر البلد ، وكلما مروا بحارة صحبهم أهلها إلى الأخرى حتى تجتمع القرية كلا آخر المطاف لدى العمدة فيقضون فى مجلسة أكثر اليوم) (٢) •

صورة طريفة ملونة حين يأتى دور الشباب والأيفاع (فيطوفون زمر البيوت يهنئون الصبايا وأيديهن لا تزال فى الطعام فيطبعن بالقبلات الخلية على الخدود البرنزية خاتما رقيقا من (الصلصة) ويرسمن بالأنامل المخضبة على الثياب البيض طغراء جميلة من الدسم • ثم ينصرف بعد ذلك الشباب إلى لعب الكرة فى ساحة الجرن ، ويـذهب الأطفال إلى الأراجيح على أشـجار الترعة) (٣) •

* * *

ومن صور الريف : (لحية بيضاء) (٣) ــ وهذه الصورة نقد للمجتمع

---

(١) جـ ١ ص ١٠٥ ــ ١٠٧ •
(٢) ص ١٠٦ •
(٣) ص ١٧ •
(٤) جـ ٢ ص ١٢٨ ــ ١١٩ •

الانسانى الريفى ، ولوحة القرية السمراء فى تباشير الفيضان [١] ، ولوحة (الريف فى الخـريف) [٢] •• والريف فى أمشير [٣] وليالى الحصاد [٤] وصورة للفقـير الفيلسوف (الشيخ منصور) [٥] ، وملاك القـرية فى الانتخـابات [٦] •

ولوحة لشاعر الربابة [٧] ولوحة (الكاتب العمومى) [٨] ولوحـة مجتمع (السميعة) فى حفلات الغنـاء [٩] وحفلة راقصـة [١٠] وحفلة مترفة [١١] وصورة من صور المجتمع المترف [١٢] •

وصورة للقهوة [١٣] وصورة أخرى للقهوة [١٤] فيها نقد للمجتمع ، فقد نفذ من حديثه عن القهوة الى الحديث عن المجتمع (فلكل طبقة من طبقات المجتمع صورة من صور القهوة نشقق عليها الحديث ونعمق فيها البحث) •

وصورة لبـولاق [١٥] •

---

(١) جـ ١ ص ١٥١ .
(٢) جـ ١ ص ٤٠٣ .
(٣) جـ ١ ص ٤٢١ .
(٤) جـ ١ ص ٤٢٣ .
(٥) جـ ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢٣ .
(٦) جـ ٢ ص ٣٣١ .
(٧) جـ ١ ص ١٧٦ .
(٨) جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٩) جـ ٣ ص ٣٠٢ .
(١٠) جـ ٢ ص ٩٢ — ٩٣ .
(١١) جـ ٢ ص ٩٣ .
(١٢) جـ ٢ ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(١٣) جـ ٢ ص ٢٨٩ .
(١٤) جـ ٢ ص ٣٠١ .
(١٥) جـ ٢ ص ٩٢ .

ومن المدينة قطاع الموظفين (١) وطبقات الموظفين (٢) كما رسم مجتمع المدينة فى رمضان فى مقال (الراديو والشاعر) (٣) .

* * *

وهكذا وقف أستاذنا الزيات وراء الرسالة يعلم — فيها وفى آثاره الأدبية الأخرى — أجيالا فى مصر وفى غيرها .. يعلم ويستنهض ويوجه ، ويدعو ، ويصور ... ويطوف بقلمه فى أنحـاء الوطن المصرى والوطن العربى .وكل بلد ينطق العربية قد عرف الزيات منذ ظهر كتابـه «تاريخ الأدب العربى » فقد كان هذا الكتاب مقررا فى جميع هذه البلاد . وقد تناوله بالتحليل المستشرق بروكلمان .

وقد طارت شهرة الزيات فى حياة الرسالـة كل مطار حتى بين المستشرقين فى فرنسا وانجلترا وايطاليا وألمانيا على أثر صدور ترجمته لآلام فرتر ورفائيل .

فقد كتب المستشرقون للرسالة مثل « جب » وكتبوا عنها مثـل « نيكسون » .

وقد كتب المستشرق المجرى عبد الكريم جرمانوس كتابة مستفيضة عن آلام فرتر منوّها أنه سُر منها بأكثر من الأصل على أن الترجمـة تكاد تكون حرفية

وممن كتبوا عنه من العرب الأستاذ الكردى على ، فى مجلة المجمع العلمى بدمشق بعد صدور كتابه آلام فرتر ، كما كتبت عنه فى سوريـا جريدة (الأيام) ، وفى العراق : جريدة البـلاد وجريدة الزمان ومجلة الحاصد وغيرها فى بيروت والقاهرة .

وفى مصر كتب عنه الدكتور طه حسين فى السياسة اليومية بمناسبة كتابه (تاريخ الأدب العربى) .

---

(١) جـ ١ ص ١٦١ .
(٢) جـ ١ ص ٢٤١ .
(٣) جـ ١ ص ١٧٥ .

وكتب عنه الاستاذ العقاد وعبد العزيز باشا فهمى فى الرسالة بمناسبة صدور كتابه (دفاع عن البلاغة) • والأستاذ فريد أبو حديد فى مجلة المجتمع ومقالته فيه هى خطبة استقباله بمناسبة انضمامه إلى عضوية المجمع •

كما كتب عنه حسين البشبيشى سبع مقالات فى مجلة مصر العليا وكتب عنه عباس خضر فصلا كبيرا فى كتابه (غرام الأدباء) ودرينى خشبة فى المجلة الجديدة •

على أن الزيات كالمازنى ، قد كتب كثيرا عن حياته وخاصة فى آخر الجزء الأول من وحى الرسالة وفى كتاب (هذا مذهبى) الذى صدر عن دار الهلال ، ومقاله منشور بالجزء الرابع من وحى الرسالة ، وفى مقاله (رجلان وامرأة) • حتى القصص فى وحى الرسالة قصصه هو ما عدا قصتين هما : ١ — وضاح اليمن ٢ — بهيرة •

* * *

والزيات صاحب مدرسة من تلاميذها صفوة الكتاب فى البلاد العربية • والزيات صاحب أسلوب أصيل فى العربية وإن لم يتأثر بطريقة معينة فى الكتابة • **إنه يختلف عن كتاب العربية فى الترادف** • فهو ينفر من الترادف والحشو والتطويل والفضول حتى ما كان منه للتحسين أو التحلية • واللفظة عنده تنزل من العبارة فى مكانها الأصيل بحيث يتعذر حذفها أو تبديلها حتى لقد أعلن « روفائيل بطى » شيخ الأدب والصحافة فى بغداد فى جريدة «البلاد » عن جائزة لمن يدل على لفظة فى غير ماوضعت له • ولم يحدث أن ظفر أحد بالجائزة •

وهو كثير التوليد للألفاظ والمعانى •

وعلى ذكر الألفاظ أسجل طرفا من براعة القدرة عند الزيات فى هذا المضمار مما تختص به كتاباته وكأن هذه الألفاظ لتفرده بها واشتقاقه

لها وتطويعه إياها قد انتقلت ملكيتها من اللغة إليه • بعض هذه الألفاظ قـوله :

أبدر الهلال • جـ ٢ ص ٢٣٤

أعضى فى الشركة جـ ٣ ص ٣١٩

له فى كل شركة **إعضاء**

قلم لا **يتقمم**

مهر الغناء والرقص

فلان يتمزى على زملائه (أى يظهر المزية) •

متأبه (من الابهة) جـ ٢ ص ١٠

يداهى فى الرأى مداهاة جـ ٤ ص ٤٦ •

تأتى الفتيات فرادى **وثنى** جـ ٤ ص ٢٠٢ •

* * *

وفى حياة الزيات ، شخصيات أثرت فيـه ومن هؤلاء **فى** حيـاة الزيات من المعاصرين :

* الشيخ المرصفى فقد أثر فى تكوين ذوقه الأدبى واللغوى •

* أما من القدامى فقد تأثر :

ببديع الزمان

وأبى حيان

كان يؤثرهما لفصاحتهما كما كان يؤثر من حيث البلاغة لا مرتين ، وجوته من الغربيين فترجم عنهما ••

ولكن أسلوب الرجل يختلف عنهم **جميعا** • كان يقرأ لهؤلاء ويتمثل ما يقرأه دون أن يحاكيه •• فله دراية واسعة بعلوم العربية التى يعرفها

معـرفة أصيلة كما أن الطبيعة زودتـه بالذوق الموهوب المعـد لحسن الاختيار .

* * *

وأبرز ما فى أسلوب الأستاذ الزيات ازدواج الجمل ووزن الكلمات بـدون سجع (١) . والازدواج لون من الموسيقى أو حسن التنسيق فى الأسلوب . والقرآن الكريم حافل بـه مثل قوله تعالى : (وآتيناهمـا الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) .

ولقد وضح الآن السر فى وصفى لأستاذنا الزيات بأن أسلوبه أصيل فى العربية . إن الازدواج عنده يستشرف إلى هذا المستوى الأعلى مثل قوله : (تقاسمه هم العمل ، وتساهمه دعة المنزل) (٢) .

اذكر له عبارة يصف بها مستورى الحال ظاهراً ، استهلها بوصف القرآن الكريم لأمثال هؤلاء ثم يكمل فقال (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف أقوياء من الصبر) . وهو نمط يعلو كثيراً على ما تقع عليه عند الحريرى من الازدواج المسجوع مثل قوله فى احدى مقاماته يصف خطيبا :

« هو يطبع الأسجاع بجواهر لفظـه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » .

ولعل خير وصف لأسلوب الزيات كتابه : « دفاع عن البلاغة » فقد كان — قصد أم لم يقصد يصف خصائص أسلوبه .

* * *

كما وصف الزيات نفسه فى (وحى الرسالة) فى معارض شتى ومن خلال هذا الوصف نتبين مذهبه فى الحياة وهو مذهب يتميز بالاسـتقامة

---

(١) قد يعرض لقارىء (وحى الرسالة) احيانا سجعة مقصودة مثل قوله (تعصف بهما المنون كما تعصف ريح الخريف بالورق الجفيف) ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) وحى الرسالة ج ٢ ص ٤٦٨ .

والوضوح .(نهج لى هذا المذهب وألزمنى اياه طبع حـر مسالم ، فأنا منذ حملت نصيبى من أعباء الحياة أحاول أن أستقل فى عملى عن إرادة الغير ، واستغنى بقدرتى عن معونة الناس ، فلم أضع يدى ولا عنقى فى أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد صعود العليق على أكتاف الطوال من ذوى السلطان والحكم ، وانما اضطربت فى مجالى الحيوى طليقاً من كل قيد إلا قيد الخلق ، مستقد عن كل عـون إلا عن الله . بذلك سلمت نفسى من رذائل الوظيفة فلا جبن ولا رياء ولا ملق ، وبرئت حياتى من نقائص التبعية ، فلا خضوع ولا إغضاء ولا ذلة) (١) .

سلمت حياته على الفضـول والوصـول وحب الظهور والدعـوى فهو يعيش فى عزلة ويعمل فى صمت ، ويمشى فى قصـد ، فلم يـدخل فى حزب ولم يقف على منصة ولم يظهر فى جريدة .. (لذلك) « عشت لين الجانب سليم الصدر لا أدخل فى جدل ولا أشارك فى مـراء ولا ألـج فى منافسة . وكان من جدوى ذلك على أن الله وقانى عذاب الحسد وكفانى شر العداوة وجعل ما بينى وبين الناس قائما على المجاملة والمساهلـة والـود » (٢) .

ولـكن العزلة والمسالمة وكره الظهور لم تحل بينه وبين الجهـاد الوطنى إذ نادته دواعيه . فقد أسهم مصرياً مثقفاً فى ثورتى مصر فكان فى الأولى (جندياً مجهولا أكتب المنشورات السرية للطلبة وأنا مدرس فى « المدرسة الإعدادية » ، وكنب فى الأخرى وطنياً معروفاً أوقظ الوعى القومى وألهب الشعور الوطنى وأنا محرر فى مجلة « الرسالة » . ومع نلك قلما عرفنى زعيم أو رآنى حاكم . ومعرفة الزعيم أو رؤية الحاكم كانت يومئـذ من أحاديث المنى وهواجس الأحلام ، ولكن أكثر الأمانى ضلال وأكثر الأحلام وهم) (٣) .

* * *

---

(١) وحى الرسالة ج ٤ ص ١١٨
(٢) وحى الرسالة ج ٤ ص ١١٩
(٣) وحى الرسالة ج ٤ ص ١١٩

وأديبنا ولوع بالجمال (سبيلا إلى الخير ودليلا على الحق) فهو يوفره لنفسه فى اللباس والطعام والمسكن والأثاث كما يوفّره لنفسه خلقاً رضيًا ولفنه أسلوباً نـديا .. وأجمل ما يوصف به الجمال وصفه لمذهبه فى الحياة (والمذهب طريق تذهب فيه فـإذا لم يكن له من الجمال شجر يحنو على جوانبه بالظل ،وزهر ينسم على أفيائـه بالعطر وحاد يرفه على سالكيه بالنغم ، كانت الحياة بأساء من غـير نعيم ، وصحراء من غير واحة) (٣) .

وفنيته وحبه للجمال فى نسقه الأعلى تلمسه فى حـديث شبابه . تستطيع أن تقول وماذا فى حديث الشباب .. انه معروف ولكن أديبنا ، فتى ، كان .. يسـتهويه فى طـراءة السن مـالا يستهوى الحـداثة والغضارة . كانت تجذبه لطافة الروح وتشده قوة الجاذبيـة وتأسـره حلاوة الصوت . وعند الفنان نعتبر هذه الصفات جوامع الحسن وعواليه وان لم تجمع صاحبتها معها (براعـة التكوين وصفاء البشرة ونضارة البدن) . ولا أريد أن أتحدث عن محابه أو أحبابه فقد سبق الحـديث إليها (١) ولكنى أريد فقط بهـذه المناسبة أن أسجل أجمل « كـده » سمعتها .

أتته « نور » فدار حـوار كالسرار :

— أهلا وسهلا سلامة عينيك يانور ، (وكأنى أسمعه يقول سلامة النور) فقالت نور ويدها ترتجف فى يدى وصوتها يتهدج فى أذنى :

الله يسلمك عاوزه أحط أطره

— فدخلت بهـا المنظرة وأجلستها بجانبى على الكنبة ورفعت هى العصابة عن عينها فاذا جفناها ملتهبان قليلا . فسألتها عن سبب هـذا الالتهاب فقالت إنها حكتهما بالتوتياء الخضراء فالتهابا .

---

(١) اقرأ (غرام الادباء) للاستاذ عباس خضر .

فقلت لهـا وقد فطنت إلى ما رمت إليه •

— ولمـاذا ؟

— كـده

— كـده ليه ؟

— أهو كـده (١)

* * *

وللأستاذ الزيات ثمانية كتب مطبوعة :

تاريخ الأدب العربى :

ألفه سنة ١٩١٦ وقـد فصـل فى مقدمته الظروف التى دفعتـه الى كتابته • بدأ فيه بالعصر العباسى وعصر المماليك •• والعصر الحـديث ثم أضاف إليه كثيرا سنة ١٩٢٠ وأخرجه فى صورته النهائية • وقـد قرر هذا الكتاب فى جميع البلاد العربية لنظراته فى النقد وحسن أسلوبه •

طبع ٢٤ طبعه • وقـد كتب كثيرون عن هذا الكتاب ونال شهرة واسعة • واستهدى هذا الكتاب كثير من المؤلفين فعلى نمطه ألف كتاب الوسـيط •

الكتاب الثانى : آلام فرتر :

وقد شرح أسباب ترجمته له فى الجزء الأول من وحى الرسالة وقد استغرقت ترجمته سنه هى ١٩٢٠ وطبع فيها أيضا •

الكتاب الثالث : روفائيل :

ترجمه سنة ١٩٢٥ وهو فى فرنسا • وهناك زار كل الأماكن التى كان يجلس فيها لامارتين مع جوليا وتحت هذا التأثير ترجم القصة •

---

(١) وحى الرسالة ج ٣ ص ٢٠٥ •

وقد استغرقت ترجمته سنة توزعته فيها الدراسة والأعمال ..

طبع سنة ١٩٢٥ بعد عودته ..

كما ترجم الاستاذ الزيات (محاضرات الفلسفه) للالند .

الكتاب الرابع : فى أصول الأدب :

ألفه بعد عودته من بغداد . وإذا كان وحى الرسالة يبين اتجاهاته فى الحياة ورأيه فى الأدب والاجتماع فهذا يبين محصوله فى الأدب .

وفى كتاب أصول الأدب بحث جديد لم يطرق فى وقته وهو تاريخ ألف ليلة وليلة . فقد حاضر فيه سنة ١٩٣٢ فى بغداد قبل أن يطرق الموضوع فى مصر . وقد أخذت البحث دائرة المعارف الإسلامية ونشرته وظلت صحف سوريا والعراق شهرا تنشره تباعا كما نشرته كاملا مجلة المجمع العلمى بدمشق ونشرته فى مصر مجلة المعرفة .

وقد أذاع هذا البحث شهرته ووطد مكانه فى البلاد العربية .

والبحث الثانى الجديد فى الكتاب هو (العوامل المؤثرة فى الأدب) وقد استفادت من هذا البحث وزارة المعارف فى كتاب (تاريخ الأدب) المقرر على مدارس الوزارة .

وقد تكلم الكتاب عن أصول النقد والقصة والرواية والفن القصصى والمسرحية وهى أبحاث جديدة فى حينها .. وقد أخذ الزيات أبحاثها من الأدب الفرنسى وقعدها تقعيدا عربيا . إذ لم يكن عندنا أصول مقررة معلومة لهذه الأشياء . وهذا الجزء من الكتاب كان مهيأ لأن يكون كتابا مستقلا ثم أضافه صاحبه إلى كتاب (أصول الأدب) الذى هو فيما عدا هذه الأبحاث محاضرات ومقالات ألقيت ونشرت أصلا فى الصحف ..

وقد طبع الكتاب سنة ١٩٣٤ .

الكتاب الخامس : دفاع عن البلاغة :

وقد دفعه الى تأليفه الفوضى الأدبيــة السائرة وتطــاول الكتابات الدارجة إلى أن تكون أدبا أو انحدار الأدب إلى الكتابة الدارجة • وقد رسم فى هذا الكتاب خصائص أسلوبه بالذات ودافع عنه •

وقد سبق له نشر فصوله فى الرسالة ثم جمعه منها •

الكتاب السادس : مختارات من الأدب الفرنسى (قصائد وأقاصيص)

تم تأليفه على مــدى (الرواية) فقد ترجم جزءا كبيراً كان ينشر تباعا عندما أصدر (الروايــة) ليدعم الرسالة ثم جمعه فكان منه هــذا الكتاب •

الكتاب السابع : وحى الرسالة :

وهو تجارب الكاتب ومشاهــده وانفعالاته بالحياة وانطباعاته فيها وتتسم بالصدق والتجربة • والكتاب به تراجم حية لبعض العلماءوالساسة والشخصيات •

يعتبر زمن تأليفه عشرون سنة هى بضعة من عمــر الكاتب أودعها مشاعره واختباراته واتصالاته ويقع الكتاب فى أربعة أجزاء •

الكتاب الثامن : (فى ضوء الرسالة) وهو :

ألوان من الأدب والتاريخ ويعتبر امتــداداً لوحى الرسالة إذ جمع فيه الأستاذ الزيات كتاباته فى الشعب والجمهورية والهلال والرسالة الجديدة والأزهر وهى مجموعة الصحف التى طفق ينشر بها بعد احتجاب الرسالة • صــدر ١٩٦٣ •

كان الأستاذ الزيات يحتشد فى سنيه الأخيرة لكتابة :

١ ـــ كتاب يسميه **(ذكرى عهود)** • وقد كتب معظم ذكرياته فى وحى

الرسالة ولكنه كان يريد أن يزيد عليها ويضيف إليها ويخرجها فى شكل منظم بين دفتى كتاب •

٢ — **عبقرية الإسلام :** على نحو ما فعل شاتوبريان فى كتابه (عبقرية المسيحية • كان يريد أن يكتب عن الإسلام لا من حيث النظم والمعاملات ولكن من حيث الروح والطابع •• إنه يريد لكتاب « عبقرية الإسلام » أن يكون دينياً أدبيـاً •

وشارك الاستاذ الزيات بالكتابة فى المجلات العربية :

الهلال — مجلة مجمع اللغة العربية — مجلة المجمع العلمى السورى — مجلة العربى الكويتية •

* * *

وقـد نال الأستاذ الزيات جائزة الدولة عام ١٩٥٣ عن كتابه (وحى الرسالة) تقديراً لأدبه وفضله • وقـد جاء فى تقدير اللجنة له وتقريرها عنه • (أنه مقالات متفرقة فى مختلف شئون الثقافة والأدب يجمعها ، أنها تحمل طابع مذهب فنى واحد مثله المؤلف عملا فى ضروب إنتاجه المختلفة ودافـع عنه نظـراً فى بعض كتاباته وعلى الأخص فى كتاب « دفاع عن البلاغة » ويقوم هذا المذهب على ركنين وهما :

أولا : العودة بالبلاغة العربية إلى طابعها العربى الأول الـذى يتمثل فى نهج البلاغة وكتابات (ابن المقفع و (الجاحظ) وأضرابم ، الذى يتجلى فيه الايجاز ورصانة الفواصل وقصرها وتصفية اللفظ •

وثانيا : تطعيم الفكر العربى الحديث بآثار الفكر الأوربى وروائع الآداب الغربية عن طريق الترجمة ، وبـذلك يساير الأدب العربى ركب الحضارة المعاصرة • وقـد أسهم المؤلف فى هـذا بترجمته لبعض الآثار الغربية مثل ترجمـة آلام فرتر • فاذا ضممنا إلى هذا جهـد المؤلف فى الدراسة الأدبيـة وفى تاريخ الأدب العربى تجمع لنا من كل أولئك إنتاج جدير بالتقدير والإجازة) •

لجنة جوائز الدولة للآداب • محضر الجلسة السادسة ١٨/٦/١٩٥٣ ••

كما نال الأستاذ الزيات جائزة الدولة التقديرية ••

ونال الاستاذ الزيات وسام النيل ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى •

* * *

أما بعد فإنى أكتب هذه الترجمة لحياة عريضة وفى سمعى يدوى التصفيق الحار العريض الذى استقبل به إخواننا السوريون فى مهرجان الشعر الثالث فى دمشق ، صاحب الرسالة ، وهو فى طريقة إلى المنبر فى تواضع العالم ودماثة الفنان وسراوة الإنسان وهالة العظيم •• ودمعت عيوننا نحن المصريين •

رسائل صاحب الرسالة

فى ٢٣ فبراير من عـام ١٩٥٣ احتجبت مجلـة الرسالة وكان ادباء البلاد العربية قبلها لا يكاد يعرف بعضهم بعضا فجاءت الرسالة وربطت البلاد وأهلها .. وصلت بعضهـا ببعض بما كتبت عن الأدب العربى فى كل بلد عربى فى تواصل وجدية ووفـاء . فكانت سفارة متنقلة بين اقطار العروبة . **وكانت للوحدة الحاضرة نقطة الإبتداء** .. فقد مهدت الرسالة للقومية العربية بما نشرت من أدب كل شعب .

لا بل إن السفارات مجتمعة لم تعمل عمل الرسالة ... واحدة . لقد سافر على أمين إلى الشرق بعد احتجاب الرسالة وعاد يقول :

(لو أن الحكومة أغلقت سفاراتها فى الشرق وأبقت على الرسالـة لكان خيرا لها وأجدى عليها ..) .

احتجبت الرسالـة فى الخمسينات واحتجب صاحب الرسالـة فى الستينات (١٢ يونيو سنة ١٩٦٨) . وقتئـذ عرفت له جهاده وريادته الأدبية فى صفحة كاملة من صحيفة الأهرام . لقـد كان استاذا **لاجيال** الرسالة كان لى أبا روحيا . كان يقول انه لم يرزق بنتا فوهبه الله على الكبر بنتا تستار سيرته ، وتشتار جناه .. وانه لحظ كبير من توفيقات الله لى فى حياتى ، كتابتى له مقدمة كتابه العظيم (دفاع عن البلاغة) تحقيقا لرغبته وهى رغبة رائدة بدورها فقد جرت العادة أن الأستاذ ، يقدم للتميذ لا العكس .

كان المغفور له الشاعر عزيز اباظة دائما يقول لى : أن طلب الزيات صاحب الرسالة ، منك كتابة مقـدمة لكتابه ، أكبر من أى دكتوراه ... إنى لو سئلت أمنيـة فى حياتى لتمنيت أن يطالب إلىّ الزيات مثل هـذا الطلب .. **كتابة مقدمة للزيات ، أمنية الأديب** ....

من رسائل الزيات رسائل من قارئات لـه فى العالم العربى يكبرن

أدبه ويقـدرن فضلـه ففتاة عراقية تكتب اليه على استحياء فى أول الرسالة ثم تختمها بقولها فى عفوية شديدة (تجد صورتى طيا تقـديرا واعجابا) • وقد جرت العادة أن يستهدى المعجب صورة لا أن يهديها •

ورسالة أخرى من قارئة عربية تقول : (أنت قاسى — الصواب قاسٍ يازيات ولكننى معجبة بقسوتك حتى •• فهل تستطيع أن تترجم ذلك كما ترجمت رفائيـل ؟) •

ومن الطريف أن القارئة العراقية تسمى أدبــه فى رسائلها ((**حسن يوسف**)) • اشارة إلى جمال يوسف الـذى أذهل صديقات امرأة العزيز فقطعن أيديهن بدلا من التفاح •

ولـكن فى الثلاثينات كان يحـدث كثيرا أن يداعب الأدباء بعضهم بعضا بكتابـة الرسائل على لسان فتاة وهمية فهل الرسائل العراقيـة حقيقة أم خيالا ؟

حقيقة واحدة استطيع أن اؤكدها ، وجودها بين رسائل الزيات ولا علينا من شخص كاتبها ••

ورسالة من (مىّ) تهنئه بعـام جـديد للرسالة الغراء وتحـدثه حديث أديبـة عن الترجمـة ومصاعبها لتقول فى نهايتها (لك أن تتصرف فيها « الترجمة » تغييرا وتصحيحا كما تشاء) ••• ما أرقها •

ورسالة من الأديب العربى الأستاذ انور العطار يدعوه **فيها أمير النثر** فى هذا العصر (يا من جدد انغامه ، وأسس ، وأبدع أحكامه حتى أغـار الشعر من النثر ، بما أراق عليه من عطر ، وما أشاع فيه من سحر) •

وفى هـذه الرسالة يروى الأديب العربى عن الرئيس شكرى القوتلى أن زائرا زاره فى داره بالاسكندرية يحمل اسم الزيأت ولقبه • وكان الرئيس

شكرى القوتلى لم ير أديب العربية الكبير ، فأكرم وفادة الزائر وأولم على شرفه وليمة سخيه ، حضرها الشاعر الأديب الزركلى • وفى ختام الحفلة قام صاحب الفخامة وودع الضيف وداعا حافلا ظنا منه أنه الزيات الكبير • وبعد أن انصرف اقترب من الرئيس شكرى ، الأستاذ الزركلى وقال : (ليس هذا هو الزيات) فقال له : يكفى أن يعلم أننا احتفينا به لانه يحمل اسم الزيات ولقبه •

وكم تكرر هذا الالتباس مع آخرين ••• كان الزيات **بالرسالة مدرسة أدبيه** ••• وكان الزيات بقلمه سفارة مصرية •

بين رسائل الزيات **رسالة له من الاستاذ العقاد سنة ١٩٤٦** فيها عتاب يفيض رقة ، وفيها وداد كان يعمر قلبيهما معا •••

تقول الرسالة العقادية (الأخ الجليل •• شفاكم الله وقواكم •• وعجل بعودكم الى مكتبكم المشوق اليكم • واننى لو لم استعظم حقى عند الرسالة كما استعظم حقها عندى لما راجعتكم فيه ولا عتبت من أجله • ويسرنى أنه حق مصون وأن أراكم قريبا على ما تحبون وتحياتى الأخوية لكم إلى اللقاء) •

ورسالة أخرى عاتبة ولكن من الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فيها حسياسيته المفرطة وطريقته التى لا تخلو من طرافة على جديتها المفرطة أيضا :

(شيخنا الاستاذ الجليل) •

كان مثلى عندكم ضيف طال مكثه عند قوم فذكروا له المحطة : ولم يدعهم يدلونه على موقع شباك التذاكر) •

ورسالة من الأديب العراقى طه الراوى تكشف عن موقف كبير للأستاذ الزيات من أديب عراقى كبير •

وبين رسائل الزيات وأوراقه الأدبية مخطوطه لشوقى فيها قصيدة طويلة بخط يـده ــ يكشف كثرة المشطوب فى المخطوطـة عن حساسية شوقى الشـديدة فى اختيار الألفاظ ــ فى وصف الطبيعة والناس ٠٠٠٠ ومن ابياتها فى وصف الفضاء :

فتنتهـم وجـــوهه ... واستخفتهمو الصـور

وشـــجاهم سـكونه ... بالعشـــايا وبالبكـر

لا تلمهـــم فانمـــا ... قـائد الأنفس الفطـر

كل نفس لهـا هـوى ... كل نفس لهـــا وطر

كل حسـن ومنظـــر ... فيهمـا للهـوى نظـر

هذه القصيـدة وضعها الأستاذ الزيات فى ظرف كتب عليه : (أثر من آثار شـوقى بك) ٠

وكتب إليه سائل : أيهما أصح كلمة (تقويم) أم كلمة (تقييم) ؟ أم أن الكلمتين صحيحتان ؟

وهو كما يبدو سؤال يخامر الكثيرين ٠ ولهذا أورد اجابة الأستاذ الزيات التى نشرها فى العدد ١٠٢٩ من الرسالة (نقد العمل الأدبى معناه **تقويم** عوجـه بالاداة الصالحة وتقييم مادتـه بالوزن الصحيح ٠ وأداة الناقد بهذا المعنى ملكة فنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة ٠ وهو بهذا الاعتبار يشارك المشرع فى صدق التمييز ، والفيلسوف فى دقة المـلاحظة ، والقاضى فى قوة الحكم) ٠

وأمير النثر كما يسميه أدباء العرب ساله سائل عن الشعر (الجديد) فكان جوابه (أن فى هذا الضرب من النثر أحيانا شاعرية تأتيه من لطف خياله ، وعذوبة لفظه ، لا من حسن نسقه ، وموسيقية وزنه ٠ وهو اذا تم ذلك وقليلا ما يتم ، لا يخـرج عما سـماه البلاغيون بالنثر المزدوج

أو المسجوع أو المفصل ... والشعر اذا خلا من الوزن والقافية كان على طريقة الشعر العبرى كنشيد الانشاد وسفر أيوب ... وذلك هو الشعر الحر . فاذا التزمت فيه القافيه دون الوزن كان من النثر المسجوع أو (لا يروزيميه) كما يسميه الفرنج وهو عندهم عجيب . وذلك ما تراه فى كلام الكهان والحكماء والخطباء فى العصور الأولى وفى كلام الأدباء فى سائر العصور .. حتى هذا العصر .

فاحياؤه فى هـذا الثوب المرقع ، **رجعة الى الوراء عشرين قرنـا على الأقل** . وتسميته بالجديـد تسمية لايقرهـا التاريخ ولا يؤيدها الواقع .. فلا هو شعر بالمعنى الخاص لخلوه من الموسيقى ، ولا هو جديد لخلوه من الابتكار) .

وأخيرا فى أوراق الاستاذ الزيات مشروع **لتيسير النحو** بوضع معجم جديـد سماه (الرائد الصغير)يكون سهل التناول قاصرا على المستعمل المأنوس من الألفـاظ والتراكيب ومضى يضـع الأمثـلة لمـا يؤخذ وما يحذف .

لقـد رثى الاستاذ الزيات ، الأستاذ العقاد بقوله : (ذهب العقاد الكاتب الشاعر الاديب العالم كما يذهب المطر ويبقى الربيع) .

وهى عبارة لا أجـد أبلغ منها — وكان رجل البلاغة وحاميها — فى وصف الزيات بعد العقاد .

لقد ذهب المطـر وبقى الربيع . مطر زكا عليه فى مجلـة الرسالة ، النبات ، وأخصب الموات ، وأمرع الجديب .....

إن ربيع الطبيعة فصل فى السنه يمضى ، ويبقى ربيع الأديب ،،،

توفيق الحكيم



مولـــده — أسرته — دوره فى ثورة ســنة ١٩١٩ — مسرح عكاشة — سفره الى أوربا — عالم جــديد — كتب أثرت فى تفكيره — عودته — وظائف فى حياته — جرمان مارتان — كتب لها تاريخ : عودة الروح . شجرة الحكم . تأملات سياسية . مشكلة الحكم — صراعه مــع الحكومة — مسرح توفيق الحكيم — اســلوب الحكيم لــه قصة — الصورة مــدار فن توفيق الحكيم — وحدة الأدب عند توفيق الحكيم — امتزاج العامية بالعربية فى أدبه — توفيق الحكيم والمصرية — قصص أفــكار وقصص شخصيات — توفيق الحكيم والمرأة .

ولـد (حسين)توفيق الحكيم فى الاسكندرية فى حى محرم بـك سنة ١٩٠٢ وتلقى علومه الإبتدائية فى مدرسة محمـد على ثم المحمـدية بالقاهرة ثم دمنهور الأبتـدائية ، والثانوية ، بالاسكندرية رأس التين ، ثم العباسية الثانوية بالاسكندرية ثم القاهرة حيث حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٢٥ من مدرسة الحقوق بالقاهرة .

ولمـا كان والد توفيق من رجال النيابة والقضاء فقد حرصت الأسرة على أن ينهج توفيق نهج والده . ولكنه إلى الأدب أميل وبه أعلق . وعشق مع الادب الموسيقى والمسرح والتمثيل .. وشحـذت ثـورة سنة ١٩١٩ مواهبه الفنية حتى لقد وضع أول مسرحية له ١٩١٩ وكان اسمها (الضيف الثقيل) . وكانت حوادثها تدور حول الاحتلال البريطانى . وقد رفضت السلطات القائمة وقتذاك السماح بتمثيلها . قد قبض على توفيق الحكيم أثناء ثورة سنة ١٩١٩ وحقق معـه وأعمامـه على أثـر ضبط منشورات بمنزلهم .

وفى ثـورة سنة ١٩١٩ خالج توفيق نظم الشعر والزجل بـل عالج التلحين ! ومن أزجاله التى وضعها ولحنها ما كانت تردده الجماهير دون أن تعرف صاحبها .

* * *

ومضى توفيق على الرغم من معارضة الأسرة فى طريق المسرح فكتب لفرقة عكاشة رواية (العرائس) التى مثلتها سنة ١٩٢٤ . وهى أول رواية له مثلت . كما مثلت له فرقة عكاشة مسرحيته (على بابا) وهى من نوع الأوبريت وهى فى بعض أجزائها زجل عامى . وظلت الفرقة تمثل له من سنة ١٩٢٤ الى سنة ١٩٢٦ فأخرجت له « خاتم سليمان » ثم « المـرأة الجـديدة » .

وقـد سار توفيق على الطريقة المألوفة فى مسرح عكاشة . وكان مؤلفو ذلك العهد لذلك المسرح هم الشيخ يونس القاضى وعباس علام

وسليمان نجيب وابراهيم رمزى ومحمـد عبد القدوس وبـديع خيرى وعمر عارف صاحب روايـة (هدى) وغيرهم ... وكان هذا هو الوسط الذى يعمل فيه توفيق ولو لم يقدر له السفر ، لمَاَ خرج من هذه الدائرة إلى أن يبلغ العمر مداه .

لقد ضاق والداه بانصرافه إلى الأدب المسرحى فأرسلاه الى فرنسا أملا فى تحقيق أمنيتهما بالحصول على الدكتوراه فى القانون ، وبعدا به عن وسط المسرح الذى تأبى الأسرة المحافظة أن ترحب به أو تشجع على الاندماج فيه فى ذلك الحين .

* * *

كلما رأيت (توفيق الحكيم) سمعت فى نفسى همس سؤال : أتراه لو لم يقدر له السفر إلى أوربا فأين كان مكانه الآن ؟ وما هى إلى هنيهه حتى أسمع همس جواب .. هناك بين رجال القضاء بصفة أساسية فإن تبقى للأدب من جهـده شىء فمشـاركة من وقـت الى آخـر بكتابة مسرحية على نحو ما كان يفعل فى أعقاب الثورة .

وهذه السفرة يعتبرها توفيق الحدث الـذى غير مصيره .. غير مفاهيمه .. فتح عينيه على قيم جديدة للأدب والحياة . فما كان ليخطر ببالـه قط أن الأدب يحتاج إلى اطلاع واسع عميق . الى دعائم يرتكز إليها . فلما نهد إلى أوربا — وكان من الممكن ألا يفتح عينه عليها إطلاقا لولا رغبة والده فى إبعاده مؤقتا عن الوسط المسرحى مؤملا له أن يتأهب للدكتوراه فى باريس لعـل دراستها تعطفه على القانون وتشربه حبـه فيقبل عليه من جديد — فلما بلغ توفيق أوربا وجد نفسه فى باريس أمام حضارة هالته حتى لم يملك نفسه من الدهشة والإعجاب . لقد راعه أن ما نسميـه فى مصر مسرحا إنما هو فى أوربا قسم نابه من أقسام الأدب وحين يعنى المسرح فى أوربا لونا رفيعا من الفن ، ينظر إليه فى مصر على أنه خروج على الأدب « قلـة حياء » فكتابه (مشخصتيه) لا يطاولون الأدباء ولا يحسبون عليهم .

وهى نظرة لا تخلو من عذر فقــدكانت مسرحياتنا — إذا استثنينا مسرحيات شوقى — لا فن فيها • على أن (شوقى) حتى سنة ١٩٢٦ لم يكن قد كتب مسرحياته بعــد — فقد قابله توفيق الحكيم لأول مرة فى باريس سنة ١٩٢٦ • وأفضى إليه شوقى أنه بصــدد كتابة مسرحية عن كليوباترة • وطلب إليه أن يدله على المسرحيات الشعرية الفرنسية التى كتبت عن كليوباترة • وحدث أن (شوقى) قال لــه فى خــلال اللقاء أنه حضر فى غيبته بعض مسرحيات عكاشة وقيل فى ذلك الحــين أن المؤلف فى باريس وتساءل شوقى : أتكونه ؟

وطرب للسؤال توفيق الحكيم حتى خــف للبحث عن مسرحيات كليوباترة فى الفرنسية • ولو أن « شوقى » سافر قبل أن يواليه الحكيم بطلبته •

***

على أن « شوقى » حين أخــذ يصــدر المسرحية ، أدخل القــوم المسرحية الشوقية فى الشعر لا فى الأدب المسرحى •• وكأنهم ضنوا على المسرح بشوقى حين تجد الأدباء فى أوربا أو معظمهم مسرحيين • ففى فرنسا كورنيه وراسين وموليير ، وفى ألمانيا جيته وشيللــر ، وفى انجلترا شكسبير •• وأفاق توفيق الحكيم على صوت فى نفسه يهتف به : لــماذا يحتقر أبى المسرح ؟

لماذا يحتقر قومى المسرح ؟

لماذا نمارسه كعمل مخز ؟

لماذا لا يكون الأدب المسرحى أدبا عميقاً أصيلا يشرف به صاحبه كما يشرف الكتاب بالأعمال الأدبية الأخرى ؟

وأصر أمرا ليس إلى مردله من سبيل • لقد قرر توفيق الحكيم أن يدرس (فى الفرنسية) الثقافة الاغريقية التى ولــدت أساتذة المسرح

مثل سوفوكليس وهيروقليدس وأشيل وأرسطوفان •• قرر أن يدرس هوميروس والالياذة •• وعندما أراد أن يدرس أعـلام المسرح اليونانى أيقن أن لا بد من معرفة الفلسفة إذ عرف أرسطو المسرحية وسواها •• بل لابد من معرفة فن النحت الاغريقى •

وأقبل توفيق على كتاب (فلسفة الفـن) للكاتب هيبوليت تى ، وكتاب (تاريخ الفن) للكاتب سالمون ريناخ وعلى ضوئهما استشرف الى متحف اللوفر فغاص فى قاعاته وآثاره وأسلمه هذا الى العصر الرومانى الى عصر النهضة • فمضى متتبعا كل عناصر التفكير • ذلك أنه أيقن أن معنى الثقافة التى يجب أن يتزود بها الأديب وفق المفهوم الأوربى هو أن يحيط ويتفهم ويتذوق كل آثار النشاط العقلى الإنسانى من فلسـفة وأدب وفنون مختلفة من موسيقى وعمارة ونحت على مدار العصور بل يراد له ويجب أن يكون له الإلمام ببعض مظاهر العلم الحديث ونظرياته • وكذلك كان توفيق يحاول جاهدا أن يتفهم شيئا عن اينشتين فى كتب ليست بالغة التخصص • وإن خير كتاب فى هـذا الميدان ترك فى نفسه أثراً كبيرا ووسم تفكيره هو عمل كبير من ثلاثة أجزاء للعالم الرياضى (هنرى بوان كاريـه)اسمها على التوالى : العلم والفرد ، التفكير والعلم ، العلم والمنهج •

ومع أن هـذه الموضوعـات لا تهم الأديب فى التأليف الأدبى أو القصصى أو المسرحى إلا أنها أعطت « توفيق الحكيم » القـدرة على التفكير فى الأشياء التى يدرسها والتطور فى الفكرة القصيرة وتنميتها قدرا من النمو •• وهنا يبدو فضل الأدباء المتصلين بعلوم ومعارف أوسع من مجرد المهنة الأدبية •• وبمثل هذا بز الجاحظ الأصمعى فى الأدب العربى القديم ، والأمثلة كثيرة •

***

وعلى ذكر الجاحظ يحق لنا أن نشير إلى (كتاب المحاسن والأضداد) . لقد قرأه الحكيم مرات . وعاش الكتاب مع الأديب طفولته وشبابه . ومن يجلس إلى مكتب توفيق الحكيم تلمح عينه كتاباً قديما مكتوباً عليه (سنة أولى ثانوى — حسين توفيق الحكيم) إنه بعينه كتاب المحاسن والأضداد ، والكتب كالناس أعمار ..

وهذا الكتاب له عليه تأثير معنوى لا لفظى فحسب فهو ممن يتأثرون بالكتب من الناحية الفكرية أكثر من الناحية اللفظية . تأثر بمنطق الجاحظ وتفكيره . إن كتاب (المحاسن والأضداد) يصور كل فضيلة ورذيلة من زاويتين متضادتين فالشجاعة أو الكبرياء أو حتى الجمال أو الكرم لكل صفة منها ناحيتان .. لقد أثر هذا الكتاب فى حياته حتى لقد غدا ينظر إلى كل شىء من جانبيه دون أن يستبد به جانب واحد .. أصبح كما يقول لا يؤمن بمعنى مطلق بل يضع كل شىء على مجهر الحقيقة كالجاحظ ومن ثَمَّ يرى ضرورة اتصال شبابنا صلة وثيقة بالأدب القديم لا من الناحية التعبيرية على أنه مجرد نماذج لفظية كما يتوهم الكثيرون ولكن من الوجهة العقلية فقد كان القدماء يعالجون بعض المسائل بطرق لا بد لنا أن نتفهمها لأن بعضها يفيدنا .

وقد انعكس هذا الأثر على أدب الحكيم . فإن المتأمل فى قصصه وكتبه لا يجد فيها فضيلة مطلقة أو رذيلة مطلقة أو إنساناً خيِّرا ١٠٠٪ أو شريرا ١٠٠٪ . وقد تبلور هذا الأثر حتى كان منه كتاب توفيق (التعادلية) .

لقد فرض كتاب (المحاسن والأضداد) نفسه بنفسه عليه حين قرأ كثيرا غيره بقصد الدراسة وتأثر بها ولكنه تأثر مقصود . تأثر (بشكسبير) و (موليير) و (وجوته) و (ترلنج) و (ابسن) و (وبراندل) .

***

وحين آمن توفيق بهـذا وعمل له كان له ما أراد فإنه حين كتب فى طوره الجديد (أهل الكهف) للمسرح لم تكن هناك صعوبة فى إدخالها فى نطاق الأدب قبل أن تعرف المسرح • رأى فيها الأدباء حتى من تزمت منم نسباً يصلها بالأدب والفكر • وغدوا يرون فى المسرح رأيا جـديداً فلم يعد تابعاً للشعر بل أضحى بدون ارتكاز عليه ، مجرد نثر فى قالب مسرحى • أضحى بهذا الصفة وحدها أدباً له اعتباره •

وهنا يبـدو لتوفيق أو للحقيقة وجه قد يكون غير ماثل ألا وهو ريادة المسرح العربى • إنه هو الذى أعطى المسرح اعتباره الذى يتمتع به فى الأدب العربى دون سند من الشعر إنما بالنثر وحده • لقد احتل شوقى المسرح ولكن مسرحياته كانت تستمد قيمتها — فى عين المشاهد — من القصيد •

كل هذا كان وراء سفر توفيق الحكيم إلى أوربا • وسبب آخـر يقول به الأستاذ نجيب محفوظ (لأنه كان يعمل فى اسمى التهيئات وهى القضاء فقد منح الفن والأدب ، الشرعية الاجتماعية) •

* * *

وعاد توفيق إلى مصر وعمل بالنيـابة المختلطة بالاسكندرية لمـدة عـام من سنة ١٩٢٨ إلى ١٩٢٩ ثم انتقل بعد هذا الى القضاء الأهلى لمدة خمس سنوات متنقلا بين طنطا ودمنهور ودسوق وفارسكور وايتاى البارود وكوم حمادة • وترك هذا انطباعاته طليه فكان كتابه (يوميات نائب فى الأرياف) ثم كتابه (ذكريات الفن والقضاء) أو (عدالة وفن) •

وترك توفيق النيـابة وعمـل مـديراً لإدارة التحقيقـات بوزارة المعارف ثم مديراً للارشاد الاجتماعى بوزارة الشئون الاجتماعية •

وانتقاله من الريف إلى القاهرة هو الحدث الثانى الذى كيّف حياته وإن لم يبلغ فى تأثيره شأو انتقاله من مصر الى أوربا •• فالانتقال الثانى لو أنعمنا النظر هو نقطة تحول كاذبة فلو لم تحـدث فى وقتها لحدثت فيما بعد فإن ارتطام ظروف الأديب بأعباء القضاء كان لا بد له أن يحدث أثره ويسلمه فى النهاية إلى الأدب الذى خلق له •

واستقال توفيق من وزارة المعارف واشتغل بالصحافة فى أخبار اليوم . على أن اتصاله بالصحافة كان سابقا على أخبار اليوم فقد كتب وهو بالمعارف كثيراً فى (مجلتى) .

وعادت الوظائف فشدت إليها « توفيق الحكيم » فعمل مديراً عاماً لدار الكتب ، ثم عضوا متفرغا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ثم مندوبـاً للجمهورية العربية فى اليونسكو سنة ١٩٥٩ وعاد إلى مصر فى مارس سنة ١٩٦٠ بناء على طلبه .

***

لقد كان يُرجى لتوفيق أن ينال الدكتوراه فى القانون ثم شاء القدر أن يضع فى طريقه (جرمان مارتان) رئيس لجنة الاقتصاد السياسى فى الدبلوم الأول . وكان الرجل قد جاء مصر من قبل ليرأس تحرير جريدة (مصر المعاصرة) . وغادر مصر وقد رسبت فى نفسه فكرة سيئة عنها تطوع بدسها عليها أجانب المحاكم المختلطة الذين خالطهم مارتان فترة وجوده . ولم ينس . فحين وقعت عينه على الطالب المصرى توفيق الحكيم بادره بالسؤال .. انت مصرى ؟ وكانت لهجته غير ودود أوجس منهـا توفيق خيفة فى نفسه .. وحدث أن صدق حسه وأصاب حدسـه فلم يكتب له النجاح المألوف ترى هل كان الرسوب شرا ؟ هبه حصـل على الدكتوراه كزملائه حتى غير اللامعين منهم ، فما الذى كان سيحدث ؟ كان توفيق سيصبح أستاذا فى الجامعـة ينصرف إلى تدريس القـانون والتأليف فيه .. إذن أين كان يولد كتابه : (نائب فى الأرياف) .

***

عاش توفيق الحكيم فى مصر .. عاش فيها وعاش أحداثها . ومن هذه ، الأحداث الكبرى فى مطلع حياته ومطلع كفاحها المستعمر ، ثورة سـنة ١٩١٩ . بدأت هـذه الثورة بداية مفاجئة للجميع حتى لأصحابها

أنفسهم ولو أن الحوادث تعنى أنها كانت تختمر فى الوعى الباطن للشعب دون أن يدرك انه سيأتى اليوم الذى ينفجر فيه بعمل ظاهر إيجابى .. وكانت مصر كلها قبيل الثورة تضيق بالاحتلال وتتمنى زوالـه . وكان زعماؤها فى ذلك الوقت لا يعرفون مصير الوضع السياسى الحقيقى للبلد بعد انتهاء الحرب الأولى وهزيمة تركيا التى كانت تربطها بمصر اعتبارات شتى . وإذا بالثورة تندلع فجأة كطبيعة الانفجارات . وكانت الشرارة التى سرت فى الركام المرقوم هى نفى سعد زغلول وصحبه . وعرفت المدارس الاضراب وتوالى الانقطاع عن الدراسة وترك هـذا الانبثاق الوطنى انطباعاته على الشباب المصري في ذلك الحين فإن توفيق الحكيم ، الشاب ، لم ينظم قصيدة غرامية فى تلك الفترة بل كان قصيده كله يتأجج حماسة وإن لم يكتب له النشر والذيوع وقتئذ فى زحام شوقى وأنداده ، كما كتب الأناشيد الوطنية وسار فى المظاهرات وأطلق الرصاص فيها .. سافر مرة الاسكندرية فسمع نشيداً يردده طلاب المدارس هناك وهـم منتظمون فى مظـاهرة كبيرة .. وإذا بـه من تأليفه وتلحينه .. ملكته الدهشة .. كيف انتقل هذا النشيد من القاهرة إلى الاسكندرية ؟ هل ركب معه القطار ؟ .. ولكن الثورة حينذاك كانت تلتهم كل شىء وكانت الفكرة أو الكلمة تلقى فى القاهرة ، فتراها بعد ساعات فى القطر المصرى .

***

عاش توفيق الحكيم ثورة ١٩١٩ بكل أحداثها بكل أيامها وخفق لها وأثر فيها مع الشباب وتأثر بها فكان كتابه (عودة الروح) انطباعة كبيرة من انطباعات الثورة ، إنه قصتها كاملة .

هناك صور يصورها الأديب وتظل صوراً فى ذاتها .. صور للدراسة أو الفن حتى ولو وجدت فى الحياة . وهناك صـور يرسمها الأديب تنبض بالحياة بل تمتـد حياتها كما تشاء أصالتها وحركة الفن فيها وتمضى فى التاريخ الإنسانى شخصيات خالدة يتمثل القـارىء نفسـه فيها مثـل

(فرتر) مثلا • ومثل هذه الصور قــد يكون أثرها مدمرا أو خيـّرا حسب نوعها ولكنها على الحالين شخصيات حية موجهــة فعالة • ومن هــذه الشخصيات « محسن » فى عودة الروح •

لعل قيمته أنه لا يكرر • وأحسب « توفيق الحكيم » نفسه لو أراد كتابته الآن لمــا استطاع أو لعله يكتب شيئا آخر • إنه كالزهرة التى إذا لم تقطفها فى وقت معين فقدت قليلا أو كثيرا من نضارتها ، حين كتب جوته (فاوست) فى أربعين سنة دون أن تفقد تماسكها وترابطها وقوتها • لأن (فاوست) تعتمد على الفكر وغير هذا الأعمال الفنية التى تنبع من الشعور إن الأمر مختلف جدا •• إنه يذكرنى بكيتس •• كان شعره ربيعا أزهر ، كان شبابه ربيعا أخضر • خلق كالربيع وللربيع فلما أحس أنه لا يعطى إلا فى الربيع اخترم فى شرخ الشباب وفوعــة العمر وطــراءة الصبا وكأنه خاف أن يفقد معناه •• نكهته •• طعمه فآثر أن يموت •• وهكذا رامبو • ولم يعش إلا من استطاع أن يكيف نفسه مثل جوته •

* * *

ومضت ثورة سنة ١٩١٩ وأعلن تصريح ٢٨ فبراير سنــة ١٩٢٢ ورأى توفيق بحاسة الفن وعوده بالديمقراطية سرابا • وأيقن أن مــا يلوح به إنما هو ديمقراطية مزيفة ولم يهدأ الفنان بل راح يصور هذا فى كتاب (شجــرة الحكم) ، وكتاب (تأملات سياسيــة) • وأحست الحكومة بدورها أن وراء الأكمة ماراءها فاقترحت حكومة محمد محمود سنة ١٩٣٨ عن طــريق مجلس الشــيوخ وكان رئيسه محمــد محمود خليل ، أن يحال توفيق الحكيم إلى مجلس تأديب كما هاجمه الوفد الذى يمثل المعارضة فى جريدته (المصرى) شهرا وكان الظن به ألا يفعل • ولكن الوفد بغريزة الدفاع عن النفس رأى فى هذا العمل الأدبى حربــا على النظام وكلهم يلتقون عنده إذ هو هــذا النظام سلمهم إلى الحكم هنا لم يعارض الوفد الحكومة بل أملى لها •

ثم عدلت الحكومة عن مجلس التأديب تفادياً لما يثيره دفاع المحامين من لغط ، ونكوصاً أمام تهديد بعض أعضاء مجلس التأديب بالوقوف إلى جانبه .

رأت للحكومة رفته ثم أقلعت لما قد ينجم عنه .. وأخيراً اكتفوا بخصم ١٥ يوما من مرتبه وكان وقتئذ مدير تحقيقات وزارة المعارف . ولم تستطع هذه الهزات أن تغمد قلمه أو تطامن من حدته فكتب فى سنة ١٩٣٩ مسرحية (براكسا) هاجم فيها فساد الديمقراطية الذى يؤدى إلى الدكتاتورية وسيطرة القوة .

وقد بنى توفيق هذه المسرحية على أساس مسرحية أرسطوفان (مجلس النساء) . وما كان (أرسطوفان) إلا سلما أو ستارة تخفَّى وراءها والرقابة مضروبة سنة ١٩٣٩ . فقد صدر توفيق الحكيم عن ذاته فانطلق بعد البداية يصور بيئتنا نحن بمشاكلها ومخاوفها المتوقعة فى ثلاثة فصول .

ولما كان من المزمع طبعها باسم (مشكلة الحكم) فقد رأى توفيق الحكيم أن الاسم يوجب بحث الحكم كله بجميع ألوانه ومنها الملكية .. وفى سنة ١٩٤٠ أكمل الكاتب تصوير باقى ألوان الحكم ومنها الملكية فى ثلاثة فصول أخرى ولم ينشرها بالطبع .

وفى سنة ١٩٥٤ طلب بروفسور فارنباك ترجمتها إلى الفرنسية فوافق الحكيم . وظهرت المسرحية فى الفرنسية باسم (مشكلة الحكم) سنة ١٩٥٤ .

وقد مثلت هذه المسرحية لأول مرة فى دمشق .

كان توفيق الحكيم فى هذه المسرحية يرى فساد الديمقراطية مسئولا عن فساد الملكية .. مسئولا عن كل شىء .

لقد تناول توفيق الحكيم قضية الديمقراطية وشرعية اختيار الشعوب

فى عدة مسرحيات ... وفى أخريات الستينات كتب (بنـك القلق) كان حاضر الوعى لا غائبه .

ومسرح توفيق الحكيم (ذهنى) فمعظم رواياته تقوم على فكرة عميقـة يتوسل الكاتب إلى إبرازها بالصور والأشخاص . وهو حين يعالجها فى إطار إنسانى عـام لا يدخـل فى حسـابه الجماهير التى تستهويها الموضوعات القريبة المنـال .

وكما سبق ج ولز فى « آلة الزمان » عصر الفضاء .

فعل الحكيم فى مسرحية « رحلة الى الغد » التى يستشرف فيهـا الحكيم إلى الكواكب النائية فوصل إلى كوكب بعيد قبل الصعود العلمى إلى القمر بعدة سنوات .

***

وأسلوب الرجل القصاص لـه قصة فـقد عاش فترة يبحث عن أسلوب . كان فى حـيرة من أمـره كيف يكتب . وحين كان يبحث عن أسلوب كانت فى باريس ثورة عقب الحرب الأولى للبحث أيضا عن أسلو ب. وكان لسان هذه الـدعوة يتردد عليـه كثيرا لفظ (السريالية) . ومن الطريف اننا حين أخذنا نردد هنا اللفظ بعد سبات عميق كان قد اُستنفد هنـاك (بطِل) .

بدأ توفيق أولا يكتب شعرا فرنسيا على طريقة السريالية . وعندما بدأ يكتب القصة النثرية وجد نفسه أمام تجديـدات فى الأسلوب وقف أمامها مضطربا أى الطرق يسلك . ثم عاد إلى مصر وحيرته قائمة وعلى لسانه مازال عالقا السؤال نفسه كيف أكتب ؟ وفى يوم خطر له أن الأسلوب الحقيقى لا يأتى إلا عندما ينسى الانسان كلمة « الأسلوب » ويكتب مايريد . أن يقول بدون افتعال . عند ذلك يكتشف نفسه . إن الذى يبحث عن أسلوبه وهو يكتب كالـذى يبحث عن خطوته وهو يسير لا بد لمثل هـذا الباحـث أن يتعثر بينما السـائر على طبيعته تصبح مشيته (شخصية)

يعرف بها ..ولكن الانطلاق على السجية لا بـد أن يسبقه بالطبع اطلاع واسع على أساليب الأعلام وعلى حركة الفن عندهم ..

فكتابات توفيق الحكيم بعد هذا ليس فيها أى رغبـة فى اصطناع أسلوب إنها كالإمضاء خاصـة بصاحبها . فالمرء لا يستطيع أن يرجـع أسلوبه إلى أحد لأنه تأثرات فكرية لا لفظية . وهو لم يحاول المحاكاة إنما حاول الاقتناع فحسب . اتصل بكتابه المفضلين اتصال حب وتفهم .. عاش معهم حياتهم .. غاص فى تجاربهم ومع هذا ينسى وجودهم تماما عندما يمسك قلمه وإن ظلوا فى ضميره ، حتى غدا النسيان جزءا منه .

ومن الطريف أن (توفيق الحكيم) عنـدما كان تلميذا فى الثانوى حفظ كثيرا للظهور فى مباريات التلمذة والحداثة ثم جاء النسيان المطبق بعد البكالوريا حتى أنه لا يكاد يذكر الأبيات بلفظها وإنما بمعناها فقط دون اللفظ ماذا حدث ؟ هل هضم محصوله هضما كاملا أحاله إلى صورة أخرى كما يستحيل الطعام بألوانه إلى دم مثلا ؟

والأسلوب فى أدب توفيق الحكيم يختلف حسب الموضوع فهـو فى القصة طويلة أم قصيرة والتمثيلية والمقالة التصورية أقرب إلى الصورة .. وأحياناً يكون حوارا تصويرياً مثل (شجرة الحكم) أو (حمارى قال لى) ، وآنا يتخـذ شكل مذكرات إذا كان الموضوع رسائل مثل (زهرة العمر) أم مقالات فكرية مثل (تحت شمس الفكر) .. ان القوالب عنده كثيرة وأسلوبه يتشكل وفقا لها لكنه فى **جملتـه أسلوب تصويرى يعطيك صورة حتى لمـا يمكن تجسيمه من العواطف أو الأفكار** . فعنـدما أراد توفيق الحكيم أن يكتب فى السياسة لم يتخذ المقالة أداة له وإنما استعان بالصورة فكانت مسرحية (شجرة الحكم) .

* * *

ولكن سيطرة الصورة هذه عليه ماسرها ؟ إن المقتصى لتاريخ حياته يلمح أن أول مظهر من مظاهر الفن عنده كان « التصوير » كان فى الثامنة من عمره حين هوى التصوير والموسيقى فاندفع إلى العوالم وأمسك الرق

فى حلقتهم (إقرأ عودة الروح) • ولعل هذه النزعة تعزى فيما تعزى اليه إلى أن التصـــوير والموسيقى لا يحتاجان إلى أداة فنية كالأدب الـــذى يستأدى صاحبه توافرا على القراءة ثم اصطناع الكتابة •• حين يكفى التصوير النظر ثم الإعجاب ويكفى فى الموسيقى السمع ثم الطرب • ومن ثم انصرف توفيق الحكيم إلى التصوير والموسيقى • ولكن الطاقة الفنية عنده لم تقض وطرها •• فحاول رسم الحيوانات فى المدرسة الإبتدائية ثم التمثيل فى فرقة الشيخ سلامة حجازى — وهنـــا تلمح أن الموسيقى قد أسلمته إلى التمثيل — والفرق المتنقلة فى الريف ونحـــن إذا تأملنا الرسم والتمثيل وجدناهما من الفنون المصورة •

***

كان هذا شأن توفيق الحكيم حتى عرف القراءة • وهنا فقط تحددت طاقته الفنية وإن ظلت الرواسب الفنية الأولى عالقة بقلمه ، فإن قراءته وكتاباته إنما هى تمثيل أى شىء فى صورة • « فحين يخاطب العقـــاد العقل •• الفكرة — وهو من قوته يريد لهـــا أن تصـــل فى قوة بنفسها إلى العقل — نجد (توفيق) يعطى الفكرة فى موكب من الصور فيه أشياء كثيرة مألوفة فتبدو سهلة وقد تكون صعبة • والمرء مع العقاد أحد اثنين فاهم عنه يأخذ منه كل شىء أو مرتج عليه يخرج من عنده خالى اليـــد ويستحيل أن يكون مع العملاق بين بين ولهذا ينقسم الناس إزاءه فريقين : راض عنه معظم له وفريق ساخط متهم • وهو بدوره يقسمهم قسمين : مدرك للقيم يتابعه وجاهل بها يجافيه • وعلى العكس من هـــذا توفيق الحكيم كان من مضار (الصورة) أن (توفيق) قد يحسب عليه قراءهم فى الحقيقة لم يفهموه ولم يفطنوا إلى غرضه قصارى مـــا وصلوا إليه السطح •• القشرة • وعبثا تحاول الأخذ بيد الواحد منهم • إنه مقتنع تماما أنه نفذ إلى مداخل الكاتب والفكرة معا •• فإذا تحدث توفيق الحكيم عن (صينية البطاطس) زعموا أنه يجانب المرأة المثقفـــة أو يؤثر عليها على الأقل ، الطاهية ، حين يقصد الرجل ألا تتنكر المرأة لوظائفها الأصلية أو تستعلى عليها فإن الإنسان رجلا أو امرأة يقاس بإمكاناته وما تعين عليه هذه الإمكانات •

إن الصورة مدار فن توفيق الحكيم : فإذا تحدث صور ، وإذا تفاهم معك فبالصورة ، أما إذا كتب فقد بلغت الصورة أوج كمالها • إنه حين أراد التعبير عن فكرة الزمن اختار لها (أهل الكهف) أى صورة • من الأدباء أعلام لهم (فورم) لغوى بلاغى كالأستاذ الزيات أو الدكتور طه وإنما الفورم عند توفيق بهاء ••• فخامة •• صورة غنية هيئة فن •• أو بلاغة فـن •

إن توفيق الحكيم مغرم بالصورة يرسمها حتى لنفسه • زعموه عدوا للمرأة وهو صديقها فلم يشـأ أن يكذب هـذا الزعم فى الثلاثينات • إنه فى ذلك الوقت يخدم الشهرة على الأقل •• وقد كان •

ان المرأة فى أدب توفيق الحـكيم طويلة القامـة من ذكاء ومضـاء وصلابة واصرار وقوة شخصية تتمثل فى « شمس النهار » و « شهرزاد » و « بهانه » فى يا طالع الشجرة •

كما رسم توفيق الحكيم لنفسه صورة البخيل وراح يؤكدها للناس ويعمق خطوطها من وقت إلى آخر ليستريح فلا يقطع عليـه سرحاته أو سبحاته طلاب حاجة أو أدعياء الحاجات •

نال الدكتور محمد كامل حسين جائزة الدولة التقديرية • فاستحضر توفيق الحكيم ورقة تلغراف تهنئة وكتب عليها تهنئة طويلة تقدر بجنيهين غير أنه أرسلها مع ساعى الأهرام إلى عيـادة الدكتور كامل حسين الذى دهش لكنه لم يصدق ، بسهولة هـذا الكرم التوفيقى الذى يبلغ حـد الإسراف •• ولاح له خاطر •• فطلب أن يرى حامل البرقية •• وهنـا قهقه ضاحكا •••

اذن البرقيه لم تتكلف غير تذكرة اتوبيس • ولمـا تقابلا فى المجمع توقع توفيق الحكيم الشكر الجزيل على برقيته فإذا بالدكتور كامل حسين يكاشفه بسر البرقية فأغرق فى الضحك •

يقول الدكتور كامل حسين : لقد استطاع توفيق أن يجعل من بخله ، طرفة خفيفة الدم •

عند طه تستطيع أن تقع على اللفظ •• العبارة •• الموسيقى وعند الزيات حفل حافل منها ولكن عند توفيق خط سير •• تدبير •• تكتيك •• هدف •• فلسفة •

وفى أدبنا الحديث مـدارس عرف بها أصحابها وتوفيق أحد هؤلاء ولكنه أيضاً يختلف عنهم • فالعقاد صاحب مدرسة الفكر ، والزيات صاحب مدرسة الأسلوب ، وطه صاحب مدرسة النقد ، ولكل منهم تلاميذ ومريدون يتطلعون إلى شخصياتهم • هى شخصية آسرة حتى ليحاول هؤلاء التلاميذ تقليدهم • وكثيرا ما يحدث أن يكون التقليد مضحكا وإنما مدرسة توفيق مدرسة متشعبة •• إنها غير متميزة محددة بل هى مدارس متشعبة •••• زوايا ••

فبعد (عودة الوح)طلع علينا أديبنـا نجيب محفوظ بقصصه ذى الملامح (البلدية) • ومن (الرباط المقدس) تخرج إحسان عبد القدوس وإن كان قد اقتصر على زاوية واحدة وتوسع فيها •

ووراء (شهرزاد) سارت (شهرزاد) أخـرى من عمل باكثير • وظهر أدب التمثيليات القائمة على الأساطير كما ظهر فى الأدب بعد سنة ٣٣ ، الأسلوب التصويرى تملى له كتابات توفيق الحكيم •

وتوفيق الحكيم لا يتذكر الأسماء وإنما يذكر الإنسان بصورته حتى وإن كان عهده به سنى الطفولة الأولى •• إن عدساته بصرية فهو يحفظ المـلامح والمشية والحركة دون أن يذكر الاسم ، هل السر يكمن فى حبه للعـزلة وإيثاره لها ؟ فهو يراها منبع التفكير حتى ليعد الذى أمضاه وحده من حياته أكثر من مجموع الأوقات التى أمضاها مع الناس • هل هى الوراثة فقد كان والده من طائفة المناطقة فلم يحدث أن عرفت له حياة صاخبة •

وقد يقول قائل : وولعه بالمسرح ماذا فيه من العزلة ؟ ولكن المسرح عنده لا يتجاوز فترة العرض فهو يراه ثم ينطوى على نفسه من جديد •

حتى المجتمع الذى صوره إنما رآه من خلال عمله أو ظروف حياته •

والإنسان عادة إنما تظهر طبيعته بعد العمل فإن العمل يجمع أو يتساوى فيه الناس حيث التواجد فى ميدانه ولكن بعـد العمـل يختلف التصرف وتختلف تبعاً له الدلالات والأحكام •

إن السنوات منذ سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٤٥ تعتبر فى حياة توفيق الحكيم عزلة حقيقية • والأدب العربى مـدين لهذه الفترة بكل ما جاد به توفيق الحكيم •

وهو انسانى النزعه رصـد ما يربو على عشر مسرحيات لمحـاربة الحروب داعيا إلى انسانية العلم أى تسخيره لحساب السلم لا لحسـاب الحـرب •

ولأدب توفيق الحكيم جملة ، ميزة خاصة يكاد ينفرد بها تلك هى وحـدة هذا الأدب • فهو كالبنيان أو الهرم لا تستطيع أن تستغنى عن أصغر حجر فيه دون أن تخل به • فمؤلفات توفيق الحكيم يكمل بعضها بعضا ويتجاوب بعضها مع البعض (فعنان) فى (الخروج من الجنـة) ما هى إلا شهرزاد عصرية تحاول أن تجعل زوجها خلقاً جديداً •

وأهل الكهف وما فيها من الرحلة الزمنية أعيدت فى شكل عصرى فى مسرحية (رحلة إلى الغـد) ولمحات من مسرحية (لو عرف الشباب) التى مثلت باسم (عودة الشباب) •

* * *

وهناك ظاهرة تستأهل الوقوف عنـدها هى ظاهرة **امتزاج العامية بالعربية عنده خاصة فى الحوار** •

والعامية بدورها لها فى أدب توفيق الحكيم (قصة) • فقد كان فى مطلع حياته الأدبية يتعمدها ، **تأكيـداً للمصرية وامعانا فى تحرى رسم البيئة المحلية** ، لقد كتب سنة ١٩٢٦ وكان وقتئذ فى باريس ، عن العوالم والمطيباتى والرقاقة وكلام السيم هل كان هذا تعبيرا عن الشوق إلى مصر أم لأن هذه الصورة بالذات لا توجد هكذا إلا فى مصر ؟ (كتاب عوالم الفرح) •

وكانت (المصرية) غريقا يصارع تيارات مختلفة فالترك والبدو والانجليز وغيرهم كلهم كان يزاحمها فى أرضها • وقد أحس هذا الكاتب إحساسا عميقا فحاول فى (عودة الروح) انقاذ عواطفنا بألفاظها • فالعامية فى بواكير انتاج توفيق الحكيم كانت تأتى فى السياق بالسليقة حين يصطنعها الشباب الان على سبيل (المذهبية) زاعمين أن صنيعهم مذهب أدبى جديد •

وتوفيق الحكيم يكره عملية الانشطار • لعلها تضايقه • إنه يفضل للزجل أن يكون عاميا خالصا أو للموضوع أن يكون عربيا خالصا • انه لا يحب التعصب للعامية أو للعربية بل يود لكل منهما أن تسير فى ميدانها الذى تتألق فيه ويكون الحكم بينهما السليقة الفنية الدقيقة وحدها لا التمذهب ، فحين تقتضى هذه السليقة الفنية ، العامية ، فلا بأس من استخدام العامية •

* * *

وهذا المبدأ أو هذه الظاهرة واضحة فى أدبه من حيث المضمون • فأدبه إما قصص أفكار وإما قصص شخصيات • ففى عصفور من الشرق كان معنيا بفكرة هى : روحانية الشرق و « مادية الغرب » • هذه الفكرة كانت همه كله فى القصة كلها ومن ثم طغت عنده على كل شىء لم يعد يحفل ببائعة التذاكر ولو أن القصة كانت مقننة متوخية الفن القصصى وحده لتتبع حياة هذه الفتاة إلى النهاية واتخذ منها مادة للاضافة فى العرض والتشويق • ولكنه كان ممتلىء النفس والواعية بفكرة سيطرت عليه فسخر لها العمل الفنى كله حتى لم يعد كل شىء إلا وسيلة لها • وحين يكون الكاتب صاحب فكرة أو صاحب دعوة معينة يجب ألا يحاسب على سواها أو يقتصد فى حسابه على الأقل • ولكن النقاد عندنا نصبوا ميزانا واحداً للكاتب وأعماله كلها دون اعتبار لمراميه الخفية • لقد كان توفيق الحكيم فى (عودة الروح) مثلا ، راسم الشخصيات •• (حنفى •• زنوبة •• عبده •• الخ) • وكل شخصية من هؤلاء تستطيع أن تجدها فى أى وقت فى البيئة

المصرية ولكن السادة النقاد حتى فى هذه القصة أخـذوا عليه أن جعل الاشادة بمجد مصر على لسان مفتش الرى الانجليزى ورجل الآثار الفرنسى وكان الظن (بالاشـادة) أن تأتى على لســان الأشخاص المصريين فى الرواية . ولكنه رأى رأيا آخر أن يشهد بالفضـل الأعـداء وأن تنطلق الشخصيات المصرية خفيفة بسيطة كما هى فى الحياة .. وكأنى به يتساءل كيف يتفق أن تفكر زنوبه مثلا مثل هذا التفكير العميق أو كيف تتأتى هذه المعانى لعبده .. ولكن النقـاد أو أغلبهم .. لا يعايشـون الكاتب .. لا يصادقونه .. لا يستشعرون أحاسيسه .. مشاعره .. مراميـه .

❋ ❋ ❋

وحياة الفنان توفيق الحكيم صورة أخرى من فنه كأنها صيغت على مثاله هى الأخرى . حياة مرسومة مبنية كالهرم أو كأدبه ولهذا لا تتغير بسهولة ، حتى المرأة التى طوعت الكثيرين لم تغير خط سير الفن عنده .. بل إنها لم تستطع أن تدخل عليه محرابه إلا بعد تصريح بطىء آذنها بالدخول . ففى سنة ١٩٢٩ حاول أهله تزويجه مادام قد صار وكيـلا للنيابة فعارض رغبتهم لأنه كان فى صـميم التكوين الفكـرى .. فى صميم تحقيق ذاتيته الفنية ولا يريد لها أن تنحرف أو ترتبك .. فلمـا انصبت هذه الحياة فى القالب .. قالبه الفنى حتى لم يعد يخشى عليها أى مؤثر تزوج بعد أن أطمأن على نفسه .. اطمأن على يومه وغده من من ناحية الفن .. لقد نفذ برنامجه الحاشد أو معظمه .. هنـا كان لابد له أن يتزوج حتى لا تجف حياته .. وكأنى به كان يريد أن ينتعش فغير المنظر .. وهنا أيضا تبدو سيطرة « الصورة » عليه . إن الزواج فى وقته المعلوم من حياته كان صورة أخرى .. منظرا آخر .

إذن نستطيع أن نقول بل إنى أوقن أن (توفيق الحكيم) لم يكره المرأة كما شاعت صحفنا أن تصوره بل إنه كان (سارحا عنها) .

ولكن المرأة لم تغفل لحظة عن (توفيق الحكيم) . قرأته متأدبة .. وتصدت له ناقدة ..وأخيرا أسرته زوجة : فهل له من فكاك ؟ ..

هيهات يا أبا اسماعيل ..

أعماله الأدبية [1]

كتب نشرت فى اللغة العربيـــة

- أهل الكهف ١٩٢٣
- عودة الروح ١٩٣٣
- شهر زاد ١٩٣٤
- أهل الفن ١٩٣٤
- القصر المسحور (بالاشتراك مع الدكتور طه حسين) ١٩٣٦
- يوميات نائب فى الأرياف ١٩٣٧
- مسرحيات — المجـلد الأول — (ويشـمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنـون ، رصاصـة فى القلب ، جنسـنا اللطيف) ١٩٣٧

والمجلد الثانى (ويشمل قصص : الخروج من الجنة أو الملهمة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة تحطمت) ١٩٣٧

- عصفور من الشرق ١٩٣٨
- تحت شمس الفكر ١٩٣٨
- عهد الشيطان ١٩٣٨
- تاريخ حياة معدة (أشـعب) ١٩٣٨
- بركسا أو مشكلة الحكم ١٩٣٩
- راقصة المعبـــد ١٩٣٩
- نشيد الانشاد ١٩٤٠

---

(١) معظم كتب الاستاذ توفيق الحكيم طبع عدة مرات ولكننا نكتفى هنا بالطبعة الأولى .

— حمار الحكيم	١٩٤٠
— سلطان الظلام	١٩٤١
— تحت المصباح الأخضر	١٩٤٢
— بجماليون	١٩٤٢
— من البرج العاجى	١٩٤٣
— سليمان الحكيم	١٩٤٣
— زهرة العمـر	١٩٤٣
— الرباط المقـدس	١٩٤٤
— رصاصة فى القلب	١٩٤٥
— شجرة الحكم	١٩٤٥
— الملك أوديب	١٩٤٩
— قصص توفيق الحكيم	١٩٤٩
— مسرح المجتمع	١٩٥٠
— فن الأدب	١٩٥٢
— ذكريات الفن والقضاء (عدالة وفن)	١٩٥٣
— عصا الحكيم	١٩٥٣
— أرنى الله	١٩٥٤
— دقت الساعة	١٩٥٤
— تأملات فى السياسة	١٩٥٤
— حمارى قال لى	١٩٥٤
— التعادلية	١٩٥٥
— إيزيس	١٩٥٥
— المسرح المنوع	١٩٥٦

ـ الصفقة	١٩٥٧
ـ رحلة إلى الغد	١٩٥٧
ـ الأيدى الناعمة	١٩٥٨
ـ لعبة الموت	١٩٥٨
ـ أشواك السلام	١٩٥٩
ـ أدب الحياة	١٩٥٩
ـ السلطان الحائر	١٩٦٠
ـ ياطالع الشجرة	١٩٦٢
ـ الطعام لكل فم	١٩٦٣
ـ رحلة الربيع والخريف	١٩٦٤
ـ سجن العمر	١٩٦٤
ـ شمس النهـــار	١٩٦٥
ـ مصير صرصار	١٩٦٦
ـ الورطه	١٩٦٦

وقد ترجم من هذه المؤلفات ما يربو على العشرين إلى الانجليزية والفرنسية والروسية والإيطالية والاسبانية والألمانيـــة والسويدية •

ومسرحية (أهل الكهف) نشرت فى كتاب عام ١٩٣٣ فلاقت نجاحاً كبيراً وافتتحت بها الفرقة القومية أولى مواسمها عام ١٩٣٥ •

وتوفيق الحكيم مثلت رواياته على مسارح أوروبا وقام بتمثيلها بعض أكابر ممثلى العالم ومنهم السير جون جيلجود •

وقـــد منح توفيق الحكيم أرفع وسام فى الـــدولة وهو « قلادة الجمهورية » تقديراً لمـــا أسداه إلى الأدب والفكر من ذات نفسه • كما منح جائزة الدولة التقديرية فى الأدب •

عبد الوهاب عزام



١٨٩٤ — ١٩٥٩

الاسلام والعروبة — أول من عمـــل فى مصر على انشاء الدراسات الشرقية — أول من علم الفارسية والتركية — عزام والشاعر محمد عاكف — عزام والشاعر محمد اقبال — الشوبك بلاؤه فى ثورة ١٩١٩ — كتاب القـــرية — الأزهر — القضاء الشرعى — الجامعة المصرية — جامعة لندن — التدريس بكلية الآداب ثم عمادتها — جامعة بغداد — وزارة الخارجية — عزام الوزير — السفير — مدير الجامعـــة — المؤتمرات الدولية — المجـــامع العلمية — اللغـــات : التركية . الفارسية . الأردية . الانجليزية . الفرنسية — كتبه وأبحاثه — عزام الانسان — عزام الأب — من خطاباته الشخصية .

هناك فى بلدة الشوبك الغربى من أعمال مركز العياط فى مـديرية الجيزة ولد عبد الوهاب عزام فى أول اغسطس سنة ١٨٩٤ (١) .

كان الدكتور عبد الوهاب عزام فى حياته صاحب رسالة ظل عمره يعيش لها ويحيا بها ويدعو إليها ولـما قضى مات عليها . وكانت رسالته وهواه : الإسلام والعروبة . كانا قبلته مؤلفا ومترجما ودارسا ومحققا ومناضلا . كانا شغله الشاغل مقيما ومرتحلا فهو فى مصر يجمع القلوب عليهما فى الآثار الأدبية عربية وشرقية . وفى بلاد العربية يجوب البقاع ويحقق الأمكنة ويقف بالمعالم التاريخية يسجل عن الطبيعة ويعكف على الكتب فسد مأرب وسوق عكاظ ومواطن الذكريات من الجزيرة العربيـــة معالم دراسية مشهودة فى آثار عبد الوهاب عزام العالم الأديب .

* * *

والدكتور عبد الوهاب عزام رائد من رواد الحركة الفكرية المصرية فهو أول من عمل فى مصر على إنشاء الدراسات الشرقية وأول من علم الفارسية والتركية وآدابهما فى الجامعة .

وهو أول من قـدم إلى العرب شاعر الإسلام محمد عاكف فأتاح له منبر الجامعة ووصله بطلابها محاضرا . وأذاع شـعره على صفحات الرســالة .

وبعد الشاعر التركى العظيم قدم رجلنا عبد الوهاب عـزام إلى العرب ، والمسلمين الشاعر الفيلسوف المؤمن كما كان يـدعوه ، شاعر باكستان محمد إقبال .

* * *

وبلدة (الشوبك) مسقط رأس عبد الوهاب عزام لها قصة طريفة ،

---

(١) ذكر الدكتور زكى المحاسنى فى مجموعة محاضراته عنه أن ميلاده كان سنة ١٨٨٤ ولكن الاستاذ مجد الدين عزام شقيقه — قال بالتاريخ الذى ذكرته أى سنة ١٨٩٤ .

فالعزامية عرب ينحدر خط هجرتهم من الشمال (١) وكلما حلوا ببلد سموه (الشوبك) اسم موطنهم الأصلى .. ففرع آل عزام فى الاردن بلدتهم « الشوبك » فى شرق الاردن وفرع عزام فى الشرقية بلدتهم الشوبك شرق بندر الزقازيق وفرع عزام فى الجيزة بلدتهم الشوبك فى العياط ويدعوها على باشا مبارك (شوبك الجيزة) ويعرفها بأنها (قرية من مديرية الجيزة بقسم ثان موضوعة على الشاطىء الغربى للبحر الأعظم فى شمال ناحية مزغونة بنحو ألفين وخمسمائة وخمسين متراً فى الشمال الشرقى لدهشور بنحو أربعة آلاف وخمسمائة متر . وأغلب مبانيها باللبن وبها زاوية للصلاة وبدائرتها نخيل . وكانت فى السابق فى البر الشرقى فأكلها البحر فانتقلت إلى البر الغربى (٢) .

وفى ثورة سنة ١٩١٩ كان لبلدة الشـوبك دور بارز لم تخطئه عين الإنجليز فأوسعوا أهلها قتلا وتعذيبا سجلته عليهم لجنة الوفد المركزية باسم واقعة الشوبك والعزيزية . وكان مأمور الضبط فى ذلك الوقت الاديب دسوقى أباظة .

وحـين داهم الجنود الإنجليز الشوبك ونشروا الرعب فيهـا أبلى عبد الوهاب عزام فى مكافحة الطغيان بلاء حسنا ، وألف مع بعض المثقفين من أبناء القرية جماعة تنشر وقائع الاحتلال وترسل منشوراتها إلى شتى أنحاء العالم . وحاول الاستعمار أن يوقعه فى حبـائله ، فداهم منزله وضبط لديه مسدساً وكان هذا كافيا لأن يتقرر الحكم بإعدامه .

على أن أحد الطرابلسيين من أصدقاء أسرة عزام كان يتمتع بالحماية الإيطالية وقت أن كان لهذه الحماية شأن كبير .

---

(١) لفظة شوبك فى التركية معناها (البيبه) فهل كان موطـن اسرة عزام فى شمال سورية عند الحدود التركية ؟ وهل يرجح هذا الفرض وجود فرع للعزامية فى شرق الاردن ؟

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١١٤ ط الأميرية .

وفى يوم المحاكمة تقدم هذا الصديق إلى المحكمة العسكرية وأكد أن المسدس يخصه هو وقد نسيه فى منزل عبد الوهاب عزام و .. ولم يملك الاحتلال إلا أن يقضى — على كره منه — ببراءته .

ويبدو أن هذه الواقعة التى لا تنسى فى حياة الأفراد ، لم تشب صفاء نفسه فقد سئل مرة أن يكتب عن الجلاء فى وقت لو سئل الكتابة أشد الناس حلماً فلابد أن يبتدره استفزاز المستعمر وما أكثر استفزازاته ، ولكن الدكتور عزام حين كتب عن الجلاء لم يفارقه هدوء العالم أو سمة الحكيم ، على ولائه الطبيعى لوطنه وإيمانه الراسخ به وحبه العميق له . لقد كتب الدكتور عزام بعد أن شرح القضية المصرية : (إن انجلترا تربح بهذا الجلاء ولا تخسر شيئاً ، تربح الوفاء بالوعد ، والخضوع للحق ، وتكسب قلوب المصريين والعرب كلهم .. والمسلمين من ورائهم ، ولها الخيار فى أن ترضى لنفسها الربح أو الخسارة ، وأما مصر فلا خيار لها فإن استقلالها وكرامتها ومكانتها بين البلاد العربية والإسلامية كل هذا يؤدى حتما إلى الجلاء وهى ظافرة به قريباً إن شاء الله .

إن الزمان لا يرجع القهقرى ، والأمة الحية العزيزة ، لا ترتد عن وجهتها . ومصر خاصة قد حشدت كرامتها وعزمها وقلوبها ، ولن يردها عن غايتها شىء ومن ذا يرد السيل إذا هدر أو من ذا يرد على الله القدر ؟ (١)) .

عفة فى اللسان والقلم كانت أجلى سماته .

*   *   *

سعى عبد الوهاب طفلا إلى مكتب القرية شأن لداته من أقطاب الرعيل الأول فى طفولتهم فحفظ القرآن الكريم وتهيأ للأزهر الذى وصله أبوه (٢) به فأقبل على العلوم الدينية واللغوية وأخذ مجلسه من شيوخه متقبلا حافظاً . تكمل ما سمع وتعمقه ، قراءاته الكثيرة الواعية .

---

(١) مخطوط اطلعت عليه فى مكتبته .

(٢) كان والده الشيخ محمد حسن عزام عزيزا فى قومه وعضوا بمجلس الشورى .

وانتقل من الأزهر إلى مدرسة القضاء الشرعى وكانت وقتئذ مدرسة حديثة تجمع طرفا من علوم الدين والدنيا فدرس بها عبد الوهاب إلى جانب الدين واللغة ، التاريخ والجغرافيا ... والرياضيات وبعد تسع سنوات منحته شهادة العالمية وكان ذلك سنة ١٩٢٠ .

ولما كان أول خريجيها فقد عينته مدرساً بها .. وفى هذه الأثناء دخلت حياة مصر الجامعة المصرية القديمة فتطلع إليها مع أهل الطموح عبد الوهاب عزام فنال الليسانس فى الآداب والفلسفة سنة ١٩٢٣ وهنا اختير مستشاراً دينيا للسفارة المصرية فى لندن فلم تقعد به همته فى مقامه الجديد فاتجه إلى مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن وظفر سنة ١٩٢٧ بدرجة الماجستير فىاللغات الشرقية وكان موضوع رسالته (التصوف فى رأى فريد العطار) .

وعاد إلى مصر بعدها فانتظم فى سلك هيئة التدريس بجامعة القاهرة مدرساً فاستاذا مساعداً سنة ١٩٣٤ بعد أن أحرز درجة الدكتوراه سنة ١٩٣٢ وكان موضوع رسالته شاهنامة الفردوسى . ثم أستاذاً للأدب العربى سنة ١٩٣٩ ثم رئيسا لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية ثم عميدا لكلية الآداب سنة ١٩٤٥ فمديرا للجامعة بالنيابة سنة ١٩٤٧ .

وفى هذه الأثناء انتدب مرتين للتدريس فى جامعة بغداد .

وتطلعت إليه وزارة الخارجية فتشبثت به الجامعة . فقد قرر مجلسها فى ٣/١١/١٩٤٧ أن الجامعة (لا يمكن أن تستغنى عن حضرة الدكتور عبد الوهاب عزام نهائيا وإنما يوافق المجلس على ندب سيادته مؤقتا لمدة ثلاثة شهور يعود بعدها للجامعة) فلم تملك وزارة الخارجية إلا ندبه فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ للقيام بأعمال مندوب فوق العادة ووزير مفوض لمصر بالمملكة العربية السعودية . ثم ندبته سفيرا لمصر بالباكستان سنة ١٩٥٠ ثم سفيرا لمصر بالمملكة العربية السعودية سنة ١٩٥٤ . وملأ

هذا المنصب حتى أول أغسطس سنة ١٩٥٤ وهو تاريخ بلوغه سن الإحالة من وجهة النظر الوظيفى . وهنا اختاره الحجاز مؤسسا ومديرا للجامعة التى أنشأها بالرياض سنة ١٣٧٧ هـ فخلص لها حتى اختاره الله لأكرم جوار نقى السيرة باقى الأثر .

وعاد إلى مصر عبد الوهاب عزام للمرة الأخيرة أو عادوا به اليها ليوسدوه ثرى غاليا ، اليه وحده يسكن المصرى الجوّاب بعد طول المطاف ....

وفى ١٨ يناير سنة ١٩٥٩ استقبل مسجد عزام بحلوان العائد المسجى يطاف به فى كل حين وتقام إلى جواره الصلاة ويتلى على ضريحه القرآن ترتيلا .

* * *

كان عبد الوهاب عزام شريف الحياة كبيرها .. وقد عرف وطنه قدره كما عرفته أوطان أخرى أنزلته منها رفيع المكان فجلجل اسم عبد الوهاب عزام فى المجامع العلمية والمؤتمرات الأدبية والفكرية . مثلّ مصر فى الشرق والغرب وسفر لها وتكلم باسمها وشرف بها كما شرفت به .

انتخب الدكتور عبد الوهاب عزام عضوا بالمجلس الأعلى لدار الكتب المصرية (سنة ١٩٣٤) ...

وانتخب الدكتور عبد الوهاب عزام عضوا بالمجمع اللغوى فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ . واختير الدكتور عبد الوهاب عزام عضوا فى مجامع سوريا والعراق وإيران التى قلدته الوسام العلمى من الدرجة الثانية سنة ١٩٣٥ ، كما قلدته حكومة لبنان وسام الأرز الوطنى من درجة كمندور سنة ١٩٤٧ ، ومنحته جامعة (دكا) بالباكستان الدكتوراه الفخرية سنة ١٩٥٢ . أما المؤتمرات فقد سمعت مصر من خلاله ورأتها فيه ندية كريمة بالغة الأثر .

مثل الدكتور عبد الوهاب عزام جامعة القاهرة فى مؤتمـر العيـد الألفى للفردوسى سنة ١٩٣٤ ، ومؤتمر بروكسل سنة ١٩٣٨ ، والاحتفال بأبى الطيب المتنبى فى بغـداد سنة ١٩٣٦ ، ومؤتمر أبى العلاء المعرى بـدمشق سنة ١٩٤٤ ، ومؤتمر النـدوة العالمية للاسلاميات المجتمعة فى جامعة البنجاب بمدينة لاهور سنة ١٩٥٧ . وكان رئيسا للمؤتمر وممثلا لجامعتى القاهرة والرياض معا . وقـد جلى فيـه حين تحـدث عن (تحدى الأفكار الحديثة والآراء الاجتماعية للجماعة الاسلامية) .

وهكذا أتاحت لـه شخصيته العلمية والأدبية ومكانته فى قومـه ، الرحلـة إلى كثير من البلاد فى الشرق والغرب خاصـة البلاد العربية وتركيا وإيران وباكستان والهند مما أتاح له بدوره أن يلم بلغات كثيرة بل يحسن غير قليل منها قراءة وكتابة وأدبا .

***

كان عبد الوهاب عزام يجيد التركية والفارسية والأردية والانجليزية والفرنسية .

وبهذه الإجادة سفر لمصر مع السفارة السياسية السفارة العليا كما يسميها الأستاذ العقاد حين كتب مقدمة ديوان الدكتور عزام « المثانى » : (وكان لدراسته الفارسية والاردية أثر فى تقريبه ثقافتهما يحسب من سفارات الأدب التى تعاون فيها العلم والعمل . ومن هذا التقريب الذى لم يسبق إليه ، تعريفه قراء العربية بتاريخ الرباعية فى الآداب الفارسية والعربية ، فهو أوفى ما كتب بلغتنا فى هذا الموضوع) .

***

ولم تقف إجادة الدكتور عبد الوهاب عزام للغات الشرق والغرب وإدراكه العميق لحضارتيهما عنـد حـدود الثقافة الخاصة للفرد ، بل

تجاوزت هذا المعنى على رفعته ، إلى ما هو أعم وأشمل وأنفع فألف الكتب ونقل الآثار وعرف بالرجال وراد الأماكن وحقق المواقع .

جمع الله فى لسانه ، كما يقول الأستاذ عبد المنعم خلاف فى رثائه ، (ألسنة العرب والفرس والترك والهند أعظم أمم الحضارة الإسلامية . فكانت داره ناديهم وموائـــده قراهم ، وكان موضع ثقتهم وإعزازهم وسفير بعضهم إلى بعض ، وترجمان التعارف والأخوة بينهم كالرحـــم الواصلة الموصلة فيهم وكالفكرة والعقيـــدة الموحـــدة لهم فى زمن أصاب المسلمين فيه داء الأقوام من النعرات القومية والوثنية الاقليمية والمنافرات الشعوبية والمنازعات على أشبار الأرض من وطنهم الأسلامى الواحد بعد أن كان الإسلام قد اطفأ فى قلوبم جمرات العصبية الجاهلية وأحيا فيها روح الوحدة الانسانية . فكانت حياة عبد الوهاب عزام سياحة مستمرة بالروح الواعية فى عوالم الفكر والجسم والرحلة فى فجاج أرض العروبة والإسلام يصل بينها العلاقات المقطوعة ويثبت فيها الركائز المزعزعة ، ويوقظ الغافلين ويعلم الراغبين ، ويأخذ لنفسه زادها من المعرفة والأخوة ثم يعطيه لأمته دروساً ومقالات وخطبا وقصـــائد وترانيم وكتبا فى أدب البعث العربى للنهضات الإسلامية الحديثة) .

❋ ❋ ❋

كان علامه .. وكان امامه ... وكان الوسط الذهبى وضعا وموضعا .

وقد نقل عنه الأستاذ مصطفى السقا أسماء كتبه ومضامينها (١) من مذكرة كتبها الدكتور عزام بنفسه قبل وفاته جاء فيها :

١ ـــ الرحلات الثانية (٢) :

(طبع فى القاهرة لأول مرة سنة ١٩٥١) وهى فصول تضمنت وصف ما رأيته فى أسفارى فى جزيرة العرب وبلاد أخرى وأرسل مع الرحلات

---

(١) صحيفة اليمامة العدد ٢١١ الصادر فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٦٠ .
(٢) للدكتور عبد الوهاب عزام (الرحلات الأولى) .

الثانية ، الأولى ، للاستئناس بها ، وقد نشرت الحلات الأولى سنة ١٩٤٧ ، وأعيد طبعها سنة ١٩٥٠ واشتملت الطبعة الثانية على فصول جديدة •

ومن الطريف أن اهتمامه بتسجيل رحلاته كان منصرفا أكثر إلى رحلاته الشرقية والعربية وكأن هذه البلاد بيته فهو به أعلق وأشد احتفالا •

٢ — وكتاب الشوارد :

(طبع فى كراجى الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣) وهو خطرات سنة كاملة بدأتها فى الحجاز ، وختمتها فى باكستان خمس وستون وثلاثمائة خاطرة ، كل واحدة فى صفحة على حده • وقصدت فيها إلى مقاصد منها دعوة النشء إلى الحياة الكريمة الطاهرة الأدبية وتبصيرهم بالفضائل العالية ، وحضهم على الاستمساك بالنظام والطاعة ، ورفعهم عن مستوى العيش الذليل ، إلى مستوى الحياة العزيزة والسمو بهم إلى كل مقصد روحى عال ، والتعالى بهم عن كل مطمع مادى شامل •

٣ — كتاب النفحات :

(طبع فى القاهرة للمرة الأولى هذه السنة) وفيه خاطرات ثلاثة رمضانات ، فى ثلاث سنوات متتابعات • وأرجو أن يكون فيه براءة للشبان من أدواء ، وعصمة من الشيوعية والاباحية وما إليها من آفات هذا العصر •

خاطرات الشهر الأول :

مقالات منثورة مرسلة والخاطرات الثانية منظومة كلها ، والثالثة مسجوعة ، تنتهى كل واحدة منها ببيتين من الشعر •• هى إلى قيمتها الأدبية فى النظم والنثر تقصد إلى إشراب النفس حب الخير والحق والجمال والنظام ، وتنفيرها من الدنايا والصغائر •

٤ — ومنظومة اللمعات :

(طبعت مع رسالة المشرق لأول مرة سنة ١٩٥١ فى كراجى) وهى منظومة فيها زهاء ستمائة بيت أهديتها إلى الشاعر محمد إقبـال اجابة لبعض دواوينه • وهى منظومة بـدع فى اللغـة العربية فى الموضـوع والأسلوب •

٤ — وديوان رسالة المشرق :

(ترجم من اللغة الفارسية وطبع سنة ١٩٥١ فى كراجى لأول مرة) •

وهو ديوان للشاعر الفيلسوف الكبير محمد إقبال المتوفى سنة ١٩٣٨ جواب لديوان المغرب الذى نظمه الشاعر الألمانى الكبير جوته • فى الديوان رباعيات وقصائد فى فنون شتى ، تعد من أسمى ضروب الشعر فى الأمم كلها • ترجمته نظماً • وذللت له اللغة القوافى على غرابة موضوعاته فى اللغة العربية وبعد كثير من معانيه عما ألفه الشعر العربى •

وأرجو أن يكون ثروة جـديدة فى أدبنا وفاتحة لهـذا الضرب من المنظومات المعروف فى اللغات الإسلامية •

٦ — وديوان ضرب الكليم :

(ترجم من اللغة الأردية ، وطبع الطبعة الأولى سـنة ١٩٥٢ فى القاهرة) وهو ديوان للشاعر نفسه ، فيه نظرات فى الحياة والاجتمـاع والفنون والآداب نظرات فلسفية تبين عن فلسفة إقبال الذاتية وتطبيقها فى مظاهر الحياة كلها •

٧ — وموقع عكاظ :

(طبع فى القاهرة أول مرة سنة ١٩٥١) • كان أدباء العرب ومؤرخوهم فى اختلاف على موقع سوق عكاظ • وذكر الأدباء المعاصرون مواضع فى الحجاز زعموا أن السوق كانت تجتمع فيهـا • وقـد جمعت ما فى كتب

الأدب والتاريخ عن سـوق عكاظ وذهبت إلى الطائف فى يوليـه ١٩٥٠ وطبقت النصوص على ما كان يقع إلى الشمال الشرقى من الطائف غير الأمكنة التى ظن الباحثون أنها عكاظ . لم يبق مجال للشك ، ولا مساغ للاختلاف فى أن المكان الذى عينته هو موضع عكاظ .

وقد نشرت فى هذا بحثا ألحقت به مقالين لأستاذين نجديين وافقا على رأيى ، بعد أن أعلنت به ، وحاضرت فيه ، فى مؤتمر الثقافة العربية الذى اجتمع فى الاسكندرية صيف ١٩٥٠ .

٨ — وكتاب الأوابد :

(الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠ فى القاهرة) مقالات ومنظومات تقصد إلى ما أقصد اليه فى كل كتبى ، من رفيع الأسلوب الأدبى فى اللغة العربية وتيسـيره وإعـلاء المسـتوى الروحى والخلقى . والاعتزاز بأنفسـنا والاعتداد بتاريخنا فى نفوس شبابنا .

وقد زيد فى الطبعة الثانية التى طبعت فى خلال السنوات الخمس الأخيرة نحو ثلث الكتاب ، والثلثان طبعا من قبل فلا ينطبق عليهـا شرط الجائزة الأدبية ولكنى أقدم الكتاب للاستئناس به .

٩ — وكتاب محمد اقبال :

سيرته وفلسفته وشعره :

ألفته للتعريف باقبال فى العالم العربى وليكون مقدمة لقراء دواوينه الفلسفية التى ترجمتها الدولة إلى العربية . وقـد تولت طبعه حكومة باكستان فى القـاهرة .

١٠ — ومن الكتب القديمة التى نشرتهـا كتاب « الورقة فى تاريخ الشعراء » لمحمد بن داود بن الجراح أحد وزراء الدولة العباسية . وقد طبع من نسخة مخطوطة عثر عليها فى إيران ولا يعرف لها نظير فى العالم .

وشارك فى تصحيحه عبد الستار فراج من موظفى المجمع • وطبع فى القاهرة سنة ١٩٥٣ •

١١ — والمثانى :

وهو رباعيات فلسفية وأخلاقية • (صدرت سنة ١٩٥٤) وهى ثلاثمائة رباعية وقد آثر أن يسميها « المثانى » لا الرباعيات حتى لا تقترن فى الموضوع برباعيات الخيام • إذ نظمها كلها فى التأمل الدينى فضلا عن فروق فنية يراها •• على أن « المثنوية » عنده تتألف من بيتين •

***

وذكر الدكتور يحيى الخشاب (١) من مؤلفاته :

١ — مدخل الشاهنامة العربية للبندارى ، ١٩٣٢ •

٢ — التصوف وفريد الدين العطار ، ١٩٤٥ •

٣ — مهد العرب ، دار المعارف ١٩٤٦ ، ١٩٥٥ •

٤ — الأدب الفارسى بالاشتراك مع يحيى الخشاب ١٩٤٨ •

٥ — ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام • بغداد ١٩٣٦ ، والقاهرة ١٩٥٦ •

٦ — نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ، مطبعة المقتطف ١٩٣٨ •

٧ — المعتمد بن عباد (ظهر بعد وفاته سنة ١٩٥٩) •

كما أضاف الدكتور يحيى الخشاب إلى مترجمات رجلنا الدكتور عبد الوهاب عزام :

١ — فصول من المثنوى (عن الفارسية) ١٩٤٦ •

---

(١) مجلة كلية الآداب المجلد التاسع عشر الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٧ .

٢ — جهار مقالة ، عروض (عن الفارسية)بالاشتراك مع الدكتور يحيى الخشاب ١٩٤٩ ٠

٣ — اتحاد المسلمين لجلال نورى (عن التركية) بالاشتراك مع الأستاذ حمزة طاهر ١٩٢٠ ٠

٤ — مقتطفات كثيرة من الشعر الفارسى والشعر التركى نشرت فى مجلة الرسالة وغيرها ٠

٥ — ديوان الأسرار والرموز ، اقبال مطبعة المعارف ١٩٥٦ (١) ٠

وقد عكف على ترجمته ، سنة كاملة ٠

* * *

ومن بحوث الدكتور عزام مما نشرته له مجلة المجمع اللغوى ، بحث ألقاه فى الدورة الرابعة عشرة بعنوان (صلات اللغة العربية باللغات الإسلامية) ، وبحث ألقاه فى الدورة الخامسة عشرة فى موضوع :

« أسماء العشب والشجر فى بوادى العرب » وبحث فى الدورة السابعة عشر بعنوان (الألفاظ الفارسية والتركية فى اللغة العامية المصرية) وبحث فى الدورة التاسعة عشرة بعنوان (الألفاظ العربية فى اللغات الإسلامية غير العربية) ٠

وقد أشار الأستاذ مصطفى السقا إلى بحوث أخرى متتابعة فى أدوار انعقاد مؤتمر المجمع اللغوى ابتداء من الدورة الثانية والعشرين إلى دور الانعقاد فى سنة ١٩٥٩ وكان موضوع بحثه فيه عن الشعر النجدى المعروف بالشعر النبطى فى جزيرة العرب ٠

---

(١) ارسل الشاعر « اقبال » فى ختام منظومته الثانية من ديوانه (الأسرار والرموز) خطابا الى المرأة المسلمة يناجيها :
(يا أمينة على الشرع المبين ٠ ان انفاسها حياة الدين)

ومن أبحاث الدكتور عزام .

— التصوف فى الشعر الإسلامى (صحيفة الجامعة المصرية) يناير وابريل سنة ١٩٣٣ .

— أوزان الشعر الفارسى (نشر بمجلة كلية الآداب) ١٩٣٣ .

— نظرات فى سنن المسلمين فى كتابة التاريخ (نشر بمجلة جامعة الرياض) ومن جهود الدكتور عبد الوهاب عزام فى ميدان النشر :

١ — الشاهنامة التى نقلها إلى العربية ، البندارى سنة ١٩٣٢ .

٢ — ديوان المتنبى ١٩٤٤ .

٣ — مجالس السلطان الغورى ١٩٤١ .

٤ — كليلة ودمنة ١٩٤١ .

٥ — رسائل الصاحب بن عباد بالاشتراك مع الدكتور شوقى ضيف ١٩٤٧ .

***

وصاحب هذه الجهود الموصولة المرموقة كان يأبى عليه تواضعه إلا أن ينتظمه ، وهو الوزير والسفير والعميد والأستاذ والأديب والشاعر ، وما أكثر ألقابه وصفاته ، صف واحد فى الصلاة مع خدم السفارة . وتغتبط نفسه الصافية بهذه البساطة ويتعمق مظهرها (وجاوزت هذا الظاهر الجميل المتناسق الى ما هو أعظم .. الى التناسق الباطن فى الفكر والروح ، والخلوص من الصور المختلفة والجزئيات المتعددة إلى المعنى الذى لا يحده زمان ولا مكان ، ولا يختلف فيه فكر ولا قلب .. اتصال هذه الأرواح بالله الواحد ، وانتظامها بالقوانين الشاملة المتنزلة من الله الواحد ، لينظم الصور المتفرقة ، معنى واحد ، وتجمع الوجهات المختلفة وجهة واحدة) .

وقد عبر عن هذا المعنى شعراً :

قـد تسـاوينا جميعـاً ... حين قمنـا للصـلاه
وركعنـا وسـجدنا ... فاسـتوت منـا الجبـاه
إنمـا نحـن سـواء ... عمنـا شـرع الإلـه
جمعتنـا واجبـات ... وحقـوق فى الحيـاه
غـير انّا فى فنـون العيـ ... ـش ما فينـا اشـتباه
من ذكـى وغـبى ... وأخـى جـد ولاه
ذاك مأمـور وهـذا ... آمـر فينـا ونـاه
ذاك محـروس وهـذا ... حـارس يرعـى حمـاه
ذاك مخـدوم وهـذا ... خـادم يبغـى رضـاه
وإذا حققـت فالخـ ... ـادم مخـدوم سـواه
كلهـم مولـى ولـكن ... قيـل مـولى وفتـاه

والدكتور عبد الوهاب عزام الأب كانت كتاباته إلى أولاده نموذجا رفيعا من الأبوة أو طرازا بديعاً من الرسائل :

كتب إلى ابنته (مى) وهو سفير بالباكستان :

بنيتى مى :

السلام عليك وعلى الأولاد والأسرة كلها .. جاءت رسالتك التى فيها التلبية والدعاء والله يتقبل : وجاءت رسالـة أخرى فى حاشية رسالة الوالدة . فلك شكر آخـر .

وأكتفى اليوم بأبيـات كتبتها جواباً للتلبية .

لبيـــك يا ميـة إذ لبيـت　　　أسمعتنى يا مى إذ ناديـت

إلى ضفاف السند قد أسريت　　　ســمعت فى اليقظة والمنـام

* * *

يا أم طارق حمـــاك اللـه　　　واللـــه رب طـارق يرعـاه

يحفظـه مُبلغـــاً منـــاه　　　يصحبه السـعد على الأيام

* * *

ببيـك أم حاتـم ووائـــل　　　يرعاهما الرحمن للفضـــائل

يرعاهمـــا فى أحسن الشمائل　　　للبر والخـير ، مدى الأعوام

* * *

يا أم رضوى سعدت أيامـك　　　وتم فى رضوى غـدا مرامك

وتم بالسـعد عليـك عامك　　　ودمت فى سـعد لكل عـام

امضاء

والسلام إلى أن أكتب مرة أخرى :

وفى المرة الأخرى كتب إلى مى :

عزيزتى مى :

سلام الله عليك وكل عـام وأنت بخير ..

جاء كتابك عيـدا يذكر بالأعياد ، ويحيى الذكريات وأقول ماقاله شاعر فارسى فترجمته الى العربية :

للنـاس عيـد يجىء يومـا　　　بـكل عــــام ولا يزيـد

وأنـت عيــدى كل يـوم　　　أراك فيــه لـــدى عيـــد

ومن كتاب له لمىً يترقرق حنانا عذبا كالنيل :

سلام لمية ملء الجنان ... وملء القصيد وملء الخطب
سلام لمية تهدى الرياح ... شذاه إلى من نأى أو قرب
تعطره نفحات الحجاز ... بعطر الدعاء وعَرْفُ القرب

❊ ❊ ❊

وحج أول حجة سنة ١٩٣٨ وكان يدعو : (يارب نسنى هالة وأعطنى هالة) وهالة التى يريد أن ينسى ذكرها هى ابنته السابعة فلم يعقب الدكتور عزام ذكرا . وفيها نظم هذه الأبيات التى يرق فيها أحلى ما تكون رقة الآباء رحمة وحبا حين يترجم حديث زوجته إلى ابنته شعرا فيرتفع الحديث اليومى إلى حدث أدبى يحلو على الترديد .

أرى الوقت قد حان فى ساعتى ... فهاتى لى المشط يا هالتى
امشط شعرك رفقاً ولينا ... أزين بالتاج هذا الجبينا
وأنشد للمشط حلو النشيد ... كأن بشعرك أوتار عود
ويعبث بالشَعر هذا الهواء ... فيسرى طروباً بهذا الغناء
صنعت لحسنك ثوباً جميلا ... يدى أحسنت فيه عرضاً وطولا
أراه عليك كَكم الزهر ... وكالهالة ازدان فيها القمر
جميل عليك فيامهجتى ... تعالى تعالى خذى قبلتى
وهاتى كتابك يا مؤنسة ... وسيرى سريعاً إلى المدرسة

أمى وكيف أقوم بحق الدعاء

أنا وردة غرسها من يديك ... فهذا الجمال يعود إليك
أنا زهرة أنت نورتها ... أنا روضة أنت نضرتها
بإذنك أمى إلى المدرسه ... أسير فمدرستى مؤنسه

وفى سنة ١٩٤٠ هتف ابن أخيه بفتياته : (ماما جابت بنت) فخرج من بين ضيوفه وقد بلغه صوت البشير فقال :

الحمد لله هالة . وقال فيها :

ليـــلة القـــــدر أتتنـــا   معهـــا مـــولد هــــــالة

بـــارك المـــولد شـــــهر   بـــارك اللـــه هــــــــلاله

نعــــم اللـــه توالـــــت   كيف نـــوفى شــكر هالـــــه

كيـــف أحصى كل حــــــين   فضــــــل ربـــى ونوالـــــه

أبو هـــــالة

وكتب سنة ١٩٥٩ إلى ابنته **فاطمة :**

بنيتى العزيزة فاطمة ...

أدعو الله أن يـــديم عليك العافية ويحوطك بالسعادة ويحقق فيك الأمل ، ويقرن حياتك بصالح العمل ، ويجعل مستقبلك كفاء ما نرى فيك من خلق جميل ، وأدب رفيع ، وجد ونشاط آمين .

لفاطمة الحســـناء فى الدين أسوة   بفاطمة الزهـــراء خـــير الفواطم

لك الدين والأخـــلاق والعلم حلية   وهذى على الانسان أجدى المغانم

❋ ❋ ❋

وخرجت **نوار** طفلة إلى حـــديقة البيت وحـــدها فنبحتها الـــكلاب فعادت أدراجها وهى تبكى خائفة فنسجت شاعريته الحنون هـــذه القصة أبياتا :

نبح الكلاب ، نوار ، فى جنح الدجى   فاستعبرت من نبحهـــن تـــوار

لا تغضبى فالكلب ينبـح دائمـا ــ وتسـير فى أفلاكهـا الأقمار (١)

وسارت نوار .. وغـدت عروسا ، فأمـا ، يستقبل الوالد المتحنن وليدها بهذه الأبيـات :

جـاء البشـير مبشرا ــ بالخـير ما أحـلى سـماعه
بمحمـد فى يـوم مولـد ــ أحمـد رب الشـفاعة
عـوذته باسـم الرحـيم ــ يحـوطه فى كل سـاعة
تاريخـه حفظ العـلى ــ محمـدا فتحـى رفاعـة

وذهبت إليه يوما أميمه تطلب إليه أن يشترى لها حذاء فلم يمر هذا الطلب العادى الذى يتكرر كل يوم بين الأبناء والآباء من غير شعر :

وارحمة لحـذاء كان يحمـلنى ــ فصرت أحمله رثا قـد انقطعـا
كنا نروح ونغـدو ولا يفارقنى ــ فى الجد والهزل نمشى صاحبين معا
داويت بالنعـل بعد النعل جلدته ــ أكثرت فى صفحته الخيط والرقعا
واليوم لابد لى من أن أفارقـه ــ ما حيلتى وعلاجى فيه ما نفعـا

وهكذا كان رجلنا عبد الوهاب عزام بين بناته يفرد عليهن من رحمة جناحا ويغدق عليهن الحب غمراً تصير فيه الأفعال شعراً ويغـدو معه الشعر تحببا وتدليلا . لقد بلغ من حبه لهن أنه كان يقول (وددت لو كان لى أربعون بنتا أناسب بهن أربعين بلدا) .

---

(١) من الطريف أن « نوار » شبه لها فقد كان أولاد عمهـا يختبئون لها وراء شجرة وعندما مرت بهـم ، قلـدوا فى عبث الصبيان ، نبـاح الكلب ، مداعبة . وقد أطلق الدكتور عزام ، عليهـم ، فى بيتيه « الكلاب » مداعبـة لهم أيضـا أو مجاراة لظن طفلته نوار .

كان رقيقا منعما مع زهراته وكان رقيقا متلطفا مع أمهن ينظم خطواتها شعرا تمتزج فيه الفكاهة العذبة ، بالعذوبة المتفكهة .

قلت الشتاء فهاتى موقد النار فأقبلت تتهادى ربة الدار
جاءت بنار لو ان الله خص بها أهل الذنوب لما خافوا من النار

* * *

وكانت هالة تحرص على تقديم القهوة بعد افطار رمضان وتستأثر بها . وكانت تستمع إلى أسمار منها قصة شيخ الأرانب وهى قصة طويلة بدأت فى جدة ، واستؤنفت فى كراجى ولم تنته . وكانت تكتب ما تسمع ثم تصور حوادثه فأهداها قصيدته :

إلى هالة

أهالة ان شط المزار فإننى إليك ، على نأى الديار قريب
حديثك عندى والخيال يطيف بى له فى خيالى جيئة وذهوب
ولكننى ، والحق ، أشتاق قهوة يضوع شذاها ، من يديك تطيب
تزفينها بعد الطعام ولا يرى لغيرك فيها شركة ونصيب
وأشتاق من (شيخ الأرانب) مجلسا أحدث فيه ، والخيال خصيب
وخطك ما أمليه صنعة كاتب وضحكك منه ، والحديث عجيب
وتصوير ما سطرت تصوير حاذق يزيد بيانى روعة ويجيب
لأذكر صفا للأرانب قائما يصلى منيبا ، من رآه ينيب
يكاد من الإتقان يبصر راكعا ويسمع منه للخشوع وجيب
وجمعا دعاه للصلاة مؤذن وأحسن فيه قارىء وخطيب
فليتك عندى كى أتم حديثها فذلك تحديث إلىّ حبيب

النفخات ص ٩٦ — ٩٧

وإلى (هالة) أهدى نشيد السحر تكميلا لقصص رمضان :

نشيد السحر

يا نايـم اســمع وانهض   هيــا فاطعــم واطعمن
واسـبق الى الخـير الزمن   ما فــاز إلا من بـــدر

❋ ❋ ❋

أهجــر لخـــير نومــكا   وابــدأ بخـــير يومــكا
وارصـــد لبر صــومكا   ما صــام إلا من بيــر

❋ ❋ ❋

الليـل يحـــدو زهـره   والصـبح يبـدى زهـره
والـكون يفشى ســره   فاقــرأه فى لــوح السـحر

❋ ❋ ❋

هــذا الظـــلام الدامس   يتـلوه صـبح شــامس
فابســم لـــه يا عابس   واستقبل الصبح الأغر

❋ ❋ ❋

العيش بحــر زاخــر   المـــرء فيـــه عــابر
بالنجـــح فيـــه ظافـر   من جـد فيـه ومن صــبر

النفحات ص ١٠٤

❋ ❋ ❋

لقد عبر الدكتور عزام بحر الحياة ظافراً من دنياه بالذكر العاطر ترويه الأحاديث وتحفظه الصفحات فنا وعلماً وأدبــا وحكمــة ، تزول العروض وتحول المظاهر ، ويظل باقيا كل ما أودعه ، الكتب ، عبد الوهاب عزام .. الإنسان الفنان العالم الأديب .

كان عزام ترتيلة فى تدينه ، وكان عـزام ، ترنيمة فى أدبه وشعره ونثره وكان عزام صفوا أعذب مايكون الصفاء فى إنسان ••• وكان عزام صغوا أعمق ما يكون الاستماع إلى معزوفـة الكون الكبرى فما يلبث أن يتهدى مسترسلا ويترسل متهديا ، هاديا ، صافيا ، نقيا •

[رب هل رتل البراهمة إلا فرقانك ؟ وطلبوا فى الكهوف إلا عرفانك وهل انفتحت عن بوذا زهرة الكنج إلا لذكرك ؟ وهل هجر العالم إلا لوجهك وهل أملى كونفشيوس إلا تعاليمك ؟ وهل أراد زرادشت إلا ذكرك ؟ وهل ضمن كتـابه إلا حمـدك ؟ يا خـالق الجـن والإنس من سواك يحمى الخليقة بظلالك وهدايتك ؟]

بهذه السبحات من مواجد الروح ، استهل عزام كتابه (الأوابد) وسماها « مناجاه » •

أترانا لو وعينا هـذه الابتهالة من ابتهالات التأمل الندى فى زحمة الصراع ، أما كانت منجاة لنا من الزيف والحيف ومن ثرثرات كثيره لاتبلغ من نفوسنا مواطن الإقناع ؟

وعلى سماحته ودماثته ، وتصـوفه وتلطفه •• كان يثور للظـلم ولا يكتفى بالثورة بل يتجاوزها إلى الردع • ومن « مثانيه » :

صاح ما الحر من يثور على الظلم وثـارت لحقهـا الأقـوام
إنمـا الحـر من يسير الى الظلم فيصـميه والأنـام نيـام

كان متصوفا على طريقته ••• كان تصوفه خلوصـا للحق ، وحبا للجمال ، وشغفا بالفن ، وانسراحا روحا للفكر دون عزوف عن الدنيـا أو زهد فى طيباتها مما أباحه الله للانسان ، وأتاحه للمؤمن دون حرج •

كان كريم المظهر والمخبر .. أنيق الملبس والمسكن ، مترف الروح والعيش فى غير سرف أو صلف .

إنه متصوف بفطرته .. متصوف بثقافته ... متصوف بدينه وقد كان يرى أن الانسان من الصفاء والنقاء بحيث يلهم صادقى الايمان به من كرائم المعانى فى أسلوب التصرف والتصوف والسلوك ... والدليل عنده « عمر بن الخطاب »رضى الله عنه ، و « عبد الله بن عمر » « على بن ابى طالب » كرم الله وجهه بل من جاءوا بعــدهم مثل « الحسن البصرى » و « سفر الثورى » و « رابعة العدوية » .

وآيات التصوف الإسلامية تتمثل له فى الآيات :

[الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح .]

والآية [هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم] .

الآية [ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .]

الآية [واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين] .

الآية [الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتذكرون فى خلق السموات والأرض] وما يكون التصوف إلا أن يكون إيمانا بنور النور وأنه ليس كمثله شىء فكل شىء محدد والله بلا حدود ... إليه وحده تتجه الأفئدة وتعنو الوجوه يعبده المؤمن فى ضراعة وصمت وتفكر فيما خلق .

وهكذا كان تصوف عبد الوهاب عزام . كان تصوفه لونا من التأمل الندى الغنى أو صمت الكبرياء والامتلاء بالمعانى والمواجد والمشاعر .

يسمع مادحى الرسول فيقول :

قد سمعنا من القصيد ثناء وعلى الدف والطبول غناء
كل هذا على سناك غبار حجبوا بالضجيج ذاك الضياء
غلب الوجد ما دحيك فصاحوا وتعالى زفيرهم والأنين
ونظرنا الى سناك حيارى يعلن الصمت وجدنا والسكون

ويذكر الناس رباعيات الخيام ، ويغفلون عن مثانى عزام لأنهم إلى التخفف أميل تلك المثانى التى نظمها وهو سفير مصر فى الباكستان بكل مافى شفافيته من نفاذ ولعل ملابسات النظم حدت بالنقاد فى ساحة الأدب ، أن يعزوا « المثانى إلى تأثره ، بإقبال » .. والحقيقة أنه تماثل فى النزعة لا شية فيه تشبه التأثر أو التأثير .

لقد أهدى عزام الى فيلسوف باكستان إقبال ، منظومته « اللمعات ، اعتزازا به وإعزازا له ... ومع مكان اقبال عنده ، ومكانته من نفسه ، لالتقائهما فى الفكر الإسلامى ، فإنه فى « المثانى » كان يعبر عن نفسه ، ويصدر عن شعوره ، وينبع من روحه . إن السليقة كما يقول استاذنا العقاد فى مقدمته للمثانى ، (هى التى أوحت إلى شاعر المثانى فى نظمها لا التقليد لإقبال فى منظوماته) .

لم يقلد الدكتور عزام ، الشاعر « اقبال » مع حبه له حتى أنه وهو سفير مصر فى باكستان كانت تتحلق حوله ، فى داره الندوة .. عن أدب اقبال حتى سمى مريديه (دراويش اقبال) [1] .

---

(١) عندما اشتدت حركة الفدائيين المصريين سنة ١٩٥١ فى القناة ، =

ومع هذا كله كان عزام نسيجا وحده • وقد حسم عزام نفسه ، الموقف في هذه الكلمات التي أراها ومضات :

[يؤسفني أن بعض النقاد وضع أدبي وأدب اقبـال في ميزان المناقشة وجهدوا أن يشيعوا أغلاطهم في هذا الشأن • وهذا عمل لا يليق بالأدب الفسيح الذي يخاطب النوع الإنساني كله •••• لأن في ساحة الأدب العالمي يقوم الشعراء وأولو الفضل في منبت واحـد من الاخوة الإنسانية • ويقيني اني ومحمد اقبـال عاملان للصـدق والجمـال في الأدب ••• ونحن نلتقي حيث يقدم القلب الإنساني والعقـل إلى عالم الإنسانية أجمل هداياهما وأروعها] •

بهذه الدماثة رد عزام على ناقديه •

كان عزام خيرا كله وكان أملا آملا •• وأدبا متفائلا•• تلك نفحة من نفحاته

قيل : ليل مظلم ، قلت اذكـــروا   في ظلام الليــل إشراق الصباح

قيل : غيم معتم ، قلت انظـروا   رب نجـم من وراء الغـيم لاح

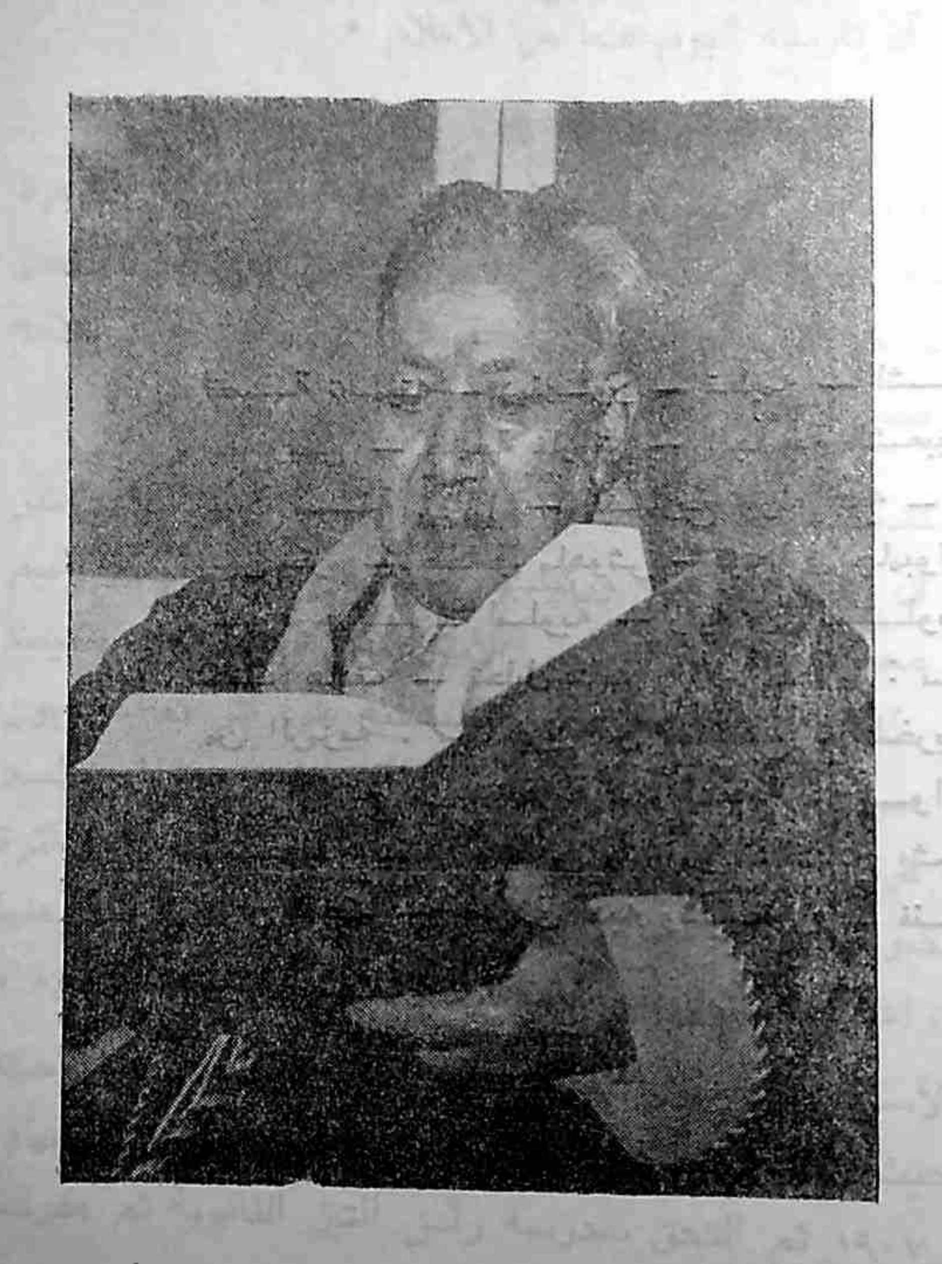
والخير عنـد عزام غلاب حتى في قصيدته عن « ابليس » فقـد جعل النصر للخير ممثلا في الدين ••• فلم يملك ابليس مع المؤمنين إلا الارتداد خاسئا وهو حسير ••• نهاية كل إبليس •

تقدم هؤلاء الدراويش في مظاهرات كبيرة في باكستان تأييدا لمصر حتى اشتكى السفير البريطاني الى عميد السلك السياسي هناك فقال السفير المصري الدكتور عزام : وهل انا الذي اخرجت المظاهرات في لاهور وفي العراق وفي الهند . ان الذي اشـعل المظاهرات يعـرفه الانجليز جيـدا وهـو « السياسة الانجليزية » .

أدور لهم حــول حصن حصــين   من الدين والخلق قــد شـــيدوا
فمالى الى ســـاحه مدخـــل   ومالــى الى برجـــه مصــعد
ولــم أر فى ســـوره ثلمـــة   تمــد الى القــوم منهــا ، يــد

هذا حين تناول الشيطان ، من الأدباء أعلام « كالعقاد » و « جوته » ولكن من زوايا أخرى .

محمـــد فريد أبو حــديد



قصــــة تسميته — دمنهــور — تعليمه — اشــتغاله بالتدريس — جامعة فاروق — الجامعة الشعبية — ثورة ســـنة ١٩١٩ — التــاريخ وراء أدبه — كتاب عمر مكرم — جحا فى ماهوش — جحا فى جامبولاد — كتب ترجمهــا — أسلوبه — رأيه فى الأســلوب — كاتب هادف — تحليل كتاب (آلام جحا) : سخرية من الرمزية . ســخرية من التفاصح . سخرية من شعر المديح . ســخرية من الدعاية . ألــوان من السخرية . نقد اجتماعى وتاريخى . نماذج بشرية . ألوان الحكم — مصر فى أدبه وشــعوره — فنــــان

توجت جائزة الأدب سنة ١٩٦٤ أحد أدباء الطليعة الأستاذ « محمد فريد أبو حديد » • الرجل الكبير الذى وقف حياته كما يقول الأستاذ الجليل أحمد أمين ، على دراسة التاريخ ، وبخاصة تاريخ مصر ، فهو خليق بأن نعيش فى تاريخه اليوم علما من الأعلام •

* * *

ولد محمد فريد أبو حديد أول يوليو سنة ١٨٩٣ بمدينة القاهرة بحى عابدين • ينحدر جده الأعلى لأبيه من الجزيرة العربية وقد لاذ بمصر فى الحركة الوهابية مع آخرين جاء ذكرهم فى الجبرتى منهم أحمد سلامة النجارى • وفى مصر اشتغل بالتجارة بين القاهرة والاسكندرية •

أما والده فقد خلفه أبوه صغيراً فتعلم التعليم السائر حتى كبر والتحق بوظيفة فى الدائرة السنية ورئيسها يومئذ فريد باشا والد زعيم الوطنية المصرية محمد فريد • وقد سمى الأب ابنه (محمد فريد) تيمنا به ثم حدث فى طفولته أن حلت الدائرة السنية على أثر تفاقم ديون إسماعيل ورفتوا موظفيها بعد أن أنقدوهم مكافآتهم ومن هؤلاء والد الأديب محمد فريد • ولكن الفترة التى قضاها الرجل فى الدائرة السنية أكسبته خبرات فى الزراعة حتى حذقها فلم يتردد عند خروجه منها فى الاشتغال بالزراعة • فاشترى مع أخيه أرضا للاستصلاح فى البحيرة •

وانتقلت الأسرة إلى دمنهور المدينة التى جرت فيها أحداث قصته (أنا الشعب) حيث أدخل محمد فريد المدرسة الابتدائية ومنها نال الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٧ ثم التحق بمدرسة رأس التين الثانوية ثم مدرسة المعلمين العليا التى تخرج منها سنة ١٩١٤ •

* * *

وفى سنة ١٩١٤ أعلنت الحرب العظمى الأولى واستحكمت الأزمة وتأزمت العلاقة بين والده محمد فريد وعمه للمرة الثانية وانتهى الأمر بأن انفصلا • وقد كان لخذل عمه ، أباه ، مرتين ، أثر كبير فى نفسه حتى

بلغ من عمق احساسه به أن كتب فى هذا كتابا سماه (صحائف من حياة أو مذكرات المرحوم محمد فريـد) يعنى نفسه مبالغة فى تصوير هـذا الأثر وكأن هذا الخذلان قد قضى عليه •

وحين خرج والده سنة ١٩١٤ من هذه الأزمة النفسية والمادية معا محمطا قفل باب التعيين على خريجى المعلمين العليا • وكان محمد فريد خالى الـذهن من وسائل السعى فى الحياة بـل كان خريجو المعلمين بعامـة لا يكلفون أنفسهم مهمة التفكير فى هذا يقينا منهم أن الوظائف الحكومية تنتظرهم انتظارا • فقد كانت مدرسة المعلمين فى ذلك العهد مرموقة عالية الصيت • كان مجرد الانتماء اليها تزكية تفتح لصاحبها باب العمل حتى ولو كان راسبا أو لم يستكمل دراسته بها •

وانتظر محمد فريد انتظارا سلبيا وإذا بصديق يعرض عليه أن ينضم معه إلى شركة أزمع الخريجون تأليفها فى مدرسة القاهرة وكان صاحبها فيظى الذى اتفق مـع أعضـاء الشركة على أن يقوموا بتسـديد جميع تكاليف المدرسة ، ودفع مبلغ له نظير الادارة ثم يقتسم المدرسون أعضاء الشركة الباقى • وكانت صفقة خاسرة إذ كان حصاد عامهم كله ٣٦ جنيها لكل منهم أى بمعدل ثلاثة جنيهات فى الشهر •

ومما يذكر أن هذه الشركة كان من أعضائها :

الشاعر احمد رامى — محمود حمزة الذى صار مفتشا أول بالمعارف — ابراهيم نظيم (مراقب) — محمود فهمى (مستشار) — محمد صفوت (استاذ بدار العلوم) — محمد صالح العفيفى •

* * *

وكانت أسرة محمد فريد لا تزال فى دمنهور وفتاها وحده فى القاهرة • وقد جاءه أحمد زكى (الدكتور أحمـد زكى) يوما وحثه على الانضمام إلى الاعدادية • وكان الحزب الوطنى قد أنشأ المـدرسة الاعـدادية احتجاجا على تعسف الحكومـة مع الطلاب فقـد ألف لجنـة سماها

(لجنة اصلاح التعليم وتعميمه) • وهـذه اللجنة اختارت حى الظاهر مقرا للمدرسة الاعدادية •

وفجأة وجد محمد فريد مرتبه يقفز إلى ١٨ جنيها ذهبا بعد أن كان ثلاثة جنيهات ••

فى الاعدادية مكث محمـد فريـد ثلاث سنوات (سنة ١٩١٥ — ١٩١٨) كانت تجربة كبرى وتربية عظيمة له •

***

وكان محمد فريد وأخوه يسكن مع بدران (الاستاذ بـدران) وإخوته وفى يوم تلقى برقية • وهرع الفتى إلى بلدته ليجـد والـده مصابا بالتهاب رئوى •• لم يرحم الرجل شيخوخته •• لقد ظل يعمل ويكافح حتى آخر سنيه •• فقد استأجر أرضا كبيرة تبلغ ٢٨٠ فـدانا من وقف الخزان • وبدأ يؤجرها سنة ١٦ — ١٧ وأثر المجهود والسن فيه فضلا عن أن الالتهاب الرئوى كان يعد فى أيامه مرضا خطيرا • توفى على أثره •

وقد مضى على وفاته الآن أكثر من أربعين عاما ولكن « محمد فريد » إذا طافت به ذكراه أو سئل حديثه ، شجيت نفسه ونشج صوته ، وانهلت عيناه • لقد كان فى نظره قديسا مجاهدا • إن (محمد فريد) يقول إنـه من أكثر الشخصيات التى أثرت فى حياته •

والشخصية الثانية التى أثرت فى حياته كانت شخصية أمه • كانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ولكنها كانت على جانب كبير من الثقافة المكتسبة بالذكاء والفطرة المستعدة والقدر الموروث • كانت فى بيت علم تلتقى مع عبد العزيز البشرى فى أرومة واحدة • وكانت تحفظ من القرآن والأحاديث والأمثال ما يصقل صاحبه •

مـا وقف ابنها يوما موقفا بين المصلحة والواجب إلا اختارت له مايعلى مروءته ويرفع انسانيته .. وقد توفيت فى التسعين .

* * *

فى سنة ١٩١٨ عمل بمدرسة وادى النيل .

وفى سنة ١٩١٩ عينته وزارة المعارف فى مدرسة ابتـدائية فى بنى سويف ظل فيها حتى سنة ١٩٢٢ ، وان ضاق بها فقد كان من أشد شباب عصره حماسة فى الاحتجاج على لجنة ملنر .

وفى سنة ١٩٢٠ انتسب إلى مدرسة الحقوق الخديوية .

وفى سنة ١٩٢٢ ترك بنى سويف إلى القاهرة وكانت فى نيتـه أن يعتزل التعليم بعد تخرجه من الحقوق ليعمل بقسم القضايا فى الأوقاف . ولكنه عين بمدرسـة الأمير فاروق بروض الفرج التابعة لقسم مدارس الأوقاف .

وقد مكث بهـذه المدرسة ١١ سنة إذا استثنينا المدة من ٢٨ ــ٢٩ التى عمل فيها ناظراً لمدرسة طاهر بك فى الاسكندرية .

* * *

وفى هذه الأثناء نال ليسانس الحقوق سنة ١٩٢٤ .

ومدرسة الأمير فاروق هـذه تمثل الخطوط الواضحة فى حياتـه فإنه أثناء وجوده بها اتجه إلى الكتابة وأنتج وقتئذ :

١ ــ قصة ابنة المملوك طبعت سنة ١٩٢٤ ونفدت .

٢ ــ أوبريت ميسون الغجرية وقد نفدت أيضا .

٣ ــ قصصا مدرسية منها .

(أ) مقتل عثمان طبعت سنة ١٩٢٥ .

(ب) تمثيلية سهراب رستم طبعت سنة ١٩٢٢ .

وهما من الشعر المرسل .

ولمـا عاد من الاسكندرية سنة ١٩٢٩ أصبح وكيلا لمدرسة الأمير فاروق أى بمثابة ناظر لها ولمـا تحولت سنة ١٩٣٢ إلى وزارة المعارف تحـول معهـا •

وفى سنة ١٩٣٢ كتب قصته (خسرو وشيرين) وهى من الشـعر المرسل وقد استوحاها من الشاهنامة •

وقـد كان قريرا بمدرسة فاروق مستريحا إلى كل من فيها أساتذة وطلابا حتى أن المحاماة لم تعد تغريه مع استشرافه اليها فى ذلك الوقت خاصة بعد أن ترك بنى سويف سنة ١٩٢٢ مزمعا اعتزال التدريس •

* * *

وفى وزارة المعارف ساءت حالته النفسية والصحية فقـد مرض مرضا شديداً بسبب خراج أهمل فأورثه التصاقا فى المفصل عاش يعانى منه •

وفى سنة ٣٦ — ٣٧ عمل مراقبا للمطبوعات فى وزارة الوفد الأولى •

وفى سنـة ١٩٣٨ عاد إلى المعارف وظل بها حتى سنة ١٩٤٢ حيث عـاد إلى الداخلية ثانية ولم يمكث بها إلا شهورا (من ٥ فبراير سنـة ١٩٤٢ — ابريل سنة ١٩٤٢) كانت فترة عاصفة عاد بعدها الى المعارف للمرة الثالثة فكلف بإنشاء جامعة فاروق ثم انتـدبته دار الكتب ثم نقل إليها وظل فيها من سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٥ • ثم أصبح عميدا لمعهد التربية العالى للمعلمين من ١٩٤٥ — ١٩٤٨ •

وفى المعهد العالى كتب كتابه : أزهار الشوك •

وقد كان المعهد آخر عهده بالطلاب والتدريس فقد ظل بعده يتنقل بين المناصب الادارية وقبل أن نعرض لها نذكر من تلاميذه فى دور التعليم التى عمل بها على اختلافها .

عمر طراف — عبد الفتاح محمد وكيل جامعة الاسكندرية — جمال الشيال أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية — شفيق الصدر — سعيد الصدر وغير هؤلاء كثيرون •

وفى سنة ١٩٤٨ أصبح مديرا لإدارة الثقافة ثم مديرا للتعليم الثانوى سنة ١٩٤٩ •

وفى سنة ١٩٤٩ كتب قصة (الوعاء المرمرى) وهى قصة سيف بن ذى يزن •

كما أضاف قصصا أخرى إلى كتابه (مع الزمان) صور فيها ما استجد من أحداث حتى حرب فلسطين •

وفى سنة ١٩٥٠ صار مديرا للجامعة الشعبية ثم نقل إلى ادارة مكافحة الأمية ثم نقل مديرا ثانيا للتعليم الأولى !! وهى أحداث ومعان لم يكن وقعها هينا على نفسه أصيب سنة ١٩٥١ بالتهاب عصبى وظل فى بيته سنة • ولكن هذه الأحداث حفزته فى الوقت نفسه إلى كتابة قصته (أنا الشعب) التى نفس فيها عما كان يكابده من عنت واجحاف • فالقصة فيها منه ملامح لا تخفى •

* * *

وتاريخ حياته ينم عن إنسان حساس عيوف فما هذه المصادمات المتكررة إلا ثورات نفسية على ظلم لا يقره ، أو اعوجاج لا يرضاه ، أو خسف لا يقبله • وكأن البركان الذى ثار فيه سنة ١٩١٩ لم يهدأ •

* * *

وثورة سنة ١٩١٩ تاريخ له عنده تاريخ فقد كان فيها شابا ملتهبا بالحماسة — كالشعلة • كان يكتب المنشورات السرية وعرائض الثقة • وكان يؤلب الجماهير على جنود الاستعمار •

وقـد صادف وقت تخرجه إعلان الحماية على مصر وخرج وقتها المقطم الكريه يحمل عنوانا : بشرى أعلنت الحماية على مصر • فبكى هل هذا هو آخر المطاف ؟ كان الشباب المصرى فى ذلك الوقت ينتصر لألمانيا عدو عدوه : وكان يهيجه تصريحات المسئولين الانجليز التى كانت تصور الشعب قطيعا •• قصاراه أن يُطعم ثم يُساق •• فلما انتصر الحلفاء سنة ١٩١٨ ، منى هـذا الشاب الواعى المتربص الحانق الـذى يحفظ لهم تصريحاتهم المشنوءة ، بخيبة أمل محطمة لفه على إثرها يأس طاحن ويحكى محمد فريد أنه كان فى تلك الأزمة الكبيرة من أزمات نفسه ، وهى كثيرة ، كان فى هذه الأزمة دون غيرها يتمنى الموت ويتنادى به • وفاته فى اندفاع العاطفة أنه حرىّ بأن يعيش بل هو أحرى بالحياة من أى وقت آخر •

ولكن هذه الظلال القاتمة انحسرت سريعا وانطلق الشباب فى دفعة نفسية يصرخ فى وجه غاصبه سارق النعمة والأرض : اخرج من بلادنا ولم تذهب صيحته هباء فقد كان دويها أكبر من زوره وأقوى من تضليله وأعنف من ضرباته وهى العزلاء من كل سلاح •

وانتهت ثورة مصر أو ثورة ١٩ بتصريح فبراير سنة ١٩٢٢ • وهو وإن لم يكن الاستقلال تاما فهو خطوة بل خطوات •• إليه •• وحسب الحق أن ينال من القوة الغاشمة هذا المنال على فرديته وتكثرها بالسلاح والرجال والمال والنصر •

* * *

ولم تطفىء الأيام هذه الحماسة فإن قصصه صور حية تنطق بها • وقد جاء فى تقرير لجنة الآداب سنة ١٩٥٢ عن قصة (الوعاء المرمرى) التى فازت بجائزة الدولة أنها : (الحلقة الأخيرة من سلسلة من القصص الروائى بدأها فريد بك منذ زمن طويل واختص هذا اللون من الأدب بالنصيب الأكبر من نشاطه فى الكتابة والتأليف • وهو يستمد موضوعه من التاريخ

المصرى أحيانا كما هى الحال فى « عمر مكرم » و « أزهار الشوك» ، أو من التاريخ والأساطير العربية كما جاء فى مؤلفاته : « الملك الضليل » و « سيد ربيعه » و « عنترة » ...

كما أن قصة (أنا الشعب) باسمها ومضمونها اعتزاز بالمصرية وإيمان بها ... (فسيد) بطل القصة يمثل الشعب فى صبره وحلمه حتى إذا أرهقه العسف والبغى انفجر كالإعصار يصيح إنى هنا ، أنا الشعب .. أنا السيد

(سيد) يمثل الشعب فى كفاحه وإصراره .. فى كبريائه التى لا تخذله حتى على الحرمان وعنت الزمان .

(سيد) يمثل الشعب الذى (يخطب السادة وده فى دعاياتهم الانتخابية ومن أجله ينشئون مقالات التمجيد فى الجرائد اليومية) ص ١٥٢ (أنا الشعب) .

وقد بدأ قصته (أنا الشعب) فى سنة ١٩٥٠ ثم انقطع عنها للمرض ثم عاد فاستأنفها سنة ١٩٥١ وطبعت ١٩٥٢ .

وفى سنة ١٩٥٢ أصبح وكيلا مساعدا لوزارة المعارف .

وفى سنة ١٩٥٣ أصبح مستشار فنيا لها .

وفى سنة ١٩٥٣ هذه انتهت مدته بالحكومة فجددت لمدة سنتين أى حتى سنة ١٩٥٥ .

وفى سنة ١٩٥٥ طلبته ليبيا مستشارا فنيا لوزارة المعارف بها . فظل بها من سنة ١٩٥٥ — ١٩٥٨ .

وجاءت ثورة سنة ١٩٥٢ خاتمة سعيدة لهذا القصة أو لعلها بداية لقصة جديدة .

* * *

وقد ألف محمد فريد أبو حديد غير الكتب التى ذكرناها : —

١ — سيرة عمر مكرم .. ألفها سنة ١٩٣٧ حين كان مراقبا للمطبوعات بوزارة الداخلية وقد رمى بها إلى اظهار شخصية الشعب وكأنه بكتابتها يسهم فى بناء حياة ديمقراطية .

فقد (مرت بالبلاد سنوات مظلمة غشتها سحابة من الطغيان والظلم فكنت أجـد تسلية وعزاء بأن أرى جهاد الشعب لإزاحة تلك السـحابة الداكنة . وكنت أنصرف إلى التاريخ أطالع فيه أسود صحائفه لأطلع منها على روح الشعب المصرى النبيل وهو يناضل ويجاهد ، فكنت أجـد من ذكرى ذلك النضال مشجعا ومناصرا . وكنت أستبشر بما أعقبه من النصر القـديم فأطمئن إلى أن جهاد مصر الحديث سيسفر كذلك عن انتصـار وفوز . وقد كان سميرى فى تلك المطالعات رجلا من رجالات مصر العظماء وزعمائها النبلاء ، وهو « السيد عمر مكرم »(مقدمة طبعة ١٩٥١ فى كتاب الهلال صفحة ١١) .

محمد فريد أبو حديد كما يقول عنه أستاذنا أحمد أمين (عنى أكثر ما عنى — لا بالملوك والامراء — كما فعل أكثر مؤرخينا — بل بالشعب وحركاته ونفسيته وحياته الاجتماعية وآماله الوطنية « واتخاذه السيد عمر مكرم محوراً لكتابه أكبر دليل على هذا ، فهو ليس ملكا ولا أميرا ، ولكنه أحد أفراد الشعب ، وعظيم من عظمائهم ، يشعر بشعورهم ، ويأمل آمالهم ويقصدونه فى حوائجهم ويرجعون إليه فى خطوبهم فاتخذه المؤلف نواة نسج حولها تاريخ مصر فى هذا العصر خاصة تاريخ الشعب .. وتطوراته ونظراته وآماله وآلامه) (١) .

وفى طريقه إلى لقـاء عمر مكرم حيًا أعـلاما مصرية ارتفعت على طول الطريق . فالشيخ الحفنى ، وابن النقيب ، والشيخ على الصعيدى ،

---

(١) تقديم كتاب السيد عمر مكرم صفحة ٧ طبعة ١٩٥١ كتاب الهلال .

والشيخ الدرديرى أصوات مصرية قوية ارتفعت فى مجلس الحاكم فأنصت ، وحاجته فعدل ، وعارضته فأذعن ، وتحدته فنزل على حكمها وأمّن على رأيها وأصبح (الأمراء) يحسبون للشعب الذى خرج منه العلماء ونبغوا فيه الحساب كل الحساب .

ومن عجائب الآثار كما روى الاستاذ فريد أبو حديد أنه (عندما أشيع مجىء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة مراد وإبراهيم بقيادة القبودان حسن باشا ، ذعر الطاغيتان خوفا من أن ينتهز الشعب تلك الفرصة فيثور مظهرا ما فى نفسه من الألم فحاولوا التقرب إلى زعمائه . وقد وصف أحد من شهد ذلك العصر تذلل الأمراء بقوله : « فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ، ثم الشيخ العروسى والشيخ الدرديرى . وصار يبكى لهم وتصاغر فى نفسه جدا وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت فانه كان يخاف ذلك جداً »(١) .

* * *

هذا هو الشعب المصرى الذى كان يخشاه الحاكم وهو الذى زهد فى الحكم (وظيفة) وسخر منه . ان الشعب المصرى يشعر فى قرارة نفسه ان الدول التى تقلبت على عرشه ليست منه لحما ودما ولهذا تساوت عنده الدول : الفاطمية والأيوبية الخ .. كلهم سواء لا يميز هذه الدول عنده بعضها عن بعض الا العدل أو الاعتدال . ولعل طبيعة أرض مصر كما يقول أديبنا فى كتابه (صلاح الدين الأيوبى) « طبيعة أرض مصر الوادعة وطبيعة أهلها الميالين إلى المرح والبساطة والسهولة » (ص ٨٥) طبيعة مصر هذه كانت تؤثر السلام على الحكم بحروبه ومشاكله ومؤامراته حتى أن (عمر مكرم) حين سنحت له الفرصة لتولى أمر مصر تردد فيها مما أخذه عليه فريد فى صدر كتابه « أمتنا العربية » (تردد فى اللحظة الحاسمة وانكمش عن أن يخطو الخطوة التى كان ينبغى

---

(١) السيد عمر مكرم صفحة ٤٥ .

له أن يخطوها فكانت غلطته الكبرى أنه اختار « محمد على » التركى إذ حسب أنه هو الذى يحقق للامة أمنها وحريتها • ولم يلبث السيد عمر الا قليلا حتى بدأت — الحقيقة تظهر له بعد أن أفلتت الفرصة من بين يديه فإن « محمد على » تنكر له ، « وللشعب » بعد قليل) ص ٩ •

❋ ❋ ❋

بل فى طريقه إلى لقاء عمر مكرم حيًّا (رجل الشارع) المصرى فالقصاب أحمد سالم حين اشتد عليه جابى الضرائب التركى (أراد القبض عليه بغير حكم شرعى مخالفا فى ذلك حقا كان أهل مصر قد اكتسبوه من قبل ألا يُمس أحد منهم إلا على مقتضى الشريعة ، فثار أهل الحسينية لذلك الاعتداء والتجأوا الى الشيخ العروسى (وكان الشيخ الدرديرى قد توفى إلى رحمة ربه) ، فقام الشيخ العروسى بأمر الوساطة فى شأن الشعب وانتهى الأمر إلى مشادة طويلة خاف الأمراء غبتها ، فنزلوا عند إرادة الثائرين وعزلوا الوالى وولوا آخر بدله • ونزل الوالى الجديد من الديوان إلى الأزهر ، وقابل المشايخ الحاضرين واسترضاهم ورأى أهل مصر أن حقهم لم يضع ماداموا حريصين على المحافظة عليه [1] •

كان الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى تكريمه للشيخ العالم عمر مكرم إنما يكرم الشعب فيه • فقد كانت قوة الشعب تكمن فى السلطة الدينية التى تعمل لها السلطة الزمنية الحساب كل الحساب • بل إن الشعب المصرى ثار حتى على علمائه حين حملوا إليه مشفقين ، بعد حملة دامية ، شروط الفرنسيين سنة ١٨٠٠ (فما كاد الناس يسمعون هذه الشروط حتى ثار ثائرهم ، ونادوا باستمرار القتال إذا كانوا لا يقصدون إلا الخلاص من العدو ، فأما إذا كان منتهى المفاوضة هى عودته للمدينة والبقاء بين ظهرانيهم فلا قبول لها ولا حرص عليها ولن يحكم بينهم وبينه إلا النضال

(١) كتاب السيد عمر مكرم ص ٤٧ •

المر إلى نهايته . وقد بلغ من حنقهم على تلك الأنباء أن اعتدوا على الذين حملوها إليهم) (١) .

إن قصة عمر مكرم دعوة جهيرة إلى الحياة الديمقراطية .

* * *

ومن سنة ١٩٣٧ — ١٩٤٥ تنفس فى القصص الآتية :

١ — الملك الضليل .

٢ — سيرة ربيعة المهلهل .

٣ — زنوبيا ملكة تدمر .

٤ — عنترة .

٥ — مع الزمان (وهى مجموعة قصص قصيرة تاريخية) .

٦ — آلام جحا وهى جزءان .

(أ) جحا فى ماهوش .

(ب) جحا فى جامبولاد .

وفى هذا الجزء صور حكم الوفد .

والى جانب هذا ترجم من الكتب والقصص :

١ — فتح العرب لمصر لبتلر (سنة ١٩٣٥) .

٢ — دعائم السلام (سنة ١٩٣٩) .

٣ — فن التعليم جلبرت هايت الامريكى (١٩٤٨) .

٤ — ما كبث لشكسبير وقد ترجمها سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ وطبعها سنة ١٩٥٨ .

---

(١) السيد عمر مكرم ص ٨٧ .

وفريد أبو حديد عضو فى :

١ — رابطة التربية الحديثة .

٢ — جمعية المعلمين .

٣ — الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية .

٤ — مؤسسة التأهيل المهنى .

٥ — رعاية الأحداث .

وقد نال محمد فريد أبو حديد جائزة الدولة فى كتابه (الوعاء المرمرى) سنة ١٩٥٣ . والكتاب قصة روائية استقى موضوعها من التاريخ العربى القديم يصف فيه استيلاء الأحباش على اليمن — وتصديهم لغزو الحجاز واسترداد سيف بن ذى يزن للملكه منهم بمعاونة الفرس . وقد استطاع المؤلف بما وهبه الله من قوة الخيال وبراعة التعبير أن يصور العصر والمناظر تصويرا قوياً رائعا .

ومع أنه أجاد كثيرا فى مؤلفاته السابقة — فإنه بلا شك قد سما بكتابه الجديد إلى الذروة . وأبدى فيه براعة فى التصوير وجمالا فى التعبير مما يحقق لهذه القصة مكانا ملحوظاً بين القصص المصرى الحديث ....

(تقرير لجنة الآداب لجوائز الدولة سنة ١٩٥٢) .

سألته مرة : ما أعز كتبك عندك ؟ فقال : ثلاثة فى مرتبة واحدة :

١ — زنوبيا وهى تصوير لعصر يمثل حضارة عربية قديمة . وفلسفتها أن العرب منذ القدم ، قوة فعالة فى محيطهم ، وأهم شخصياتها فى نظره زنوبيا التى تمثل المرأة الذكية المتحررة ، ولوتجين الفيلسوف ، وأذينه المحارب . فى قصة زنوبيا ملامح من حياته فى أكثر من موضع . وقد كتبها تنفيساً عن واقع نفسى شبيه بجو القصة .

٢ — أنا الشعب ٣ — جحا فى جامبولاد :

ومما يسترعى النظر ليس بينها (الوعاء المرمرى) الكتاب الذى نال به جائزة الدولة • ولهذه عنـــدى دلالة كبيرة فإن مقاييسه لا تخضع للجزاء أو المال وإنما لأسباب حرة من هذه الاعتبارات التى تكيف أحكام الكثيرين •

ومثل هذا الرأى منه ، عليه طابع الفنان الذى يؤثر من كتبه ما نبع من نفسه ونفّس عنها وسجل انطباعاتها وآراءها •

وقد صدر الأستاذ محمد فريد أبو حديد عن عدة منابع ثقافية ففى مرحـــلة التكوين انطبعت نفســـه على الكتب العربيـــة القديمة وتمثيليات شكسبير ، ومقطوعاته الشـــعرية وقصص والترسكوت التاريخيـــة • ومن قراءاته الأولى فى الأدب الغربى أعمال ديكنز وثاكرى • لقد عب كثيرا من الأدب الانجليزى خاصة فى عصر ازدهاره من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر •

وقد أفاده اطلاعه الواسع فى الأدب الانجليزى • وهو فى قصصه إذا أعجبته شخصية مشى وراءها فى الحياة وتركها تتصرف وهو يسجل فقط بدون خطة •• بدون بداية •• بدون نهاية •• وقـــد اتبع الاستاذ محمد فريد أبو حديد هذا الاسلوب الطبيعى فى (أنا الشعب) فان شخصية (سيد زهير) نحس معها أن الكاتب قد تقمصها • إنه يعيش فى شخصيات قصصه وفى عصورها التاريخية ، يعيشها وهو يفكر تفكيره الخاص الحاضر •

* * *

وبعض الناس يظنونه يفسر التاريخ ولكن الحقيقة شىء مختلف جدا• إن أغلب كتبه ملون بالتاريخ ولكن التاريخ فيها لم يقصد لذاته بل كان وسيلة إلى غاية أكبر ••• إلى هدف أبعد •• إن القصة التاريخية الخالصة عنده هى (ابنة المملوك) • وحتى هذه لو تأملناها من ناحية التأليف نجد

أنه كتبها وعاش أحداثها فى الوقت الذى كتب فيه أيضا سيرة عمر مكرم وعاش فيها • وهو الوقت الذى تلا ثورة ١٩ بما صاحبها من صراع نفسى عنيف وقلق عاصف وشك فى الأيام والمصائر ••• وهو شعور قاس تحداه الكاتب بالثقة فى هذا الشعب • ثقة استمدها من ماضية وسابق بلائه ، ثقة تمثلت فى قصته (سيرة عمر مكرم) التى تحدثت عنها منذ قليل • ولو أنه فى قصة (صلاح الدين الايوبى) لم يحدثنا عن دور الشعب المصرى فى الحروب الصليبية ! وسرت معه فى القصة بلا جـدوى حتى بلغت موقعة « حطين » وتوقعت أنى وصلت إلى نقطة سيعمق كاتبنا عندها كفاح الشعب المصرى ولكنه لم يفعل ! كان البطل فى القصة صـلاح الدين ! **ولولا مصر وطاقاتها البشرية والمادية طاقاتها فى الرجال •• فى الصبر •• فى المقاومة •• فى التضحية • فى المال •• طاقات الموقع الفذ •• طاقات المكان •**

لولا طاقات مصر فى هذا كله ما استطاع صلاح الدين أن يقف وقفته أو يُبلى بلاءه •• إن نور الدين فى الشام لا يقـل فى المزايا الشخصية عن صلاح الدين ، ولكنه لم يستطيع أن يلعب على مسرح الحوادث دورا ذا بال •• وكذلك صلاح الدين نفسه حين كان فى الشام • كلاهما لم يستطيع ، فى وطنه الأصلى ، أن يؤدى • اذن هى مصر •

* * *

ومن قراءات حداثته • غـادة الكامليا •• قرأها فى الفرنسية وهو طالب بالمعلمين •• ومن الطريف انه كان مسـافرا من القـاهرة فاستعان بها على الرحلة فكان فى بعض المواقف يخرج من بين الجلوس إلى طرقات القطار ليبكى من شدة التأثر •

ومن الكتب التى تأثـر بها كتاب آلام فرتر • فقـد ضاق بجوته أن يشغل قلمه الكبير ويشغل الناس معه بمسألة تافهة • رجل يحب امرأة متزوجة ! أين هى من مشكلات الضمير العالمى أو صراع الحياة الانسانية بمفهومها الواسع •• إن للانسان هموماً أكبر من هذا بكثير •• وكان رد

المفعل الذى أحدثته هذه القصة أن حركت شجنه وأيقظت لواعج نفسه فكتب كتابه (مذكرات المرحوم محمد فريد) • فما دام جوته قد اعتبر هوى فرتر — مشكلة تستحق المعالجــة وموضوعا يكتب فيه فإن ما رآه كاتبنا من أحداث ووقائع أحق بالكتابة والتناول •

أما الأدب العربى فقد قرأ فيه أمهات الكتب العربية القديمة شأن الرعيل الأول •

كما قرأ التواريخ المعتمدة كلها واهتم بنوع خاص بكتب الرحالة الأجانب الــذين قــدموا إلى مصر فى القرن السابع عشر قبل الثورة الفرنسية فقد كان أكثرهم من الجواسيس الذين مهدوا للحملة الفرنسية وللاستعمار الغربى •

* * *

كان شباب ذلك العصر يحس نقصاً شديداً فى المكتبة العربية • كان يبحث عن أى شىء فكانوا يقرءون كتب جورجى زيدان • وكان المنفلوطى ظاهرة اجتذبتهم بما تشيعه من عاطفة وتنغيم • أما الكتاب الذى أثر فيه تأثيراً يذكره فهو كتاب عيسى ابن هشام •• إن مؤلفه فى نظره لم ينصف ولم ينل من التقدير ما هــو أهل له • إن كتاب عيسى ابن هشـــام نظرات فى الحياة المصرية فى غاية العمق وفى غاية الوضوح يشيع فيها روح من الفكاهة عذبة كأعذب ما تكون الفكاهة فى الأدب العربى •

وهو يقرأ فى الإنجليزية التى يحسنها وفى الفرنســية التى نــال قسطاً منها فى المدرسة وأخذ دروساً فيها على مسيو بيزياه Beziat ثم قواها عنده التحاقه بالحقوق حتى ليسهل عليه قراءة أى كتاب فيها دون تعثر أو استقصاء •

وقد تعلق أيضاً بدراسة اللغة الإيطالية ثم تركها سنة ١٩٣٠ على

أنه جدد صلته بها فى ليبيا فى الفترة التى قضاها بها • وفى ليبيا قرأ كثيراً بالإيطالية حتى الكتب الأدبية لا يعز عليه فهمها •

كل هذه الينابيع الأدبية سواء منها ما كان فى العربية أو غيرها كيفت الأستاذ (محمد فريد أبو حديد) فنيا **فجاء أسلوبه عربياً فصيحاً لا عجمة فيه وهو على سلامته سهل واضح شفاف يعتمد على الصورة كما يعتمد الرسام على الألوان فى اظهار الأضواء والظلال والعتمات والجو كله •**

وفى أسلوب (فريد أبو حديد) ترد ألفاظ عامية كلفظة (ودّره) أى أهـدره — (ص ٥٣ كتاب آلام جحا) وفيه ألفاظ لغوية كلفظة (**توقل**) فى الربوة صاعداً « كتاب عنترة بن شداد » •

وقد جاء فى تقرير لجنة جوائز الدولة جلسة ١٩٥٢/٤/٣ — أنه يحاول فى كتابته أن يرد الاعتبار لكلمات عامية ويخلع عليها حلة جميلة) •

وهو يضمّن صوره المثل الشعبى فإن وراء مناجاة جحا بعد أن كسدت تجارته وأورثته الفقر — والتجارة فيها تسعة أعشار الرزق •

(أى رب ، هذا أنا ضربت فى الأسواق ولم أعص مشورة القاضى • لم أقعد ولم أتخاذل ولكنى هذا عبدك لا أملك مالا ولا أجد رزقاً كأنمـا كنت فى غيبة عند توزيع الأقسام) ص ٥٨ •

وراء هذه المناجاة المثل المصرى الشعبى الساخر (الغايب مالوش نايب) •

أقول هـذا بمناسبة موقفه من أساليب مستحدثة تسوؤه • إن الأسلوب فى رأيه أحـد اثنين :

١ — إما أسلوب عربى •

٢ — أو أسلوب أعجمى وهذا الأخير ينقسم بدوره إلى قسمين :

* أعجمى ملتو أى عباسى ملتو ٠

* أعجمى سخيف يقلد الأسلوب الأوربى مع الفارق الذى يضم كل ما بين الشرق والغرب من فروق ٠

وغير هذا أو ذاك الأسلوب العربى الأصيل فهو بسيط سهل مباشر ، تشهد به معلقة امرىء القيس ٠

ألا أيها الليل الطويل ألا انجـل بصبح وما الإصباح منك بأمثـل
أفاطم مهلا بعض هـذا التـدلل وإن كنت أزمعـت صرمى فأجملى
أغـــرك منى أن حبـــك قاتلى وأنك مهما تأمـرى القلب يفعـل

خطوط مستقيمة لا عوج فيها ولا التواء ٠

إن البلاغة هى ترجمـة المشاعر بالصور ٠ الفرق بين الأدب والسوق هو أن الأدب وسيلة إلى التعبير بالصور الملونة الحية حين ينهال كلام السوق بلا فن بلا ٠٠ لون ٠٠ بلا لمسات تعلن عن ذوق صاحبه ٠

* * *

والقصة عند فريد أبو حديد تنبع من إعجاب كبير بشخصية تاريخية ، أو عيش طويل فى عصر تاريخى يملأ نفسه ويشبع حواسه ، أو تنبع من واقع نفسى يأخذ عليه طريقه فيتنفس فى وقائع التاريخ أو أحداث الحياة ٠

أمـا المواقف فهـو يتركها تخلق نفسها بنفسها ، يتركها لأشخاص قصصه يحددونها فيتحركون ويعبرون بلا ضغط منه كما أشرنا ٠

وهو كاتب هادف فالقصة عنده تنفيس عن أزمة أو تصوير لمشـكلة أو دعوة إلى شىء ٠٠٠ القصة عنده وراءها فكرة وأمامها غاية ولها مغزى قد يستغلق حينا ولكن ما يلبث الواقع أن يفسرها بأحداثه ٠٠٠ فعندما طغت الملكية فى مصر وأعوانها من استعمار واقطاع ٠٠٠ واستشرى الفساد كتب

قصته (جحا فى جامبولاد) و (وجحا فى ماهوش) • والقصتان يجمعهما كتابه (آلام جحا) •

سأله أناس فى حينـه ، أين جامبولاد ؟ أين ماهوش ؟ فكان يجيبهم ساخراً : اسألوا بتوع الجغرافيا •

إن جامبولاد هى مصر وماهوش هى مصر • لتقـع جامبولاد فى أى ركن أو بقعة من خريطة الدنيا ما دامت تؤدى دورها فى الكتابة عن مصر •

* * *

وهذا الكتاب من خير كتبه عندى إن لم يكن خيرها جميعاً حتى ليجدر بنا أن نقف عنده وقفة طويلة •

فقد حمل الكتاب من القيم والمفاهيم والدعوات الجادة ما يشـكل مادة خصبة للدراسة والفن •

وقد بث الكاتب فى غضون هـذا الكتاب كثيراً من آرائه فى الأدب والمجتمع والحكم والحياة والناس •

ففى (آلام جحا) يسخر أديبنا فريد أبو حديد من الأدعياء •• أدعياء الأدب والشعر « فأديب القصة » عجيب (عرف بالنبوع فى الأدب بين لداته وتمكن منه الوهم فاعتقد أن الله قد **وهب له من فضله ما لم يهبه لسواه** • وجعل يسألنى عن أسماء شياطين الشعراء ليختـار له واحـداً من بينهم ظريف الاسم كريم السابقة •

وكثيراً ما أفضى إلىّ بأمله فى **أن يكون كبير الأدباء فى جيله فتأخذنى** الشفقة عليه فأهز رأسى صامتا • فليمض كما شاء الله ولا حيلة فى صرفه عن

وهمه ، والزمن وحده كفيل بحل مشكلات الحياة . إن تيار الحياة يحمل الإنسان فى سبيله كما يريد هو ، لا كما يريد الإنسان . ولا عجب إذا كان ابنى يصبح كبير الأدباء فى عصره فإنى رأيت العصر يسير من فساد إلى فساد . ولعل هذا الأدب الممسوخ يكون فى عصره آية الإبداع فى أنظار أهله) . « آلام جحا » .

ولشد ما ينغص الأديب تطفل الأدعياء على مائدة الأدب . فالأدب مطمح كل هاو . لهذا ثار جحا عندما تبين رغبة ولده فى أن يكون أديباً (إن كل صناعة أخرى وكل تجارة غير هذه المهنة أجدى على أى شاب يريد أن يحيا . فليكن طبيبا إذا شاء أو حجاماً أو منجما ، فلن يزاحمه فى صناعته إلا من كان له شىء من العلم بصناعته . فالناس يفتحون أعينهم ويسألون عن الطبيب قبل أن يسلموا إليه أبدانهم للعلاج ، ويسألون عن الحجام قبل أن يأذنوا له بأن يسيل الدم من عروقهم ، ويسألون عن المنجم قبل أن يعطوه أجره على تضليلهم . أو فليكن فقيها فإنها تجارة رابحة ولن يزاحمه فيها إلا من كابد مشقة الحفظ وأعمى عينيه من طول القراءة ، أو فليكن خبازا فالناس لا يتدسسون بين الخبازين إذا لم يكونوا قادرين فى صناعة الرغيف . فليكن أى شىء من هذا أو غير هذا لأنه عند ذلك يصير صاحب حرفة محدودة معروفة ، لها قيود وفيها أسرار تمنعها عن الدخيل وتحميها من الدعى . (ولكن لا يبلغن به السفه أن يدخل برجليه الى تلك الرملة الخوانة التى يسمونها صناعة الأدب) « آلام جحا » ص ٢٨ — ٢٩ .

والأديب مغبون دائما فأديبنا يعرفه متسائلا : (من هو الأديب ؟ هو الرجل الذى لا يملك من حطام الحياة شيئا) . (ص ٧٨) .

❋ ❋ ❋

ويسخر من الرمزية المغرقة التى سادت فترة من فترات العصر الحديث فجحا يستغيث **مما يقذفه** على رأسه ابنه « عجيب » من عبارات

هؤلاء البائسين (فهو يتغنى بالضوء الذى يداعب أعطاف السماء وبالنشوة التى تتمشى فى الظـلال الناعمـة ، وبالسحر الذى يتموج فوق مجـالى النبضات اللانهائية) « ص ٢٥ — ٢٦ » •

***

ويسخر الأستاذ فريد أبو حـديد من التشـدق والتقعر أو الـذى يسمونه فى اللغة الفصحى : المعاظلة • فيرسم صورة لابن جحا يودعهـا رأيه فى هذا الصنف من الكتاب • (على أن ولـدى قد فهـم من الأدب القشور وغاب عنه اللباب • رأيته يوما يشترى معجما ثم رأيتـه يقبل عليه كلما وجد فراغا فيحفظ من ألفاظه كل ما شذ واستعجم • وتعـود بعد ذلك أن يستعمل تلك الألفاظ فى كتابته وحديثه • وولع بعبارات يجمعها فى قراءته من كل ما هب ودب من كتب هؤلاء المساكين المخـدوعين الذين يحسبون أن الأدب لا يزيد على طمس المعـانى والقـاء الألفاظ سـحبا سوداء عليها تجعلها غامضة مبهمة • فاذا قرأ القارىء مثل هذه الكتب ولم يدرك منها معنى فلا يسعه الا أن يتهم نفسه ويسىء الظـن بفهمه ويدفعه اليأس الى أن يقـول مع القائلين ان هؤلاء الكتاب من نوابـغ الأدب) « ص ٢٥ آلام جحا » •

لشد ما يذكرنى هـذا الكلام بالرافعى وسحابه الأحمر ••••

وفى **مجال السخرية من التقعر** يسوق أديبنا هـذه القصـة الطريفة فقد سقط ابن جحا فى البحر فأخـذ يصيح :

— **الوهس •• الوهس** الوحى الوحى الجدار المتملس يحـاور كفى وسراب الماء يداعب أنفاسى والهلاك **المشمخر** يراود **أجلى** •

يقول جحا : (وكان يريد الاستمرار فخشيت عليه وصحت به) :

— اخرس ، ما هـذا الوهس وما هـذا الوحى ؟ وما ذلك الـذى يداعب ويراود ويحاور ؟

فرفع رأسه نحوى وقال متحديا :

لقد رأيت الوهس قبل سقوطى فى البئر ومعناه الجـرى السريع • وأما الوحى فمعناه العجل وأما الجدار المتملس الذى يداعب يـدى فهى عبارة رائعة نقلتها عن الأديب الكبير وأراد المضى فى قوله فصحت بـه مرة ثانية :

— دع هذا وقل لى أين الحبل الذى كان هنا على بكرة البئر ؟

فقال فى انكسار :

— هو الذى انقطع بى وأهوانى فى ثبج الـ •

فقاطعته قائلا : قلت لك اخرس ••

وتمضى القصة كقصة ذلك التركى الـذى أصر على شـق البطيخة بالمقص لا بالسكين حتى إذا قذف فى البحر جزاء عناده الجاهل الأحمق ، غاص فى طريقه الى القاع السحيق ولكنه قبل أن يهوى لم يبق منه على صفحة الماء إلا أصبعان تتحركان حركة المقص •

* * *

ورأى الاستاذ (فريد أبو حديـد) فى الشعر الجديد من خلال قصة جحا إنه شىء لا معنى فيه ولا وزن له • ووالله لو كان ذلك شعرا لا ستطاعت كل عنز فى حقول ما هوش أن تكون شاعرة •

ولم تقتصر سخرية الكاتب على الشعر الجديد وحده بل سخر أيضا من شعر المـديح فقـد كان تيمور كما وصفه جحا على الأقل له جبهة (ناتئة وحاجبان مائلان صعدا وفمه أشدق يكاد اللعاب يسيل من جانبه حتى إن جحا وقف ينظر اليه ويعجب من قدرة الله الذى جعل هذا سيدا للناس وما بى حاجة إلى المقارنة بين حقيقته ومدحه فجحا أيضـاً كفانى مئونتها بوصفه الشعراء هذه المرة • كان منظرهم فى الحق مسليا ، إذ كانوا

يتمايلون ويهتزون ، وينظر كل منهم بمؤخر عينيه إلى الناس لقى أثر قوله فى الوجوه •• مساكين هؤلاء ؟ جعلت كلما سمعت من أحدهم معنى أتأمله لأرى صدقه فاذا سمعت وصف جمال تيمور نظرت إلى وجهه •• وإذا سمعت وصف قوته صوبت بصرى فى جسمه وصعدته ، وإذا سمعت وصف سيفه ورمحه التفت اليه لأرى هل معه من ذلك آلة ، فلم أجد من كل ذلك إلا كذبا وفرغ الشعر وهز تيمور رأسه مرتاحا وأذن للشعراء أن ينصرفوا ثم أشار إلى رجل قائم عند رأسه فانصرف وراءهم ولا أدرى بما أمره أبعقابهم على الكذب أم بثوابهم على الرياء •• **ولأمثال تيمور حرص على مثل هذه الأقوال المنمقة والصور المخترعة فهى تستقر فى العقول فلا يزعزعها من بعد شىء** •• ومثل هذه قد زيفت على الناس معنى العظمة ، وأفسدت معنى الكرم والعدالة ، وجعلت من العقلاء الأبرار عبيدا فى الأغلال • وليست هذه أول مرة رأيت فيها أثر الألفاظ فى الناس ، فقديما كان الإنسان أسيرها) ص ١٦٦ •

سخرية من الدعاية التى تظل تكذب حتى تصدق نفسها ثم يصدقها الناس أو بعضهم على الأقل • وكم سخر من الدعاية فى مواطن متفرقة من الكتاب • الدعاية التى تصنع من الحبة قبة والناس •• الناس قلما نجد فيهم من ينظر بعينيه بل يسيرون على هدى آذانهم (اقرأ ص ١١٧) الدعاية التى تشيع الكراهية بين أناس لم ير بعضهم بعضا (اقرأ ص ١١١)•

والحق أن تيمور كان ذكيا — ولعلها الصفة التى لم ينتبه اليها الشعراء البلغاء — فقد طلب إلى جحا أن يعرفه حقيقة قدره فأجابه الشيخ الحكيم بعد تردد : **(لا تصدق حرفا واحدا مما يقوله هؤلاء الذين يمدحونك فإنهم إنما يبيعون لك سلعة يعرفون أنك تحبها)** (ص ١٦٩) •

إن جحا فى حضرة تيمور يذكرنا بالأحنف فى مجلس معاوية •• كلاهما كان رجلا •

❋ ❋ ❋

فى الكتاب ألوان من السخرية ..

سخرية من مجتمع **الوظائف** الذى يضع (الأذناب فى القمة) (ص ١١٢)

سخرية من **الشارات** التى ترمز إلى الهيل والهيلمان كعمامة تيمور (ص ١١٢)

سخرية من **الرقابة** التى تعد الأنفاس والخطى .

سخرية من **الأزياء الرسمية**

سخرية من **المناصب** فحين عرضت على جحا الوزارة كرثه الهم .

وفى هذه الصورة سخرية ممن يفرحون بالمناصب ويرون فيها مغنما غافلين عن أوزار العمال وأثقال المظالم التى ترتكب باسم الوزير أو الكبير ..

سخرية من **صاحب الأعلام الخمسين** التى تطيح كلمة منه بالرءوس عن الأجساد .

سخرية من **الأحكام** فقد أدرك جحا (أن أقسى القضاة فى إيقاع حد الخمر من ذاق لذتها وأحس سورتها) « ص ١٣٠ » .

سخرية من التمسح بذوى النفوذ والوقوف بالأعتاب .

سخرية من الجبروت ومن عباد الطاغوت .

سخرية من **الذهب المطمور** وأصحابه فإن قدورهم المختومة التى فى باطنها الذهب لا تزيد على قدور مملوءة بالرمل أو الطين مادامت مقفلة) (ص ١١٦) ومع هذا فهى عند أصحابها أعز من الولد وأحب من الوطن (اقرأ ص ١٧٢) .

سخرية من **أبطال الحروب** الذين هم أفقر الناس إلى السلام .

سخريـــة من أصحـــاب الفلسفات والمبادىء التى تنبع مبادئهم من فشلهم وقلة حيلتهم •• فلسفة الحنق التى كشفها المثـــل الشعبى بذكائه وفكاهته حين قال (قصر ديل يا أزعر) —

سخرية من شيخ ممن (يعتقد النـــاس فيـــه فكانوا يذهبون إليـــه طلباً للبركة وإن لم يأخذوا علماً (ص ٣٦) •

وكم بين المتمسحين بالدين من أعـــداء للشرفاء • إن الـــدين وأهله منهم برآء ولكن •• البسطاء يقبلون يدهم التماساً للبركة ، ياللسخرية •

فى الكتاب سخرية عامة **من المشيخة والرموز والاشارات والكرامات فإن** جحا حين اعتقدوا فيه الولاية والكرامة أراد انقاذهم من فتنة لا يعلم غير الله مداها فتعمد أن يظهر فيهم ببعض ما يكره ويعلن ما ينكر لعلهم يدركون أنه بشر يـــزل ويخطىء فإذا اجتهـــد فإنه إنســـان ضعيف واذا علمهـــم فهو مثلهم بشر سخيف ولكنهم (كانوا يرون آثامه تجليا وحماقاته رموزاً) (ص ١٧٥) •

سخرية من شقاء الشقى الذى يكدح ولا ينال •• ومن حظ الغنى الذى يظفر وما سعى • إنها ضريبة يدفعها البلهاء المجهودون ليتفضل بقبـــولها السفهاء العاطلون •

سخرية من حقارة الـــذين يساومون صغار الباعة وفقراءهم على ما لا يســـاوى درهما •• على ليمـــونة •

سخرية من الحفلات الخيرية التى تتبارى فيها المظاهر لا الأعمال الخـــيرية •

قصة جحا مع القاضى والإوز سخريـــة من صداقة بعض الأصدقاء وحكمة بعض الحكماء (اقرأ ص ٦٠ — ٦١) •

سخرية من القلب الانسانى نفســه ذلك القلب الذى يلوّن الأشياء والصفات والناس بالألوان التى يريدها وفقاً لحالته التى يكون عليها من السخط والرضا والكره والحب .. فابنة السلطان التى عاش جحا عمره يتغنى بجمالها مطمحا غالباً بعيد المنال تبدلت فجأة فى عينــه حتى لكأنها مسخ من الخلق ، حين كان قلبه مفتونا بأخرى يخلع عليها ألوانه السحرية وكان أن اعتذر جحا عن الزواج من ابنة السلطان .

سخرية من الخوف فجحا يريد أن يشترى الطعام بالثمن أو بالمقايضة فيعز عليــه فاذا أقبل (صاحب الريشــة) سارع الناس فحملوا اليه الطعام أحمالا ناء بها ظهر جحا . وهــكذا يساقون بالعصا أما الــذى يتلطف معهم ويتلمس الوســيلة إلى مداخــل نفوسهم لا يبــوء منهم إلا بالخسران . ومن هنا جاء المثل المصرى الشعبى (فلان على راسه ريشة).

وتجربة جحا فى الأسواق سخرية من أخــلاق الناس الذين يخافون ولا يستحون . ويفسر له صاحبه (على رأسه ريشة) هذا بقوله : (من أراد صلاح قوم أخافهم) .

منطق الحكم المطلق وهو منطق يرى فيه الاستاذ فريد أبو حديد غير قليل من الصواب ثم ما يلبث أن يفلسف هذا المنطق (فقد خلق الله فى الإنسان غرائز كثيرة **والخوف من أعجبها أسرارا** . فهو يتشكل فى شتى المظاهر كما يتصور الجنى فى صور الإنسان والحيوان . فالخوف يتخذ حينا شكل الحب ، وقد يتخذ شكل الإجلال أو الولاء أو الأدب . وهو يحمل كل هذه الأسماء مع أنه ليس فى الحقيقة سوى الخوف . ولكن هذا الخوف لا يطغى على الطباع إلا إذا انعدم الحب الصحيح . والخير كله لا يكون إلا فى الحب ، ولا تكون الكرامة ولا الصلاح ولا الإنسانية إلا فى المحبة). (ص ١٩)

ولعل هذا من أروع ماجاء فى الكتاب من قيم .

* * *

وكم من صور فكهة رسمها جحا الساخر لعل من أطرفها صورته حين تظاهر بالموت ، ليفضح رياء الناس • ليقوم بعملية تعرية للأحياء • فالزوجة التى أذاقته الهوان فى حياته كانت تصيح قائلة (ياسبعى الخ) •ألوان من السخرية • سخرية من تكريم العظماء بعد موتهم حين لا ينفع التكريم ، وجحودهم فى حياتهم حتى لا تشفع لهم عظمـة • سخرية من مشيعى الجنـازات •

سخرية من الأتراك أصـحاب القلانس العاليـة ، الذين يحسنون الانتفاش فى ملابسـهم الزاهية •

إنهم مؤدبون ومن أدبهم أنهم يعتذرون للقتيل قبل ذبحه ! ياللرحمة ياللأدب (ص ٧٧ ـــ ٨٠) •

* * *

حتى الطموح والجرى سخر منهما المؤلف فى حديث جحا عن القمم الساحرة •• الساحرة التى ما إن بلغها جحا بعد طول تشوف وتلهف وتمن حتى سقط من الإعياء وخانته أنفاسه ثم كادت الخيبة تقتله إذ تلفت حوله فلم ير إلا صخوراً مثل الصخور وكهوفاً مثل الكهوف تمامـا كما مر فى صعوده • وكانت القمة جرداء صماء كالحة باردة فسأل نفسه أين البهاء والرونق ؟ وأين الألوان الزاهية والأضواء الباهرة ••• أين ابتسامة القمم الساحرة ؟

* * *

وفى الكتاب نقـد اجتماعى وتاريخى ففى جانبولاد (رسم السادة خطتهم على أن يجعلوا الذهب وقفا عليهم ، فكانت النتيجة أن الـذكاء والعلم والأدب والخير والفضل لم يصبها منه شىء ، إذ لم تجعل لهـا قيمة فى خطتهم المرسومة) •

ومن وراء نقـد مقاييس المجتمع الخاطئة فى تقدير الناس حسب (ذهبهم) ، ينفذ رجل الأدب ورجل التعليم فريد أبو حديـد إلى تقييم

حقيقى للقدرات والمواهب والأعمال سخر من خلال بيئته الوظيفية وسخر فيه رجل التاريخ من الدولة الأموية والدولة العباسية معا . (جعلت لإطعام الفقير وزن حبة من الرمل ، ولعيادة المريض وزن حصاة صغيرة ، فإن هذه من الواجبات التى لا ينبغى لأحد أن يطالب عليها الأجر . وجعلت لكتابة رسالة فى الأخلاق وزن حصاة كبيرة ، ولكتابة رسالة فى التاريخ وزن درهم لأنه سجل الأمم وهو يعلم الناس أن الحياة تفنى ولا يبقى على الدهر إلا الخير ، وأن الظلم مرتعه وخيم ، وأن العسف لا يقيم الدول إلا الى حين . وجعلت لكتابة القصة وزن أقة لأن القصة لا يقــدر عليها إلا من وهب الله له من فضله . ولم يكن فى تقــديرى مبالغة فإن الخلفاء العظماء كانوا فيما مضى يجيزون الشعراء بمئات الألوف من الدراهم على أبيات فى المدح الكاذب أو فى وصف الخمر واللهو .فإذا أنا جعلت للقصة وزن أقــة واحدة من الذهب ، لم أكن مغالياً . وجعلت لتعليم الناس قدراً كاملة — نعم ، قدراً كاملة فالتعليم يطهر النفوس ، ويبنى أساس المستقبل ويفهم الناس معنى الانسانية . فإذا خرّج المعلم رجلا كاملا أضاف إلى الأمة ثروة لا تقدر بمال . وما كنت لأبخس التعليم حقه وأنا أعرف قيمته ، ولن يضيرنى أن تيمور وطلبة جانبولاد لا يعرفون له قدره . فإن الحقائق لا يستطيع إدراكها إلا من يسمو بذكائه الى المعانى العليا)« ص ١٤٤ — ١٤٥ » .

وفى **الكتاب طرقات كطرقات** المعاول فالدمع الــذى يثور فى العــين مرة لا يضيع سدى ، واليد التى تمتــد فتغنى وإن لم يكن فيها شىء من الذهب ، والكلمة الطيبة يجود بها القلب فتغذى الروح ولا يقاس بهــا عطاء من فضلات الغنى ، والمساكين المتعطشون إلى الكلمة الطيبة .

وكسدت تجارة جحا الــذى إختار السجاد العجمى سلعة لنفاستــه ونظافته فلا يأنف الحس منــه وجمــاله الذى يرتاح الذوق إليــه ، أو

لا يتعفف عنه أصحاب المروءة ولا يشتريه الا العظماء ولكن (**العظماء قليلون** وقد فسد الزمان وضاعت بين الناس قيم الفنون) ص ٥٦ ٠

***

وفى الكتاب **نماذج بشرية** فالشيخ جمال الدين يمثل أنانية الانسان التى تبلغ أحياناً حد الوقاحة وقـد تتجاوز المـدى فتصير لؤمـاً وخبثا يتنافس فيه الشيخ جمال الدين والشيخ عمـاد الدين ، والناس الذين يصطنعون الزهد فى لحم الثور ويختلقون الأسباب حتى إذا أباحه لهم جحا بلا مقابل تهافتوا عليه وطاب لهم ٠

وفى الكتاب ضحكة حزينة من (صمت العارفين) ذلك الصمت الثقيل الذى رأى جحا عذاب الجحيم أهون منه ٠

ولكن جحا الفيلسوف لا يترك هذه الظاهرة فى (جانبولاد) بـدون تحليل ٠ إن الباعة فى « جانبولاد » رجال (يستطيع أحـدهم إذا شاء أن يـدير ساقية بزنده ، ولكنهم كانوا لا يحملون من السلع إلا يسيراً لا يزيد ثمنه على دريهمات ٠ ففهمت عند ذلك السر الخفى ٠ فهمت كيف يرضى العامة فى جانبولاد بأن يقيموا فيها خاضعين ، ويضعوا ألسنتهم داخل أفواههم ٠ فليس بهم من حاجة إلى الكلام لأنهم فى شغل عن ذلك بهم اقتناص الرزق الضئيل) ص ١١٥ ٠

وفى الكتاب حديث عن ألوان الحكم يغالى خاصة بحكم الفلاسـفة مما يذكرنا بجمهورية أفلاطون (فإن الفلاسفة يعرفون ضعف البشرية وهـذا يكفل لحكمهم الرحمة ، ويعرفون كرامة الإنسان ، وهـذا يكفل التطلع والتسامى ، ويعرفون معنى الفناء وهـذا يكفل لهم الاعتدال) ٠ ص ١٧٦ ٠

ويبـدو أن الأستاذ « فريد أبو حديد » قاسى من ضغط ناء به فى حياته الوظيفية فجعل يقول « إن الطغاة لا تعوزهم الحجج إذا شاءوا

التماسها . ويا ليتهم إذا إرادوا البطش اتجهوا اليه كما يتجه الضبع الى فريسته مكشراً صريحا لا يعرف مواربة ولا ريـاء ، ليتهم يفعلون ذلك فيبلغون العذر لأن هذا هو قانون الغابة ، ولا بأس فيه على القوى إذا سطا بالضعيف . ولكنهم يأبون إلا أن يتستروا وراء ما يقيمون من القواعد ويسمون ذلك عـدلا » ص ١٤٩ .

ثم ما يلبث أن يقول : « أيها الأشقياء إذا اطلعتم على ما فى قلوب الطغاة وهم يدوسونكم بأقدامهم لسركم ما تطلعون عليه . **إنهم يخشونكم وأنتم صرعى ويعرفون ضعفهم وقوتكم » ص ١٥٣ .**

***

لقد كتب الأستاذ فريد أبو حديد « آلام جحا » وهو مأزوم فهو يتنفس من حين لآخر . فمرة يثنى على « حماره » الذى يسميه « البطل الصامت » ويعده أكرم من « كثير من هؤلاء الذين يحملونه أحمالهم ولا يتورعون عن إلحاق الأذى به ضرباً ووخزا وشتما » ص ٣٥ .

ومرة يقول « ما أشد ضيقى بالحياة فى ماهوش وطنى ، فإنى لم أجد حولى فيه إلا جشعاً وظلماً . ولكنى أرحم هؤلاء الـذين يظلمونى فإنهم جديرون بالرثاء . وأى قيمة للحياة إذا هى خلت من الكرم والإيثار والمحبة والصدق ؟ إن الذين يفقدون هذه الخلال لا تبقى لهم فى الحياة فضلة تستحق الحياة ولكنى مع هـذا قـد كدت — أضيق بالحيـاة فى ماهوش » ص ٥٠ .

***

وبهـذه المناسبة أقول إن ماهوش فى « آلام جحا » هى مصر . مصر . إن ماهوش هى مصر ذات النهر الذى تخفق له قلوب الموتى بله الأحياء . وقصة جحا مع صاحب البستان قصـة الكثيرين فى مصر ذات

« البساتين » الفسيحة التى تمتد إلى مدى البصر عن يمين وشمال وفيها من كل فاكهة ومن كل بقلة » ص ٦٨ .

وأهل ماهوش هم أهــل مصر « هم إذا حزنوا غنوا ، وإذا فرحوا غنوا ، وإذا باعوا أو اشتروا غنوا ، كل من أراد أن يعرض سلعة جعل عرضها غناء ، وكل من أراد نداء جعل نداءه غناء » ص ٦٠ .

وأبو النور صديق جحا مصرى أيضاً . إنه طيب ، كريم ، يعطى بلا مَنّ بل يحدث أحياناً أن يبدى نبلُه ، اليد السفلى ، هى المتفضلة .

إن مصر تطل باسمة من خلال سطور وصفه لماهوش . إنها هى الجنة الخضراء التى تبسم دائماً للصباح إذ تلقى عليهــا الشمس أول شعاعها الذهبى ، ورأيت سماءها والسحب تزخرف أطرافها بنسيج سحرى من الفضة والذهب واللؤلؤ والياقوت . هذه السماء هى التى ملأت قلبى تسبيحاً وعلمتنى من المعانى ما تعجز عنه كتب الفلاسفة ومباحث العلماء . وألقيت نظرى على « نهر ماهوش » — أرأيت — إذ تنحــدر إليــه الجــداول الصافية ، تتدفق من عيون رائعة باردة تنبع من قمــة الربوة ثم تسير فى جداولها التى تلمع فى مجاريها الحصباء كأنها الدرر انفرطت من عقود الحسان .

هذه ماهوش لــذة العين وبهجــة القلب وشــفاء الصدر أغادرها وأهاجر منها لأضرب فى الآفاق فناديت من أعماق قلبى « يانفس تجلدى وياعين اغمضى ويافؤاد التمس النسيان » ص ٧٦ .

إنها مصر التى لا يستطيع فراقها أحــد إلا مغمض العينين اذ لا يقوى على الفراق .

إنها مصر التى نسيته زمناً وهو مع النسيان « يستقبل السماء فى الصباح والمساء من أجلها بدعائه » .

إنه النيل الذى « تحقق له قلوب الموتى بله الأحياء » .

يارب السماء ، احفظ لنا مصر ناسية وذاكرة ، جاحدة — وماجدت — أو وافية فإنها وطنى • ومعبدى •••

***

وفريد أبو حديد إذا فرغ من حديث جحا فى ماهوش انتقل إلى « جانبولاد » • وجانبولاد أيضا هى مصر •• إن مصر تملأ عليه نفسه • وإلا فهل هذا الوصف لغير أهل مصر ؟ إن الأهل « جانبولاد » عادة فى تسمية حكامهم أسماء يخترعونها أو يحرفونها عن أسمائهم أو يفيضون عليها بعض أفاويه من فكاهتهم • وأهل جانبولاد من أحلى الناس فكاهة وهذا مما حببهم إلىّ (فالفكاهة أولى علامات الإنسانية • وهم يجدون فى فكاهتهم ترفيها كثيراً مما يعانون من مشقات الحياة • وخواص جانبولاد لا يخشون من عامتها شيئا هو أشد عليهم من هذه الفكاهة الحلوة اللاذعة) ص ١٠٢ •

ما من شك أن جحا فى ماهوش وفى جانبولاد إنما هو كاتبنا فريد أبو حديد فى مصر • ولكن الشدة الطاحنة التى مر بها والتى أخرجت هذه النفثات ما لبثت أن انفرجت فتسمحت نفسه وانتهت إلى فلسفة فى الحياة مريحة (لست ممن يتلمس العيوب أو يعد السقطات • علمتنى الحياة أن آخذ الناس كما أراهم ، فهكذا! خلقهم الله وهكذا أراد أن يعيشوا • إنهم من طين الأرض لا يستطيعون أن يكونوا من ملائك السماء • وما أحرانا إذا رأينا العيوب أن يزيد عطفنا على أصحابها ورثاؤنا لهم ، لأننا من البشر نحس ثقل الطين فى طبعنا • وأكرم ما يستطيعه إنسان أن يملأ قلبه بالعطف على المخطىء والآثم لأن هؤلاء أحوج إخوانه فى البشرية إلى عطفه • ومع هذا كله فالحسن والقبح أمران يتوقفان على تقدير كل فرد ، وقد يكون الشىء حسنا فى عين إنسان فإذا به نهاية القبح فى عين إنسان آخر) ص ١٠٤ •

إن عزلة الإنسان عملية تعرية للناس فجحا حين لاذ بالشجرة واتخذ مجلسه فوقها امتلأ صـدره بعيوب غيره (إذ كنت أرى الناس يمرون تحتى وهم لا يفطنون إلى وجودى ، فيظهرون ما يبالغون فى إخفائـه عن العيون ولا يتحرجون من كشف خلجات الضمائر) ص ٥٠ .

ولكن العزلة ككل شىء لها وجه آخر مشرق فقـد تنتهى بصاحبها إلى فلسفة الرضا بالواقع والتسامح معه « فقد خرجت من كل ما رأيته وأنا فوق الشجرة على حقيقة واحدة ، هى أن الإنسان جدير بالرثاء ، وليس فى ذنوب الناس ما يستحق العقاب .

لقد بدا لى وأنا فوق الشجرة أن الله خالق هذه الأكوان العظيمة لن يضيق بالعفو ولن يكبر على رحمته ذنب) ص ٥٠

* * *

وتتفاءل فلسـفته فيهيب بالأشقياء من بنى الانسـان أن يلتمسوا الضحك كلمـا أحسـوا بالرغبـة فى البكاء (التمسـوا الضحك كلمـا شعرتم بدبيب البأس بين ضلوعكم ، فإن اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع) ص ٩٦ .

ولكن جحا ، ساخطاً وراضياً ، فنـان أصيل تستولى عليه الحديقة فينقل طرفه من عـود إلى عـود ومن زهرة إلى زهرة ويجـد فى تأمل المخلوقات عبادة أسمى من كل عبادة . فنان بالاحساس والتعبير تستوقفه قناة تخرج من ثنايا الكهف (فيها ماء صاف كأنه بللور مذاب ، ينسـاب جارياً وهو يغنى بخرير يلذ للأسماع خافت يشبه التهافت بالضحك فى مزاح العذارى . وكان يهبط إلى حوض من الصخر مهشم مصقول يلمع النور فوقه فإذا هو يبدو أخضر مثل قطعة من الزبرجد من أثر ما عليـه من الطحلب الدقيق) .

وهنا ينسى جحا جوعه ويدندن بالغناء وقد اشتمله المنظر البديع (من خرير الماء منساباً فى جداوله ، إلى ريح الزهر المشتعل فى خمائله الى لون الورد الناعس فى غلائله) ص ٨٥ ٠

جحا إنسان فنان حساس يرى السجادة الثمينة منسوجة من (حرارة الأرواح ونشوة الأمانى ويرى زهورها كأنها استمدت من أشعة الأصيل على أردية السحاب) ص ٥٤ ٠

جحا إنسان فيه ذكاء وفيه طيبة قد تتوسع فتصير سذاجه ٠ وهو عاطفى يلتصق بالأشياء ويصعب عليه الفراق ولو كان المفارق جدار ، أو سور متهدم ، أو ساقية تنوح بغير دموع ، أو مربط ثور أكل الناس لحمه ٠

جحا إنسان عطوف يحب الحيوان ويطعمه بيده ويداعب الأغنام كما يداعب ولده ٠ وهو إذا اشتراها فنان يرخص فيها الثمن ويرى أنه يعطى صاحب الشاة (حجر أصم ويأخذ منه حياة بديعة الخلق) ص ٥٦ ٠

فنان يرى فى البيضة البسيطة من جلال الخلقة وجمال الصورة وإبداع الهندسة ما لا يراه الناس ٠ نعم للبيضة فى عين جحا أقصد فى عين الفنان (هندسة عجيبة فى شكلها ، ورونق رائع فى جملتها ٠ ليس فى الأشياء ما يدخل الفرح على القلب مثل البيضة إذا وجدتها فى ركن بيت الدجاجة ، كأنها عند ذلك كنز من الجوهر) ص ٥٧ ٠

يبدو أن جحا كان مصريا ابن بلد ٠

جحا فنان يسمع حديث الصمت ويفهم لغة الدمع ويتفكه وهو يدمى ، ومن الفكاهة المصرية ما ينبع من قلب جريح ٠

***

وفى الكتاب سبحات صوفية ينتزع فيها الإنسان (روحه) من قمقم

الطين .. من الجسم الـذى يحبس روحه . سبحات تنطلق فيها الروح العملاقة فى رحاب الافق المضىء حيث يجلو النور ، الروح ، ويحل الحق فى كيان الإنسان فيملؤه قدسية .. هناك تهيم الروح وتكشف الغطاء عن الأسـرار وتتلبس بحقائق الأزل الأول فلا اللفظ لفظ ولا الحس حس (بل الكون أنا وأنا الكون) ص ١٢٠ .

ولعل هـذا يفسر نظرة جحا إلى الحب والصـداقة فهو إذا أحب واصطفى لا ينظر إلى الجسم أو الهيئة ولكن إلى الروح حتى الوصف يأتى عنده شفافا مضيئا معنويا فصديقه أبو النور (كالمـاء الصافى البارد إذا اشتـد الحر ، وكالنسيم البليل يمسح الجبين المحموم فى تواضع ، وهو كالنور يهدى ولا يصـدم هو روح وذكاء وخير ومواساة .. وهو يعطى من نفسه ولا يبدى ماينم عن أنه يعطى . عيناه الغائرتان تملؤهما الرحمة وصوته الخافت ينهض بالإخلاص حتى لحيته الخفيفة تبعث الثقة وتوحى بالصدق) ص ٤١ .

❋ ❋ ❋

وفى الكتاب صلاة للحرية التى هى أثمن من كل مال وأطيب من كل رزق فقد التقى جحا بالمـال فى (جانبولاد) وبعد حرمان طويل ولكنه ركله .. باعه بنسمة حرية فى (ماهوش) .

(لقد هاجرت من وطنى لأننى لم أجد فيه مكانا يرضينى ، ولأننى لم أجد فيه رزقاً يغنينى ولكنى علمت بعد أن وجدت الرزق فى جانبولاد أن وطنى كان يمنحنى ما هو أثمن من كل مال وأطيب من كل رزق . الكرامة والحرية ، وهما لا يقومان بمادة هذه الحياة كلها فواحر قلباه) .

ثم يسترسل جحا الأبىّ ساخطا على الوطن الجديد (هذا البلد الذى لا كرامة فيه إلا لأصحاب الأعلام والريش والذى تحكمه القدور الملأى بالمعدن اللامع ... ولكن الذهب شىء والكرامة شىء آخر لا علاقة بين

هذه وذاك فالكرامة حق وهبة الله للناس منذ خلقهم ناسا • فاذا كانت جانبولاد تهب إلى القوت لكى تسلبنى هبة الله الثمينة فلا مقام لى فيها) ص ١١٨ •

* * *

وفى الكتاب قيم خلـق الأدب من أجلها وعاش بها فقصـة جحا مع تيمور الذى وعظه حتى انهلت مدامعه تأنيب للشـعوب التى تصنع من الأفراد العاديين طغاة بإيهامهم ، وتنمية غرورهم ، بالملق والرياء والمداهنة ولولا مصانعة الشعوب الجاهلة أو الساذجة لكان لها فى هؤلاء الأفراد أنفسهم خير كثير ، فهم فى دخيلة أنفسهم بشر فيهم رحمة وفيهم رقة وفيهم استعداد لتقبل النصيحة الصادقة لو وجـدوا من يسوقها إليهم بدلا من النفاق والمـدح الكاذب • ولكن الناس كما يقول جحا (لا يرضيهم إلا الإغراق والغلو ولو علموا الحق لعرفوا أن الله لم يخلق من البشر شياطين مردة ولا ملائكة بررة ، إن الله خلقنا بشراً نقارف الخـير والشر ويمتزج فينا الضعف والقوة • وما أجـدرنا أن نفيض بالحب والعفو وأن نعرف أننـا أبداً فقراء إلى الحب والعفو) •

وهو يسخر من الشعوب مرة أخرى أو من طبيعة الانسـان حين يقول بعد بضع صفحات :

(إن الناس لا يعرفون إلا العنف ولا يفهمون من الحاكم الا القوة والقسر • وهـم لا يخرجون عن أن يكونوا فى إحـدى حالتين إمـا أن يكونوا فرائس تتخذ طعاماً أو مفترسين يتخذون من غيرهم طعاماً ، ولقد حاولت أن أعلمهم ولكن التعليم لا يجدى إلا بعد أن يؤتى الثمار ويحرك القلوب ويفتح العقل ويهذب النفوس • وهيهات أن يكون ذلك إلا بعـد حين طويل • لقد حاول موسى أن يعلم قومه احتمال أعباء الحرية فأذاقوه مرارة الحنق والألم حتى فنى جيل منهم بعد جيل • ولا سبيل إلى استقامة

الحكم حتى يستعـد الناس لتحمل أمانة السلام والكرامة والعدل فى غير عنف ولا قهر) ص ١٧٩ •

* * *

هذه بعض انطباعاتى عن الكتاب • وتشاء المصادفة أن أطالع بعد أن فرغت من سطورى عن أستاذنا (فريد أبو حـديد) مجلة الكتاب العربى (العدد التاسع فبراير سنة ١٩٦٥) وفيها لقاء بين الأستاذ جمال بدران الذى يسأله :

ـ لو خيرت فى انتقاء كتاب من كتبك الكثيرة لتتناول عنه جائزة فأى كتاب تختار ؟

ويأتى الجواب هادئاً سمحاً ذكياً :

ـ لو سلمت بأنه من الممكن أن أختار كتاباً من مجموعة كتبى التى نلت عليها الجائزة التقديرية بعد أن نال نصيبه من التقدير فى هـذه الجائزة التقديرية الشاملة فإنى ـ نزولا على رغبتكم ـ أخص بالذكر كتاباً كان من أقل كتبى رواجاً وهو « آلام جحا » •

ترى هل كنت معه أنا أيضاً على موعد فى هذا الكتاب ؟

لقد امتنع أن يتحدث عنه إلا لمحًا تاركا (تفصيل ما يقصده) لمـن يهمه أن يقرأ الكتاب •

وها أناذا قد قرأت الكتاب وتحدثت عنه ، بـدلا منه فى لون من التفصيل : أتراني وعيت عنه (ما يقصده ؟) •• لعل •

وبعد •• فليست هـذه هى المرة الأولى التى تكرم فيها الـدولة الأستاذ (محمد فريد أبو حديد)

فقد نال محمـد فريد أبو حـديد جائزة الدولة عن كتابه (الوعاء المرمرى) سنة ١٩٥٢ كما أشرنا .

* * *

إن صاحب جائزة الأدب سنة ١٩٦٤ خليق بتقدير الأدب والتاريخ معا على مـر السنين وما أحقه بقولتـه فى أستاذ جليل هو شفيق غربال (بلغ ما بلغ من المـراتب فى الوظائف وهو باحث منقب فى أعماق الحياة والإنسان ..) (١) .

تحية للانسان .. الفنان (محمد فريد أبو حديد) .

---

(١) مجلة المجمع جـ ١٥ سنة ١٩٦٣ ص ١٥٤ .

أعماله الأدبية

مؤلفات :

- صحائف من حياة (قصة فى مذكرات يومية مثل فرتر) ١٩٢٤
- ابنة المملوك (قصة تاريخية تمثل نهضة الشعب المصرى بعد الحملة) ١٩٢٥
- مقتل سيدنا عثمان • ١٩٢٥
- ميسون الغجريه (أوبريت شعرية) ١٩٢٧
- صلاح الدين الأيوبى ١٩٣٠
- خسرو شيرين (تمثيلية من الشعر المرسل) ١٩٣٢
- سيرة عمر مكرم ١٩٣٧
- الملك الضليل ١٩٤٣
- جحا فى جانبولاد ١٩٤٣
- مع الزمان (مجموعة قصص تاريخية قصيرة) ١٩٤٤
- المهلهل سيد بنى ربيعة ١٩٤٤
- زنوبيا ١٩٤٤
- آلام جحا ١٩٤٤
- عهد الشيطان (تمثيلية) ١٩٤٥
- أبو الفوارس عنترة ١٩٤٧
- عمرون شاه ١٩٤٧
- كريم الدين البغدادى ١٩٤٧
- ازهار الشـــوك ١٩٥٠

— الوعاء المرمرى ١٩٥٢

— أنا الشعب ١٩٥٤

مترجمات :

— سهراب ورستم (ملحمة) ١٩١٨

— فتح العرب لمصر ١٩٣٢

— دعائم السلام ١٩٤٧

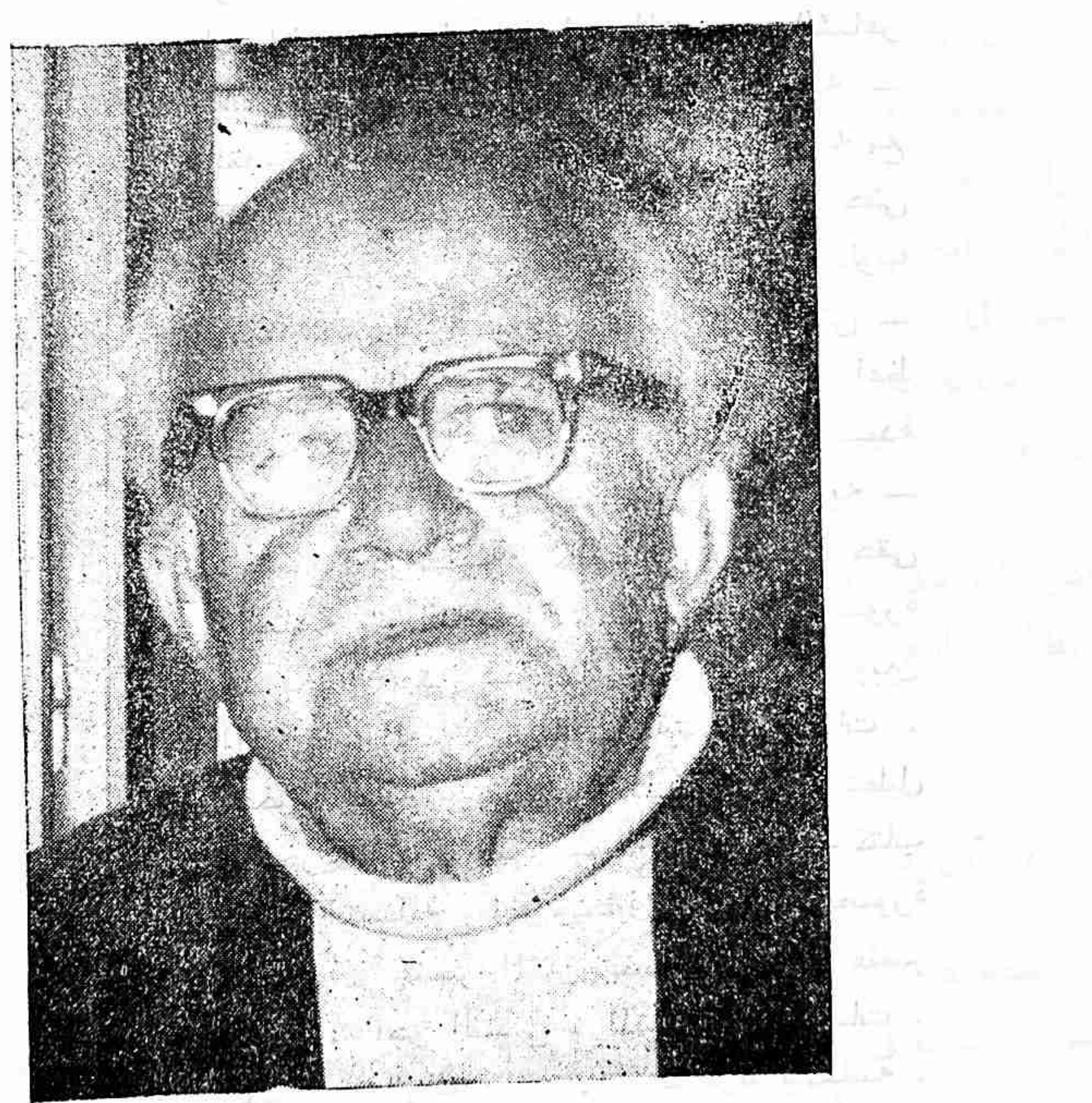
— آلة الزمان ١٩٤٨

— نبوءة المترجم ١٩٤٩

— فن التعليم ١٩٥٤

— ما كبث لشكسبير (شعر مرسل) ١٩٥٨

یحییٰ حقی



— شبه جزيرة المورة — أسرته — اشتغاله بالمحاماة — معاون الادارة — كتاب (خليها على الله) — انقلاب فى حياته — يحيى حقى فى السلك السياسى — يتعلم التركية — يتعلم الايطالية — وظائف بعد عودته من الخارج — الثقافة الغربية — قصة زواجه من فرنسية بعد مصرية — أثر الجبرتى فى حياته — امضاءات مستعارة — ابن المقفع — الشاعر اقبال — أناتول فرانس والقضية المصرية — القصة الروسية — اقصة الغربية — قصته مع اسرائيل — يحيى حقى والمازنى — يحيى حقى والحكيم — مقارنة غنية — الدعوة الى أسلوب محدد دقيق — الصعيد فى أدب يحيى حقى — صور : قطار الصعيد . وفاء النيل . واعظ القرية . الحان . المطحن . ميدان السيدة زينب — يحيى حقى الساحر — أسلوبه قصصه (دراسة وتحليل) — يحيى حقى والعامية — الناقد والمترجم — فن الصورة عند يحيى حقى — مقارنة أخرى بينه وبين المازنى . المصرية . الشعبية . تفشات . سخرية جادة — مفتاح شخصيته — تعليل السخرية عند الرجلين — فن التجسيم — كتاب فكرة وابتسامة . نقد وتحليل . عناصر الصورة عنده . عنصر المكان عنصر الزمن . عنصر اللون . الجو النفسى . المقابلة . المفارقات . الملمس . الرائحة . تعميق الخطوط بالعامية . السخرية . الحنان . الأشياء الصغيرة فى الحياة .

هناك فى شبه جزيرة المورة رجل لا يعرف ما إذا كان قد هاجر إليها من الأناضول أم أنه من أهلها فى الصميم ولكنه على كل حـال فكر فى الزماع فنهـد إلى مصر •• وفى مصر تولى إبراهيم حقى بعض الأعمال فى الحكومة حتى رقى إلى منصب وكيل مديرية البحيرة وفيها أنجب من البنين ثلاثة :

أولهم : محمد حقى وقـد تلقى هذا الابن دراسته الأولى فى الأزهر ثم انتقل منه إلى المـدارس الفرنسية ولم يقـدر له أن يتم تعليمه بها ولكنه بفضل دراسته فى الأزهر ظل يواصل قراءاته عاكفاً عليها •• كان يقرأ الكتب العربية القديمة كـديوان المتنبى ومقامات الحريرى • ومن الطريف أنه ذهب مرة للصلاة فإذا امام المسجد غائب وأقبل عليه الناس ليؤمهم فى الصلاة وكان مأزقاً فهو لم يتهيأ للخطابة وليس عنده ما يقوله • وفكر هنيهة ثم راح ينشد قصيدة للحريرى فدهش الناس منه وارتاحوا لـه •

ولكنْ لم يحـدث أن اشتغل بالتأليف أو الترجمة أو التحرير بل كان موظفاً بوزارة الأوقاف •



والابن الثانى

محمود طـه حقى وفيه تجلت النزعـة الأدبية فشارك فى تحرير بعض الصحف فى مقتبل عمره • وله قصة جيدة سماها « عذراء دنشواى » بلغ من قوتها أن تأثر بها يحيى حقى تأثراً شديداً بكى له • ولهـذا ظلت عقدة دنشواى من العقد الكبيرة فى نفسه ومكن لها عنده ما كانت تنشره (مجلة المجلات) التى كان يصدرها حسيب عن تنفيذ الأحكام •

وقد اشتغل منها محمود طه بالسياسة ولكنه أيضاً لم يتم تعليمه

وقد كتب قصصاً منها مجموعة (الغاديات الرائحات) مطبوعة . كما عالج القصة الطويلة كقصة (غادة حمان) التى طبعت أكثر من مرة وكتب للمسرح عدة مسرحيات مثلت . وهيأ له الجو طبيعة عمله فقد كان يشتغل سكرتيراً للفرقة القومية مع خليل مطران . ومن مسرحياته مسرحية فكاهية بالعربية الفصحى تحديا لمن يرى الفصحى غير صالحة للكتابة .. وكان يكتب فى الصحف تحت عنوان (بين جحا وابنه) . ويحيى حقى وإن كان قد حضره مراراً وهو يشتغل بكتابة هذه المسرحيات إلا أنه لم يتأثر تأثرا ما باتجاهه الأدبى أو مذهبه فى الكتابة فقد كان إحساسه به دائما أنه بقايا عهد لا بداية عهد وإن كان يذكر له أنه مهد له الطريق إلى لقاء شوقى . فقد كان بفضل اشتغاله بالسياسة واتصاله بالسراى فى وقت ما . له صلة وثيقة مكينه بالمرحوم أحمد شوقى الذى دعا مرة يحيى حقى إلى بيته وأطلعه على مسودة (أميرة الأندلس) زاعما أنه يريد رأيه فيها . وكان يحيى حقى فى ذلك الوقت قد بدأ يكتب القصة فنقد (أميرة الأندلس) . ولم يغضب شوقى على حساسيته الشديدة للنقد وإن كان يحيى ندم على ذلك .

* * *

أما الابن الثالث كامل حقى فلم تكن له صلة بالأدب ومن هؤلاء الأبناء الثلاثة للمهاجر التركى ينتمى يحيى حقى إلى الابن الأول محمد حقى وقد ولد يحيى بالقاهرة فى ١٩٠٥/١/٧ وقد تنقلت طفولته بين أحياء السيدة زينب والصليبة والحلمية الجديدة .

وكانت أمه (المرحومة سيدة حسين) من أبوين غير مصريين فان أمها ألبانية تزوجت من رجل من الأتراك المقيمين فى مصر كان يشغل وظيفة فى بندر المحمودية من أعمال البحيرة . وفى هذه المدينة التقت الاسرتان وتزوج أبوه من أمه . كما تزوجت خالته أيضاً فى هذه المدينة تاجراً وأنجبت منه ابنا صار فيما بعد (الافوكاتو العام) هو الأستاذ محمد

عبد الحميد السكرى • وله ميول شعرية ويكتب شعراً ينحو فيه منحى الاصلاح الاجتماعى والدينى ولكنه على كل حال شعر لم ينشر •

* * *

وكانت والدته تجيد القراءة والكتابة • كانت تقرأ القرآن والبخارى وكتب الأدب القديم • ولعل أسماء أولادها تصور مدى تأثرها بالكتاب الكريم وتيمنها به • فمن القرآن خلعت على أولادها هذه الأسماء إبراهيم ، اسماعيل ، يحيى ، زكريا ، موسى ، فاطمة ، فيحيى حقى شب فى بيئة لها بالأدب صلات حتى لتعد ظهور قصيدة لشوقى حدثا تلتقى عنده وتجتمع عليه •• كانت قصائد شوقى تحظى عند هذه الأسرة بالقراءة مرات وخاصة القصائد الوطنية كالقصيدة المشهورة :

سل يلدز ذات القصور هل جاءها نبأ البدور

حتى لقد وجد يحيى حقى نفسه سنة ١٩١٢ فى إبان الحرب البلقانية يقول شعرا بالطبع محاولات غير ناضجة ولكنها إن دلت على شىء فإنما تدل على انطباعات بيئة الطفولة عليه •

* * *

ومن الأصول الأدبية فى هذه الأسرة خال أبيه المرحوم حمزة فهمى •• كان رئيس القلم العربى بديوان الخديوى عباس • وكان يحب أن يعرف عنه أنه صاحب أسلوب فى أدب الرسائل فكان يجود فيها متأنقاً كما كان يتأنق فى ثيابه وحياته حتى ليرجح أن « شوقى » وكان صديقاً له إنما كان يعنيه أو يداعبه فى (شذور الذهب) بقوله أيها الشيخ المتصابى أنت كالضرس المحشو ذهب ولا عصب) •

ولحمزة فهمى رسالتان من انشائه ضمنهما • « الجواهرى » كتابه : (جواهر الأدب) • وهوى الأدب من هذه الأسرة أيضا إبراهيم حقى الأخ الأكبر ليحيى حقى وكان يكبره بسبع سنوات • استعلنت ميوله الأدبية

فى المكتبة الصغيرة التى كونها فى بيته من الكتب العربية والإنجليزية كما اشترك فى مراسلة صحيفة السفور زمنا • وكان له أسلوب تميز به سهل رشيق جديد •

كما كتب أخوه إسماعيل مرة مسرحية • ولم يخل البيت قط من مكتبة وقــراء •

* * *

ويحيى حقى فى طفولته عرف طريقه إلى كتاب السيدة زينب ثم التحق كسائر إخوته بمدرسة والدة عباس باشا الأول ولهذه المدرسة ظلال فى أدبه • كانت مدرسة مجانية من أوقاف إلهامى تعلم التلاميذ وتخلع على كل منهم بدلة مكتوبا عليها بالقصب « مدرسة والدة عباس باشا الأول » وفى هذه المدرسة تعلم مصطفى كامل •• كانت مدرسة للشعب يتجه إليها خاصة أولاد الفقراء حين يلتحق أولاد الأغنياء بمدرسة الناصرية حيث يجلون على الضرب • ويعى يحيى حقى هــذا الفرق فيحمــل فى أغلب قصصه على نظام التعليم (خليها على الله) ص ٣٣ — ٣٤ •

وتلقى يحيى حقى تعليمه الثانوى فى مدرســة الالهامية ثم الحلمية الجديدة التى صارت الآن بنبا قادن ومنها حصل على شهادة الكفاءة • ولكنه لم يواصل تعليمه بها فقد انتقل منها إلى مدرسة السعيدية ثم الخديوية ومن هذه الأخيرة حصل يحيى حقى على شهادة البكالوريا سنة ١٩٢١ • ثم دخل مدرسة الحقوق حيث تخرج منها سنة ١٩٢٥ • ومن رفاق دراسته فيها الأستاذ توفيق الحكيم والأساتذة عبد الحكيم الرفاعى وسامى المازنى وعبد الكريم أبو شقة والمرحوم بهجت بدوى • ومن أساتذته الــذين يذكرهم (الأستاذ الشيخ أبو زيد ، مدرس الشريعة ، رجل دائم الابتسام يعالج الشريعة حتى يحيلها شراباً مساغاً لو استطاع لصبه فى حلوقنــا صباً •• والأستاذ أحمد أمين العالم الثبت فى قانون العقوبات ، لو وضعت كل كراكيب العالم شذر مذر فى زكيبة وسلمتها له لهزها هزة واحدة وصبها فخرجت لك محتوياتها فى نظام بــديع منسق خــير تنسيق • الأستاذ

المرحوم أحمد نجيب الهلالى .. دخل علينا الفصـل فحسبناه لنحافته وصغر سنه تلميذاً مثلنا إن زاد علينا بشىء فبهذه النظـارة السميكة التى تدل على إفناء بصره فى القراءة .. فما كاد يتكلم حتى انعقدت ألسنتنا وفغرت أفواهنا اعجابا به . لقد هدم فى درسه الأول كل مابين أيدينا من كتب قديمة بالية بكلام جديد تشع منه الحياة) خليها على الله ص ٣٢ — ٣٣ .

* * *

وقـد اشتغل يحيى حقى عقب تخرجه بالمحاماة فى الاسكندريـة ودمنهور . وإن كان هذا بعد فترة تمرين فى نيابة الخليفة ومقرها بالمحكمة الشرعية لهذا الحى .

وفى سنة ١٩٢٧ ، وسنة ١٩٢٨ نهد إلى مركز منفلوط معاونا للإدارة . وهذه الوظيفة التى ضاق بها فى مبدأ الأمر كانت ركيزة ضخمة استمد منها كثيرا من صوره الأدبية . فقد أتاحت له أن يخالط الفلاحين وينفذ الى مطاوى نفوسهم .. أن يتعرف على مشاكلهم .. أن يفتح عينه على بيوتهم وأسـلوب معيشتهم . وخـير سجل لهـذا كله كتابه (خليهـا على الله) .

* * *

ويعد يحيى حقى انتقاله إلى السلك السياسى نقطة تحوّل خطيرة فى حياته . (كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهـار أنهك قواى وأنّ له جسـدى ، أقلب ولا أقرأ صحيفة يومية فإذا بنظرى يقع على إعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعين الفائزين فيها بوظائف أمنـاء المحفوظات — أى سكرتير — فى القنصليات والمفوضيات . إلقاء النظرة كان مجرد صدفة ولكن .. ولكنها قلبت حياتى رأسـاً على عقب فقد تقدمت ونجحت وإن جاء اسمى فى ذيل قائمة الفائزين فصدر الأمـر بتعيينى أمينا لمحفوظات القنصلية فى جـدة باعتبـاره أسـوأ المناصب الشاغرة .

ما أبلغ هـذا الانقلاب فى حياتى

❋ ❋ ❋

وهكذا اتصلت أسبابه بالسلك السياسى ففى سنة ٢٩ — ٣٠ عمـل أمينـا لمحفوظات القنصلية المصرية بجدة ٠

وفى خـلال سنة ٣٠ — ٣٤ عين أمينا لمحفوظات القنصلية المصرية باستامبول ٠ وفى استامبول تعلم التركية ٠ فقـد كانت أسرته لا تتكلمها أبداً وقد صهرتها مصر وخلعت عليها طابعها فغـدا يحيى حقى بمـولده ونشأته فى الأحياء الشعبية التى أشرب حبها ، مصرياً صميما !

ومن سنة ٣٤ حتى سـنة ٣٩ أصبح مأمـور القنصلية المصرية فى روما ٠ وفى روما تعلم اللغة الايطالية ٠

ثم عاد إلى مصر سنة ٣٩ وظل بديوان وزارة الخارجية حتى سنة ٣٩ ٠ وقد تقلب أثناء هذه السـنوات العشر فى مناصب الديوان ٠ فكان زمنا مدير مكتب الوزير ٠ وعمل مع شخصيات ذلك العصر وعاصر لطفى السـيد ودسـوقى أباظـة وأحمد محمد خشـبة والنقراشى وابراهيم عبد الهـادى ٠

وفى سنة ٥٠ — ٥١ أصبح سكرتير أول سـفارة مصر بباريس ٠ وفى هذه الفترة تقدما ملحوظا فى اللغة الفرنسية ٠

وفى سنة ٥١ — ٥٢ غدا مستشارا لسفارة مصر بأنقرة ٠

وفى سنة ١٩٥٣ رقى إلى منصب سفير مصر المفوض فى ليبيا :

وقد أتاح له السلك الدبلوماسى الاتصال المباشر بالثقافة الغربية ، كما أتاح له الاتصال بفنون الموسيقى والمسرح والباليه ٠

❋ ❋ ❋

ترى لماذا لم يعكس لنا يحيى حقى الدبلوماسى صـور البلاد التى تنقل بين ربوعها فى عمله بالسلك السياسى ؟ لقد وعدنا وعودا خلابة :

(.. سأزور الحجاز وأدرس المذهب الوهابى وأعرف مشاكل الحج والكونتينات وأرى جميع الشعوب الإسلامية وبعض كبار المستشرقين ، وكيف أن بعض الدول الاستعمارية تعين قناصلها هناك من بين رجـال وزارات المستعمرات لا الخارجية ثم أزور تركيا فأشهد الحـركة الكمالية فى عنفوانها ومظاهر تحـول حكومة شعب مسلم من دولة تعترف بدينـه إلى دولة تتجاهله بل تعاديه ثم أعود اليهـا بعد غيبة طويلة فأرى انحسار هذه الموجة وأقارن بين العهدين . عشت فى إيطاليا مع أطمـاع موسولينى وبهلوانيته خمس سـنوات . زرت المانيا ورأيت وسمعت هتلر وأعوانه ، يؤججون الحركة النازية بمشية الإوزة وذهبت إلى فرنسا لأرقب مبادىء احتضار الجمهورية الرابعة على أحزابها المتفتتة ، ثم إلى ليبيا فأشـهد مشاكل أمة عربية جـديدة تحاول تدعيم استقلالها وسـط مصاعب هائلة وشـهدت بعـد هذا وذاك نمـو سياسة مصر الخارجية مـدى ثلاثين عاما ..) .

لقد استقر الأستاذ يحيى حقى فى مصر زمنـا يكفى لبلورة هـذه الموضوعات فى النفس فى هدأة من زحام المشاهدة لماذا لم ينفضها على الورق لقد أصبحت الآن شريطا متواكب الصور فى ذكرياته ، فى وسـع طاقاته النفسية والفنية أن تعكسه لنا .

***

وقد تزوج سنة ٥٤ من سيدة فرنسية وطبقا للقانون طلب نقله من السلك الدبلوماسى فعين لفترة وجيزة مديرا لمصلحة التجارة الداخليـة بوزارة التجارة والصناعة ثم مديرا لمصلحة الفنون لمدة ثلاث سنوات حتى ألغيت هذه المصلحة فانتدب وكيلا لدار الكتب .

ويحيى حقى قد سبق له الزواج من سيدة مصرية من أصل عربى هى السيدة نبيلة كريمة المرحوم الأستاذ عبد اللطيف سعودى من الفيوم، ومن هذه السيدة أنجب وحيدته نهى) .

وقد رثى زوجته المصرية فى مجلة الثقافة سنة ٤٥ تحت عنوان « الموت إلى نبيلة » .

هذا هو الجانب الخاص فى شخصية يحيى حقى القصاص الأديب . من أين استقى أدبه ؟ لقد ورد الأدب العربى القديم ثم وصلته مكتبة أخيه إبراهيم بالأدب الانجليزى ، أصلا وترجمة . وفى سنة ٣٩ — ٤٠ كانت له عودة إلى الأدب العربى . هذه المرة جلس إلى الأستاذ محمود شاكر فقرأ عليه كثيراً جداً من الشعر الجاهلى ومن أدب الجاحظ . ويحيى حقى يذكر له دائماً أنه قوم لسانه وصحح أسلوبه وعباراته . وفى هذه الفترة دنا أسلوبه من الفصحى وتعلق بها مؤثراً لها على العامية . وهو على كل حال تتمثل علاقته بالعامية فى إحياء ألفاظ فيها معبرة غنية الدلالة قوية التصوير للمعنى المراد مثل لفظة (مأنفد) . إن لفظها بصوته وانعكاسه وإيحائه والصورة الماثلة له فى الذهن يغنى غناء تاماً بل غناء مفرداً عن جملة أو جمل تشير إلى المعنى ولا تستقصيه . ولكنه يقف عند حدود الألفاظ لا يتعداها إلى الجمل .

* * *

وقد تأثر فى حياته « بالجبرتى » الذى يمثل الالتقاء بين مصر والحضارة الغربية .. بين الأزهر المحافظ والتعليم الحديث .. ولعله يؤمن بالجبرتى إنساناً ورمزاً . لقد وقف الجبرتى فى وجه محمد على . وقد كتب يحيى حقى عن الجبرتى مقالات بعنوان (الفكاهة فى المجتمع المصرى) . وكانت المقالة الخامسة فيها بعنوان (هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف) . لقد سجل جميع ما ورد فى الجبرتى من فكاهة حصرها وبوبها وأرجعها إلى أصولها النفسية كما لاحظ فى دراسته للجبرتى استمرار بعض ظاهرات كقلب القصائد إلى موضوعات أكل ..

وقد بلغ من حبه للجبرتى أن اتخذه رمزاً له فظل فترة يوقع أعماله الأدبيـة بإمضـاء « عبد الرحمن بن حسن » ومن امضـاءاته المستعارة « ى » فقط .

« يحيى » ، « عابر سبيل » ، « قصير » ، « أبو شنب فضـة » ، « لبيب » ، « شاكر فضل الله » ، « عبد الرحمن بن حسن » ، « محام » .

هل نعزو هذا التخفى فى الإمضاء إلى الخجل والتواضع أو الحرج ؟ فقد كان مثلا ينقد الأفلام الأجنبية فى الوقت الذى كان فيه مدير مصلحة الفنـون ؟

***

ومن الكتاب الأثيرين عنده « ابن المقفع » الذى يعد أسلوبه معجزة من المعجزات ، أن يجرى بهذه السهولة فى صدر الإسلام تلك السـهولة التى تجعله مقروءا فى العصر الحاضر . وقد قرأ يحيى حقى له .. كليلة ودمنة أكثر من مرة . كما قرأ شعر المتنبى .

ولكن مثله الأعلى فى الشعر (إقبال) الذى لا يشائيه عنده شـاعر آخـر .

***

وممن تأثر بهم فى حياته من كتاب الغرب « اناتول فرانس » فقـد قرأ كتاب سكرتيره عنه : (اناتول فرانس فى مباذله) فى أصله الفرنسى . وقد حبب اناتول فرانس إليه ، دفاعه عن القضية المصرية . وقد أسر هذا الدفاع يحيى حقى حتى لقد بلغ به التأثير أن دان بالإنسـان .. الإنسان مجردا من الأوطان والأقاليم .. تحول يحيى حقى فى هذه الفترة إلى إنسان عالمى .. غدا متسامحا يحس أن الدنيا كلها يسعها قلبه . حتى أنشئت دولة اسرائيل على أسـاس إجرامى . أحس أن كيانه يتهدم .. كيانه الأخلاقى . انقلب متعصبا . كفر بإنسـانيته وتعصب عن عمـد

لدينه وقوميته ولغته . وهو من أجـل هـذا يحس بمرارة عميقة . إن افتقاد المبادىء دونه بكثير فقد الأرض .

وقد انعكست هذه الحالة النفسية على أدبه فأدار ظهره نهائيا للعامية داعيا إلى إحياء أدبنا القـديم .

بل إن إنشـاء دولة اسرائيل عنده أخطر حـدث فى تاريخ الأمـة العربية منذ فجر وجودها . إنه أفتك من الصليبيين فإن قدرة اسرائيل على التفتيت .. الغرور .. الصفاقة .. قدرتها على الهـدم لا يعدله خطـر آخر مهما استشرى وقدر .. لقد سمعت يحيى حقى يقول (ليس لى دعاء أكرره غير هذا الدعـاء أو الأمنية (ألا أموت قبـل يوم الانتقـام من اسرائيـل) .

وقبل اسرائيل هزته « دنشواى » هزاً عنيفاً . لقـد أجج شعوره الوطنى حادثان بارزان فى ذهنه وفى واقعه : دنشواى واسرائيل ..

* * *

وقـد نشـأ يحيى حقى فى القصـة على تولستوى ودستويفسكى وتورجنيف وشيخوف وجوركى من أعلام القصة الروسية .

ومن الأدباء الأمريكيين قرأ يحيى حقى مارك توين .

وقـرأ من الأدباء الإنجليز ديكنز واستيفنسن . وتتمثل عظمـة شكسبير عنده فى جمعه بين الشعر والأسلوب الذهنى المحكم مما أشـبع روحـه وذهنه إشباعا كاملا . وأعجب زمنا بالموسيقى فى أسلوب جيبون وماكولى ثم مال عنهما إلى أسلوب ليتون ستراتشى وفرجينيا ووكف . وقد كان هذا شأنه مع الموسيقى لقد سيطر عليه حبه للمصور (ويجاس) حتى مـال به عن موزار وبتهـوفن وتشايكوفسكى وكورساكوف إلى براهمز دبيوسى ورافاييل كما مال فيما بعـد عن الأدب الإنجليزى إلى الأدب الفرنسى حيث يلتقى العقل والروح فى مواءمة وقعت من نفسه .

فأكب على بلزاك وبول فالهى وفلوبير وجى دى موباسان ولكنه تأثـر بالمدرسة الروسية • وفى القصة القصيرة تأثر كثيراً بشيخوف وجى دى موباســان •

* * *

والأستاذ يحيى حقى تذكرنا كتاباته بالمغفور لـه الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى على اختلاف عند المقارنة أو القياس • ولـكن هناك وجوه شـبه كثيرة فيحيى حقى والمـازنى كلاهما وصف حياته وصـفاً محيطاً • كمـا تحدث عن بيته وأسرته •• كلاهمـا تأثر بأمه وإن كان المـازنى أشد تأثراً ، وأكثر ترديداً لذكر هذا الانســان الكبير فى حيــاة الأبناء •• كلاهمـا سخر من نفســه (١) • كلاهما لح ناحية الطــول والقصر وغمــزها مرات كأن المقصود بالغمز ســواه • كلاهمــا وصف طريقته فى الكتابة (٢) وصفاً مفصــلا ينقلك إلى جـو التجـربة إن لم يفرض عليك أن تعيش فيهـا ولو صفحات من الكتاب أو لحظــات من الزمن •

* * *

كلاهما حمل على التعليم (٣) كلاهما وصف الأحزاب والمظاهرات •

هذا من ناحية الموضوع أما من ناحية الشكل فكلاهما ولوع بالجمـل الاعتراضية • وهى ظاهرة مردها عند المازنى إلى شـدة احساسه بآفة ضمير الغائب فى اللغة العربية • ومن هنا أكاد أوقن أن الجمل الاعتراضية عند المـازنى مقصودة كأنها تشهير بضمير الغائب أو دعـوة إلى معالجته بين الدعوات القائمة إلى تبسيط اللغة وتطويعها ، حـين تعنى الجمـل

---

(١) يحيى حقى كتاب (خليها على الله) ص ٤٥ ، ٥٥ .
(٢) يحيى حقى كتاب صح النوم ص ٧١ — ٧٢ .
(٣) يحيى حقى كتاب خليها على الله ص ٣٣ .

الاعتراضية عند يحيى حقى فيما أحسب ، إفراغ معنى فى الطريق للتخفف منه فى زحمة المعـانى والأفكار .

* * *

كلاهما يتسم أسلوبه بالبساطة فى التعبير والشعبية فيه . والأستاذ إبراهيم عبد القادر المـازنى كما يقول الأستاذ حسن كامل الصيرفى ، أول من أثبت قدرة اللغـة الفصحى على احتضان التعبيرات الدارجـة وعلى صياغتها بحيث لا تفقـد ، ولا تنقص جاذبيتها أو يتلاشى سحرها وتبرد حرارتها وإن كان اللفظ العامى عند الأستاذ يحيى حقى يحتل مكانه فى السطر كما هو فى الشارع أو القرية أو البيت .. ولا عليه فيما يبدو إن كان هذا اللفظ له أصـل عربى أم عريق العجمة . حين كان المـازنى يتحرى فى استعمال ألفاظ الحيـاة اليومية سلامتها من العجمة فيحسـبه القارىء العابر عاميا لسبق معرفته به واستعماله وما درى أنه يتحـدث بلغة فيها كثير من الألفاظ السليمة العربية النسب . وكثير من ألفاظ المازنى مستمدة من (لسـان العرب) ، كما يستمد يحيى حقى أسماء ألوانه من كتاب (فقه اللغـة) .

* * *

وتجمع الأسلوبين **أيضا الواقعية فى التعبير** وإن كان المازنى ولوعـا بالمبالغة من غلبة الروح الفنية عليه . والمبالغة فى التصـوير تؤدى عنده الى المبالغة فى التعبير . وعلى هذه المبالغة بنوعيها تقـوم سخريته فهى كفن الكاريكاتور الذى يبحث عن الشىء الظاهر ويمضى به الى أقصاه فى نفس اتجاهه الطبيعى من غير أن يبدل شكله .. فهو فن مبالغة وإن لم تكن المبالغة غايته وإنما هى وسـيلة إلى ما يريد التعبير عنه [1] .

هذا حين يكلف يحيى حقى بالتحديد حتى ليعد الدعـوة إلى أسلوب محدد دقيق أساسا لكل إصـلاح أدبى وفلسفى وفكرى . وقد تجـلى هذا فى محاضرته التى ألقاها فى دمشق وعنوانها :

---

(١) كتاب « ادب المازنى » للدكتورة نعمات أحمد فؤاد .

(حاجتنا إلى أسلوب جديد) .. وقد وصلت دعوته هذه إلى أقصى مداها فى كتابه (صح النوم) . وهو كتاب كان يستطيع أن يظهره فى مثل حجمه مرتين ولكنه ضد الاطناب .

وقد التزم هذا المنحى فى الأسلوب منذ محاولته الأولى فى اليفاعة . هل الأمر عقدة أم تكوين ذهنى ؟ كان (التعبير) هو همه المؤرق حتى ليقول : (لم تكن القصة عندى غاية فى ذاتها بل وسيلة لهذه التجربة التى قضت بها منذ أكثر من ثلاث وثلاثين سنة ومع ذلك فإن هؤلاء السادة النقاد ركزوا بصرهم على القصة ولم يروا طريقة التعبير) (١) .

المازنى ويحيى حقى يتلاقيان فى ظاهرة أخرى هى « الاستطراد » فالإطار الخارجى عندهما ليس محدد الخطوط والمعالم كما يبدو للعين عند توفيق الحكيم وإن كان يحيى حقى فى استطراده أسرع عودة من المازنى إلى ما هو بسبيله من الموضوع الأصلى ربما يوحى « الدقة » التى يحاول التزامها .

* * *

ويحيى حقى كالمازنى فى تقصى الخوالج النفسية وتفسير الحركات والكلمات بل تفسير الصمت فأدبهما بهذا وحده ، فضلا عما سواه ، أدب إنسانى ذو قيمة .. وتتمثل إنسانيتهما فى سخريتهما النابعة من الألم المشبع بالعطف على الضعف الإنسانى مهما هبط مستواه .

والخط الأخير من وجوه الشبه عندى بين المازنى ويحيى حقى يتمثل فى أن كليهما ينبع من نفسه فأدبهما أدب ذاتى يحمل شخصية صاحبه وطابعه فى التفكير وأسلوب العيش وطريقة التعبير . وسنوفى هذه

---

(١) مجلة الآداب عدد يوليه سنة ٦٠ .

سنعود الى تحليل اسلوب يحيى حقى على انفراد حتى لا ينقطع الحديث عن المقارنة هنا بينه وبين المازنى .

المقارنة بين الكاتبين عند الحديث عن « السخرية » وفن التجسيم عندهما .

* * *

وحين يلتقى يحيى حقى مع المازنى فى هذا كله — تلمح العين بينه وبين توفيق الحكيم اختلافاً يصلح أيضاً أن يكون موضعاً للمقارنة . ويبدو أن تفرد توفيق أو اختلافه عن الآخرين كان من البداية ، فقد حدثنا عنه يحيى حقى فى كتابه (خليها على الله) حديثاً يغرى بمتابعته فى الأدب والحياة كما يكلف المرء بالجرى وراء الغامض المجهول إشباعاً لفضول أو استكناها لسر .

(على قيد ذراع منى يجلس تلميذ ، يلبس دون سائر الطلبة — طربوشاً قصيراً جداً ، غليظ الأسنان ، جاحظ العينين شيئاً قليلا ، يجلس معتمداً ذقنه على قبضة يده ونظرته شاردة وذهنه سارح . ملابسه نظيفة ، ياقته منشية .. قلما يكلم أحداً من زملائه . كنت أقول لنفسى هو ، ولا ريب أحد أبناء المرفهين يأتى للمدرسة لا للجهاد وقصد العرق بل للفرجة والترويح عن النفس سواء لديه نجح أم لم ينجح .. ولذلك فبالرغم من طول تأملى له كأن شيئاً يجذبنى نحوه — لم أسع إلى مخالطته أو التعرف إليه .

هذا هو الأستاذ توفيق الحكيم فى مدرسة الحقوق . وأذكر أننى ما سمعته قط يذكر لأحد مفاخراً أنه يؤلف المسرحيات ، وكان قد فعل وهو ما يزال طالباً معنا ..

لقد خدعنى توفيق الحكيم عن نفسه بصمته وحيائه وعزوفه عن الناس وتهيبه الغرباء) ص ٣١ .

لقد سافر توفيق الحكيم إلى أوروبا كما سافر إليها وطوف بها يحيى حقى وكان لهذه السفرة البعيدة التى نقلتهما من الشرق بأجوائه إلى الغرب بآفاقه أثر كبير الخطر فى حياتهما .. كانت نقطة تحول فى

حياة كل منهما استفاد منها توفيق أبلغ استفادة وتطـور على إثرها أدبه فعكسها فى صور شتى حين اختزنها يحيى حقى ولم يفض بها حتى الآن .. وهى ناحية من موضوعى كنت أوثر ألا أعـرض لها الآن فإن من حقهـا التفصـيل .

* * *

والذى يسترعى العـين فى باب المقـارنة موقف كل من يحيى حقى وتوفيق الحكيم من الريف . فالأول راض عنه كل الرضا فهو حين يتحدث عنه حانى الوصف ، مملوءا بالعطف ، يستوقفه فيه كل شىء فتحس معـه حين يصفه أنه يتملاه ويتعمقه من حب ووفاء .

وليس أندى على النفس — خاصة المحبة للريف — من قوله :

(فوقنا سماء رقيقة السحب ، والهواء صاف شفاف كأن يدا من السـلام والطمأنينة تمسـح على جبهتى . أحس أنا القاهرى أن نوافذ مغلقة فى نفسى تتفتح لأول مـرة . انقطعنا عن العـالم كله وخلونا إلى الأرض والزرع والحيوان والنيل ، غمرت قلبى راحـة جميلة تمنيت أن لا تفارقه أبداً) ص ١٢٠ .

وقد وسع حبه كل شىء فى الريف حتى الحيوان . لقد وقف وقفـة طويلة عند الحمـار وليس للمسكين حظ من جمـال الصورة كالحصان ، أو لفتة الجيد كالغزال ، أو بدع الألوان كالطاووس ، أو سحر الصـوت كالبلبل . ولكنه ، ولا أدرى كيف اسـتهوى كاتبنا يحيى حقى فوجـد سعادته معه . ومضى بالوصف المستغرق يقسم **دنيا الحمـار** طبقـات وطوائف أو درجات على حد تعبيره . فحمار للسبخ وحمار الأجرة وحمار الفـلاح . و (على رأس القائمة حمـير تعد من الطبقة الارستقراطية لعلهـا أوشكت الآن على الانقراض فى الريف .. يهيم بعض الأعيـان أصحاب الأطيان من أجل راحته وإشباعا لزهوه وتدليلا على مكانته بأن يكون له حمار فاره قوى ، منتصب الرقبة مرفوع الرأس ، راقص الخطوة

أكحل العينين له بردعـة من جلد ثمين أو من قطيفة لها زينة كثيرة ، ولجـام وركايب ويضن به إلا على كبار الحكام • أكله موفور وتعبه قليل إذا حمـل صاحبه إلى المدينة أو انتظره على المحطة رمقته الأبصـار ، وإن سـار به إلى الغيط صـدرت من فوقه الأوامر من تحت المظلة مؤيدة بعلو المقـام • ٧٧ — ٧٨ •

وإن كان هـذا الحمار الارستقراطى أقل إخوانه منزلة عند الأستاذ يحيى حقى فهو يؤكد لنا أنه لم يثر انتباهه إليه كثيراً وإن كان يعلم أنه سعيد بلحمه وشحمه •• (والسعادة وإن كانت مطلبنا الأسمى إلا إنها — على خلاف الشقاء — قضية واضحة ليس لها ظاهر وباطن إن نكشت فيها لم تخـرج بسر أو عجيبة • ومن دواعى الحيرة لاتباع إلا بشىء واحـد هو التفاهة) ص ٧٨ •

ثم مضى يحيى حقى يتحدث فى لذة لا تخفى عن مدرسة الحمير ، وحمـير القاهرة ، ولصوص الحمير أيضـا ، ونكت الحمـارة ، والسرك وحمـاره ، وجراحـات الحمـــير و (الطبيب المداويـا) أو الطبيب البيطرى ••• ماذا نقـول ؟ تخصص •

* * *

ولم يستأثر (الحمار) بحب القلب الكبير فإن **الجاموسة** هذه الكادحة الصابرة تحظى منه بنصيب كبير حتى لتهز نفسه سعادتها — وما أحسبها إلا ومضا يلوح ثم يختفى — هذه الصورة تشى بتجاوبه معها على بعـد ما بين عالمه وعالمهـا ••

(البرسيم علوه شبران ، أخضر ندى ، مربوط عليه هنا وهناك بقرة أو جاموسة مستغرقة فى سعادة كبرى وهى تلوكه بين فكيها وتهز أذنيها • ما كان أخشن أكلها فى الشـهور الماضية • لا أعرف شيئاً يفوق وداعـة عينيهـا) • ص ١٢٠ •

* * *

وهكذا سائر الحيـوان **فالبقرة** (عليها هالة من قداسـة **وإن نسى** الناس عبادتها • وهذا **الجمل** ، سـيد متكبر هبط علينا من كوكب آخـر فلا شبه بينه وبين بقية حيوان هذه الدنيا • إذا استناخه صاحبه أرغى وأزبد ثم انهد طبقة بعـد طبقة وظلت رقبته تمتد بعجرفة من وسـط خرائبه • أما الماعز المتوثبة النزقة فأغلب الأمر أنه يسمع مأمأتها **قبـل** أن يرى قرونها الخروبية) [1] •

أشهد انى قرأت وصفه للجمل ينيخ وهـو يتمسك ببقية من كبرياء غلبت على أمرها مرات • ولا أحسب أنى سأنسى هذه الصورة الفريدة لذلك الحيوان الأصيل (ثم انهد طبقة بعد طبقة وظلت رقبته تمتد بعجرفة من وسط خرائبه) • صورة للجسم والنفس معا حين تطرد حركاتهما فى تأدية معنى واحد ، كل بأسلوبه وعلى طريقته قد اتفق المؤثر واختلف الأثر •

ألا إنها ألفه شديدة للحيـوان هى ككل حـب وان اختلفت طعوم وألوان ، تسعد صاحبها وتسعد الآخـرين أيضاً •

* * *

هذا حين تثى (يوميـات نائب فى الأرياف) بضيق توفيق الحكيم بالريف وإحساسه فيه بالعزلة كأنها قدر ••

(وانصرف بعد ذلك كل منا إلى شأنه : المأمور إلى ناديه وأنا إلى منزلى حيث خلعت ملابسى وخاوت إلى نفسى وأخرجت كراسة **يومياتى** **ألقـى** فيها هذا الكلام الذى لا أجـد من أفضى به إليه فى هذا الريف • إن القلم لنعمـة لأمثالنا ممن **كتبت** عليهـم الوحـدة) ص ٨٣ أو تلك الصرخة المرورة التى ندت عنه فيما بعد فى حضرة صديق :

---

[1] كتاب « صح النوم » ص ٥٧ •

— أنا روحى طلعت خلاص زهقت من حاجة اسمها أرياف زهقت من أصناف « اللبد » .

أنا اشتقت لمصر نسيت شكل عاصمة بلادى أحب ياناس أغير نوع الجريمة واشتغل مع مجرمين لا بسين سترة وبنطلون ص ١٧٠ .

وما أنا بحاجة إلى تفسير كلمة (ألقى) وما فيها من إعباء وململة ثم كلمة (كتبت) وما فيها من احساس الابتلاء .

* * *

إن القرية عند توفيق الحكيم لا يكاد المرء يرى فيها (غير مبان قليلة أكثرها متهدم ، وغير هذه « الجحور » المسقفة بحطب القطن والذرة يأوى إليها الفلاحون . إنها فى لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماد وفضلات البهائم وفى تكدسها وتجمعها « كفورا » و « عزبا » مبعثرة على المزارع ، لكأنها هى نفسها قطعان من الماشية مرسلة فى الغيطان . هذه القطعان من البيوت التى تعيش فى بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هى كل ما تقع العين عليه فى هذه البقاع . ويزيد فى كربه هذا السكون الذى يهبط على البلدة منذ الغروب فلا يسمع بعدئذ غير خوار الجاموس ، ونبح الكلاب ، ونهيق الحمير ، ونحيب السواقى والشواديف والكباسات ، وأصوات بعض الأعيرة النارية يطلقها فى جوف الليل الخفراء الخصوصيون أو النظاميون أحياناً إرهاباً للغير أو تشجيعاً لأنفسهم .. إن مساعدى يريد دواء لهذا الضيق . وهل من دواء للريف غير الزواج أو السير المعوج أو المطالعة وتحرير المذكرات كما أفعل أنا كلما وجدت إلى ذلك سبيلا ؟) ص ٦٠ — ٦١ .

* * *

مساكين قومنا فى الريف إن ما يعيشون فيه من كَبَد ينوء ببعضه أهل الحضر لو قدر لهم أن يقعوا عليه ولو بالنظر أو المخالطة ولو كان هذا لوقت محدود معدود . هذا الشقاء نفسه صوره يحيى حقى ولكن فى

نغمة حانية عطوف بل إنها لا تخلو من دفاع واستعلاء . ماذا أقـول بل من فلسفة أيضاً . فأهل القرية عند يحيى حقى (ملح الأرض يكسـبون رزقهم بشـق الأنفس يكابدون كالحيوان من مطلع الشمس إلى مغربهـا عملا مرهقاً تنجزه الآلات فى بلاد أخـرى بأيسر جهـد ونفقة فى وقت قليل .. وليتهم بعد ذلك فازوا بما يقيم أودهم أو يستر عريهم وهم مع ذلك قانعون . جاروا فى فهم القدر ، وتعليل أسباب الخلل وطال تساؤلهم متى تنتهى المظالم وتنعـدل الأمور ويستقيم المعـوج ويعم السـلام ؟ وهم مـع ذلك صابرون أصبح مطلبهم الأوحـد أن يتركوا لأنفسهم ، لنسائهم وعيالهم ، لدوابهم وشقائهم ، لإيمانهم وخرافاتهم . كل جـديد فى الحياة عندهم ضئيل إذا قيس إلى قديمهم وإن أمنع الدروع هو الذى يلبسه من لا يبـالى . إذا قالوا « إنما الأعمـال بالنيات » عنوا بهـا : « إنما الأعمال بخواتيمها » . وإذا لم تر وجوههم مبتسمة أغلب الوقت فلأنهـم يضحكون فى سرهم من الخطيب والبهلوان والواعظ والمهـرج (خليهـا على الله) .

وهذا الاختلاف فى النظرة والاحساس عند الكاتبين بلغ أقصى مداه فى موقفيهما من الصعيد بخاصـة الذى تعكس له (اليوميات) صـورة عجفاء ناصلة فالصعيد العريق (بلاد قريبة من الفطرة والوحشية ، هذا الوجه القبلى من مصر شىء مخيف لسـاكن الوجه البحرى . إن المـرأة هنـاك شبح لا يُرى ولا ينبغى أن يُرى . وهى مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل كلاهما شىء لا أثر للرقة فيه . وكلاهما فى الجسم والطبع والروح كتلك الأرض السـوداء التى يعيشان عليها وقـد جف عنها النيل فى زمن التحاريق ، آدميون قـد جف عن تركيبهم ذلك المـاء الذى فيه سر امتياز الآدميين) .

لقد أورد توفيق الحكيم هذا (الكلام) على لسـان صاحبه المرفه المتطرى وكيل نيابة طنطا ولكنى لا أعفيه من العتب العاتب فلو لم يكن

هذا الكلام قد صادف هوى فى نفسه لما تخلى عنا دفاعه البليغ أو منطقه المقنع أو قدرته الموهوبة على المحاورة والتحكم فى النتائج والنهايات .

* * *

هذا حين يتعشق يحيى حقى الصعيد كالبهاء زهير بل لعل كاتبا لم يمجد الصعيد كما مجده يحيى حقى .. مجد كل شيء فيه .. تقشفه .. صرامته .. حتى الجنازات فيه تمس قلبه .. مجد أهاه (حتى الباعة الجوالون من فقرائه المعدمين يمشون فى عزة كأنهم جند فى استعراض عسكرى لجيش ظافر ، تضرب أقدامهم الأرض تكاد تخرقها ، أجسامهم ممشوقة ورءوسهم مرفوعة ، بطونهم مشدودة ، وظهورهم مبسوطة إذا بانت لك عظام الصدر أحسست أنها غطاء دينامو لا يلهث ولا يصفق طالباً للنجدة . كأن كل واحد منهم أمير فى قومه ، أكثر ما يجذب العين فيهم رقبة طويلة مغروزة فى الجسد كصخرة فى جبل هى وحدها التى تضفى عليهم هذا النبل وهذه المهابة) .

* * *

أما عمال البناء من أبناء الصعيد فهم فى عينه ويقينه (جنس يحيل العمل من فوره إلى وقدة الحمى ، يشبه النمل فى دأبه وتبعثر أفراده وانتظام مجموعته معا ، إذا كان لا مفر من « الحزق » فعيب أن يصدر من حلوقهم إلا متسترا فى ترجيع جماعى لمقطع فى أغنية يشدها واحد منهم ، **لقد طوفت فى بقاع الأرض فلم أجد للصعيدى ندا فى تحمله للجهد** .

فى ليالى الشتاء حين أمر على مداخل عمارات ملفوفة فى شبكة من السقالات كأنها قنفذ ضخم قد نصب أشواكه تسمر قدمى أغنية منبعثة على ضوء نار وشرر وسط الظلام تسيل رقة وحنانا . أصبحت « الحزقة » بحة محروقة من شدة الوجد) .

* * *

إن أغانينا تسمر قدم الرجل .. يا قلة رصيدنا من الوفاء إن لم نذكرها ليحيى حقى مخلصين .

* * *

إنه لا يصدق أو لا يريد أن يصدق الشائعة تدمغنا بما ليس فينا . وهب أن صعيدنا يحيى حياة خشنة صارمة مجردة من الزينة لا تعرف ولا تجيز دلع الحضرى فى طعامه وملبسه ونكاته ونزهاته .. هب الليل فى الصعيد سجانا له يد سوداء تغلق الأبواب عند غروب الشمس على الإنسان والحيوان .. هب كل ذلك حقيقة واقعة ماذا يضير الكاتب أن يعلن بملء حبه لمن يحاجيه :

(ومع ذلك أشعر بسعادة الانطلاق إلى عالم غامض أحس بسحره وعطره ، كنت أشتاق إليه من قديم وأدرك أن مصريتى ومحبتى لبلدى لا تتمان إلا إذا اغتسلت فى حوضه . منذ صغرى ألحظ فى زملائى أبناء الصعيد فى المدرسة رجولة ونخوة وشهامة وجلداً ، ثم — وهو الأهم — عندهم قدرة أشبه بالغريزة على تناول الحياة حلوها ومرها كما تلقاهم ويلقونها لا يفسد تمتعهم بها ابتلاء بالتهيب ، والشكوك والملل وفراغة العين والبحث فى ملك اليد عما وراءه .. ما سمعت منهم شكاية ولا أحسست بهذا النازع الخبيث المتستر فى النفوس الضعيفة لاستدرار العطف والحدب عليها هو نوع من الملق والنفاق يصوب سهمه للداخل لا للخارج) .

* * *

إنه بعد لم يفرع شحنة العاطفة فى صدره . دعه يسترسل إنه يطربنا — على الأقل — نحن أبناء الصعيد .

(وكنت أتتبع من فوق الكبارى هذه المراكب العريضة — تكاد تغطس فى الماء — قادمه مع التيار ، محملة بالتبن أو البلاليص . جماعة من أهلها متحلقون عند الدفة حول قدر مسود ، تحس أن صمتهم أكثر

من كلامهم ، ورجل آخر يقفز فى خفة القرد يتسلق الصارى يعلق القلع المرقع ويميل به حتى تمر المركب من تحت الكوبرى • بينه وبين ماسـك الدفة صراخ لا أتبين ألفاظه ، حاد غضوب كأنه تلاحم النبابيت ، تتقد له الأعين كالشرر ، وتبرق الأسـنان كوميض السلاح ، ما هـو بلدهم ؟ من أين هم قادمون ؟ ما طعم هذه الحيـاة الطافية فوق الماء ؟ كم تمنيت أن أصحبهم فى رحلة لأعرف أسماء الرياح وعلاماتها وحيل التيار المخاتل وأطل على الدوامات ويرسم لهـا النخيل الرشيق فى كل لفتة لوحـة فى النهر متباينة وأسلم فى كل ليلة على « موردة » جديدة) •

❋ ❋ ❋

مثل هذا الحب العميق لا يمكن أن يكون عارضاً أو وليـد صدفة • إنه متأصل فى نفس الرجل • لقد أشرب حب الصعيد طفلا منذ كان بائع الرمان يدخل حارتهم • (فى كل جانب من عبه — فوق حبل مشدود على وسطه — أقتان على الأقل من الرمان ، على كفيه رمان وفوق رأسـه قفة كبيرة مملوءة لفم عينها رمانا • لو قبـل الشـارى فى غفلته أن يسـاعده على إنزالها كادت تخلع ذراعه وتطرحه أرضا ولو كان فحلا ، يمشى هذا الرجل الشيخ ، وقد خط الشيب شعره ، من مطلع الشمس إلى العشاء • لا ترى فيه من أثر الجهـد إلا رفع حاجبيه وخفضهما كأنه يوازن بهمـا القفه فوق رأسـه « منفلوطى يارمان » • كل قوته انحبست فى رقبته ولا تسألنى من أى طعام تستمد قوتها) •

❋ ❋ ❋

هل تستطيع أن تنسى هذه الصورة لبائع الرمان ؟ هـذه اللوحـة الزاخرة بالخطوط والحركة واللون ؟ لا أحسبك تستطيع •

هكذا تمضى الصور عند يحيى حقى غنية مصـورة موحية تنساب الخطوط فيها وتتدفق الكلمات وكأن السـطور تكتب نفسـها بنفسها • ويعلم الله كم شقى الرجل الولوع بالتحـديد اللفظى فى خلقها وتسويتها حتى جاءت على هذه الصورة •• ومن الفن أن يخفى الفن •

ما أروح الطواف فى معرض يحيى حقى . هناك صـورة فريدة عن (قطار الصعيد) [١] وصـورة (للمحطة) وصورة (للقاهرى فى الريف) وصـورة (للقروى فى المدينـة على محطة الترام) صـورة (للفلاحين وموظفى الحكومة) صورة (لبيت الفـلاح) صورة (للسلام الريفى) صورة (للدجالين) صورة (ليوم الفرز) صورة (لوفاء النيـل) صورة لتنفيذ (حكم الطاعة) صورة (لواعظ القـرية) .. وصـورة (لقصاب القرية) . صورة (للحـان) وصورة (للمطحن) [٢] . صـورة لميدان السيدة زينب [٣] .

* * *

وفى معرضه صـورة لأساتذته فى مدرسـة الحقوق وصورة أيضا (لعم فرجانى — فراش المدرسة) صورة (لمجالس التحقيق) وصـورة (للمحكمة الشرعية) صـورة (للاسكندرية وأهلهـا) وصـورة بالطبع (لمنفلوط) صورة (لعيادة الطبيب فى الريف) [٤] .

وفى معرض يحيى حقى أيضـاً نماذج بشرية .. هنـاك صـور أخلاق [٥] . وصـور تجارب . هنـاك صـورة (لتجربة المحـاماة) ، و (نفسية المظاهرات) .. وبعد هذا كله أو قبـل هذا كله (صـورته هو) . لقد وصف نفسه أو حيرة الفنـان بين الواقع والخيـال [٦] . بين الحقيقة والمثل العليا والأمانى .. صورة للشوق يهفو إلى الجمال .. صورة للروح تشرئب إلى أعلى .. صورة للنفس تستشرف إلى النقـاء والصفاء والطهر .. صورة للنفس تبحث عن قطب .. تحـلم بالتصوف والوصل ، صورة للإنسان يفتقد حبا كبيراً يرويه ويحتويه ويستغرقه .

* * *

(١) اقرا « خليها على الله » واقرا « دماء وطين » .
(٢) كتاب « صح النوم » .
(٣) كتاب « قنديل أم هاشم » .
(٤) كتب للجميع العدد ١٥٠ مارس سنة ٦٠ .
(٥) خليها على الله .
(٦) أم العواجـز .

إن معرض يحيى حقى قد سمر بدوره قدمى حتى لا تريم وحتى أنسانى ما كنت بسبيله من مقارنة بينه وبين توفيق الحكيم بدأتها بالناحية الموضوعية .. بقى على بحثنا ، الناحية الفنية ، وفيها أيضاً يختلف كاتبانا .. يختلفان من حيث الأطار والصورة . فالاطار عند توفيق الحكيم مرسوم محدد الخطوط والأبعاد ، والصور عنده واضحة المعالم متميزة الشخصيات ، حين تتواكب الصور عند يحيى حقى وتتدافع متزاحمة كالزفة فى الريف خليط من الناس ، مختلفى الأعمار ، والثياب والألوان ولكنها فى بساطتها وعفويتها أقرب إلى الفطرة وقد تكون أقرب ألى القلب عند البسطاء أو هواة السمر الشهى يقصدونه لذاته سواء لديهم أحفل بالفن أم تخفف من قيوده ومقاييسه .

* * *

ومن يدرى لعل هذا التبسيط نفسه يغنى الصورة بتفاصيل أكثر إن لم تكن أوفى .. قد يكون لها فيه حياة أو متاع فهو — فيما يخيل إلىّ — متفرغ للموصف لا يشغله عنه شاغل . قد يشط أحيانا ويتطوح بعيدا عن الموضوع الأصلى ولكنه لا يبالى من استغراق . هذا حين يشدك توفيق إلى موضوعه بخيط خفى لا تملك معه فكاكا . وأنت فى انقيادك إليه راض سعيد تعشق هذا اللون من الأسر . لا تشتهى الخلاص أو حتى تفكر فيه بل لعلك ترفضه مادام فى الكتاب بقية من صفحات أو سطور ..

وبعد يحيى حقى **المصور** ، يأتى يحيى حقى **الساخر** يليهما يحيى حقى **صاحب الأسلوب** وهنا يدخل الرجل فى زمرة أصحاب الدعوات من حيث اعتناقه لفكرته وإيمانه بها حتى لقد غدت الدعوة إلى أسلوب محدد ، همه الكبير .

* * *

لنقف الآن عند يحيى حقى **الساخر** . لقد سخر من نفسه فى مواضع كثيرة من كتاباته كما سخر من الناس ، منك ومنى ، فى حديثه عن المجرمين

وما يلازمهم من صفات جسدية ، رأف بحـالى وحالك أو هكذا زعم فأبى أن يخبرنا بهذه الأوصاف حتى لا يثير الشك فى نفوسنا .

* * *

وهو حـين يهبط الأسكندرية تستهويه مشـاهدة السفن فى الميـناء ويستهوينا بدورنا وصفه الساخر لها فالسكينة (تفسد مؤخرتها الحبلى رشاقة عرنينها . مربوطة كأنهـا الخيل أمام المداود ، تحس أنهـا تغلى وهى باردة ميتـة الأنفاس . يخيل لك أنه لو قطـع الحبل لوثبت مـن فورها ولوت عنانها واختفت وراء الأفق لنشأت رغـم ضآلتها متعجرفة تمخر فى خيـلاء البطة ومشاكسة كلاب الصيد الجائعة . لها ولولة ترج القلب .. ما ألـذ الشـعور بالخوف المفـاجىء وأنت فى أمن مطمئن . قوارب صغيرة يدفعها رجالهـا وهم وقوف .. وجوههم لا ظهورهم إلى الطريق تتأرجح فوق ماء أزرق يفصـله عن مـاء رمادى خط مرسـوم لا ندرى سببه ، عربات النقـل الطويلة يسـوقها أيضاً أصحابها وهم وقوف (يذكروننى برمسيس فى عربته) فتوتهم تحب الرعشة السارية فى أبدانهم من قلقلة العجلات فوق البلاط . أعود فأمر أمام الدكاكين التى تبيع الحبال والقلوع البكر ، لا أعرف غيرها يصلح مصنعاً للأحلام .. وعلى الشواطىء هياكل لسفن أخـرى من الخشب عجفاء بادية الضلوع كأنها ديك رومى فى نهاية مأدبة مصرية ، أرقب بلذة « قلفطة » شقوقها . يقطع عليك نسيم البحر فجأة رائحة غليظة عطنة (زخمه) يضيق بهـا صدرك وتنجذب إليها فى وقت واحد ، يقولون إنهـا « يود » البحـر . والبلدية ومجاريها أعلم ..) .

* * *

ويحيى حقى حين يسوق آراء (بلدياته) فى قريتهم التى لا يمر بها القطـار (سابقاً) . وهو يرسل على لسان معلم الرسـم فى مدرسـة القرية هذا الرأى الصريح .

(ستبقى جدران بيوتنا بيضـــاء لا يشوهها الدخان ولا تموت تلك الزهور الجميلة تقاسمنا النوافذ فتطل علينا كما نطل عليهـــا ، وإن كنا لا ندرى رأيها فى رائتحنا نحـــن) •

ولا أستطيع أن أمضى بك معه أبعد من هذا فإن شاقتك هذه الفكاهة الخفيفة المرحة فإن كتبه تتفسح لك كما تتفسح لها ••

* * *

على أن الكاتب الذى ندرســه ليست مهمته التســلية أو الإضحاك فان وراء الوجــه المســتدير الباسم نفس يكرثها همومنا فى القــريــة والمدينة •• فى التعليم والصحة •• فى الفن والسياسة وهنا تكون سخريته هادفة واعية يقظة كبيرة المطالب أيضاً •• إنه يدعو إلى الإصــلاح دعوة حارة ولكن هادئة وهى على هدوئها تنفذ إليك وتعمق فى نفســك وتبلغ منك مبلغا لا تحلم به الخطب المنبرية أو محترفو الوعظ والإرشاد •

* * *

ننتقل الآن إلى **صاحب الأســلوب** لا كما ينتقل الدارس إلى نقطــة من نقط موضــوعه ولكن كمــا ينتقل المرء إلى موضــوع آخــر يضاح بآضاقه وتكامله أن ينهض ، وحده ، مادة للدرس وموضوعا للدارس ، يتواصل عليه منهجه وتتضح به صورته أو صورة الكاتب الذى استوقفه •

ويحيى حقى ليس بأديب محترف بل هاو •• إنه ليس من المكثرين • يظهر له فى العــام قصتان فى الأعم الأغلب • رسالته المحببة إلى نفسه الدعوة إلى أسلوب فيه تحــديد لفظى •• دقيق •

ومن الأبحاث التى شغلته فى سبيل هذه الغاية (الألوان • فأسماء الألوان بالتحديد مشكلة يعانيها كتاب القصة • وفى سبيل التحــديد أيضا ملازمته لكتاب (فقه اللغــة) كما أشرت •

إن اللفظ عند يحيى حقى فى دقته وتكامله واضطلاعه ، وحده ، بالمعنى المقصود ، تجربة تعبيرية .

* * *

وأسلوب يحيى حقى أسلوب مرح تحمل ألفاظه من المعانى أكثر مما تجود به الحروف . وهو فى سبيل تحقيق الدقة التى يتوخاها حارب الربط بين الجمل بالطريقة القديمة مثل (بيد أن) ، (مع أن) وأشباهها مما يجعل القارىء طفلا محتاجا إلى أن يمسك بيده خشية السقوط حين يريد أن تكون الصلة بينه وبين قارئه صلة ذهنية ككتاب الغرب . ومن الطريف أنه فى سبيل هذه الغاية ، يحذف حروف العطف ثم تأتى المطبعة فتضيفها ! ويحدث أحيانا أن يكتب الجملة عشرات المرات حتى تستقر فى موضعها مطمئنة فيه وقد لا يوحى بهذا الجهد الشاق المتصل تدفق أسلوبه وعفويته حتى ليظن قارئه أنه لا يشقى فى التعبير ، وأنه عليه جد يسير . ولكن الكاتب يكشف عن سر صنعته .. عن سر هذا التدفق بعينه حين يقول : (قد أكتب الجملة الواحدة من سطر ونصف أكثر من ٣٥ مرة ولكن لا أضعها مكانها إلا إذا شعرت انها جاءت متدفقة) مجلة الآداب يوليو سنة ٦٠ .

* * *

وقد وقف هذا الولع بالدقة والتحديد فى طريق القصة الطويلة ومن طبيعتها الفيض والانسياب . ومن ثم كانت القصة القصيرة وسيلته إلى التعبير عن قطاعات من الحياة مغمورة قد لا يحتفل بها أحد ولكنه هو يروق له أن يقف عندها ويتعمقها ويعكسها فى كثير من التحليل والتفصيل فى نغمة حزينة حزنا رقيقاً يتأثر بها الكاتب الشرقى والقارىء الشرقى على سواء .

* * *

وقصص يحيى حقى وقفات (شعورية) على طريق الحياة ، أمام

تجارب بسيطة قد لا تستوقف الكثيرين ولكنها تلذه هو ويرى فيهـا أعماقا وأبعادا لا تنفذ اليها العين العادية •• أعماق لابد لها من فنان ••

* * *

ويحيى حقى أدبه أدب ذاتى يبث فيه خلجاته هو • وهو ينبع عن نفسه حتى حين يختـار ألفاظه • فاللفظ العامى حين يعذب فى موضعه من الجملة أو يوحى لا يتردد فى نظمه فى السطر فى حفاوة لا تخفى بل إن حبه للالفاظ المصرية النابعة من صميمنا والسـارية فى لغة الحياة اليومية يقف وراء اختيار اللفظ الفصيح فهو حين يكتب مثلا : « لو كان عندنا معهـد للحب كان (احسـان) كاهنه الأول » • تلمح عينى وراء لفظ (كاهن) كلمة (كهين) •• العاميـة •

* * *

ويحيى حقى منبث فى قصصه فقصة « قنديل أم هاشم » نبعت من نفسـه بعـد أن عـاد إلى مصر من أوروبا • فأدبـه أدب ذاتى فيـه خلجاته هو •

وفى قصة (إمرأة بغير زجاج) حيرته فى البحث عن نموذج • إنهـا قصة تحس معها أنـه يتمنى أن يعيش إلى جـوار فنـان ، إلى جـوار (قطب) •• إنه يهفو إلى الصفاء الروحى يترشـفه ويتملاه •• ولكنه لم يظفر بضالته المنشودة • هل صدمه الواقع ؟ أم أن تلهفه على الجواب السريع أفقده الصبر على التأمل ؟ إنه عندما يقرأ كيف تعـلم جى دى موباسان على فلوبير لا يخفى حسرته على الفرصة التى لم تتح له مطلقاً أن يتتلمذ على أحـد كبار كتابنا • ولعـل من قبيـل التعويض النفسى احتضانه للناشئين •

ولعل هذا الشوق كان يعمل فى نفسه حين اختـار زوجته الرسـامة ليعرف من خلالها الفنان فى صوره كلها •

أما كتابه (صح النوم) فقد نبع من شعوره بالثورة .. من شوقه إلى زعيم ثم تجاوبه مع هذا المثال حين يضطر الى العزلة وحين تفرض عليه الزعامة قيوداً ترهقه .. قيوداً تحـد من حديثه .. من فراغه .. من صداقاته .. كل يغدو عنده بمقدار .. إن وحدة الزعمـاء قاتلة وخير تحية تهدى إليهم إحساس الطبقة المثقفة بمعاناة الإنسـان فيهم من كبت أشواقه . وقد عبر يحيى حقى عن هذا كله فى (صح النوم) . إنه فيـه يعنى بالناحية الإنسانية فى الزعيم ..

* * *

و (صح النوم) بعد هذا يعد من الناحية الفنية ، أقرب كتبه إليه لأنه مجلى دعوته إلى التحـديد .. وقد طبعه على نفقته وأصدر منـه خمسة آلاف نسخة لم ينفق منها غـير ١٣٠ نسخة . ولعـل إحساس الأبوة له دخل فى قرب هذا الكتاب من نفسه فقد يكون الكساد الـذى منى به على قيمه فيه ، عطفه عليه كمـا يرى الأب أحب أبنائه إليـه مريضهم حتى يشفى .

ويضحك يحيى حقى ضحكة ذات معان وهو يقول :

« قـدر وضعنى مع الفقراء على الرصيف » وهى عبارة طريفـة تحـدد مصير كتبه وتفسر أسماءها . وهكذا لا يفتقد التحديد حتى إذا توسل فى التعبير بالكنايات وبالسخرية أيضا .

* * *

ومن كتبه الأثيرة عندى على الأقل ، كتابه « خليها على الله » الذى وصف فيه المظالم الواقعة على الفلاح وصفا لا يبارى .

* * *

ويحيى حقى وإن كان قاهرى النشأة إلا أنه لـه صلة بالريف عن طريق المحمودية . وبين أوائل قصصه قهـوة ديمترى — وهى قهـوة

ببندر المحمودية — نشرت سنة ١٩٢٦ فى السياسة اليومية وإن لم يضمنها أى مجموعة • لعله اعتبرها من المحاولات الأولى •

* * *

وهو من المدرسة التأثرية إذ وجدها آخر المطاف أكثر قربا إلى نفسه • وقد عاش زمنا عاشقا للمصور (ويجاس) وصوره •

* * *

وكاتبنا تلمح عينه السمات والحركات • وقصصه لقطات سريعة لحركة أو تعبير • وهو لا يحتاج إلى أضواء كثيرة تبرز له موضوعه فكثيرا ما انفرجت همومه الفنية عن زوايا ، مهجورة ، كما آثرت ، زوايا تعيش فى الظل •

ومن أمثلة (عفوية) أسلوبه أنه يكتب على الطبيعة فاذا غاب منه شىء جاوزه فى بساطه من مثل قوله (وراء كل قضية قصة • كم كنت اتمنى فى ذلك الوقت أن اشتغل كاتبا لمحام شرعى كما قال « • • • » إنه كان يتمنى أن يشتغل بوابا لماخور •••) خليها على الله ص ٥٠ •

* * *

وفى أسلوبه جدة وطرافة وليدة انفعاله الشخصى كقوله (إن منازل القرية المتداعية ستظل كإخوان الصفا متماسكة بعضها فى حضن بعض لا تزعزعها زلزلة القطار ••• (١) أو قوله (له ابتسامة) تميت النقد من قبل أن تنطق به الشفتان) أو قوله فى وصف الأشتات :

(لا يجمعهم رباط واحد ، شأن ضيوف « الالبوم » الغريب فى قفا القريب أو كهذه المرايا المضحكة فى حدائق الملاهى مصطفة جنبا

---

(١) « صح النوم » ص ٥٩ •

إلى جنب تنطق المار امامها برســوم متباينة ومــا هى جميعا إلا رسمه هــو •) (١) أو قــوله (كنت محتاجا إلى يــد تدلك عن رقبتى وركبتى تصلبهما من ركوب الحمار ، وتدلك أعصابى أيضا لأنها كالزنبرك هــو وحــده الذى إذا انفــك تعقد (٢) •

* * *

وهو إذ يكتب تستهويه (العامية) أحيــانا وإن كان دائمــا يعلن تعصــبه للفصحى التى يكشف تاريخ الاستعمار معنــا عن محاربتهــا والترويج للعامية واللهجات الدارجة (٣) •

ومن أمثلة استعماله للعامية قوله (ووقف الفــلاح وحــده يقلب الورق بين يديه كأنما عثر على حيوان عجيب يتلوى فى خشخشة الــورق أنين خوفه • ولكزت حمارى هارباً من منظر عينيه وهو (يبربش) بها •

* * *

وهكذا تتمثل علاقته بالعامية فى إحياء ألفاظ فيها معبرة غنية الدلالة قوية التصوير للمعنى المــراد مثل لفظه (يبربش) هــذه • إن لفظها بصوته وانعكاسه وايحائه والصورة الماثلة له فى الذهن يغنى غناء تاما بل غناء مفردا عن جملة أو جمل تشير الى المعنى ولا تستقصيه • ولكنه يقف عند حدود الألفاظ لا يتعداها إلى الجمل اللهم إلا فى الحوار كما سبقت الإشارة • إنه يبحث أولا عن اللفظ الفصيح الدقيق فإن وجده مستساغا سعد به وإن لم يجده فضل استعمال اللفظ العــامى ليعبر من خــلاله تعبيراً مباشراً هو عنده خير من اللف حــول المشكلة أو الهروب منها • ولو انى أعثر فى قراءاتى له على ألفاظ عامية فيما يقابلها بالعربية ندحــة عنها لو أراد • وأنا أعنى هنا قوله فى كتابه « خليها على الله » (الصبية

---

(١) صح النوم ص ٥٩ •

(٢) صح النوم ٧٢ •

(٣) اقرأ مجلة الآداب ص ٦٩ •

يلهثون من ورائى وعلى جانبى كأنهـم كلاب عطشى مدلدلة الألسن)
هنا مثلا لفظة (مدلاة) الفصيحة أحكم فاللفظ العامى هنـا لا يزيـد
شيئا فى المعنى أو الجو أو الصورة .

* * *

هل هو إعزاز للشعب وإيثار للغته ؟ حب أشربه طفـلا فإن أسرته
كما يقول — لشد ما يذكرنى بالمازنى فى مثل هذه المواضع — كان يشملها
منذ وعيت روح من الديموقراطية والشعبية لا أدرى من أين جاءتها .
هى طبع وخلق . لا ثمرة علم واقتناع . فما دخل بيتنا خادم إلا خالطنا
مخالطة الأهل . لم ننظر قط بأنفة الى القصاب والبقال وبائعـة الجبن
والصابون ، ولكنى أظنها ديمقراطية معاملة فحسب فلو جاء لأمى خاطب
يطلب يد ابنتها لقدمت الموظف الصغير على التاجر الميسـور لا تفضيلا
لطبقـة على طبقة بل بحثـا عن الاطمئنان ، باتصـال الرزق على نمط
مضمون وفى موعد محدد ، ولفضلت أيضاً المطربش على المعمم والمصرى
على الأجنبى أيا كان سبحان مغير الأحوال) « خليها على الله » .

* * *

وقد شارك يحيى حقى القصاص ، فى حركة النقد فكتب ناقداً هذه
المرة ، عن مسرح كليوباترة ، وعن مجموعة (سخرية النـاى) لطاهر
لاشين ، وعن أهل الكهف ، وعـودة الروح لتوفيق الحكيم ، ثم ديوان
رامى .

وفى الأيام الأخيرة شارك أكثر .

كما أسهم يحيى حقى فى الترجمـة فراجع أخـيراً مسرحية الكترا
للكاتب جـى رى دف وهـو الآن معنى بترجمـة مسرحيـة فكاهيـة
Jules Romains Kneek والترجمة الأمينة عنـد يحيى حقى وسيلة لتكميل
اللغة بالعثور على الألفاظ التى تنقصنا . وهـو حفى بها يرى فيهـا
النافذة التى يطل منها على تجارب أعرض وأعمق . يستهويه أن يختار

منها لوطنه ألواناً لاسيما أنه يرى فى بعض التراجم الموجـودة مسخاً للعمل الفنى الأصيل الشيق وتشويهاً له •

ولعـل سر حفاوته بالترجمة ، فى طواعيتها لـه • فإن التحـديد الأسلوبى الذى يكلف به مما يعين عليها •

❊ ❊ ❊

وكما يشتهى أن يترجم للآخرين فقد وجد من يترجم له فترجمت إلى الفرنسية قصصه : قنديل أم هاشم — البوسطجى — صح النوم — كنا ثلاثة أيتام — السلم الحلزونى •

وهذه الأخيرة ترجمتها إلى الفرنسية مجلة ميلانج للدنيميكان وهى تصدر مرة واحدة فى السـنة •

❊ ❊ ❊

أما فى مصر فقد تناول كتبه بالنقـد والتعليق الدكتور طه حسـين الـذى كتب عن (صح النـوم) •• والدكتور على الراعى فى كتـابه (دراسـات فى الرواية المصرية) والدكتور نعيم عطية (١) •

كما تناول كتاب (فجـر القصة المصرية) الأستاذ أحمد رشـدى صـالح •

❊ ❊ ❊

ويحيى حقى القصاص الفنان سمعته يطوى صدره على أمل ••• إنه يود أن يترجم حياة (أبى معشر) الذى وضع علم السحر • وأبو معشر عالم دينى صوام قوام خرج من بلده قاصدا الحج فنزل فى طريقه عنـد

---

(١) بحث بعنوان « لوتريك فى منفلوط » مجلة الكاتب عدد نوفمبر سـنة ١٩٦٣ •
بحث بعنوان « تجربة الكتابة الأدبية عند يحيى حقى » مجلة الكاتب عدد مايو ١٩٦٦ •

الفيلسوف العربى (الكندى) فتغير مجرى حياته حتى لقد ترك الحج واشتغل بالنجوم والعرافة .

ومن أمانى يحيى حقى الأدبية أن يكتب عن مواقف حزينة أو (بالتحديد)

. . وفاة الرسول .

. . موقعة قرطاجنة ووفاة هانيبال فيها .

. . المتنبى حين رماه سيف الدولة بالدواة فى وجهه .

. . اجتماع هتلر بموسيلينى .

وأخيراً لعل من أظهر أمانيه أن يترجم من لغات أجنبية إلى العربية .

* * *

والآن نقف وقفة متأنية أمام « فن الصورة عند يحيى حقى » . وموضوع (فن الصورة) يعود بنا مرة أخرى إلى المقارنة بين يحيى حقى والمازنى .

(فالمصرية) ، والشعبية والسخرية خطوط عريضة فى أدب الكاتبين ولا أقصد بهذا كمال وجه الشبه بينهما .. فالمازنى يمد فى اتجاهاته الشخصية المرسومة طولاً وعرضاً ليمد لنفسه فى السخرية منها ولقرائه فى الضحك منها أيضاً . فالصورة عنده على نقد فيها خفاف وظاهر ، كاريكاتورية . أما يحيى حقى فإنه يعرى الأشياء وكأنه يزيح المظاهر البراقة عنها وعن الناس لينفذ مخترقا الجلد والعظام .. نفاذه مخيف .

المازنى سهل .. سخريته من الظاهر فقط وهـو لا يتجاوز فيهـا حدود الفكاهة فهى سخرية فكهة مجرد (تريقه) . أما يحيى حقى فإنـه يسخر لهز الشخصية التى وقعت عليها عينه .. بل ليهز الدائرة المحيطة بها كأنه يرمى حجرا فى المـاء . عملية خلخلة فى وضع فاسد .. يحيى حقى هادف يتلهف على التغيير والتهذيب والصقل لتستقيم أمور الناس ، ويصفو العيش للأحيـاء ولكن المازنى لا يريد تحويراً أو تبديلا لقـد عرك الحياة وعركته الحيـاة . فغدا يأخذها كما هى فى استعلاء عليها واستخفاف بها أحسنت أم أساءت .. استخفاف يتمثل فى الضحك منها وإشراك الناس فى هذا الضحك . المـازنى يسخر ليضحكنا وينفس عن نفسه وعنا ولكن يحيى حقى يسخر ليبكينا وإن قرر غير هـذا . يسخر لنفيق ونعيد النظر فى حقيقة أنفسنا التى تخفيها زيوف كثيرة كالمـال والبريق والشهرة والتعلم وفاخر الثياب .. أو تكيفها أوهـام كاذبـة أو شعارات خادعة فالأب يقتل ابنته التى عاش على (عرق أحضانها) زمنا طويلا متسترا وراء الشعار التقليدى الضخم (الدفاع عن الشرف) هذا الشعار الذى استيقظ من سباته فجأة عندما انقطع عنه المدد ..

يحيى حقى على الرغم من (قفشاته) كاتب جاد حين كان المازنى فى حيـاته اليومية وفى أدبه كثير العبث أو كمـا يسميه الأستاذ العقاد الطفـولة الخالدة فى طبيعة الموهوبين التى تملك قابلية التجدد باستمرار وجدة الشعور Freshness .

❋ ❋ ❋

كان المـازنى كثير العبث .. كثير الدعابة . ولعـل كتابه (رحلة الحجاز) يؤكد هذا فقصته مع وكيله داخـل الكعبة وقصته مع العفريت الذى زعمـه فوق أكتافه ، وقصته فى سـوق مكة وندائه على الجنيه المصرى الذى اقترضه من صديق ، وصورته على مائدة الأمير حين دفع يده فى خاصرة الخروف كما يزعم ، وقصته مع العبد الذى اتخذ منـه عمودا ينحدر عليه إلى الأرض ، كلها تقول إن المـازنى فى هذا الكتاب

(فايق ورايق) . حين نجـد (يحيى حقى) مهموما دائما بعيوب الناس ووجوه النقص فى المجتمع .

❊ ❊ ❊

يحيى حقى على الرغم من سخريته ، دائم الجد كبرنارد شو وإن اختلف الرجلان فى الروح والطابع ووسيلة التعبير . إنه مثله سخريته وراءها فكرة وليست لله فى لله غير أن الفكرة عند برناردشو مقيمة ينزلها من أدبه فى قصر كبير ثابت الدعـائم موطد الأركان . يسخر من الجندية وشرفها المزعوم فيؤلف (ايناس الجـديد أو الأسلحة والرجل) ، ويسخر من الزواج وقدسيته التقليدية فيكتب (مهنـة مسز وارن) ، ويسـخر من الدين ونفاق المتدينين فيكتب (الميجر بربارا) ، ويسخر من الاستعمار وتعميره الكاذب فيكتب (جزيرة جون بول الأخرى) وهكذا .

الفكرة عند برنارد شو لا تقنع بما دون الرواية الطويلة أما يحيى حقى الذى يحنو على المقلين والمساكين فالفكرة عنده تعبر عنهـا سطور أو قصة قصيرة وما بالقليل هذا ولكنه اختلاف الوسائل .

ويحيى حقى مرة أخـرى يشبه من كتاب الانجليز سويفت فهـو ولوع بتوضيح الصورة بالمتناقضات فى الأشخاص والأشياء وسأوضح هذا بعـد قليـل .

❊ ❊ ❊

أما المازنى فيشـبه أناتول فرانس وإن لم يتأثر به فسخريته مثله إنسانية عليها مسحة حزن وهى ليست قاسية رغم ملاحظاتها الشـديدة كسخرية سويفت . إن سخرية المـازنى كأناتول فرانس تنطـوى على سماحة فكلا الرجلين يأخـذ الأمور مأخذاً سهلا .. قد يوضح الطريق ولكنه لا يكلف نفسـه رسم خطة الإصـلاح ..

سخرية المازنى كما أشرت فى دراستى لـه ، كسخرية مارك توين

الكاتب الأمريكى المشهور (١٨٣٥ — ١٩١٠) وقد تأثر المازنى به كثيرا فى أدبه الساخر .

❊ ❊ ❊

مفتاح شخصية يحيى حقى وأدبه معا تعثر عليـه فى صفحة ١٣٩ من كتاب (فكرة وابتسامة) . هناك فى موضوع (فضائل فى الثلاجة) هناك تمسك عينك يحيى حقى متلبسا بسبحاته أو أحـلام رؤاه أو أحلام يقظته كما يريد هو أن يسميها . وفيم ؟

(إنما كنت سرحانا فى تأمل هذا الشعور الغامض الخفى المتخلف فى قلبى بعد معاشرة أنماط مختلفة من الناس . وشيئا فشيئا يتكشف هذا الشعور الغامض عن احسـاس واضح بأن حياتهم يكمن فيهـا ، كالقبح . غلط مستور ولكن ما هو ياربى هذا الغلط ؟ الذى لاشك فيـه عندى أولا أن هذا الغلط المسـتور هو وحده مرجع شقائهم فى الحيـاة وفقدانهم لـذة التمتع بمباهجها وسبب اضطراب أرواحهم وانزعاجهـا رغم الهدوء الكاذب على وجوههم بل هـو علة ترددهم بين الرضا عن النفس ومقتها ، هـو مصـدر ما يتضمنه مسلكهم من متناقضات يعسر تفسيرها ويعسر بالتالى الحكم عليهم هل هم أخيـار أم غير أخيـار — تعبير مهذب عن الشر يفصح عن رجـل السلك السياسى — أود بادىء ذى بدء أن أؤكـد لك أن الذين أتحـدث عنهم هم أناس من معـدن طيب ولا ريب نفوسهم غير فاسدة ، وأنا من المؤمنين بأن الإنسان مفطور على الخير لا الشر ..) (١) .

هذا حين علل المازنى سخريته بقوله (لـو وسعنى أن املأ الدنيـا سرورا واغتباطا لفعلت فإنى عظيم الرثاء للخلق وأحسب أن هذا تعليل ميلى للفكاهة . فإنى أتسلى بها وأنشـد أن أدخـل السرور على قلوب الناس لاعتقادى أن عند كل منهم ما يكفيه من دواعى الأسى ، وما دام

---

(١) كتاب « فكرة فابتسامة » ص ١٣٩ — ١٤٠ .

فى الوسـع أن نعرض عليهم الناحيـة المشرقة الضاحكة فلماذا نغمهم ونحزنهم •• ثم إن للفكاهة مزية أخـرى هى أنها أقوى ما أعان على احتمال الحياة ومعاناة تكاليفها والنهوض بأعبائها الثقال • فهى ليسـت هزلا ولا تسلية فارغة وإنما هى تربيـة للنفس والرجـل الـذى يلقى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم — لا الأبلة الغافل خير وأصلح ألف مرة من الـذى لا يـزال يديـر عينيه فى جوانبها الحالكة ويندب ويبـكى ويعول • ولو نفع السخط والغضب والبكاء لقلنا حسن فلماذا لا ننظـر إلى الجانب الوضاء •• أو لماذا نعمى عنه وهو موجـود أى لمـاذا نفقد القدرة على الاحتفاظ بالاتزان أو صحة الوزن للأمور (٢) •

❋ ❋ ❋

وما دام الموضوع قد ساقنا إلى المقارنة • فلا بأس أن نذكر فى هذا المجـال أن المازنى وصف نفسـه **مباشرة فى** (صندوق الدنيـا) و (خيوط العنكبوت) •• وصف طفـولته وصـباه وآراءه فى الحيـاة والناس • • هـذا حين نجـد (يحيى حقى) يطل علينا **من خـلال شخصياته وقفشاته وأسلوبه** فى التفكير والتعبير •• حتى حـين أراد أن يتحدث عن فن القصـة حاورنا فلم يصرح بمذهبه فيها بل سـاقه على صورة رأى فيما يجب أن يكون عليه القصـاص •• أى قصاص • ألـم أقل لك إنه جاد ظاهر الجد أو لعـل أسلوب الدبلوماسية ، وهـو من رجالها ، غلب عليـه •

على أن يحيى حقى بعد هـذه المتوازيات يلتقى مـع المازنى فى فن **التجسـيم** الذى يتمثل عندهما فى الصفات والصـور التى رسـمها كلاهما لمـا زعمـه **قصراً** وإن كان المـازنى أشد مبالغـة كطبيعة فـن الكاريكاتير — الذى كان يمثله فى الأدب •

❋ ❋ ❋

(٢) كتاب « فكرة فابتسامة » ص ١٣٩ — ١٤٠ •

ويحيى حقى كالمـازنى يكره الفلسـفة (١) من بسـاطة الفطرة • كلاهما حنا على العامية حنوا شـديداً من تأصل (المصرية) فى نفسيهما فإن العاميـة المصقولة إن هى إلا العربيـة (المصرية) • ولى فى هـذا الصدد رأى تؤكـده الأيـام يوما بعـد يوم • رأى خرجت بـه مـن دراساتى للكتاب وما كتبـوا •• إن معتنقى (المصرية) كلطفى السـيد وحسين فوزى وتوفيق الحكيم ويحيى حقى والمـازنى ، على تمكنهم من الفصحى وباعهم فيها — مما ينفى عامل العجز أو الاستعلاء مما يعاب به دعـاة العاميـة من القاصرين أو المقصرين — يحنون على العاميـة ويقربونها اليهم والى أقلامهم ، ألا يكمن وراء هذا ، سر ، فحـواه أن العامية إنما هى اللهجة المصرية من العربية •• إنما هى العربية المصرية مظهر استعلاء مصر وغلبة شخصيتها كدأبها دائماً • •

* * *

وبعد هذه المقارنة التى دفعنى إليها يحيى حقى نفسـه بما ذكرنيه من أدب المازنى أخلص للكلام عن كتاب يحيى حقى (فكرة وابتسامة) أو عن يحيى حقى نفسه •• الفنـان •• والإنسـان •• أخلص للكلام عن فن الصـورة عنده •• وهو حديث طويل • هذه صورة :

حى بلدى : وصـورة هـذا الحى من أعمق الصـور فى معرض يحيى حقى ••

حى بلدى : (الاسم مسبوق بكلمة « خارطة » — وهنا يشـترك الاسم فى تعميق « بلدية الحى » البلدى — •• « خارطة » وهى كلمة غريبة مفصلة من أجله وحده المنـازل متلاصقة فى صف واحـد يحازى الطريق بمثابة سور من طابق واحد ، فلا تزال متماسكة ، اللون الغالب هو البياض لأن المنازل من حجر وبغير طلاء ، وكذلك التراب أيضاً أبيض ناعم كأنه طحين به طباشير لوثته تلاميذ علق الحبر بأصابعهم • فى الجو

(١) كتاب « أدب المازنى » ص ٣١١ •

خليط من رائحة حريق القمامة وقماين طوب ودبغ جلود وتنفس قبور اقتربت ولم تصل بعد للفناء • رائحة يشعر بها الغريب لا أهل الحى • للأطفال هنا ضراوة واعتداد بالنفس ، زلنطحية ، لأن مجال اللعب أمامهم فسيح ، الدكاكين منادر والبضائع المعروضة — من حيث الكم والكيف — مقيسة على قدرة أهل الحى لا يشترى الغرباء منها شيئاً انه عالم مستقل منفصل ، قانون الحياة عنده ليس هو التنازع بل التباعد ، هناك إحساس بأن لا أحد يسأل عن أحد لأن كل واحد وإن اقترب بجسمه من الآخر بعيد عنه بروحه كل البعد بسبب مشاغل الدنيا •• مرور النعش — ولو لعروس — لا يثير أقل اهتمام • الفقر هنا جلد ، خشن ، كسطح الحجارة النيئة المقتطعة من محجر قريب لم تجد بعد من يصقلها • فجوات الاثنين كأنما من قرص القمل والبق والبراغيث وإن انفرد أهل الحى بلذة حكها ، آذان العشاء يغلق الأبواب ويضىء الفتايل ويطلق السعال لا تظهر ليلة القدر لا فى أحلام اليقظة ولا فى المنام) •

* * *

صورة كما ترى رسمها فنان غنى الوسائل غنى المادة • فالبيوت وتلاصقها (**المكان) ولونها** والتراب ولونه **والرائحة** وألفة أهل الحى لها فما عادوا يشعرون بها •• الغريب وحده هو الذى يشعر بها لا أهل الحى •• والأطفال والدكاكين والبضائع المعروضة **والكم والكيف ودلالته على العزلة المادية** التى مهد لها قبل هذا بتلاصق البيوت (فى صف واحد يحازى الطريق بمثابة سور من طابق واحد) التى تقابل العزلة النفسية التى يعيش فيها هذا (العالم المستقل المنفصل) العزلة النفسية التى يعيش فيها إحساس بأن لا أحد يسأل عن أحد حتى بلغ الأمر أن مرور النعش الذى يفيق عليه الأحياء على اختلاف مشاربهم لا يثير أقل اهتمام حتى لو كان لعروس •• إن الفنان هنا يعمق (اللامبالاة) بصورة قاطعة •

ثم الجو النفسي الذى تحدده هنا ، وبعمق أيضا ، عمل الفنان حين يقرن الفقر فى التشبيه بالحجارة . الجو النفسى واحد . فالفقر حمل ثقيل ورزء والحجارة حمل ثقيل ورزء .

هناك من عناصر الصورة تدرجه فى وصف الرائحة من (حريق القمامة) و (قماين طوب) و (دبغ الجلود) ثم يجهز على الحظ العاثر (بتنفس القبور) وهنا لم تعد الرائحة الكريهة تطاق .

ويبدو أن قسوة الصورة أعدته — وهو العطوف الحانى — فسخر من أهل الحى قاسيا حين آثرهم (بلذة حك القمل) .

وهناك عنصر الزمن والمقابلة به فى وصف الحى بالنهار وعند آذان العشاء الذى يغلق الأبواب ويضىء الفتايل ويطاق السعال ، ثم تجىء اللمسة الأخيرة للفنان فى ليلة القدر التى لا تظهر فى أحلام اليقظة **ولا فى المنام** .

ولا هذا أيضا !

حتى الترقيم استعان به الفنان فى رسم الأبعاد فلم يستعمل بين العبارات التامة ، النقطة ، لأنها وقفة نفسية وزمنية حين أراد أن يوثق العلاقة بين كل ما فى الصورة من أجواء مادية ونفسية فاتخذ سبيله إلى هذا (التماسك الوثيق) بعلامة (،) الفصلة يتابع بها العبارات فى اطراد منسجم مع صلاحية كل عبارة الأداء معنى كامل أو رسم صورة كاملة ولكنه يريد أن يقول لك خيرا لهذه العبارات والصور الجزئية أن تنتظم فى سلك لتعمق الصورة الكلية وتؤصلها . لقد أدت هذه الحركة الصغيرة (،) الفصلة عنه كل هذا كأن السطور مقدمات ونتائج لا تنفصل .. وهى براعة من الفنان تستفيد من كل شىء حتى (الشكل) .

وكأن هذه الصورة التى تحارب الفقر (هدف يحيى حقى) بتصوير بشاعته فى العين وعلى النفس لم تستنفد كل طاقته الفنية ومرئياته المادية

والمعنوية فأفرغ الباقى من شحنته الحانقة على الفقر الرائية للفقراء فى صورة أخرى ، تضاهيها من حيث التصـــوير وتعميق الأبعــاد المرئيــة والنفسية ، أثرا وروعة .

حى قــديم :

تجد خبره فى الجبرتى منازل من طوابق متعددة كبيرة السلم كحل والدرجات نصف متر ، والحجرات أكثرها مسروقة منازل بسيسة تقف بقدرة قادر وبفضل تســاند بعضها ، وبعض أعمى يطلب من أعمى أن يأخذ بيده ليعبر معــه الطريق هى أوقاف تحمل أسماء شركسية وتركية ومصرية ، أســماء لها رنين كشــذى زجاجة عطر فارغــة ماركة (مية القسيس) نســيت فى قعر صندوق — وفجــأة (على طريقة يوســف إدريس) — مسجد هو تحفة **وآيه** من حقه أن يمسح بمنديل من حريــر ويوضع على صينية من ذهب . اللون الغالب هو الرمادى ظل سحب مــن الذباب والتراب أغبر لــزج من الرطوبة والرائحــة خليط من مرحاض وتعفن زبط وقمامة وجثة قطة وبهارات وكسب بذر كتان فى سيرجه غير بعيدة . الأطفال عليهــم ذل الأسرى فى معسكر اعتقال ، الفقر هنا جلده ناعم كقماش زكيبة أبلاه طــول الامتهان ، الحيــاة هنا ليست تنــازعا ولا تباعدا بل هى زحــام وامتزاج واختلاط روك ووســية ، ومع ذلك لا يحس أحــد بأحد لأن كل واحد قريب كل القرب من الآخــر فلا يرى فيه إلا نفسه ، حيــان مختلفان ولكن يجمعهما على الفقر قانون نصــه كالآتى : المــادة الأولى والأخيرة لا يسأل أحــد عن أحد .

إن أردت أن تطلق على هــذا الحى اســما رمزيا يشــير بالكناية وحدها إلى ما فى المأساة من ذبح وإراقة دماء فسمه : الدرب الأحمر .

* * *

هذه لوحة علقت فى معرض يحيى حقى إلى جانب اللوحة الأولى لتميزها بالأضداد والتضاد : فالمنازل هناك طابق واحد وهنا طوابق متعددة واللون الغالب هناك البياض واللون الغالب هنا (الرمادى) الذى يدكن حتى يصير (كحل) فى بير السلم . والتراب هناك أبيض والتراب هنا أغبر والأطفال هناك زلنطحية والأطفال هنا عليهم ذل الأسرى فى معسكر اعتقال . الفقر هناك جلده خشن والفقر هنا جلده ناعم نعومة النضوب .. الرثاثة .. البلى .. الضعف بعد أن ذهبت خشونة القوة وقوة الاعتداد .. الحياة هناك تباعد والحياة هنا زحام وامتزاج واختلاط يبلغ أوسع مداه فى كلمة (روك) .. وفى كلمة (وسية) ..

ومع ذلك لا يحس أحد بأحد لأن كل واحد قريب كل القرب من الآخر فلا يرى فيه إلا نفسه .

عمق التعليل يجعل من الشجى قمة وحده .. قمة يلتقى عندها الحيان اللذان يجمعهما على الفقر قانون (لا يسأل أحد عن أحد) .

* * *

خدم الفنان فى هذه اللوحة **الألوان والمفارقات والملمس والرائحة ثم المقابلة** لتوسيع الأبعاد . فبعد المقابلة فى الصورة العامة تقابل فى الهيئات والألوان وما وراء هذا من أبعاد نفسية يعمق لها الفنان بطريقته الخاصة التى تخفى السخرية فتستعلن وحدها . فمثلا يرسم المنازل المتهالكة المتداعية لولا أن يمسك بعضها كما يقول شوقى من الذعر بعضاً هذا التماسك الذى شد به خيوط الصورة كلها بتخديم فن الترقيم فوصف الحى كله ليس به نقطة واحدة على الرغم من تمايز الجمل والعبارات .. إنما استعمل الفنان بالفصلة من أول الوصف إلى آخره ليؤكد أنه شىء واحد .. منازل بسيسة يتألق وسطها مسجد هو تحفة وإيه .. وفى (إيه) هذه شحنة من البهر والإعجاب . .. ما شئت أن تقول حتى ليحق للمسجد أن يمسح بمنديل من حرير ويوضع على صينية من ذهب . ترى كم تكلف ؟ ! ..

دعنا من التكلفة حتى لا نغضب المنـازل (البسيسة) .. ما أريد أن أقوله هو أن المقابلات عنـد يحيى حقى قمم تبعـد عن السفوح بقـدر بعد المسـجد التحفة وإيه — كم تعجبنى (وإيه) هذه — عن المنـازل البسيسة ...

وهناك مقابلة أخرى تكمن فيهـا سخرية خفيفة . فاللون الغالب جعله الفنان « الرمادى » ثم خشى أن تتهمه بالتناقض لاختياره لـونا فخما فى حى قديم فقير فأردف بأن هذا اللون (ظل سحب من الذباب) وكأنه يعلن السخرية التى جهد فى إخفائها ، ليستريح .. فاللون الرمادى من الألوان القيمة الطيعة الودود فهو يأتلف بسـائر الألوان . وهـو لون غير أنانى إذ يظهر الألوان الأخرى إذا التقت معه .. وعلى النقيض من هذا كله . الذباب الكريه المتطفل ..

ومقابلة أخـرى .

الفقر هنا جلده ناعـم .. لقد نفى الفنـان مرة أخـرى التناقض الموهوم . بين الفقر الغليظ وبين النعومة بسخرية عميقة .. انها نعومة الخيش البـالى . نعومة تجىء من الامتهان لا من النعمة .

ومقابلة أخـرى .

الاشارة هنا الى الذبح وإراقة الدماء التى يريد أن يسمى معهـا (الحى) ، الدرب الأحمر ..

الذبح هنا نفسى لأن الفقر ناعم من طول الامتهان حتى الأطفـال عليهم ذل الأسرى هيهات للجـريح الذبيح أن يريق دما أو (يحـدث جـرحا) ..

وهكـذا ترتفع (المقابلة) عنـد يحيى حقى إلى : فن .. لم تعـد صناعة تافهة عدتها لفظان مختلفان ولو على حساب المعنى ولكنها مقابلة نفسية .. مقابلة فى المعنى والجو والحظ فى الحياة .. لقـد ضربت المثل الأول من عالم الأشياء والأحياء . أما المثل الثانى فأسوقه من عالم النساء .

* * *

وهذه اللوحة أطلق عليها يحيى حقى اسم « فاتن » (الست مسترخية على مقعد وثير كانت قد تناولت فطورها وأكلت حتى شبعت وقفت أمامها على بعد تحدده أنظمة الكورنتينات امرأة مسربلة بالسواد شاحبة الوجـــه كسيرة النظرة تحمل على ذراعها طفلة فى خرق رثة ، فى عينيها النونو مسكنة البالغين ورعب راشد أبكم ، هذه هى الخادمة الجديدة التى جاءت تلتمس رزقها بالـــذل وعرق الجبين تبينت منها أنف الست رائحة غريبة عليها لا تعرف لها اسما ، ليست هى البخر ، أو زخمة العرق ، بل هى شىء يجمع بين رائحة الرماد ورائحة أوراق الشجر الصفر حين تنفث عطنها قبل أن تتفتت على الأرض) .

لقد غدت المرأة المسكينة حطام امرأة .. كالرماد الذى تخلفه شعلة متوهجة .. شىء آخر أخطر .. إنى ألمح من خلال التشبيه بأوراق الشجر تهديداً للمجتمع بأن أوراقه الصفر سوف تتفتت على الأرض ..

(استجوبتها الست استجواب وكيل نيابة لمتهم وحددت لها أجـــراً تصرف مثله وأكثر منه فى سهرة واحدة ثم أبت أن تتزحزح عنه « اذا كان يعجبك » قبلته الخادمة صاغرة ودعت بسعة الرزق وطول العمر ، فلما خيل للست أن الخادمة تستحق التجربة اعتدلت فى جلستها ولمعت نظرتها وهى تصوبها إلى الطفلة ببريق خاطف من الغيظ : كيف يمكن أن يترعرع كل هذا اللحم الملظلظ وسط الخرق وعلى صدر مطبق ثم أشارت الى آيـــة الشذوذ .. بالسبابة وقالت :

— إيه ده اللى انتى شايلاه على دراعك ؟

ابتسمت عين الأم وأجابت .

— هذه بنتى فاتن (لا عجب فنحن فى عصر السينما) عمرها ثمانية شهور سابنا جوزى ومشى من قبل ما أولدها .

— احنا عاوزينك وحدك ، شوفى لك صرفة فى بنتك أنا مش عاوزه وساخة فى البيت .

— ماليش حد ياستى ربنا يطول عمرك ويخلى لك أولادك .

— ده شغلك مش شغلى .

— ما يهونش علىّ أرميها عند واحدة من الجيران تخيب أملها .

— أهى زيها زى غيرها .

أشاحت الست بوجهها وتناولت قطعة من الشكلاتة وأخذت تمضغها كأنما عز عليها أن يضيع لها وقت فى انتظار رد تملكه خادمة ..

مدت الأم أصبعا نحيلا لأنه جميل إلى شفة ابنتها تحاول أن تداعبها لتبتسم وتمتمت لها بحنو عميق :

— لو كنت تموتى) .

* * *

وهكذا ترى فى هذه اللوحة سيدتين إحداهما مسترخية — لا جالسة فقط — على مقعد وثير والأخرى واقفة كسيرة النظرة ..

واحدة تناولت فطورها وأكلت حتى شبعت ولم يبق الا الشكلاتـة تتمم بها أثناء الحديث تأكيدا من جانب الفنـان للوفرة والترف ليزيـد الجانب الآخر من الصورة دكنة وحرمانا . الجانب الآخـر الذى تقف فيه منبـوذة كالأجرب أو الموبوء سـيدة شاحبة الوجه . — والجرب والوباء معنى فهمته من قول يحيى حقى عامداً : وقفت أمامها على بعد تحدده أنظمة الكورنتينات .

ومقابلة أخـرى :

ولو أنها هنا من صنع الطبيعة أقصد (اللحم المتطلظ وسط الخرق وعلى صدر مطبق) .

ومقابلة أخرى خفية بين الاسم المقتبس من عالم الأضـواء وبين صاحبته الغارقة فى الظلام والضياع .

ثم مقابلة أخرى بين مداعبة الأم للطفلة بحنو عميق وبين قولها (لو كنت تموتى) مقابلة هى وحدها صورة عنوانها : المرارة •

* * *

إن كتاب (فكرة فابتسامة) كتاب متفكه ، من يأخذ الأمور بظواهرها يقرؤه فى جلسة أو جلستين ولكنى قرأته فى مدة طويلة استغرقت بضعة أسابيع قراءة محتشدة له لم تتخفف قط لأن الكاتب كان جاداً وإن رسم على فمه ابتسامة عريضة • وقرأت بعده كتباً أخرى ولكنى لم يغب عن عينى قط صورة (أم محمد الغسالة) كما ينقش المتحف صورة فى ذاكرة زائر فنان • أنا أراها (لها بسبب وش الوابور هيئة الصماء : نظرة شاخصة وصوت مرتفع النبرة •) أراها وهى تتنزل الصفيحة (المملوءة لتم عينها يتقوس ظهرها وتزم شفتيها وتتفحص موضع قدميها لتحكم وقفتها وترفعها بحزقة تشرخ الحلق لئلا تخرق جدار البطن) ص ١٣ •

أراها وأسمعها وهى تعدد فيبكى قلبى وإن لم تدمع عيناى •

* * *

لم يغب عن عينى قط صورة سيدة الأتوبيس ص ١٥ وصورة البواب الذى يعيش فى زنزانة ص ٧٨ وصورة التائه الصغير ص ١٥٩ وصورة جمهور المسرح إذا غضب ص ١٧٩ وبين هؤلاء صورة عربة الفاكهة ص ٣٤ وصور ضحايا السيجارة (١٦ — ٢٣) ودكان الفول ص ٢٧ •

* * *

لم أنس صورة الأم الشاردة اللب تسير خلف المنادى وصوته رغم عنائه غير مذبوح (لأن يده ليست فى النار ، أما الصوت المذبوح رغم خفوته فينبعث من فم امرأة تتهالك وراءه على شبشب زحاف لا تحسن ستر جسمها بملاءتها لو صب للدوخة تمثال لكان هى ، تردد وراءه ، بأنين « يا أولاد الحلال » ثم لا تزيد إنها تترك إعلان توهان

ابنها للرجل يعجز أن ينطق به لسـانها عرفت من أنينهـا لأول مرة فى حياتى معنى الفجيعة وكيف تهصر القلب) ص ١٦٠ •

ويتكرر النداء كلما غابت الشمس عن تائه جديد فلا يسلب تكراره (وقعه الأليم كل مرة) فى نفس الفنان الحساس •

* * *

فإذا تجاوزنا بالحديث عن فن الصـورة عند يحيى حقى التخطيط العام ومادته ، وصلنا عند نقطة تطور الشخصية • لقد رسم يحيى حقى صورة لفتاة عز عليها القوت إلا فى حمأة الرذيلة فتنقلب (الجلابيـة) المخططة إلى فستان مشجر ، وحذاء الغورية الذى ينفح برائحة دباغة رخيصة تزكم الأنف إلى حذاء من أول الموسكى من مشمع له رائحـة لذيذة أصبحت فتاة متمدينة تفهم فى المودة والرقص وأنواع الخمـور عاشرت الطبيب والمحـامى وتلميذ الجامعـة وعرفت شيئا عن السياسة الدولية ومجمـوعة ضخمة من النكت البذيئة ، حـذاؤها الآن بكعـب ألمونيوم من شارع قصر النيل كل شياكته أنه يعقر قدمهـا وأصابع هذا القدم لا تزال رغم حبسها الطويل غير مضمومة • بلى ثوب الفتاة الشغالة ولبسها ثوب يفرزها عن الحرائر والعفيفات ويـدل عليهـا أينما ذهبت وحيثما جلست ، حتى وهى فى المايوه • يحسبها الرائى وسيمه فاذا تأملها وجد ميل محـورها القديم قد فضح دمامة تجللها من الرأس للقـدم وتنبع من النفس ، ترق فى أول الجلسة غاية الرقة حتى لتحسبها إنسانة مهذبة تبكى شفقة لدجاجة مذبوحة فاذا غولطت فى الأجر بان لها وجـه غليظ متجهم ينطق بالشراسة والقسوة والبغضاء وجهها لوح رسم ملامحه أزميل قوس خدها نصل لامع) « ص ١٢٣ — ١٣٦ » •

وهكذا طور يحيى حقى ، الشخصية ، دون أن يعلن ، من الحـذاء والثوب وأسلوب التفكير والحديث وملامح الجسم أيضا :

فالثوب : جلابية مخططه ، ثم فسـتان مشجر ، ثم ثوب يفرزها عن الحرائر والعفيفات •

والحذاء : حذاء الغورية الذى ينفح برائحة دباغة رخيصة تزكم الأنف ثم حذاء من أول الموسكى من مشمع له رائحة لذيذة ثم حذاء بكعب ألمونيوم من شارع قصر النيل يعقر قدمها .

فإذا لبست « مايوه » : **فالجسم** : وسامته زائفة يفضحها ميل محوره القديم والقدمان أصابعهما لاتزال رغم حبسها الطويل غير مضمومة .

وتصل الدمامة **أقصى** مداها **وأقسى** مداها حين تنكشف خباياها عن نفس دميمة . هنا حكم بالإعدام . .

إن النفس الجميلة تغفر كل قبح يشوب جسم صاحبها ولكن الدمامة إذا طفحت من النفس ولا أقول نبعت — لأن اللفظ يقترن فى مفهومنا بأشياء طيبة — فلا خير يرجى ولا ينال .

والفتاة : شغاله ثم فتاة متمدينة تفهم فى المودة والرقص وأنواع الخمور وتعرف شيئا من السياسة الدولية ومجموعة ضخمة من النكت البذيئة .

والحديث يرق فى أول الجلسة فاذا غولطت فى الأجر غلظ وقسا كوجهها ، الذى تبدو ملامحه رسمها أزميل ..

* * *

ومن أدواته فى رسم الصورة : « العامية » التى يعمق بها الصورة ويحدد خطوطها بما يشبه الحفر كقوله : (وقد يكون الضائع شيخا متجهما بما تحس من صورته أن الأيام قد دعكته وأرهقته) ص ١٥٢ .

هناك (عركته) وهى قريبة من (دعكته) ولكن الأخيرة فى مكانها أقوى وأوسع فى معنى الإيلام المادى والنفسى .

وقوله : الغسيل « يندع » يخيل إلى أن ليس هناك كلمة تغنى غناء (يندع) هذه من حيث الكم والكيف والزمن والوقع فهى شىء آخر غير (ينقط) فى المقدار والطبيعة .

وقوله : امرأة « مريوحـــه » . فيؤدى اللفظ فى مكانه من الحـــركة والهيئة والخرافة ما لا تؤديه ألفاظ منها نزقة ، رعناء ، ولا مخبولة .

وقوله : « تفسخت » روحـــه بما تحمل من انحـــلال وبلى وتفكك وانحـــدار .

***

ومن عناصر فن الصورة عنده (السخرية) يشيعها فى الكلمة والجملة أو الجو العام للصورة .. لا تسرية ولا تسلية ولكن سخرية جادة كثـــيرا ما تقرع ناقوس الخطر .

ومن صوره الساخرة : طبق اللحم ص ٢٥ ، وصـــورة العزول فى الأغانى المصرية ص ٥١ والكذبة الأولى ص ٦٣ والسياح ص ١٠٧ ودعوى الغيرة على الشرف ص ١٣٧ ونساء المجتمع الراقى والفنان ص ١٨٢ .

ومن صور الفكاهة عنده (شـــباك البنك ص ١٨٨) (ملابســـه) ص ٨٥ . وهنا يلتقى بالمازنى أقصد يلتقى الفنانان والأسلوبان فى موضوع واحد : (السخرية من النفس) . كلاهما يتخذ نفسه موضوعا لدعاباته وفكاهته ..

***

وأسلوب يحيى حقى أسلوب مباشر لا تعمل فيه ولا فضول . أناقته أناقة الطبع الفنان المصقول لا أناقة الصنعة .. وقد سبق لى أن وقفت طويلا عند أسلوب يحيى حقى عند حديثى عن كتابه (خليها على الله) .. فحسبى الآن أن أشير إلى لمحـــات جذابة شدتنى . فى ص ١٣٩ يقول : الهواء **طاهر** فيلتقى فى اللفظ البسيط الصفا والنقاء فى قمة .

وقبيل هذا فى ص ١٦٨ ألوان من الفرح : الفرحة الأولى للكون حين أفلت من العدم فرحة كل رسام سابق وقادم حين تحقق لوحته أحلامه ، فرحة كل شاعر كلما نطق الفن بلسانه . وأخيرا فرحة الجذل الذى يقول

عنـــه : (الجذل هو قرار السعادة وجماعها .. إن من يملك الجذل هـــو فى غير حاجة لشىء آخر . إنه يجد له طعما حلوا فى فمه . كل العواطف إلى جانبه أقمار تستمد ضوءها من شمسه الليل حين يغيب هو ولو طلعت كافة هذه الأقمـــار) .

لمحات جذابة فى الأسلوب ولكن أغلى منها وأعذب ، إنسانية كريمـــة تحنو حتى على الخطأ . فالأب المتبطل يتبلد حسه وضميره ويزغرد الشر فى نفسه المظلمة فيتذكر فجأة شرفه الذى أهدرته ابنته وما كان ليتذكره ، لو استمرت فى الدفع وتلبية الطلبات المسعورة فيذبحها ولا يبالى وكأن هذا الهم قـــد طرحه الأب على الفنـــان الغريب ، فيخـــرج القاتل وفى جيبه الأساور ليبيعها بثمن بخس . ويهنأ بليلة فنطزية ، ويترك الأديب . . القلب الكبير يتساءل فى صوت مهموم خافت ممرور ساخر أيضاً : يا هلترى لحظ وهو يذبحها تحت النجفة الكبيرة وبجانب الأباجور الأحمر أثر جرح من زجاجة لمبة نمرة (٥) فى قـــدم من كانت ذات يوم صبية ارتمـــت بين أحضـــانه ؟

* * *

وأسمع (يحيى حقى) حين يعتذر عن الهاربين من الحياة ولا يفوتك خلال الحديث أن تسمع حديثاً آخر عن الموت والحياة .

(الانتحار .. نعم ! فإن أخبار (خرج ولم يعد) تجعلنى كما أحس بأن الموت هوة سحيقة تشفط النـــاس يجعلنى كذلك أحس بأن الحياة هى الأخرى هوة سحيقة تشفط الناس . السقوط واحد والضياع هو هو .. يجعلنى أحس كأنما نمشى على صراط دقيق بين الهوتين وأننا رغم ما ننعم به من أمان وانتظـــام عيش ومستقبل مضمون بقدر علم الإنســـان — احتراس وخوف غامض من المجهول — نعيش مع ذلك فى رهبة دفينـــة مستمرة من أن نزل يساراً فنقع فى هوة الموت أو نزل يميناً فنقع فى هـــوة الحياة ويبتلعنا خضمها . ذلك أن مرض الرغبة فى الهرب قلما يسلم منه إنسان فى العصر الحديث وإن اختلفت حدته) ص ١٦٤ .

* * *

فنان حساس بينه وبين الأشياء ألفة كبيرة ومهما ضربت من أمثلة فأنا مطمئنة لا أخشى ملالا . إن حديث يحيى حقى وخاصة عن بدلتـه القديمة يستهديها البواب يمتع ويشوق .

(هيهات أن يصدق أن أقدم ملابسى هى أحبها عندى ، ليس أنا الذى ألبسها بل هى التى تلبسنى فى غمضة عين انقطعت خشخشتها ، وتودكت كل عـروة على زرارها ، ونعمت أظافر الليف الـذى يحشوها فرقـد واستكان ، الكتف هو كتفى لا كتفها وأصبح باطى والريح لا تشعر يدى وهى تدخـل جيباً أنها تجوس خـلال أرض مجهولة ولا تعـدم وقت الزنقة أن تعثر على عود تسليك أسنان مختبىء كمتهم منذ أن سرقته من مطعم ، جيوب البدل القديمة دافئة أبدا ولو كانت خراباً وجيوب البـدل الجديدة باردة دائماً ولو كانت عمرانة ، انعقـد بينى وبينها صلح هى فيه مخلصة وأنا منافق فلا أستبعد أن أخونها فى يوم وأسلمها بعد عمر طويل إلى تاجر الروبابيكيا) ص ٨٥ — ٨٦ .

* * *

فنان فى حديثه عن الفن ، والفنـان والجمهور ، والفنـان والزمن يسرقه (ص ١٧٧ / ١٨٥) .

ثم حديثه عن القصاص وفن القصة ، ولست أرى لـماذا أحس أن « يحيى حقى » فى هذا الحديث إنما يصف نفسه .

(أنا أريد منه « أى من القصاص » أن ينتفع أتم انتفـاع بـكل ما وهب الله لبنى آدم من بصر وسـمع وشم وذوق ولمس ومن عقـل كالجوهرة ، وروح هيهات أن تفنى إذا بلى الجسد فلا تكون مقلته مرآة صدئه بكماء ، الصورة التى تسقط عليها كأنما تتعثر بها ولا تجـد من يلقطها وتبقى لزجة أو باهتة أو مشلولة بل يترك عينه التى خلقهـا الله له تعمل عملهـا على سجيتها . إنها عدسـة سحرية مستوية لا محدبة ولا مقعرة شأن مرايا حدائق الملاهى .

هذه الكرة الضئيلة الرجراجة التى يفقأها أصبع طفل قادرة على أن تمده بضوء لا يقل عن ضوء المصابيح الكشافة للطائرات أو أشعة اكس .) ص ١٩٢ .

إن يحيى حقى نفسه يملك فى عينه هذا الضوء .

ويطيب عندى قوله عن الفن :

(لا فن بلا صنعة ، ولكن الصنعة فى الفن هى أيضا فن ، وإن قشور الصنعة قد تنال بالتعليم أما روحها فهى روح الفنان ذاته .) ص ١٩٤ .

وبعد فلعل خير تحية أوجهها إلى أديبنا « يحيى حقى » أن أسجل هنا أن حديثه عن الفن وكتابه « فكرة وابتسامة » بل وكتبه قد أغرانى جميعها أن أدرس (فن الصورة) عند أدبائنا .. وفى أدبنا .

أعمـــاله الأدبية

ـ قنديل أم هاشم	١٩٤٣
ـ صح النــوم	١٩٥٤
ـ أم العــواجز	١٩٥٥
ـ دمــاء وطــين	١٩٥٥
« مع أنه يمثل مرحلة سابقة على القنديل ويضم قصة البوسطجى التى ظهرت مستقلة قبل ذلك »	
ـ خليها على الله	١٩٥٩
ـ فجر القصة المصرية	١٩٦٠
ـ فكرة فابتسامة	١٩٦٣
ـ عنتر وجولييت	
ـ خطــوات فى النقــد	ليس عليه تاريخ
ـ دمعة وابتســامة	١٩٦٠
ـ حقيبة مســافر	

محمود تيمور



بلدة قره جولان — درب سعادة — دار عامرة — ألف ليلة وليلة — موباسان وتشيخوف — مدرسة المهجر — مجلة الفنون — الرومانسية — الواقعية — اللغات الأجنبية — الأدب الانجليزى — الأدب الروسى — أربع مراحل (المحلية . موضوعات انسانية . تطور اجتماعى . فلسفة حياة) — أسلوبه الأسلوب التعبيرى أو اللفظى . الأسلوب الكتابى أو الفنى) — تحليله — رسم النماذج — عناصر القصة عند تيمور (التشويق . الحبكة الفنية . عنصر الصدفة) — المرض فى حياة تيمور — حرمان — كفاح فى سبيل مركز أدبى — قصص وراء نشر كتبه — دوره فى ثورة سنة ١٩١٩ — محمد تيمور — نقطة تحول فى أدبه — زواجه — أبناؤه — جوائز — رأى المستشرقين فى أدبه — فن تيمور — طابع قصصه — العامية والفصحى فى أدبه — ايمانه بالثنائية اللغوية .

الابن الأصغر والثالث للمرحوم العلامة أحمد تيمور باشـــا ينتهى نسبة من ناحية الأب إلى الأكراد • والأكراد منهم عنصر ينتهى إلى العرب وإن نفى المتعصبون منهم ذلك ولكن الواقع أن أسرة تيمور تنحــدر من عرب الأكراد •

فأحمد تيمور باشا بن إسماعيل باشا تيمور بن السيد محمد تيمــور كاشف • جاء فى كتاب (لعب العرب) أنه من أسرة كردية كانت تســكن (بقرة جــولان) وهى بلدة بكردستان من ولاية الموصــل ولا يعرف عن هذه الأسرة شىء بالتفصيل سوى أن أحد أفرادها وهــو محمد تيمــور كاشف فارقها إثر خصام وقع بينه وبين أخيه والتحق بالجيش العثمانى •

ولأفراد هــذه الأسرة نعرة وتفاخر بأصلهم العــربى اعتمادا على ما أثبته مؤرخو العرب فى أصل الكرد وجــزم به محققوهم كابن الكلبى وابن خلكان وغيرهما من اتصــال نسبهم بقحطان وأنهم من نسل (عمر مزيقياء) ابن عامر ماء السماء أو أنهم عدنانيون فى قول آخــرين على ما هو مفصل فى موضعه من كتب اللغة والتاريخ • على أن هذه الأسرة تمت إلى العروبة بسبب آخر من جهة الشرف على ما ينقله خلفهم عن السلف وهو علة ورود أســماء أفرادها فى الأوراق والصكوك القديمــة مقرونة بلفظ (الســيد) •

وقدم محمد تيمــور كاشف إلى مصر مع أجنــاد محمد على الذى اصطفاه حين خلصت له مصر ودفعه فى مراتب الجيش حتى بلغ به أعلى مناصب القيادة ولم يقصره على الجندية بل ولاه عدة أعمال من أعمــال البلاد المصرية المسماه إذ ذاك (الكشوفية) ومنها لزمه لقب الكاشف الذى كان يلقب به حتى بعد تركه تلك الأعمــال •

***

أما الأم فيجرى فى عروقهــا مزيج من دمــاء شركسية وإغريقية • والدها أحمد رشيد باشا ناظر الداخلية وصديق إسماعيل باشا تيمــور

جد أديبنا محمود تيمور .. وأحمد رشيد باشا كان اغريقياً يونانيا أسلم وهو فى الثامنة من عمره حين حضر إلى مصر مع الرؤســاء الأتراك . . وأمها شركسية ساعد على جمعهما معا الوضع السياسى فى ذلك الحــين فقــد كان الأتراك متســلطين على القوقاز وتركستان وطشــقند عاصمة تركستان الروسية .

❊ ❊ ❊

ولد محمود تيمور فى حى « درب سعادة » سنة ١٨٩٤ م حيث ينفح الجو عبير المسك والجاوى يتطاير إليه من حى الحمزاوى مربى أبناء البلد ومجتمع مجالسهم . الحى الذى تدور فيــه أحــداث قصة (ســاق من خشب) . وتلقى تعليمه الأول بمدرســة الناصرية الابتدائية والإلهامية الثانوية وهنا دهمه المرض وهو فى طراءة السن وزهو الشــباب مما ألزمه داره واضطره إلى الحصــول على « البكالوريا » عن طــريق المــنزل لا المدرســة .

والتحق بعد هذا بمدرسة الزراعــة العليا ، فطاف به المرض مــرة أخرى وكان التيفود ، فلم يكن بد من الانقطــاع عن الدراســة وإن لم ينقطــع عن طلب العــلم وما إن أبلى من مرضــه حتى التحق بإحــدى وظائف وزارة الحقــانية حيث مكث بهــا سنة كاملة ثم انتقــل منهــا إلى وزارة الخارجية ليمضى فيها ستة أشهر ضاق بعدها بأعباء الوظيفة وقيودها فخلفها إلى الأدب . فأقبل على هوايتــه المحببة « القراءة » التى هى طابع الأسرة الكبيرة المحبة للعلم المضياف لأهله المقتنية أسفاره المستعزة به شرفاً وغنى وجاها وهى التى أفاء الله عليها سابغاً من الشرف والغنى والجــاه .

❊ ❊ ❊

خلص محمود تيمور للأدب فأقبل عليه بهوى نفسه كله يعب منه عللا بعد نهل مستهلا بالأدب العربى . وكانت الأسر الكبيرة تنشىء بنيها نشأة أجنبية ولكن والده أحمد تيمور كانت نزعته وطنية عربية إسلامية وقــد

أورثه هــذا الأب مؤهلات الكتابة • كان يحفظه طفلا وتلميذا بالمدارس الإبتدائية ، عيون الأدب العربى كمعلقة امرىء القيس •

طفل نمته أسرة تكلف بالأدب وتحتفل به وتحتشد له وتهدى إليه (١) أسرة تقــول نساؤها الشعر وترويه وتنفسح دارها لقصادها من العلماء والأدباء والمستشرقين ورواد الفكر فى الأقطار العربية •• وكم ضمت هذه الدار كوكبه تنتظم الشيخ محمد عبده والشيخ الشنقيطى الكبير ومحمود سامى البارودى والشيخ رشيد رضا والشيخ طاهر الجزائرى والشيخ خضر(٢) ونظراءهم من رجالات الأدب والعلم •

ويفتح الطفل عينه على مجلس الثقاة الأعلام وتتفتح نفســه إذ يرى ويسمع ويعى ويختزن ••

***

فى هذه الأسرة وهذه البيئة نشأ محمود تيمور فما إن رويت نفسه من ينابيع الأدب العربى حتى تطلع إلى الأدب الغربى فأعجب بالقصاص الفرنسى « موباسان » والقصاص الروسى (تشيخوف) الذى يعـده القصــاص العالمى الأول ••

عاش محمود تيمور فى أدب هذين الكاتبين وتشربته نفسه حتى صدر عنهما فى مستهل حياته الأدبية ثم نزع إلى الاستقلال بفنه فاستوحى بيئته ونبع عن نفسه بمذخوراتها فنجح فى أن يقدم لنا فنا مصريا صميما نهض بتمثيلنا فى ميدانه فالتفتت اللغات الأجنبية إلى أدب تلك الفترة من حياة تيمور التى نسميها (المرحلة الأولى) تنقــل عنــه نماذج تمتاز بمحليتها ومصريتها الأصيلة ••

***

(١) اهــدت الأسرة التيمورية الى دار الكتب (الخــزانة التيمورية) ولها بالدار قسم خاص بها •

(٢) مهاجر من تونس وتولى مشيخة الاسلام فى مصر وطلب أن يدفن فى مدافن الأسرة التيمورية .

ولعل أهم ما قرأ محمود فى هذا الطور من أطوار عمره « كليلة ودمنة » و « الصادح والباغم » و « ألف ليلة وليلة » التى أثرت فيه تأثيراً كبيراً أذكى موهبته فى التأليف القصصى .

* * *

ومن الأدب الحديث مؤلفات المنفلوطى لنزعتها الرومانتيكية التى وافقت هواه وقتئذ كما استهوته مدرسة المهجر للسبب نفسه وعلى رأسها (جبران) . وقد أعجب محمود تيمور (بالأجنحة المتكسرة) وتأثرت بها كتاباته الأولى وأغلبها شعر منثور وهو ما يسمونه الآن « الشعر الحر » . إن الأمر لا يعدو كونه راحة نفسية .

وكثير من الروائيين بدءوا حياتهم شعراء من الشعور المشبوب .. وقد ترجم محمود تيمور بعض هذا الشعر المنثور إلى قصة سماها (الفرفور والزهرة) ضمنها مجموعاته القصصية .

* * *

وكان محمود تيمور حفيا بمجلة الفنون التى كانت تعرض ألوانا من الأدب المهجرى منها « القصة » التى كانت أشدها إثارة لنفسه واستئثارا بها ..

ثم أغراه أخوه محمد تيمور بلون آخر .. لون جديد من الأدب الواقعى فقرأ (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى وقصة (زينب) للدكتور هيكل ..

* * *

وإذ تعلم اللغات الأجنبية قرأ لموباسان كما أشرنا وزولا لأنه من لونه وفلوبير الذى كان أستاذ موباسان . وقد ترك هؤلاء انطباعاتهم فيه .. إذ كان فى دور الانطباع والتأثر فخرجت قصصه الأولى ذات مذهب واقعى صارخ .

وقرأ من أعلام الإنجليز ديكنز وستيل وسويفت وديفو صاحب روبنسون كروزو ..

وقد لفته إلى أديسون خاصة دراسة ما كولى له فقد نبهته هذه الدراسة إلى لون أديسون الفنى .. ولا يمكن أن يكون تيمور قد خلا من آثار هؤلاء فهو وصاف شخصيات على مثال من ديكنز وأديسون خاصة .

* * *

ولكنه بعد هذا يفضل الأدب الروسى . لقد قرأ طويلا ، من أعلام القصة الروسية ، شيخوف ، وتورجنيف الذى كتب عن الأرواح ، ودستويفسكى وتولستوى ، ومكسيم جوركى الذين أخرجوه من مذهبى الانطباعية والكلاسيكية اللذين سادا أوروبا فى مطلع القرن العشرين . وهو مثل تشيخوف من أنصار الفكرة الواحدة تعرض فى القصة عرضا بارزاً .

رأى تيمور فى الأدب الروسى مرحلة جديدة من التعبير القصصى .. رأى فيه أدبا منطلقا دفاقا متحررا من القيود معبرا عن حقائق الحياة إنه لا يعتمد على الحادثة ولكنه يروع بالصدق الفنى ويحتفل برسم الشخصيات على أن قارئه لا يفتقد فيه الفكرة فكثيرا ما تكمن بين طيات السطور ..

* * *

ونستطيع أن نقسم أدب تيمور الى أربع مراحل :

المرحلة الأولى وكان فيها يختار شخصياته ذات طابع قريب وهو يلمحها لمحا سريعا فقصته «الشيخ جمعة» التى كانت صدى إعجابه بأقاصيص أخيه محمد تيمور (ما تراه العيون) بمنحاها الواقعى ، وصدى تجاوبه مع الدعوة القومية التى كان يعتنقها أخوه محمد أيضا .. لقد كان لوالده وأخيه فى حياته أثر بعيد . قصته هذه ليست إلا صورة قيمتها فى بساطتها وصدقها وهى فى وقتها لون جديد باعتراف النقاد ولكنه اللون المحلى . والمحلية ، كما أشرت فى قصص تلك الحقبة من حياة تيمور ظاهرة بل واقعة .. ولعل هذا سرها فإن صاحب كتاب «Lands of Enchanters» (١) أو أرض السحرة حين

---

(١) Lands of Enchanters. Egyptian Short Stories from the earliest times to the present day. Edited and introduced by Bernard Lewis and illustrated by Ali Nur.

أراد أن ينتخب مجموعة من القصص تمتاز بالغرابة والسحر وقع لاختياره على قصة (عم متولى) .

وكانت المحلية فى ذلك الوقت تشغل محمود تيمور [1] عن الأسلوب والتجديد فيه . وقبل أن نغادر الحديث عن المحلية نذكر أن اخوان هذا الطراز والمتأثرين به صلاح ذهنى ويوسف جوهر ونجيب محفوظ .

* * *

المرحلة الثانية :

وفى هذه المرحلة احتفل تيمور بمعالجة الموضوعات الانسانية المتصلة بالحياة وشخصيات هذا الطور شخصيات نستطيع أن نجدها فى أى مكان .

* * *

ثم تأتى **المرحلة الثالثة** فقد نحا تيمور فى سنيه الأخيره نحوا جديدا هو صدى للأيام التى نعيشها والأحداث التى نحياها .. تطور فنه بتطور مجتمعنا الذى اهتزت فيه الارستقراطية هزة عنيفة لم تجد معها بدا من التأقلم .

ومسايرة التطور ظاهرة فى أدب تيمور فهو ضد الجمود لأن من يقف فى وجه تيار الحياة المتجددة المندفعة يجرفه التيار . وتمثل نزعته هـذه بموضوعها وعنوانها قصة (انتصار الحياة) .

كما تتمثل نزعته إلى مسايرة الأمر الواقع قصـة (خاود) ، وقصته الطويلة (إلى اللقاء أيها الحب) ، وقصة (شمروخ) التى تفسر مقدمتها هذا الاتجاه .

ولعل هذه النزعة تقف وراء زهده فى المذاهب الفلسفية بعامة فهـو لا يؤثر مذهبا بعينه يستأديه التعصب له والذود عنه . والتعصب كما يقول آفة حرية الرأى فضلا عما يحجبه من مزايا الآخرين مما يمكن الانتفاع به ..

---

(١) اقرأ كتابه « ظلال مضيئة » .

وقصة تيمور (إلى اللقاء أيها الحب) تصور صراع تلك الطبقة للتأقلم . كما تعالج قصته (شمروخ) ، وهى الأخرى اجتماعية عصرية ، متابعة التطور العصرى .. مشكلة البترول والحياة الحاضرة فى الشرق الأوسط . ومن قصص هذه المرحلة مجموعات (تمر حنة) ، (نبوت الغفير) ، (ثائرون) ..

* * *

المرحلة الرابعة :

وتتمثل فى محاولة بلورة اتجاه المؤلف فى الحياة وفلسفته فيها وهى آية عمق فنه . إنها مرحلة (النضوج) .

وهذه المرحلة متداخلة فى سابقتها ..

* * *

وقد تطور أسلوبه بتطور حياته وتطور أدبه فإن « محمود تيمور » بعد سنة ١٩٤٣ وقد زادت تجاربه فى الحياة واتصالاته بالمجتمع واطلاعه على الأدب الأوروبى ، عمد أسلوبه إلى الفصحى لإيمانه بسلامة التعبير وقوته « إنه النضوج » .

والأسلوب أسلوبان :

١ — الأسلوب التعبيرى فى اللغة وهو الأسلوب اللفظى .

٢ — الأسلوب الكتابى وهو الأسلوب الفنى .. أسلوب الكتابة .. تكنيك . . الطابع . . طريقة رسم النماذج . . طريقة العرض . . تصوير الأحداث . . .

والأول يهتم به الكاتب بقدر وهو يتغير عند الترجمة إنما الثابت فى المؤلف طريقة التعبير .. طريقة المعالجة التى هى محك الأصالة .

* * *

وأسلوب تيمور الفنى فى قصصه يحتفل برسم النماذج الإنســانية متأثراً عن قصد أو غير قصد بالأدب الروسى كما يهتم بالتحليــل النفسى واستبطان المشاعر الخفية ووصف البيئة .. والأحداث .

* * *

وعنصر التشويق فى القصة لا تفتقده عند تيمور ولعل خير مثل له قصته (إلى اللقاء أيها الحب) .

وقد اهتم محمود تيمور بالحبكة الفنية إلى حد كبير . لست أعنى الحبكة المسرحية ولكنه شوق إلى القراءة .

* * *

وهو يعتمد كثيرا على عنصر « الصــدفة » وحجته فى هذا أن الحياة صدفة وأن الفنان له أن يستخدم أى أداة .. صدفة أو غيرها طالما انه ينبع من الحياة ويصدر عنها بعد أن يتمثلها فى نفسه . وإن من أهم الأمور فى الفن ، استجابة الكاتب لموضوعه وتلبسه بفكرته .. إن الكاتب هــو ممثل أو صنوه .

* * *

وهناك خط عريض فى حياة تيمور أثر فى أدبه وعمّق أثره .. ذلكم **هو المرض** .. المرض الذى عرفه فى السابعة والرابعة عشر والثانية عشر والعشرين والخامسة والعشرين .. إلخ صدمات صحية تبعها الكثير من النواهى والزواجر لا تأكل كذا .. لا تسهر .. إلخ .

ومن ثم عاش فى قوقعة فكان الأدب له متنفسا وتعويضا .. فيه يعيش ينطلق .. يحيا .. على الورق .. من هنا خط الانطلاق فى أدبه .

لقد حرمه المرض من الاستمتاع بالحياة على الوجه الأكمل لكنــه طوعه .. طوع أخلاقه فجنح إلى الاعتدال حتى حياته العاطفية خلت من **الاقتحام والمغامرة** فشطح الخيال .

لقد أدبه المرض فأحسن تأديبه فهوهادىء وادع يتهيب الافراط فى كل شىء وفى كل ناحية سواء فى الماديات أو فى المعنويات سواء سلوكه الشخصى أو فى علاقاته بالناس يبغض العنف والاقتحام والجموح ويحب السلام والمسالمة وسيلة لا تخيب فى نظره فى حل المشكلات • ولكن هذه الصفات فيه لا تحجب معنى كبيرا يقترن به وإن بدا هذا الاقتران فى ظاهر الأمر لونا من المفارقة • فانتاجه الغزير فى تواصل ودءوب تقف وراءه إرادة حديدية استطاعت أن تقهر المرض والضعف والاستسلام •

ومن الطريف قول تيمور فى المرض أو قوله عنه (وآخر ما أذكره لأستاذى الأكبر « المرض » أنه هو صاحب الفضل فيما أبليت من سنين جاوزت الستين) •

بل يزيد : (**لست أدرى لماذا يخطر لى أحيانا أنه لولا هذا المرض لفارقت الدنيا منذ أمد**) •

ان المريض أشبه شىء بذلك « الماجور » الفخارى المشروخ يعيش صالحا للخدمة صالحا **للت والعجن** أكثر مما يعيش « الماجور » الصحيح كما تتحدث بذلك الأمثال الشعبية السائرة • فقد أصبحت أحب مرضى كل الحب وآنس بصحبته أيما أنس ، حتى إن أخشى ما أخشاه أن يتزايل عنى فإن فراقه إياى إيذان لى بالنهاية الحاسمة والمصير المحتوم •

* * *

وخط آخر : **الحرمان**

الحرمان الذى يدفع الفنان إلى الانتاج ويثرى فنه •• وليس معنى هذا أن « محمود تيمور » كافح فى الحياة من أجل العيش •• لا •• إن الحرمان كلمة كبيرة فقد يكون الحرمان من مال •• من عاطفة •• من شىء غير موجود فى بيئته الإنسانية فإن عطف تولستوى مثلا على الفقراء إنما هو

صدى لا فتقاده العطف فى بيئته المترفة .. وينسى اليساريون تولستوى وتورجنيف ويقصرون الحرمان على ناحية واحدة هى : المال .

* * *

وخط الحرمان فى حياة تيمور يبدأ من القمة .. وأعنى أن الحرمان أتاه من الوجدان .. من الوفرة فابن الارستقراطية والجاه ، مال منذ صغره إلى البسطاء فاختلط بالبيئات الشعبية فى « درب سعادة » وفى « الحلمية » وعين شمس التى عاشوا بها حياة ريفية بحته . هناك حيث حضر مجتمعات الفلاحين ولعب مع أبنائهم ، وطرب لأغنياتهم . ولعل حبه للريف عودة إلى الطبيعية .. إلى البساطة وهو يؤكد هذا ، عملا ، فى قصصه ، وقولا ، حين ينفر من تلقيبه بالمليونير أو « الباشا الأديب » ويثور الإنسان الوادع قائلا: لا أنا مليونير ولا أنا باشا ، وإنما أنا رجل فى حالى « مستور » يخدم الفن والوطن . لقد كان لا يألف الأمراء وبيئاتهم الارستقراطية التركية .. متأسيا بوالده الذى لم يذهب يوما إلى نادى محمد على .. إن الارستقراطية التى يعتزون بها هى ارستقراطية العلم .. إن ارستقراطيتهم لو صحت هذه التسمية ارستقراطية مصرية . تجمع إلى مصريتها إسلامية راسخة فقد كان أبوه أول من أسهم فى إنشاء الرابطة الشرقية وهو ممن أسسوا جمعية الشبان المسلمين .

وحنينه إلى البساطة والطبيعة يبدو مرة أخرى فى قصته (نداء المجهول) وفى روايته (رابحة) . (١) فقد اكتسحت العالم بعد الحرب العالمية الثانية موجة نفور من المدنية ... إنسان هذه الفترة محروب صدم فى مثله العليا فارتد إلى الطبيعة وهى ظاهرة بوضوح فى أفلام أجنبية كثيرة . فابن الأسر فى الرواية والذى بلا الحياة وسئمها ، حنّ إلى الطبيعة ممثلة فى (رابحة) بنت الصحراء وان كانت شخصية رابحة غير واقعية ١٠٠ ٪ .

---

(١) كتبت منذ نحو خمسة عشر عاما .. اخذها حسين (بك) سعيد مدير أستوديو مصر فى ذلك الحين .

والغريب أقدر على الملاحظة وأسرع إلى التأثر وأصدق فى الوصف • أليس من الجائز مثلا أن الفلاح إذا تمكن من الكتابة يهرب من واقعه •• من بيئته ؟

وقصص محمود تيمور تصطرع فيها الغرائز والمثاليات ويمتزج الشر بالخير وذلك سر المصابيح الزرق كما يقول • ويتجلى هذا فى قصته (كيلوبتره فى خان الخايلى) ومسرحيته (صقر قريش) وغيرهما وإن كان يهدف إلى الخير ويحفز إليه فى تحليل يستمد من الحقيقة • وهو يقول عن أثر هذه الفترة من عمره ، فى أدبه :

(وهذه الحيوات المختلفة من تلك البيئات الشعبية والوطنية والريفية كانت ينبوعا ترويت منه ما استطعت • ولا ريب فى أن كثيرا من صور تلك الحيوات وأحداثها وشخوصها قد ترسبت فى أعماق وجدانى •• وأنها كانت مددا لى أستوحيه فيما أكتب من أقاصيص وما أرسم من مناظر وأبطال ••

وهو يقول ردا على الدهشة البادية من إيثاره تصوير البيئة الشعبية وهو ربيب القصور (الحق أنى أحسست بواعيتى الخفية أن البيئة الشعبية فى البوتقة الإنسانية الكبرى التى تحتدم فيها ضروب المشاعر ويتوضح فيها الكفاح الاجتماعى وتتجلى المشكلات النفسية على أوسع نطاق • فالبيئة الشعبية هى الساحة الفسيحة لمعركة الحياة ومقاومة التيارات المختلفة ، والاصطدام بمختلف أسلحة القتال •

لعلى أدركت ذلك بعقلى الباطن فرأيت أنه من المحتم لموضوعاتى التى تعتلج فى نفسى أن تخوض هذا الغمار ، وأن تبدو فى ذلك الاطار لكى يتاح لها مجال التألق والإشراق) [1] •

❋ ❋ ❋

وليس معنى هذا أن حياة محمود تيمور خلت من ألوان الكفاح الأخرى فقد كافح فى سبيل توطيد مركز أدبى •• إن حب البقاء يتشكل بأشكال

---

(١) مجلة الآداب عدد سبتمبر سنة ٦٠ •

مختلفة •• حب الظهور أو التفوق الأدبى أو السياسى أو التجارى حتى المجرم يشبعها بدون وعى على طريقته •

لقد عرف محمود تيمـور رفض النشر وذاق مرارته إلى أن ظهرت « السفور » • وكان لأسرته صلة بعبد الحميد حمدى فأرسل له محمود تيمور إحدى محاولاته فرحب بها لأن فيها لونا جديدا من الرومانسية • وقد شجعه هذا ثم أخذت الجريدة تنشر له •

على كل حال لم تكن هناك عوائق شديدة •

***

وقد كان لنشره كتبه الأولى على نفقته الخاصة أثر فعال فقد سفرت له فى السوق •

يضاف إلى هذا عامل الزمن فإن الأقصوصة وقت ظهوره كانت لونا جديدا تلقفه المشتغلون بالأدب وباركوه • ومما يذكر هنا أن أول أثر له « الشيخ جمعه » إنما هو مجرد صورة قيمتها فى بساطتها وصدقها ولكن « ابراهيم رمزى » حين قرأها هلل لها وقال له « هذا لون جديد » •

حتى الكتاب الكبار كانوا فى شغل عن هذا اللون الذى سبقهم إليه كوكبة من الشباب أمثال طاهر لاشين وحسين فوزى ويحيى حقى ومحمد تيمور ومحمود تيمور رواد القصة الأولى بعد صاحب قصة « زينب » •

وبعد هذا اجتذبت القصة « المازنى » و « طه حسين » • قد يكون عملهم أكمل ولكن عمل أولئك كان الأسبق فضلا عن اتصال تجاربهم فى هذا النوع •• وهو اعتبار له خطره •

***

كما عرف محمود تيمور لونا آخر من ألوان الكفاح الأدبى فقد نشأ فى وقت نشأت فيه معه فكرة « المصرية » • وهذا الإحساس بالمصرية سبق

ثورة ١٩١٩ بل هو الذى مهد لها فلم تكن كما يحسب البعض هبة بدون مقدمات بل سبقها وعى متأهب ، استجابة لمنطق الحقيقة والتاريخ ، للخروج من النطاق العربى الإسلامى .

وقد انفعلت البيئة المصرية فى ذلك الحين بحركة السلطة وجمع العمال وجمع المحاصيل والأرزاق .. سلب المال والبنين .

وكان (محمود تيمور) فى زمرة جريدة السفور التى تدافع عن المرأة وعن الأدب الجديد .

وهكذا كان دور محمود تيمور فى ثورة سنة ١٩١٩ دورا أدبيا .. دور وعن الأدب الجـديد .

وقد كان محمود تيمور فى هذه الدعوة متأثرا بأخيه محمد تيمور فضلا عن التيار العام فقد كان محمداً عائدا من فرنسا بعد أن أمضى فيها ثلاث سنوات تشبع خلالها بآراء جديدة فى الأدب والمسرح حملهـا إلى وطنه وبشر بها أثر وصوله فكان محمود بالطبع أقرب الناس إليـه وأشـدهم استجابة له . فاستمد بواكير قصصه من صميم الحياة المصرية . ونجحت التجربة حين أحب « محمد » المسرح (١) واتخذه مسرحا لنظريته المتحمسة « المصرية » فاستوحى البيئة المحلية عدة مسرحيات ناجحة .

وقد غذت أدب تيمور بعد ذلك ورفدته ينابيع كثيرة لعل من أهمها الرحلة الطوافة التى كانت نقطة تحول فى أدبه .. كان اتجاهه قبلها محافظا وكانت تجاربه الأولى فى الكتابة مما لم ينشر ، تقليدا للقدامى فنطق أدبه

---

(١) كان محمد تيمـور يمثل فى حفلة خـيرية فى روايـة (عـزة بنت الخليفة) . وشاهده السلطان حسين . وبعد الحفلة أظهر السلطان أسفه لأحمد تيمور باشا .. ان العاملين فى المسرح والصحافة وقتئذ كانـوا من مستويات لا يرضاها فضلا عن أن هاتين البيئتين كان الرأى السـائد فيهما وقتئذ أنهما هوة تبتلع ضحاياها .

وانطلق بعد أن زار — أكثر من مرة — اوروبا وامريكا وبلاد الشرق العربى وادخر الكثير مما تفيده الرحلة من علم وخبرات وآفاق كيفت نظرته إلى الحياة .. وكتابه (أبو الهول يطير) رسائل كتبها فى أمريكا حين سافر إليها لعلاج زوجته ، إلى ولده محمد سعيد « الذى اخترمه الموت فى العشرين فخلف فى قلبه لهفة حرى تفجر الذكرى دموعها » .

وهذا الكتاب أقرب كتبه إلى نفسه .

❋ ❋ ❋

كما أفادته الرحلات بين الكتب ، الفرنسـية والانجليزية . فمحمود تيمور يجيد الفرنسية وإن واتته هذه الاجادة فى المنزل كما يجيد الانجليزية التى تلقى علومه بها فى المرحلة الثانوية . وهو يفهم التركية .

ولما كانت ثقافة زوجته فرنسية فقد أعانته بل كملته . ويذكر محمود تيمور أنه تزوج وهو فى الخامسة والعشرين حيث لم يتح له المرض ما تتيحه الصحة والعنفوان للشباب من مغامرات تلهى عن الزواج أو تسوف فيه .. وزوجته تعدله مستوى وعقلية . وهى تقرأ كثيرا حتى لتسـبقه أحيانا وإن كان هو الذى يوجهها ولكن لها بعد هـذا فضـل الاستجابة والمضى فى التحصيل .

كان زواج الكاتب موفقا متوافقا هادئا .. الفن بعض خبزه اليومى .. شاهد شبابهما الأجواء الفرنسية والمسارح وغنيت جلساتهما بالحديث فى الأدب حتى لتناقشه زوجته فى كتبه وتنقدها .

وقد أعطى هذا الزواج للحياة ابنتين :

إحداهما نازلى تيمور حرم السيد سليم رشيد بطل مصر فى الرماية ، والأخرى حورية تيمور حرم السيد سامى أبـو الفتوح سفير مصر فى استوكهلم .

❋ ❋ ❋

ومحمود تيمور الذى يعد أحد رواد القصة القصيرة فى مصر قد توجته الحياة الأدبية فيها أكثر من مرة ، فقد منحه المجمع اللغوى الجائزة الأولى سنة ١٩٤٧ .

وفى سنة ١٩٥٠ حصل على جائزة الدولة للآداب .

وفى سنة ١٩٥١ حصل على جائزة واصف غالى بباريس عن كتابه المترجم إلى الفرنسية « عزرائيل القرية » .

* * *

ولعل جائزته الكبرى اختيار المجمع اللغوى له عضوا فيه ، تقديرا لمكانه الكبير فى أدبنا حتى ليقول الدكتور طه حسين فى كلمة استقباله : (وسبقت أنت إلى شىء لا أعرف أن أحداً شاركك فيه فى الشرق العربى كله إلى الآن .. وسجلت به لنفسك خلودا فى تاريخ الأدب العربى لا سبيل إلى أن يمحى ، هو القصص على مذهبه الحديث فى العالم الغربى وأنك لتوفى حقك إذا قيل أنك أديب عالمى بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها) .

كما قال عنه الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى حفل جائزة المجمع اللغوى سنة ١٩٤٧ م (إنه يعرفنا بالجانب الذى يعرفه من مجتمعنا المصرى فهو معلم من معلمى هذا الجيل وهو عامل من العوامل القوية على تعريفنا بأنفسنا) .

* * *

وأشاد به عميد المستشرقين فى أوربا المرحوم أغناطيوس كراتشكوفسكى الروسى والمستشرق المجرى الدكتور عبد الكريم جرمانيوس .

* * *

وأحب قصص محمود تيمور إلى نفسه قصة (ساوى فى مهب الريح) ويعزى هذا إلى عطفه عليها لانه زج بها فى شدائد كثيرة وإن كان قد أخذ بيدها بعد هذا .

* * *

وفن تيمور ربيب الحياة المصرية فهو ينبع منها ويصدر عنها بكل مزاياها وعيوبها . وهو دائما وراء أشخاص قصصه وكأنه يوحى لها ويسر اليهـا حتى لتبدو عليها طابعه من صفاء ووداعة وسماحة نفس . إنها لمسـات يلمس بها الصورة الإنسانية ثم يتفرغ للتحليل النفسى وأحيانا يتداخل اللونان عنده .. وذلك كله فى أسلوب سهل شف تتراءى خلاله المعـانى وتتأدى إليك فى بساطة ويسر على فصاحة ألفاظهـا وبلاغة التعبير .. وهو مع هذا لا يخلو من دعابة وسخرية يغرى بها ما يتغياه موضوعه من نقد صادق أصيل . مثال هذا قصة (كيلو بطرة فى خان الخليلى) .

* * *

وعلى ذكر الفصاحة فى الأسلوب يحل لنا أن نشير إلى أن « محمود تيمور» جنح إليها فى المرحلة الثانية من أدبه . فقد كتب محاولاته الأولى فى المسرح : (أبو شوشة) و (الموكب) و (الصعلوك) بالعامية ثم بالعربية عندما أراد لها أن تكون قصصا للقراءة وحجته فى هذا (أن الأعمال الأدبية الكبرى فى مختلف اللغات أكثرها القصص الفنى وأغلبها يعد المظهر الأرقى للبلاغة فى لغاتها) .

على أنه مما يدخل فى تفسير هذه الظاهرة عندى هدوء الدعوة إلى (المصرية) بعد أن اتضحت الشخصية المصرية بعد ثورة سنة ١٩١٩ وأخذت تعمل عملها فى إحساس بذاتها وثقة بنفسها .. لقد كانت العامية فى مولد القصة المصرية الذى اقترن بمولد (المصرية) مقصودة متعمدة عند كثير من كتاب القصة مع قدرتهم على الأداء الفصيح ولكن الأمر كان تأكيدا للذاتية المصرية فى شتى مظاهرها ومنها لغة الحديث .. لغة الشعب .. الشعب الذى هب يدافع عن وجوده ويتذكر ماضيه ويرسم حاضره .

على أن (محمود تيمور) ـ كان وما يزال وقد بلغ هذا الأوج يؤمن بالثنائية اللغوية التى لامندحة عنها فى أى لغة من اللغات وبين أى شعب من الشعوب فى أى عصر من العصور .. فإن الحياة اليومية الجارية لا تستطيع التوقف لحظة من أجل مواضعات البلاغة ، كما أن الأعمال الفنية الكبرى لابد أن يتوفر لها ، فيما يوفره لها أصحابها ، فنية التعبير ..

مؤلفاته

مجموعات قصصية :

أبو على الفنان	١٩٣٤
زامر الحى	١٩٣٦
قلب غانيـــة	١٩٣٧
فرعون الصغير	١٩٣٩
مكتوب على الجبين	١٩٤١
شفاه غليظة	١٩٤٦
إحسان لله	١٩٤٩
كل عام وأنتم بخـــير	١٩٥٠
شباب وغانيـــات	١٩٥١
أبو الشـــوارب	١٩٥٣
ثائرون	١٩٥٥
دنيا جديدة	١٩٥٧
نبوت الخفير	١٩٥٨
تمر حنا عجب	١٩٥٩
أنا القاتل	١٩٦١
انتصار الحياه	١٩٦٣

قصص مطولة :

نداء المجهول	١٩٣٩
سلوى فى مهب الريح	١٩٤٤
كليوبطرا فى خان الخليلى	١٩٤٦
شمـــروخ	١٩٥٨
الى اللقاء أيها الحب	١٩٥٩

المصابيح الزرق ١٩٦٠
معبود من طين تحت الطبع

صور وخواطر :

عطر ودخان ١٩٤٤
ملامح وغضون ١٩٥٠
شفاء الروح ١٩٥١
النبى الإنسان ١٩٥٦

رحــلات :

أبو الهول يطير ١٩٤٤
شمس وليل ١٩٥٧
جزيرة الحب ١٩٦٣

مســرحيات :

عوالى ١٩٤٢
سهاد أو اللحن التائه ١٩٤٢
المخبأ رقم ١٣ ١٩٤٢
المنقذة وحفلة الشاى ١٩٤٣
قنــابل ١٩٤٣
أبو شوشة والموكب ١٩٤٣
اليوم خمر ١٩٤٥
حواء الخالدة (وقد أخرجت على المسرح وأصابت نجاحا كبيراً) ١٩٤٥
ابن جــلا ١٩٥١
فــداء ١٩٥١
المزيفون ١٩٥٣
كذب فى كذب ١٩٥٣
أشطر من إبليس ١٩٥٦

صقر قريش ١٩٥٦
خمسة وخميسة ١٩٦٣
طارق بن زياد تحت الطبع

دراسات لغوية وأدبية :

فن القصص (دراسات فى القصة والمسرح) ١٩٤٥
مشكلات اللغة العربية ١٩٥٦
الأدب الهادف ١٩٥٩
معجم الحضارة ١٩٦١
مناجيات للكتب والكتاب ١٩٦٢
أنا والمسرح (طلائع المسرح الحديث) ١٩٦٣
ظلال مضيئة ١٩٦٣

تحت الطبع :

كتب بالفرنسية : (مكتبة دار الكتاب الفرنسى)

(٥٤) عزرائيل القرية .
(٥٥) شفاة غليظة
(٥٦) بنت الشيطان .
(٥٧) كل عام وأنتم بخير .
(٥٨) نداء المجهول .
(٥٩) زهرة المرقص .
(٦٠) غراميات سامى .
(٦١) حلم سمارا .
(٦٢) حياة الأشباح .

وظهرت له مجموعة بالإنجليزية تحمل اسم : قصص من صميم الحياة المصرية . (مكتبة النهضة المصرية) .

كتب بالألمانية :

(١) مجموعة قصص نشرها المستشرق الألمانى الدكتور « ويدمار » .
(٢) مجموعة قصص نشرها الأديب الألمانى الهر « كالمر » .
(٣) مجموعة نشرتها وترجمتها الآنسة « آرتل » .

بالروسية :

ثلاثة مجلدات ضخمة نشرتها السيدة كلثوم عوده فاسيلميفا استاذ الأدب العــربى بجامعــة (موسكو) .

باليوجوسلافية :

مجمــوعة قصص (زهــرة المرقص) نشرها مكتب الاســتعلامات اليوجوسلافى ، عدا مجموعات أخرى تعد للطباعة الآن باليوجوسلافية .

بالهنغارية (المجرية) :

مجموعة نشرها المستشرق المجرى الدكتور الحــاج (عبد الكريم جرمانوس) عدا مجموعة (عزرائيل القرية) التى أصدرها بالمجرية المجمع اللغــوى المجــرى ..

بالايطالية :

مجموعة قصص ترجمها المستشرق الإيطالى (جبريللى) .

بالعبرية :

مجمعة قصص نشرها المستشرق (م . كابيلوك) .

بالقوقازية :

(١) مجموعات نشرها اتحاد القوقازيين .

(٢) مجمــوعة نشرت (بالجيروزينية) لغــة القوقاز الجنــوبى فى (تفليس) .

بالازبكستانية :

(١) مجموعة نشرت باللغة (الازبكستانية) بمنطقة (الخزر) .

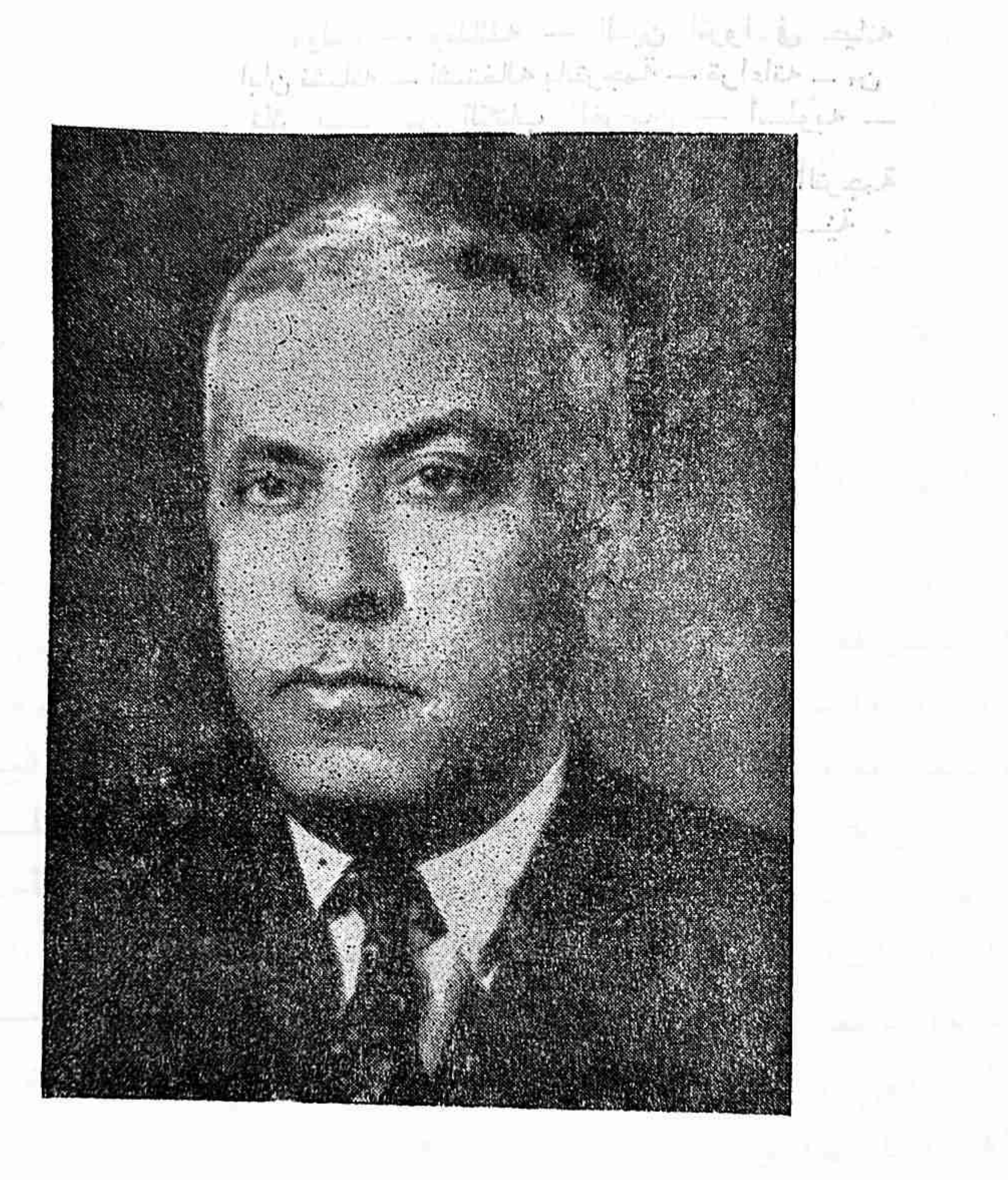
(٢) مجمــوعة أخــرى ترجمهــا ونشرها بالازبكستانية الأســتاذ (كميل يش) .

وقد ترجم له قصص أخرى إلى الأسبانية والصينية والاندونيسية ، والكردية والبنجالية . والأرمنية .

كتب عن (محمود تيمور) :

١ — رائد القصة العربية للاستاذ نزيه الحكيم
٢ — قصة محمود تيمور للاستاذ أنور الجندى
٣ — الأديب الإنسان للاستاذ صلاح الدين أبو سالم
٤ — محمود تيمور وفن الأقصوصة } للاستاذ فتحى حسين الابيارى
٥ — فن القصة عند محمود تيمور }
٦ — أدب محمود تيمور للحقيقة والتاريخ
للاستاذ محمود بن الشريف

علی آدهـم



ـ تعليمه —

مولده — وظائفه ـ الذين أثروا فى حياته ابان نشأته ـ اشتغاله بالترجمة ـ قراءاته ـ من تأثر بهم من الكتاب الغربيين — أسلوبه —

مؤلفاته : فى باب التراجم — فى باب الترجمة فى النقد — فى الأدب — كتاباته السياسية .

الأستاذ على أدهـم

فى كتاب المازنى (حصاد الهشيم) يقـول (قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ، وان يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبـال التى تسـد الطريق ، وبتسوية الأرض لمـن يأتون من بعدهم ، ومن الذى يذكـر العمال الذين سـووا الأرض ومهـدوها ووصفوها ؟ ومن الـذى يعنى بالبحث عن أسماء المجاهيد الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد ؟

وبعد أن تمهد الأرض وينتظم الطريق ، يأتى نفر من بعدنا ويسيرون الى آخـره ويقيمون على جانبيه القصور شـاهقة باذخـة ، ويذكرون بقصورهم وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعـوها سامقة رائعـة والذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد ؟) .

كانت هذه العبارة عن أديبنا المازنى وراء اختيار موضوعى لرسـالة الماجستير فقد هزتنى هزا عميقا فأردت أن أطمئن روح المازنى الى وفاء جيلنا له ولصحبه من الرواد واخترت (أدب المازنى) موضوعا لرسالتى وحسبت يومئذ أن عتاب المازنى قد رضى عنا ورضى بنا ولكنى اليـوم أعود من جديد أحس وقدة هذه العبارة وخزا ، لا من أجـل المـازنى هذه المرة فقد توالت الكتابات عنه ، ولكن من أجـل علم آخر من أعـلام الرواد المجاهيد أسهم فى تسوية الأرض وتمهيدها ورصفها ودميت يداه . ثم جاءت بعده صفوف من الكتاب وراء صفوف وأقام بعضها القصـور على جانبى الطريق الممهد المرصوف والموصوف ونسِىَ هو أحـد الذين اهتموا بالتمهيد وبالتشييد ولكن دون تمجيد .

الكاتب الرائد الذى نسيناه هو الأسـتاذ على أدهـم الذى كتب (تـلاقى الأكفـاء) و (بين الفلسـفة والأدب) و (على هامش الأدب والنثر) و (صـقر قريش) ضمن سلسلة طويلة من أعمـال أدبيـة يعتز بهـا الأدب والفكر . كما ترجـم (قصـة رينيه لشـاتوبريان)

و (محاورات رينان الفلسفية) وراجع عددا كبيرا من الكتب المترجمة الى العربية •

كثيرون لا يعرفون ولا يقرؤون (على أدهم) لان الصعود اليه شاق وجهيد ولا من يريد فى عصر السهولة والسرعة والقراءة المسطحة أو قل اختلاف (الوسائل والغايات) أن يجهد نفسه •

من آخر ما كتب الأستاذ على أدهم كتاب (لماذا يشقى الانسان) وهو سؤال أحسبه عاش فى أعماقه طويلا ، معنى ، قبل أن يرتسم على الورق ، حروفا ••• لماذا يشقى الانسان ؟ يشقى اذا افتقد أربعة لابد منها لحياته : (الحب والتقدير والوفاء والجزاء) فماذا نال منها على أدهم على المستوى الأدبى ؟

قد يكون فى سيرته الأدبية جواب على هذا السؤال • وأهم من هذا قد يكون فيها جواب على الشباب الذى يعشو الى أضواء المناصب بالوقوف على الأبواب أو إراقة العمر على الأعتاب أو تبديد الطاقة فى الهتاف والتأييد ، أو التحزب والتنديد دون استهداف غاية كبرى أو الاستشراف الى قيمة أو قمة فى الحالين على السواء •

كاتبنا الذى تجاوز الثمانين — وبلغتها — ولد بالاسكندرية فى ١٩ يونية سنة ١٨٩٧ فى حى الجمرك فى بيت قريب من البحر وقد كان لموقع بيته هذا أثر فى حياته كانت الأسرة تعيش دائما مع أخبار الغرقى وحوادثهم ومشاهدهم فكان طبيعيا أن تفزع اذا هم فتاها بالذهاب الى البحر فاذا ذهب طار فى أثره من يأتى به راضيا أو باكيا وقد كان من أثر هذا أن نشأ لا يعرف السباحة وكان من أثره العكس أن دفع أولاده اليها وأغراهم بها فدربوا عليها مشايعا العادل عمر بن الخطاب الذى كان يقول (علموهم السباحة قبل الكتابة لانهم سيجدون من يكتب عنهم ولكنهم لن يجدوا من يسبح عنهم) ، أبواه مصريان ولو أن جده لأبيه كان تركيا • ولهذا كان أبوه واسمه محمد جمعه يتشيع للأتراك فلما انتصروا بقيادة ابراهيم أدهم باشا على اليونان أسماه على أدهم •

وفى طفولته دخل مدرسة المنياوى وهى شبيهة بمكتب ثم مدرسة الحجارى (١) ثم مدرسة الشيخ طـه لفترة قصيرة انتقل بعدها الى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية التى أسسها الشيخ محمد عبده وكان بها قسم تحضيرى وقسم ابتدائى • والى هذه المدرسة يعزو دقته فى الاملاء فقد كان القائمون عليها يهتمون كثيرا بالاملاء وكان يقوم بتدريسها له الاستاذ عبد المتعال فكان كلما التقى به فى لجنة التأليف والترجمة والنشر التى ألحقه بها الدكتور أحمد أمين حياه قائلا أنت استاذى أنت الذى علمتنى الاملاء •

وقد مكث على أدهم بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية سنتين هما أولى تحضيرى وأولى ابتدائى • وفى الأجازة درس مقرر السنة الثانية ثم التحق بعد الأجازة بالسنة الثالثة الابتدائية بمدرسة رأس التين قاطعا بذلك عامين دراسيين فى عام واحد • وفى رأس التين درس له الاستاذ عبد الرحمن شكرى • وقد ذكر هذا فى مقال ضاف كتبه فى (المجلة) عقب وفاته سنة ١٩٥٨ ، ومن مدرسة رأس التين حصل على شهادة الكفاءة سنة ١٩١٤ ولم يمض على وفاة والده شهران •

وانتقلت الأسرة الى القاهرة لتكون فى رعاية خاله أحمد فوزى • وفى القاهرة دخل على أدهم الخديوية حيث التحق بالسنة الثالثة الثانوية بها ثم انتقل الى السنة الرابعة ومنها حصل على البكالوريا وبعدها ألحق بوظيفة فى الجمرك وكان ذلك فى أول فبراير سنة ١٩١٨ •

وفى سنة ١٩١٩ توفيت والدته فطلب نقله الى جمرك القاهرة وظل به حتى آخر ديسمبر سنة ١٩٢٣ •

وفى أول يناير سنة ١٩٢٤ التحق بوزارة المعارف كاتبا للحسابات ، ثم صار رئيسا لقسم الحسابات وفى سنة ١٩٣٣ انتخب مديرا لمكتب وكيل

---

(١) الحجارى نسبة الى وادى الحجارة جهة فى الأندلس • وكان له ضريح فى الاسكندرية •

الوزارة • وظل فى هذا المنصب حتى سـنة ١٩٥٠ حـين انتدبه الوزير (طه حسين) للعمـل بمكتبه وكان ذلك سنة ١٩٥١ • وفى أوائل سـنة ١٩٥٢ جاء القبانى فنقـله الى ادارة الثقافة نائبـا لمديرها • وفى ادارة الثقافة انتدبه مركز قيادة الثورة « ١١ شهرا » عاد بعدها الى عمـله بادارة الثقافة الى أن خـرج على المعاش فاستراح من أعباء لم تكن ثقلها لتكافىء موهبته الأدبية أو تتناسب معها • وأحسب أن لو كان له مورد خارجى لآثر ترك الوظيفة منذ زمن طويل ليتفرغ للأدب الذى نشىء عليه طفلا ويافعا فقد كان والده يقتنى مجلة الهـلال وكان على أدهـم يستهويه منها باب أشهر الحوادث وأعظم الرجال الذى كان يكتبه وقتئذ جورجى زيدان وقد أثرت فيه متابعة قراءة هذا الباب حتى غدا يحب كتـابه التراجم وحـين يسبر الأستاذ العقـاد أغوار الشخصية ، فإن (على أدهم) يعرف الشخصية بحيث يشعر قارئه بها بل يحبها بدوره •• يتعرف اليهـا •

ومن بين كتاب التراجم ، يعجب الأستاذ على أدهم بـ « ستيفان زفاريج » ويـرى فى كتابته عن « فوشـيه » ترجمـة جميلة لشخصية فوشيه • كما كان يطلع فى حداثتـه بانتظام على مجـلات سركيس — المقتطاف — العمران — الشـتاء (١) وكـذلك الكتب الأدبية ثم مجـلة البيان ، وصحيفتى اللواء والمؤيد • وقد زوده أبوه يوما بنسخه من ديوان عنتره فلما قرأه حفظه وظل الكثير من أبياته ، لسهولتها ، عالقا بذاكرته •

وكان لعلى أدهم قريب فى معهد الاسكندرية الدينى يسمى الشيخ محمود يونس • وكان الرجل أديبا بذاكرة حافظه « كان اذا قرأ صحيفة اللواء وسأله سائل عن شىء ورد فيها ، انطلق يعيد عليـه ما كتب ، من ذاكرته فى اسـتيفاء يكاد يكون تامـا • كان قارئا لـم يفته حتى الكتب الأجنبية المترجمة •

---

(١) مجلة موسمية فقـد كانت تظهر فى الشتاء فقط وصاحبها لبنـانى اسمه سليم عنجـورى •

وقد أثر هذا الرجل ، على طراءه سنه ، فى على أدهم فقد دفعه الى قراءة المعلقات التى غذت ثقافته العربية •

وممن أثروا فى على أدهم ، خاله ويسمى أحمد فوزى • وقد تخرج من المعلمين سنة ١٩٠٣ وكان ترتيبه الأول • كان أديبا وكان يتقن الانجليزية • وقد دفعه الى قراءة الأدب الانجليزى •

كما كان خاله الثانى « خليل فوزى » أيضا أديبا شاعرا زجالا وهو صاحب جريدة « الانسان » ويذكر على أدهم أن خاله « خليل فوزى » كان يحفظ كتاب عبد الرحمن الكواكبى (طبائع الاستبداد) •

كانت أمه اخت هذين الرجلين ، سيدة تركية ، أبوها رجل متدين قارىء فى الاسلاميات فكان عندها وان لم تعرف القراءة والكتابة ذخيرة من الثقافة الدينية • وكانت تتمتع بذاكرة قوية تستوعب الكثير من الحكايات والقصص مما يلهب الخيال وقد كان لما سمعه منها فى طفولته أثره فى ميله الى القصص القصيرة ، والروايات • • حتى اذا شب عن الطوق وعرف القراءة والكتابة اشترى كتبا صغيرة كقصة حسن البصرى • كان يقرأ لها وهى تنصت له مسرورة •• كانت كريمة رحيمة طيبة هادئة ولعله قبس من مزاياها الكثير فهو هادىء صموت عزيز النفس لا يرتخصها من أجل المال أو الحكام •

وممن تأثر بهم على أدهم الأستاذ عبد الرحمن شكرى الذى كان أستاذه فى مدرسة رأس التين الثانوية كما تأثر بالأستاذ العقاد •

ولما كان على أدهم لا يحب الوظيفة ولا يعتد بها فقد عالج الكتابة منذ كان شابا فى الحادية والعشرين فقد ترجم فى ذلك الحين لمجلة البيان ، رسالتين تبودلتا بين زوجة كارليل وبين مترينى مع مقدمة وقد نشر هذا فيما بعد فى كتابه (ألوان من أدب الغرب) وهو من الكتب التى يعتز بها على الرغم من أنه لم يلق من الرواج والذيوع ما هو خليق به •

ثم ترجم فى البيان قصة رينيه لشاتوبريان سنة ١٩١٩ . ثم اتصلت كتاباته فى البيـــان .

بعد البيان كتب فى السياسة اليومية فقد كان بها صفحة أدبية ومن كتاباته فيها مقالة كمقدمة عن هيجل حدث أن أخروا نشرها شهرا فغضب ولم يكمل السلسلة .

ثم صدرت مجلة المشكاة كما أصدرت السيدة ليلى عبد الحميد (١) . مجلة (الرجـــاء) الأسبوعية وكان يشرف على هذه المجلة كامل الكيلانى ويكتب فيها العقاد وسلامه موسى وعبد الرحمن صدقى وكثيرون من إخوان هذا الطراز . كما كتب فى مجلة السفور وفى صفحة البلاغ الأدبية .

حدث فى سنة ١٩٢١ أن أعلنت جـريدة السياسة عن مســابقة بين الصقر والنسر أى عبد الرحمن الداخــل ونابليون . فكتب على أدهـم عن صقر قريش وفاز بالجــائزة ومقدارها ثلاثون جنيها وهو مبلغ كانت له قيمته فى ذلك الحين وكانت لجنة التحكيم مكونة من طه حسين ومصطفى عبد الرازق وخليل مطران وقد كانت هذه المســابقة نــواة لكتابة صقر قريش الذى شجعه على كتابته الأســتاذ عبد الحميد العبادى فخــرج كتاب صقر قريش الذى يعتز به كثيرا والذى لم يطبع إلا سنة ١٩٣٨ فقد ضن بــه على آراء الناشرين وادخــره حتى طلبته مجلة المقتطف ليكون هديتها الى القراء سنة ١٩٣٨ . كما نال جائزة أخرى عن مقال له عــن الاشتراكية فى مجلة سركيس عام ١٩٢٧ .

وقد كان مثل هذه المســابقات خليقا أن ينبــه الحكومة الى مكانه الصحيح ولكن المسابقة ذهبت ولم يعره أحد التفاتا حتى كتابه « صقر

لقد توفيت فى الخامسة والعشرين .

(١) كانت متزوجة من ابراهيم عبد الرازق . وقد صدرت المجــلة سنة ثم توقفت عن الظهور وكانت تصدر على هيئة مجلة السفور .

قريش » لم يلق من النجاح والذيوع ما هو أهله • إن (على أدهـــم) يذكرنا مرة أخرى بشوبنهوار الذى لم تكن كتبه تدر عليه شيئا حتى لقد ذهب بعد مدة طويلة الى ناشر كتابه (الدنيا ارادة وفكرة) •

فقال له : لقد بعته بعد طول كساد للبقالين !!

وكتاب (الدنيا ارادة وفكرة) من خير ما كتب !! وقد تأثر به على أدهم كثيرا •

وعلى الرغم من هذا يعد على أدهم كتابه (صقر قريش) من أقرب كتبه الى نفسه فهو **أول ترجمة كتبت فى الأدب الحديث** وقد سبق به العقاد وهيكل وأضرابهم فى أصحاب التراجم الحديثة • **كما كان أول من كتب عن هيكل فى الأدب العـــربى** •

كما ترجم محاورات رينان الفلسفية عن الانجليزية والفرنسية معا مما ينبىء عن دقة واحساس علمى بالمسئولية • فهو لم يكتف بالترجمـــة الانجليزية مع ما فى هذا من يسر لمعرفته الواسعة بالانجليزية بل جشم نفسه قراءة الأصل الفرنسى حتى لا تخرج الترجمة العربية غير أمينـــة أو غير دقيقة أو غير وافية • وقد كتب للمحاورات مقدمة كبيرة هى دراسة مقارنة بين رينـــان وكارليل وقد طبعها له الاستاذ اسماعيل مظهر ســـنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ فى مطبعة العصور •

وقد كتب على أدهم فى الهلال من سنة ١٩٣٥ — ١٩٤٢ وفى ســـنة ١٩٤١ بدأ يخـــرج الكتب • وفى مجلة (تراث الانســـانية) كتب عن ٢٦ كتابا من الكتب العالمية ومجموعاته القصصية حصيلة مئات القصص يختار من بينها ، آحـــادا •

إن (حارس المنارة) من أحسن القصص العالمى •

(فى الصومعة) من أحسن ما كتب « أناتول فرانس » •

ثم هناك مجموعته (الخطايا السبع) •

ولكنه لم يمارس كتابة « القصة » فقد كان يقول : اثنـــان أحبهما وليس عندى « استعداد » لهما : القصة والشعر •

وكتاباته تأليفا أو ترجمة تعكس ثقافة واسعة واحساسا بالمسئولية عزيز المنـــال •

وهو يعرف من اللغات الفرنسية والانجليزية • ويتقن الأخيرة اتقانا تاما حتى لتعد شرفته الكبيرة على بحر لا حد له هو الأدب العالمى كله • فمن خلالها رأى وعرف روائع الألمانية والايطالية والروسية والفرنسية • لقد قرأ كل مؤلفات شوبنهاور وروجيه وشـــيللر وهاينى ومن الايطاليين متزين وليوناردى ومن أعلام الروس دستوفسكى وتورجنيف وتولستوى • قرأ بلزاك موياسان وارنســـت رينان وتين Tane قرأ ســـتيفان زفايج النمساوى • قرأ يوميات اميبل Amiel السويسرى (١) •

كما عكف طويلا على الأدب الانجليزى بالطبع وانه ليعد مقـــالات كارليل (٢) عن الأدب الألمانى وعن جيته من خـــير ما قرأ •• بل من خـــير ما كتب فى الأدب العالمى الى الآن •

وقـــرأ هازلت وماثيو ارنولد من النقـــاد وكتاب المقـــالة وقرأ من الشعراء بيرون •••

ومن كتابه المفضلين ويلز خاصة فى كتابه Outline of History أمـــا فى الأدب العربى فقد سبق أن أشرنا الى قراءته المعلقات صغيرا وهو يؤثر من الأدب العربى ، قديمه ، وصدر الاسلام كما يؤثر من الشعراء أبا تمام والبحترى والمتنبى ومن الكتاب الجاحظ • لقد قرأ كل أعـــلام الأدب العربى وهو يشايع البارودى فى مختاراته التى وعاها جيدا •

---

(١) كتب اميبل هذه اليوميات بالفرنسية وقد طبعت بعد وفاته واخذت مكانة كبيرة وتعد الآن من عيون الادب العالمى لما بثه فيها من ملاحظات وآراء فى الكتب والناس •

(٢) كارليل هو الذى نشر الأدب الألمانى فى انجلترا . . .

وعلى أدهم له أسلوبه الذى يمتاز بالوضوح فى غير تزيد فاللفظ عنده على قدر معناه كما يمتاز بالدقة والمحافظة على الأساليب العربية الصحيحة . قد لا ترى فيه ألفاظا فخمة ولكنه ، ألفاظه كلها محققة وكأنه يتهم كل لفظة .

وهو على الرغم من غلبة الفكر على العاطفة فى كتاباته إلا أنه يحس موضوعه بشعوره كله فهو لا يكتب إلا ما يحسه لا ما يعجب الناس . ومع تقديره للنماذج التى كتب عنها إلا أنه لم يغفل حسابها به وضعها فى الميزان .

ويتمثل نشاطه الأدبى بعد التأليف فى تغذية المجلات الأدبية بالمقالات والبحوث فكتب فى مجلة البيان والرجاء والسفور ، والمشكاة ، والبلاغ ، والسياسة اليومية . والمقتطف والهلال والثقافة والرواية والكاتب المصرى والرسالة الجديدة ، والمجلة ، والآداب ، والعربى .

وهو من كتاب الخاصة لا يترخص فى موضوع أو وسيلة ومن ثم لم تتسع شهرته بقدر كفايته .

ولكن الشهرة لم تكن له يوما مطلبا أو مأربا فهو يعرف أنها قد تخطىء المجيدين ، ربما بسبب الإجادة نفسها حتى كتب مرة يقول (يعجبنى هؤلاء الكتاب الامناء فى تفكيرهم والذين يحترمون قراءهم ويخلصون لهم . سواء ظفروا منهم بالتشجيع والاقبال أو تعرضوا للاهمال والاغفال .

وأرجو أن يكون هذا الاعجاب قد بعثنى على أن اقتدى بهم وارتضى خطتهم ، وأدين بمذهبهم) وأقول بدورى ولكنهم أحرى بتكريم فما أحلى أن نكرم كريما أضاء وأفاء . فالتكريم فى الحياة عرفان وتتويج و .. أمانة وتقدير ولكنه بعد الحياة كلام فى الهواء قد يحمل معنى الوفاء ولكنه فى النهاية رثاء لا جزاء .

وهذه « اضافة » على أدهم الى المكتبة العربية :

فى باب التراجـم :

١ — صقر قريش
٢ — منصور الأندلس
٣ — المعتمد بن عباد
٤ — عبد الرحمن الناصر
٥ — متزينى
٦ — أبو جعفر المنصور
٧ — صور تاريخية
٨ — صور أدبيـه
٩ — بعض مؤرخى الاسلام
١٠ — تلاقى الأكفاء
١ — شخصيات تاريخية

فى باب الترجمـة

١ — محاورات رينان الفلسفية
٢ — رينيه لشاتوبريان
٣ — روضات الفردوس لمازرياجا
٤ — مستقبل روسيا — ليونارد شابيرو
٥ — ألوان من أدب الغرب
٦ — الخطـايا السبع
٧ — فبراتـا
٨ — صديق الشدة (الهلال)
٩ — فاريبالدى (فرانكلين)
١٠ — هداة الانسانية (فصل عن غاندى)

فى باب الأدب والنقـد

• على هامش الأدب والنقد
• نظرات فى الحياة والمجتمع
• بين الفلسفة والأدب
• لماذا يشقى الانسان
• الهند والغرب

كتابات سـياسية

❋ المذاهب السياسية المعاصرة
❋ حقيقة الشيوعية
❋ الاشتراكية والشيوعية
❋ الجمعيات السرية

من كتبوا عنه :

١ — الأمير شكيب ارسلان فى جريدة السياسة عام ١٩٢١ .

٢ — الاستاذ العقــاد عن كتابه « صقر قريش » فى الجهــاد عام ١٩٣٨ .

٣ — الأستاذ ابراهيم المصرى عن كتابه « صقر قريش » فى الهلال عام ١٩٣٨ .

٤ — الأستاذ عبد الله حبيب عن كتابه « صقر قريش » فى الجهاد عام ١٩٣٨ .

٥ — الأستاذ العقــاد عن كتابه « ألــوان من أدب الغــرب » فى الرسالة عام ١٩٤٧ .

٦ — الأستاذ الدكتور طه حسين عن كتابه « ألوان من أدب الغرب » فى مجلة الكاتب المصرى عام ١٩٤٧ .

٧ — الأستاذ نيقولا الحداد عن كتابه « ألوان من أدب الغرب » فى الرسالة عام ١٩٤٧ .

٨ — الأستاذ العقاد عن كتابه « ماتزينى » فى البلاغ عام ١٩٥٣ .

٩ — الأستاذ زكى نجيب عن كتابه « على هامش الأدب والنقــد » فى الثقافة .

١٠ — الاستاذ الدكتور احسان عباس فى كتابه « فن التراجم » .

١١ — الأستاذ غريب }
١٢ — الأستاذ أنور الجندى } فى الزمان عام ١٩٥٤

د . محمد كامل حسين



محمد كامل حسين

أو ابن سـينا ـ الفيلسوف ـ الطبيب ـ الأديب ـ العالم ـ دراسة لكتبه ـ الـوادى المقـدس ـ الذكر الحكيم ـ قرية ظالمه ـ متنوعات .

الشعر العربى والذوق المعاصر ـ وحـدة المعرفة ـ التحليل البيولوجى للتاريخ ـ اللغة العربية المعاصرة ـ النحو المعقول .

ابن سينا القرن العشرين

أو

الدكتـــور محمد كامل حســين

« ابن سينا » كان المضاؤه المستعار على المقالات التى كان يكتبها فى أوائـــل الثلاثينات . والاختيـــار ملهم ودقيق فهـــو أديب وطبيب ، الالهام فيه طبع والدقة فيه طبيعة . هو أستاذ جراحة العظـام وهـــو عضو فى المعهد المصرى وعضو فى مجمع الجراحة بباريس ، وعضو مراسل فى الجمعية البريطانية لجراحة العظام . وأخيرا هـــو مدير جامعـــة . وما أجله بذاته مهما تعددت مناصبه .

فالدكتور مذكور يضيف الى عدد صفاته صفة « الفيلسوف » حـــين استقبله فى المجمع اللغوى ... فيلسوف يرى العلم عقلية ومنهجا ويشرح لتلاميذه منهج ديكارت وقواعده الأربع .

انه صاحب : متنوعات والكتاب (جزءان) — قرية ظالمة — اللغة العربية المعاصرة — الشعر العربى والذوق المعاصر — وحدة المعرفة — الذكر الحكيم — الوادى المقدس — التحليل البيولوجى للتاريخ .

كان طبيبا **عالما** وأنا أعنى هـــذه الصفة فقـــد كان يفرق بين صناعة الطب **وعـــلم** الطب .

كان **طبيبا** وكان **أديبا** وكان **عالما** ، كتب فى العلم أو الأدب يقارن ويحلل ويطوف ويناقش .. وسيلته الثقافة الواسعة العريضة ، والعمق ، والجدية ، والذكاء ، والموهبة ، والدراسة ، والاستشفاف ، والمنهجية ، ودقة العالم وروح الأديب .

اذا كتب فى العلم ، أكسب الأدب أسلوبه الرواء والطلاوة والسلاسة .

واذا كتب فى الأدب ، اكسب العلم سطوره ، الدقة والتحديد والتحليل والموضوعية .

لنبدأ الرحلة فى كتب محمد كامل حسين ...

المثل الأعلى عند المسلمين : النفس المطمئنة

والمثل الأعلى عند المسيحيين : النفس المحبة

والمثل الأعلى عند الموسويين : النفس العادلة

ولعل المثل الأعلى عند البوذيين : النفس المتخلصة

هذه المثل العليا تختلف اختلافا بينا . إلا أنها كلها تؤدى الى الصحة النفسية اذا وافق المثل الأعلى ما ركب فى نفس المؤمن به من طباع .

ولا تنفع تعاليم النفس المتخلصة فى تحقيق صحة النفس من مثلهم الأعلى العدل أو الحب . وهذه الأمور لا توائم النفس الساعية الى التخلص ، والنفس التى جبلت على إكبار العدل لا تستقيم صحتها على خير وجه اذا أرغمت على الأخذ بتعاليم النفس المحبة لأن هذه تضع الحب فوق العدل .

والنفس المطمئنة جماع ذلك كله . تطمئن الى العدل اذا هذبت حواشيه وخففت من قسوته عاطفة الحب **والجمع بين العدل والحب يؤدى الى الرحمة وهى عند المسلمين أرقى من العدل ، وأقوى من الحب** ، وأقرب الى طباع أكثر الناس . **وهى عندنا أعظم صفات الله)** .

ويمضى الدكتور كامل حسين مع كلمة الرحمة : فيقف عندها فى كتاب آخر له (الذكر الحكيم) فيسجل أن كلمة الرحمة فى العهد القديم نادرة جدا . والرحمة فى المسيحية تلتمس من الله ولكنها فى الإسلام وعد من الله أى أمر محقق فليس أصدق منه **وعدا** جل شأنه . الرحمه فى الاسلام وعد أو (حق) وهذا شعور يزيد فى طمأنينة النفس المسلمة . فالايمان بالرحمة

عند المسلمين يجعل طاعة الله خشية لا رعبا • والمسلم حين يرحم غيره يزيد نفسه اطمئنانا لإحساسه أنه بذلك يتقرب الى الله من حيث أنه تعالى جعل الانسان أداة لتنفيذ إرادته • والرحمة فضلا عن أنها وسيلة للتقرب الى الله يجب أن تعد أصلا لتحديد علاقة الناس بعضهم ببعض والتى هى فرع من علاقتهم بالله •

ومن الرحمة فى الاسلام مضاعفة الجزاء فى الحسنة وقصره على المثل فى السيئة •

لقد بدأت رحلتنا بكتاب الدكتور محمد كامل حسين (الوادى المقدس) •

والوادى المقدس صفة رمزية لاسم كبير هو الايمان • وحين يكون ايمان تكون واحة خضراء داخل النفس يأوى اليها صاحبها كلما لفحه الهجير •• ولن تخضر هذه الواحة إلا بايمان قوى ••• أقوى من اليأس ومن البغى •• أقوى من الملل المركب فى طبيعة الانسان •• وقل كمايقول الدكتور كامل حسين أن تجد رجلا مؤمنا يصيبه الملل من كتبه المقدسة ، وقليل منهم من يمل العبادات ، وهم يكررون صيغا واحدة فى دعائهم وفى صلاتهم له ولا يصيبهم من ذلك ملل • بل إن أثر الدعاء والصلاة فى نفس المؤمن يظل قويا أبدا رغم تكراره يوما بعد يوم ، وهى ظاهرة لا نراها فى غير الامور النفسية العميقة •

والايمان فى كتب الدكتور محمد كامل حسين وكتاباته ليس طقوسا انما تنفع صاحبها وحده ولكن التقوى فى الاسلام ايمان قلبى وحياة نافعة صالحة مصلحة سخية العطاء ندية الخير • لقد وقف فى كتابه (الذكر الحكيم) عند سورة البقرة • وعلى التحديد عند آية (هدى للمتقين الـذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) •

وهو يرى فى هذه الآية التقوى مقرونه بالخير يشيع التعاطف والمشاركة الوجدانية • فهى كغيرها من آيات (الذين آمنوا واتقوا) ، (الـذين اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) ، (والذين اتقوا وإحسنوا) ، (ومن اتقى وأصلح) ، (ومن أوفى بعهده واتقى) •

الايمان فى الاسلام حياة فيها خير وفيها وفاء بالعهد وفيها عطاء رحيم .

واذا كانت التقوى تحمل معنى الاتقاء .. اتقاء غضب الله فإن الدكتور كامل حسين **يرى الخوف من الله عند المسلمين يشبه خوف الابن من الأب الرحيم** . وأثره فى النفس يختلف عن أثر الخوف من الملك الجبار مهما يكن عادلا . (والفرق بينهما أن الخوف من الاب الرحيم يسمو بالنفس ويطهرها ويدعوها الى الفضيلة فى غير عنف . أما الخوف من العقاب الـذى سيقع على المذنب لا محالة فهو احساس مرهق للنفسلان الانســانية يمنعها أن تنطلق فى سماء الطهر حرة راغبة) .

التقوى فى الاسلام أن تتأثر الأقوال بالأعمال وتندمج العقيدة فى الحياة وتتواصل فى لقاء حميم .

الاسلام يهب النفس الطمأنينة بما يودع فى القلب الانسانى من أمل أن رحمة الله حتى وإن عظـم الذنب طالمـا لـم يترد فى الشرك بالله والكفر به .

وحين كتب الدكتور محمد كامل حسين عن معنى الظلم فى القــران الكريم خرج من بحثه أو خرج قارئه بأن(**النفس ليس من طبعها الشر عند المسلمين)** . واختلافهم فى ذلك ، عن أهل أكثر الديانات الاخرى) .

وعنده من الاشياء التى تفرد بها الاسلام ، اعتبار الخطأ ظلما للنفس قبل أن يكون ظلما للغــير .

(**وظلم النفس تعبير اسلامي خالص لا** أعلم أنه عرف قبل الاسلام ولا أعلم انه وجد فىغير القرآن من الكتب المنزلة . وله فى القرآن معان كثيرة) . وتبدو روعته عنده فى أنه (لا يجعل اتباع الهدى أمرا يرجع الى جزاء يرجى . ولا يجعل اجتناب الشر أمرا يرجع الى عقاب يخشى . ولا يحرم المحرمات لأنها تضر بالنظام والاجتماع ، بل يزيد على ذلك دافعا أكبر ورادعا أقوى فهو يدعو الى الخلق القويم لأن من يرتكب اثما

يكون ظالما لنفسه ولا يليق بأحد أن يظلم نفسه إلا أن يكون به سفه أو خبال) .

ويعنى هذا أن النفس فطرتها طاهرة لا يستثنى من هذا إلا النفس التى تغلبها شهواتها فهى أمارة بالسوء .

قيم المسيحية احتواها القلب المسيحى وتبناها زهد الآباء الرهبان ولكن قيم الاسلام يشعها القلب المسلم الذى أحب الحياة وعاشها فى غير سرف أو صلف ...

اما الغيب الذى اقترن أيضا بالتقوى فهو فى الاسلام محله الايمان لأن فيه حتة تسليم قلبى فى محبة . أما المحسوس الذى تقوم الشواهد عليه امام العقل فموضوع **تصديق** وهو درجة دون الحب القلبى وسلامه وتسليمه .

إن الصلاة والطقوس فى رأى الدكتور كامل حسين لا يراد بها **حرفية دينية** ولكن إرواء المعنى الدينى بالخلوص الى الله . فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والصيام تجربة إرادة والزكاة عطاء وبر وتراحم وتكافل، والحج اجتماع وتوثيق .. وليس من هذا القيام والقعود والجوع والعطش والمن بالصدقة والتظاهر بالتقوى رئاء الناس وابتغاء الصيت .

وللدكتور كامل حسين رأى فى إعجاز القرآن فالقول بالاعجاز البلاغى يعزوه الى **غلبة علماء اللغة على غيرهم من العلماء حين كانت الدراسات القرآنية فى أوجها** . أما هو فيرى عظمة القرآن (أوسع مدى من أن تكون بلاغية فقط . ولعله أن يكون أوقع فى النفس أن نذكر أنه نزل على قوم لم يعرفوا من قبله كتابا وأنه جاء العرب بدين كامل . علمهم فيه من أمر الله وتنزيهه ومن أمر الثواب والعقاب ما لم يكن لهم به عهد . ولم يعرفوا شيئا عن التشريع فجاءهم بتشريع لا ينقصه شىء . ولم يكونوا يعرفون شيئا من أنباء الأولين فجاءهم منه بالشىء الكثير فيه عظة وحكمة . وعلمهم الأخلاق السامية . بل علمهم الآداب الخاصة والعامة . ولم يعرفوا شيئا

من ذلك قبله . كل ذلك سما بالقرآن عن ثقافة العرب فى الجاهلية سموا كبيرا . وهذا أبلغ الدلالة على صدقه من القول بأن التحدى انصب على الإعجاز البلاغى وحده) .

ولا يرى الدكتور كامل حسين رأى من يقولون أن الله يرسل رسله بمعجزات من جنس ما تفوق فيه قومهم ليكون ذلك أبلغ فى إقناعهم .(قالوا إن العرب كانوا أفصح الناس وأبلغهم وهذا فى الغالب صحيح . وهو بالنسبة الينا لا نزاع فيه . ولكن كثيرا من الامم يقول مثل قولنا . ولا ضرورة لشىء من ذلك فى إثبات قوة التحدى .... وكان المصريون متفوقين فى السحر فجاءهم موسى بعصاه . ولكن المصريين كانوا مبرزين فى غير السحر) . ولعله يشير بغير حروف الى الهرم أو المسلة التى أوقعت ف . لوولن جريفيث أستاذ الآثار المصرية بجامعة اكسفورد ، فى حيرة شديدة كغيره حتى ليقول (إن الكيفية التى تقام بها مسلة ثقيلة نحيلة لمن المسائل الكثيرة التى أثارتها مصر طلبا للحل) . ويقول :

(كان المصريون القدماء مهرة فى صناعات كثيرة بصورة خارقة ولنا أن نعجب بقدرتهم على نقل النصب الهائلة التى بلغت زنة الواحدة منها ألفا من الاطنان من المحاجر الى المعبد البعيد ورفعهم المسلات الى وضعها العمودى فوق قاعدة ضيقة . وذلك كله بلا روافع هندسية) .

ويعارض الدكتور كامل حسين بشدة : **التفسير العلمى للقرآن ويسميه التفسير الحرباوى** اذ يجد فيه ، كل ، ما يريد .

إن العلوم الحديثة سريعة التغير والتقدم (ويتعلق نجاحها أكثر ما يتعلق بالطبيعيات . والطبيعيات أبسط قوانين الكائنات وأيسرها درسا . وهى أسهل كشفا من قوانين الحياة وقوانين الانسان . وهى من غير شك دون قوانين النفس البشرية والغيب والالهيات . والكتب المنزلة تتعلق أكثر بهذه الامور . يقول الدكتور كامل حسين إن الكتب المنزلة (لا ينقص من قدرها أن يبلغ العلم من الرقمى ما يبلغه واو أدى ذلك الى تمكين الناس

من السفر الى القمر والكواكب • وعندى أنه إذا استطاع العلم أن يخلق حيوانات جديدة كما خلق عناصر جديدة بل اذا استطاع أن يخلق الانسان نفسه **ما كان فى ذلك مساس بوجود الله وقـدرته** ولا يكون هذا طعنا فى الأديـان) •

إن تصيد التوافق لا محل له عند الدكتور كامل حسين • هل فى شعر ابى نواس كما يقول مـا يـدل على انه عرف التطعيم والمناعة والعلاج الهوميوباتى (وداونى بالتى كانت هى الداء) •

ويفصل الدكتور كامل حسين الحديث عن العقائد وجماعه أن (العقيدة الموسوية تؤكد العدل تأكيـدا خاصا • وليس غريبا على قوم خضعوا للاضطهاد والظلم أن يؤكد دينهم **العدل**) •

ثم جاءت المسيحية فقامت على **الحب** بين الله والناس • وبين الناس بعضهم وبعض • وما يتبع ذلك من تسامح وبر • وقويت فيهم هذه الصفة باعتقادهم انهم يتبعون ويتعلقون بشهيد طاهر عذب من أجلهم •

اما العقيدة الاسلامية فالصفة الغالبة عليها **هى الأمل** فى الله هذه هى العاطفة التى تدفعهم دفعا قويا الى الخير ••• والقرآن الكريم يؤكد ذلك فى كل موضـع) •

ومن الأمل فى الله **بشرى الجنـة فى القرآن** • فالجنة فى الاسـلام حياة أخرى هنيئة أى انتصار على الموت هم الانسـان الأزلى وشغله الشـاغل •

والجنة فى الاسلام تتسق مع العقيدة الاسلامية التى لا ترى فلسفة التحريم والحرمان • فالجنة تقع من نفس المؤمن موقعا يحمله على الخير والطهر على قدر ما تسمح به طبيعته •

والجنة أيضا صفاء القلب من الغل (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) •

أما أوصاف الجنة الحسية والتى يحلو للبعض أن يشير اليها فإنه مجرد تعبير عن نعيم الآخره ورمز عام له فبعض الناس لا يطمئنون إلا حين تجسد لهم المعنويات تجسيدا على نحو يعرفونه فى دنياهم •

يقول الدكتور كامل حسين (قد يرى بعض الناس ان الجنة التى كان فيها آدم ليست إلا رمزا للنفس المطمئنة التى يكون عليها المؤمن الخالص الايمان • وأن التحريم خير وسيلة يضمن بها الانسان عدم الوقوع فى الخطيئة • وهو تعليل الزهد وأصله • وهو أمر لا غبار عليه • ولكن الاسلام لا يراه ضروريا للفلاح ولا يرى انه يقرب الانسان من الله لأن البعد عن الشهوات أقل ابتلاء للنفس من التعرض لها والاعتدال فيها) •

ومن العفــة ألا تجــد •

إن الاسلام أقرب ما يكون الى القلب الانسانى حين يحنو على رغباته البريئة ما دامت لا تؤذى أحدا (ولعل موسى حين هشم العجل بالالواح ورأى الالواح تتكسر فى يديه ، **ادرك ان الحق اذا استعمل بعنف شديد فى القضاء على الباطل أصاب الحق من ذلك أذى كبير)** •

وهى عبارة فيها رمز الى خطر الغلواء حتى وان كانت تنصر حقا •

والدكتور كامل حسين فى كتابه (منتوعات) **يرى القرآن من أعجب ظواهر التاريخ لما له من الأثر فى ملايين الناس مدى أجيال عدة** •

وهو يرفض ترجمة القرآن لانها تذهب بقوة التأثير الــذى يملكــه التعبير العربى فى القرآن ودليلة كلمة المسلمين الكبرى (الله أكبر) ففى رأيه أن (ليس فى تاريخ العبارات فى العالم كلمتان لهما ما لهاتين الكلمتين من قوة • فهما أقوى نداء حرب عرفه الناس وهما نداء للصلاة وبهما تبدأ ولهما أثر قوى فى المسلمين كلهم • والانسان يعجب لهذا النجاح الخارق لهاتين الكلمتين فمعناهما بسيط جدا • ولو حاولنا ترجمتهما حرفيا ما دل ذلك على شىء) •

ويرد الدكتور كامل حسين على آراء بعض الغربيين فى القرآن فقائل بعدم اطراد نظام التعبير فيه • وهنا يقول (**ان القرآن تعبير تام كامل عن الروح العربى** • والخط **المستقيم غير معروف أصلا فى الصحراء وليس من طبيعة العربى فى شىء** • فقد ينعرج اللوى متعرجا متسعا جدا دون سبب واضح وقد يصعد الطريق فوق مرتفعات صعبه وكان يمكن ان يتبع طريقا سهلا • ولغير أهل الصحراء ان يعدوا ذلك نقصا فى المنطق لكنهم يخطئون فهذا طبع الصحراء لا يمكن أن يكون لها طبع غيره •• وأهم ما فى الصحراء ينحصر فى الغاية والاتجاه اليها ، والعربى لا يخطىء الاتجاه مهما التوى الطريق • كذلك القرآن غايته تمجيد الله وحمده وكل ما فيه يدعو الى ذلك • ومهما تعددت العبارات واختلفت المعانى فإن الاتجاه العام الأول ، هـو تمجيد الله • فالفرق بين القرآن والعقلية غير العربية هو الفرق بين طريق الصحراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وبين طريق للسيارات الحديث (أوتوستراد) والعربى مع التـواء الطريق لا يضـل غايته • وقدرته على ذلك بالغة العجب) •

وهنا تذكرت الفن الاسلامى ولى معه مشاهدات كثيرة • الفن الاسلامى يستقيم فيه الخطوط ويتأود تارة أخرى وقد ينطوى ثم يفصح وقـد يتعرج ثم يطرد من جديد ولكنه فى كل مرة وفى مجموع المرات يعود من جديد كما بدأ كالسائر الذى يعرف طريقه فهو لا يضل غايته •

ويتناول الدكتور كامل حسين **دعوى التكرار فى القرآن** (لست فى حاجة ان اذكر رواد الصحراء والذين يحبون حياتها أن **مناظرها تتشابه كثيرا** وان لهـا مع ذلك جمالها الخاص وأن أهلها أكثر **الناس احساسـا بالفروق الدقيقة بين معالمهـا المتعددة المتشابهة** وأنهم أبعد الناس عن أن يشعروا ازاءها بالسأم • أما أهل الحضر فهم ملولون مسرفون فى حب التغيير وطلب المزيد من أنواع الملاهى والمناظر الشهية ولا يقاس جمال الصحراء بمعيار أهل الحضر • وهى فى الواقع أقرب الى قلوب أهلها وهم أشد تعلقا بها من أهل المدن بمدنهم ولا يملون هذا التكرار الذى هو صفتها التى لا تكون

بدونها صحراء . وأهل البداوة مطبوعون بطابعها الى حد بعيد وتشـابه مناظرها وتكرار معالمها جزء من حياتها وحياتهم . ولا غرابة أن يكون التكرار فى القرآن مدعاة للتأثير فيهم فهو تكرار فيه كل مميزات الصحراء ولم يحدث أن أحدا من أهلها عاب ذلك فى أى عصر من العصور) .

بل إنه لما يدعو الى العجب والتأمل معا أن (القرآن مع انه طويل وفيه آيات عدة يشبه بعضها بعضا . وهو مع ذلك **سهل الحفظ** فقد استطاع كثيرون جدا أن يحفظوه عن ظهر قلب حرفيا **ولم يستطع أى كتاب آخـر مهما يكن فيه من التنظيم والتنسيق أن يحفظ كله كما حفظ القرآن** .

ويتصل بالشكل وتعليله ، موقفه من **السـجع** اذا اعتبرنا انه مقاطع متحدة الجرس (فجمال **السجع عند العرب شىء يسهل فهمه جدا حيث تذكر الصحراء أيضا)** . فإن الذى يحاول السفر الطويل فى الصحراء يجد نفسه مضطرا الى تقطيع الطريق أمامه الى قطع تختلف طولا وقصرا تنتهى بمعالم معينة . ولا أقول هذه العملية تتم وهو عالم بها بل هى تتم دون أن يشعر بها المسافر فتقطيع الكلام قطعا تنتهى بمعالم معينة صورة من صور انعكاس طبيعة الصحراء فى حياة أهلها العقلية) .

ولكنه لا يسـتمرىء التسـجيع فى غـير قومه وفى غـير زمانه . (فالسجع تعبير عجيب عن هذه الصفة فى الصحراء ومن تشملهم بروحها ولا شك ان السجع حين خرج عن دائرة العرب الاقدمين فقـد **كل معنى** ولم يعد يعبر عن شىء وأصبحت العودة اليه عبثا . وقد حاول كثيرون منذ ذلك الحين الى اليوم أن يعودوا اليه ولكنها عودة لا جمال فيها لأنهـا لا تعبر عـن شىء) ص ٢ .

وأسخف شىء فى رأيه تقعيد القـواعد للجمـال . وهو يعتقد أن المحسـنات اللفظية وضعها الفرس بأسـلوب نمنمـة السـجاجيد .. أى بالحس السجادى عندهم كما يسميه .. حتى سجع نهج البلاغة ليس من عمل الامام على كرم الله وجهه وإنما هو من عمل الشريف الرضى .

وهو يكره **سجع المدينة** إن صح هـذا التعبير لانـه مفتعل صناعى لا توحيه طبيعة معينة ولا يمليه فطرة بل انـه يتناقض تناقضا تاما مع سره الأول (إن المحدثين قد عموا عن أصل جمال السجع فضلوا ضلالا بعيدا فهو أبعد ما يكون عن تفكيرنا واساوبنا فى الحيـاة أما السجع فى القرآن فلا هو بالمفصل تفصيلا صناعيا كالسجع عند متأخـرى الكتاب العرب ولا هو بالمضطرب اضطراب السجع عنـد المحدثين وانمـا هـو **صورة طبيعية جميلة لروح الصحراء وأجمل تعبير عنهـا** بل أنى أزيد على ذلك أنى لا أعلم مثلا آخر للسجع غير القرآن يصح أن يعد عملا أدبيـا موفقا وكان يجب على الكتاب جميعا منذ نزل القرآن أن لا يحاولوا السجع لعلمهم أنهم لن يستطيعوا أن يبلغوا منه شيئا يمكن أن يقرب من المثـل الأعلى له) ص ٢١ •

والدكتور كامل حسين يرى **القصص فى القرآن** يتخلل آيات الدعـوة (بمثابة الواحات فى الصحراء وهى بديعة فى ذاتها يشعر الانسـان أنها تزيد فى قوة آيات الدعوة التى تسبقها والتى تليها • وهى ملجأ من عنف التهديد أو قوة الدعوة التى قد تشتد على الناس حتى لتكاد تفقد أثرها فيهم اذا لم تعترضهم هذه العيون الخصبة) •

وعند الدكتور كامل حسين أن من خواص القرآن التى يعبر فيهـا أصدق التعبير عن روح الصحراء **أنه يمثل روحها الزمنى** أيضا فهو يقول (والسرعة شىء غير طبيعى فى الصحراء بل كل حركة فيها أقرب الى البطء • والقرآن ان أردت تفهمه يجب أن تسمعه مرتلا ترتيلا بطيئا ••• بل إن القرآن أجمـل ما يكون حين تستمع اليه لا حين تراه مكتوبا لانه جـاء مسـموعا) • وحين تمثل سورة القمر عنده روح الصحراء فى المطـابقة بين ألفاظها واسلوبها وقوة تعبيرها • تمثل صورة الرحمن وهى عنـده (أعجوبة فى الأدب العالمى) واديا ممتدا مستطيلا تحف به الأشجار من الجانبين متسقة كأنها النخيل فى انتظام تام لا أحسبه يتفق لغير النخيل واديا خصبا رطبا به طراوة ونعيم) •

ويطوف الدكتور كامل حسين ما يطوف فى آفاق القرآن ليعود بعـد الطواف وطول المطاف وهو يقول (يخيل إلى أن الباحثين من غير المسلمين لو درسوا القرآن من هذه الوجهة دراسة خالصة ما وجـدوا كلمة تصف سره وصفا صادقا إلا أن يقولوا **انه وحى الهى**) .

أما المسيحية فقد ذهبت بكتابه الجليل (**قرية ظالمة**) . وفيه حديث عن ضمير الفرد وأسلوب الجماعة (لو أن القاضى حين يحكم بالإعـدام يتولى هو تنفيذه لكان له رأى آخـر فى قيـد الأدلة . والقـائد الذى يأمر جيشه أن يسرف فى القتل إنما يأمر ، وعلى غيره أن يقتـل . وقديما قتل الأنبياء ، وكان قتلهم يتم على هذا النحـو ، موزعا على النـاس توزيعا يجعل الجماعة وحدها هى القاتلة) .

لقد تآمر على المسيح البغى والعزة بالاثم فأخذوه بغـير ذنب ، وروعوه بغير دليـل إلا أن يقول ربى الله .

انها قرية ظالمة ...

وقد حلل الدكتور كامل حسين العقلية اليهـودية من خلال قصـة الخروج فى الجزء الثانى من كتابه « **متنوعات** » تحليلا علميا موضوعيا رائعا وممتعـا .

(لا أظن أحدا مهما يكن عطفه على اليهود بل لا أظن أحدا من اليهود أنفسهم يستطيع أن ينكر ما لهم من عقلية خاصة وطباع تختلف اختلافا تاما عن طباع غيرهم من النـاس ، ولا يستطيع أكثر الناس عطفا على اليهود أن يدعى إنهم محبوبون أو ان حياتهم بين الناس طبيعية فالمذابح التى أصابتهم منذ ألفى عام ، والتعذيب المستمر والتشتيت الذى عانوه فى كل مكان من العالم فى عهود مختلفة على أيدى أمم متباينة كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن فى بنى اسرائيـل صفات تجعلهم على الأقل غـير طبيعيين) .

وهو يقر انه من الصعب تفهم سر العقلية اليهودية لمـا فيهـا من تناقض وتضارب دليله انك (ترى فيهم رقة فى الطبع ، ودقة فى الحس ،

وتراهم يسرفون فى العطف على المريض والفقير والطفـل وهـم مع هذا أقسى الناس قلبا لا يزعجهم إفقار آلاف من الناس فى سبيل غناهم . وهم أشد الناس صبرا على ذل وخضوعا لظلم حتى اذا آنسوا عطفـا أو قوة قست قلوبهم غاية القسوة لا يرعون إلا ولا ذمة .

ان الرجل يمتحن عند الشدة فتظهر ما فيه من خلق كريم واليهودى لا تظهر منه الشدة إلا أسوأ ما فيه ...

ويعزو الدكتور كامل حسين هذا كله الى أن نجاتهم لم تكن خيرا . فالنجاة الفجائية بعد اليأس من أكبر العوامل التى تقضى على التـوازن العقلى والنفسى . فاليأس القاتل ذهب بكل ما فيهم من حيوية ، والمحنة التى حاقت بهم فى اللحظة التى سبقت النجاة استنفدت كل ما فيهم من قوة بل لعلها هدمت عقليتهم هدما . وزاد فى عنفها أنهم تعرضوا للموت لا لنكبة دونه ، وكأنما نضب معين الحياة فيهم وأصبح حتمـا عليهم أن كتبت لهم الحيـاة ثانية ان تتكون نفسهم من جديد على اطـلال نفس هدها الرعب هدا .

(فى هذه اللحظة أصبح بنو اسرائيل أمة تجمعهم خبرة واحدة ولكنها كانت خبرة قاسية جدا فليس عجيبا أن يخرجوا أمة شاذة التكوين فمـا هكذا تتكون الأمم عادة وإنما يتم تطور الأمم بالملاءمة البطيئة على مـر القرون بين النفس الانسانية والطبيعة التى حولها ولم يتحقق ذلك لليهود فقد تكونت قوميتهم فجأة دون هذه المطابقة بين الأمة ووطنها وبذلك لـم يعد لهم وطن ولا نشأة يمكن أن يقال بحال من الأحوال انها طبيعية .

وما لاقاه اليهود من ذل على مسار تاريخهم ترك بصمته عليهـم . ولا أدل على ذلك من **حائط المبكى** الذى لا يقلعون عنه . والذل يخلق فى الناس فضـائل سلبية ، يخلق فيهم الصبر وسعة الحيلة والدهاء ولكنه يميت الكثير من الفضـائل الايجـابية كالشـجاعة والـكرم والاقـدام والتضحية . ولم يكن لهم أن يثوروا ذلك أنهم غرباء وأنهم لابد خائبون

فى ثورتهم فالثورة لا تقوم إلا أن يتهيأ لها جو عقلى خاص يدفع الفــرد الى الثقة بأن شعوره بالغضب شعور عام •

يقول الدكتور كامل حسين (علمهم الذل الحذر الشديد • وكلنا يذكر ما ارتكب موسى فى عنفوان شبابه (فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) كما جاء فى القرآن الكريم • ولكن التوراة زادت على ذلك تفصيلا ذا مغزى فقد ورد فى العهــد القديم أن موسى قبل أن يضرب عدوه تلفت حوله واطمأن الى أن أحدا لا يراه • فكأن الأصل العبرى لم يكن ليتصور أن يهوديا تأخذه الحمية والنخــوة فيندفع لنصرة أخيه أو لإحقاق حق قبل ان ينظر حوله ليرى أن لا خطر عليه من هــذا الاقــدام) •

إن صحراء مصر التى علمت اخناتون التأمل والتجرد وحياة الفكر ، لم يفد اليهود من هذه الصحراء نفسها حين خرجوا اليها • ويعلل دكتور كامل حسين هذا بأن اليهود (خرجوا يكاد يرهق نفوسهم الخوف والشك واليأس • خرجوا يحملون فيما حملوا اثما أمرهم به زعماؤهم حين خانوا جيرانهم فنقلوا عاريات من الذهب والفضة أخــذوها من المصريين خدعة وعن سوء نية ولم يكن ذلك ليزيد فى ثقتهم بنجاحهم فى الهروب ولم تخف عليهم سهولة اللحاق بهم) •

ومن بصمات قصــة الخــروج فيهــم إسرافهم فى حالتى اليأس والأمل •• (إن ظلموا صرخوا حاسبين الظــلم سيبلغ بهــم غايته ، وإن نجحوا حســبوا نجاحهم سيبلغ الغــاية التى لا يحــدها قانون طبيعى أو وضعى • وقد علمتهم قصة الخروج أن نجاحهم لا يتم الا بالقضــاء على عدوهم ولو كان ذلك دون جهد منهم • فليس فى خلقهم التســامح أو المروءة أو الشهامة أو النخوة وهى صفات من الترف الخلقى لم تتهيأ لليهود ففى عقليتهم عنف بالغ وقسوة لا تتيح لمثل هذه الصفات أن تتكون فيهم •

ثم طغوا بعد نجاحهم غاية الطغيان وفقدوا كل اتزان وليس غريبا أن ينشأ فيهم هذا النـوع من **الطغيان المكبوت** فهـو مرض نفسى كامن فيهم إن لم يظهر أثره دائما واضحا فان أثره الخفى يتبين فى غير صورة . وهو فى أقلهم بأسا وأضعفهم شوكة وليس هناك يهودى يفهـم أن من الحياة أن تعيش وتدع غيرك يعيش بجوارك) ص ٣٧ .

وهذا الوصف أو النتائج التى خرج بها دكتور كامل حسين من قصة الخروج قالها ولكن بصورة أخرى أديب آخر قصاص ويهودى أيضـا هو ستيفان زفايج فالصورة العجيبة التى رسمها فى قصته (حذار من الشـفقة) لـ (ليوبولد كانيتز) أو (هرفون كيكسفالفا) تجمع هـذه الصفات وتزيد عليها بعداً آخر هو السخرية اللاذعة .

هل هى روح رياضية أم ان اليهود أيقنـوا ألا فائدة من الانـكار أو التمثيل على الناس .

لم ينته بعد درس سفر الخروج فأحد مضامينه أن اليهود تاجروا بالنجاة وناقشوها بلغة الفوايد والحساب فقد (كانوا يظنون أن ربهـم أصبح مدينا لهم . وكانوا لا يفتئون يطالبونه بدينهم عليـه . وكانـوا يعدون تأخره فى تحقيق ما وعدهم به على لسـان نبيهم أمرا يسـتحق منهم الثورة عليـه والكفر به . وكانـوا يدلون عليه بأنهم يؤكدون ذلك الدلال بالكفر والعصيان . وفى العهد القديم تعبير عجيب اذ جـاء فيه أن موسى أنب الرب فى أمر من الأمـور . دلال ومَنّ على الله لم يقع من غير بنى اسرائيل . فلما خرجوا من الذل والعبودية نسوا نعمة اللـه عليهم . وانقلب هذا الدلال كفرا ونكرانا) .

والدكتور كامل حسين ، بحوثه الأدبية فيها من الضـلاعة والبراعة والاقتدار ما لا يزيد عليـه متخصص لا يزحـم الأدب عنـده ، طب أو فاسفة . ومن أحسن ما قدم فى هذا المجال ، بحثه فى المتنبى .

وفى كتابه (**الشعر العربى والذوق المعاصر**) آراء جديدة وطريفـة

فى المعلقات بعامة ومعلقة امرىء القيس بخاصة ، وفى شعر عمر بن أبى ربيعة ، ومن أجمل أبحـــاث هذا الكتاب (الموسيقى والتصوير فى الشعر العـــربى) •

وهو مفكر يكره **الاستبداد** الذى يصيب الأمم بالشلل الفكرى • ولكنه مؤمن بأنه لا يدوم مهما ضربت حوله استار حديدية • وأصحاب نظـــرية الحديد ، لن يستطيعوا ضربها أو فرضها الى الأبد ، واذا قدر واستطاعوا دهـــرا ، فإن الحرمان من حـــرية الفكر يفت فى عضد الأمة حتى لتخضع لأول ضربة تأتيها من الخارج • بل ان الدكتور كامل حسين يقـــول ان (حـــرية الفكر من الأمـــور التى لا تستطيع أية أمة ان تستعيض عنهـــا بغـــيرها من الأمور • فالقـــوة والغنى والفتوحـــات لا تمنع الدولة من الانحطاط إن لم يكن فيها القدر الكافى من حرية الفكر بل إنه يشـــاهد فى التاريخ القديم إن زوال بعض الدول إنما تم بعد فتوحات ضخمة لأن ذلك دفـــع القائمين بالأمر فيهـــا الى الاستبداد وعنـــد ذلك يبـــدأ الضعف المميت) ص ٧٣ •

ويعرف الدكتور كامل حسين ، المعرفة ، فى كتابه « وحدة المعـــرفة » فيقول (فى الكون نظام ، وفى العقل نظام ، والمعرفة هى مطـــابقة هذين النظامين • والنظامان من معـــدن واحـــد ، والمطابقة بينهما ممكنة لمـــا فيهما من تشابه • ولو لم يكونا متشابهين لاستحالت المعرفة • ولو لم تكن المطابقة بينهما ممكنة ما علم أحد شيئا) •

فمن أخص صفات العقل أنـــه لا يطيق الفوضى ، وأنه لا يحتمـــل الفراغ وأنه يجسم المعنويات (ومن هنا نشأت رغبته فى تصوير الجمال ، والتغنى بالحب ، واختراع الموسيقى إبرازا لمعنويات كامنة فى النفس ، فى صور حسية) •

وهذه الصفات الثلاث عند الدكتور كامل حسين ثابتة فى العقل وهى مصدر قوته • إلا أنه ضل بها كثيرا (وأصل هذا الضلال ما يكون فى علم

الانسان من نقص • فحين تكون الحقائق التى لدى العقل قليلة نراه يضطر الى تنظيم علمه وملء فراغه وتجسيم معنوياته قسرا ، مسرفا فى ذلك على نفسه وعلى الحق) •

ويقول فى موضع آخر عند الحديث عن (الانسان) : (سنجد أن أكثر الفضائل تدل عليها أعمال مصدرها الفكرى منظم •• فالصدق نظام والكذب فوضى ••• والأمانة نظام ، والخيانة فوضى •• والشجاعة نظام ، والرعب فوضى الى غير ذلك من الأمثلة العديدة • فإذا تعلقت ارادة الشخص بعمل يبدأ فى خلايا مخه منظما ويسير فى مسالك منظمه ويؤدى الى عمل منظم فهذا هو الخلق الجميل) •

على أنه يرى المعرفة وظيفة عرضية للمخ الانسانى وليست حتمية • وليست من الضروريات الحيوية لأنها من الترف الذى صادف العقل فأوغل فيه واستعذب نتائجه وأصاب منه فوائد كبيرة لم تكن فى أول الأمر واضحة أو مقصودة أو محتملة •

وفى كتابه **(وجه المعرفة)** يبحث مذاهب التفكير ، يبين ان التفكير يجمع بين الخرافة والعلم فـ (الخرافة نظرية لم تثبت ، والعلم خرافات ثبتت أصولها ، واطردت نتائجها الى حد ما) •

ولا يخلو تاريخ أمه أو فرد من عهد بدائى تكون فيه الخرافات أول مظاهر التفكير •

ومن مذاهب التفكير : **الثنائية** فالطبيعيون يقسمون الأشياء الى حار وبارد ورطب ويابس ، والفلاسفة يتحدثون عن الخطأ والصواب ، ورجال الدين يتكلمون عن الخير والشر • ويعزو الدكتور كامل حسين هذه المقابلة فى التناول أو هذه الثنائية فى التفكير الى أن الانسان جعل نفسه مركز العالم ثم وضع الأشياء كلها عن يمينه أو يساره وقاسها حسب رؤيته لها ومدى نفعها له • والمعرفة الحقيقية وحدها ، القائمة على العلم بقوانين الأشياء هى التى تقضى على مظاهر التفكير الثنائى •

ويتحدث عن الزمن فيراه أكثر الأمور غموضا على العقل لأننا لا نستطيع أن نتصوره مجردا عن الأشياء فنحن نقيسه بحركة نجم أو بتنوع بندول • ولو أن الأشياء كانت ساكنة سكونا تاما ما استطاع الانسان أن يدرك الزمن أو يقيسه أو يعرف له وجودا • وليس المقصود بالزمن هنا الزمن الكونى الرياضى الذى يعده الطبيعيون البعد الرابع ، ولا الزمن الفيزيائى الذى يقيس به الرياضيون سرعة جسم ساقط فى أى نقطة من سقوطه وإنما المقصود هو الزمن التاريخى الذى نعرفه بتتابع الحوادث فيه •

وينتقل الدكتور كامل حسين الى الحديث عن الفجوات الثلاث : الأولى بين المادة والحياة والثانية بين الحيوان والانسان ، والثالثة بين الانسان وما فوقه ويراها بعيدة الغور واسعة المدى • وهنا يناقش الدكتور كامل حسين الدهريين والطبيعيين نقاشا عقلانيا فائقا •

(هؤلاء المنكرون يرون ان وجود ما وراء الانسان فرض يجب أن يقوم عليه برهان • وهم يقولون أنه من الممكن أن نكون نحن القمة العليا للكون • • •) •

ويفند رجل العلم هذا القول بقوله (إن أعلا قانون فى الكون « أو أعلى شىء فيه » هو الذى لا يؤثر فيه قانون آخر أعلى منه ، وهو الذى تاريخ حياته بيده لا يغيره شىء يعلو ارادته • فهل الانسان يمثل هذا القانون الأعلى ؟ وهل إرادته وحدها هى المتحكمة فى حياته ؟ كل الدلائل تدل على أن ذلك يخالف الواقع) •

ويرى الدكتور كامل حسين **أن القضاء والقدر** مما أثر وجود الله فى أعمال الانسان •• وان وجودهما دليل على وجود قوة عليا وقانون أرقى منا •• ومادام الانسان ليس المتحكم الوحيد فى حياته • وأن هذه الحياة تتأثر بما لا يفهمه ولا يعرف له كنها وبما هو أعلا منه مما سبق أن سميناه القضاء والقدر • هذا هو البرهان العلمى على أن وراء الانسان فجوة ، وأن وراء الفجوة قانونا أعلى •

وحــين ينتقل القــارىء من كتاب الدكتور كامل حسين (وحــدة المعرفة) الى كتابه (**التحليل البيولوجى للتاريخ**) يجده يخص التاريخ بمكان ومقام كبير بين ألوان المعرفة (فليس هو قصصا ممتعــا تراد به التسلية • وليس هو عظة للناس تهديهم طريق الصواب • فقد ثبت أن الانسان لا تغير طباعه عظة تاريخية مهمــا يكن الدرس قاســيا والموعظة واضحة • وإنما هو بحث يراد منه فهم الحياة الانسانية ، وهو الوسيلة الوحيدة لهذا الفهم) •

ويرد على المتشككين فى وقائع التاريخ لبعد العهد بها بأنه (ليس على التاريخ أن يصدق فى تفصيلاته • وهــو صادق من غــير شــك فى عموميانه • وقضاياه الكبرى هى أصدق ما فيه ، وعليها وحدها المعــول فى إثبــات القوانين التاريخيــة • والتاريخ فى هــذا على نقيض العلوم الطبيعية حيث التفصيلات تكون صادقة حتما والقضــايا العامة موضــع الشك • أما التاريخ فقضاياه العامة صادقة وإن تكن تفصيلاته موضــع الشــك) •

والتاريخ ليس وصفا ولكنه فهم القوى التى تعمل فى حياة الناس •

أما التاريخ السياسى فهو عنده (**تاريخ امتيازات التفوق**)• التفوق الجسمى ثم تفوق الشخصية والخلق ، ثم تفوق المــال ، ثم تفوق الذكاء والعلم ، ثم التفوق العددى • وهذه الأنواع المختلفة من التفوق عملت على خلق امتيازات لهيئات عدة • الأفراد ثم الأسر ثم المدن ثم الأمم ثم الطبقــات •

وهنا يقف **الدين** والعلم قمتين • **الدين** سوى بين الناس اجتماعيا حين قال (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) **والعلم** حاول أن يسوى بينهم فى القوى الطبيعية بالأجهزة كالتلسكوب أو الميكروسكوب •

وقد وقف وقفة طويلة عند **بيولوجية التاريخ** متمثلة فى غرائز الأفراد والجماعات والمدنيات وكذلك فنون هؤلاء وعلمهم •

ولعل من أمتع فصول هذا الكتاب فصل (**عظماء الرجال**) ركز فيه كثيرا وبحق على اللحظة المناسبة ثم العوامل التاريخية المعاصرة فالاسكندر مثلا (لو كان تاريخ الاغريق فى ذلك العهد فى طور الجزر ما استطاعوا أن يسايروا الاسكندر فى فتوحه ، وما استطاع الاسكندر أن يحمل الاغريق على هذه الفتوح • ولو صادف عصره داريوس أو تحوتموس ما تم له النصر البالغ على فارس ومصر) •

والى المد فى حياة الامم يعزو الدكتور كامل حسين مجد من يعيشونه دون أن تكون لهم مزايا خاصة كلويس الرابع عشر واوغسطس قيصر وسليمان القانونى وغيرهم كثيرون كما يقول •

وأخيرا يأتى كتابه (**اللغة العربية المعاصرة**) فحين يرتفع الجدل من وقت الى آخر بين الفصحى والعامية وتحتدم المناقشة يقول هو فى هدوء (نريد أن ننقذ الفصحى العالية من عنت الذين يعلمون وعبث الذين لا يعلمون • والذين يعلمون يريدون أن يخنقوها بما يحتمونه على المتعلمين من علم بقواعد لا تعرض للأديب أو الكاتب ولا يعنى بها الا المحترفون من رجال النحو وهم الذين القوا فى قلوب المثقفين الرعب من لغتهم القومية واليأس من اتقانها • وأكثر هذه القواعد وليدة نوع من التفكير كان سائدا فى العصر الذى وضعت فيه • وليس لها من القدسية ما يفرضه علماء اللغة) •

وهنا يدعو الى الفصحى المخففة فمن الخطر فى رأيه ان تكثر المتناقضات فى حياة أمة من الأمم • ومن المتناقضات الصارخة أن ندعو الى نشر التعليم ونتشبث بتعميم الفصحى العالية مع كل ما فيها من صعوبات • فهو يؤكد أنها لا تصلح لدراسة الرياضيات العليا مثلا وكذلك علوم الفيزيقا والكيمياء وكلها تعتمد اعتمادا كليا على الرياضيات •

(فاللغة العربية لغة معربة إعرابا دقيقا ، ثم هى اشتقاقية • وكلا الأمرين يحول بينها وبين أن تكون لغة العلوم الحديثة كلها • وإن كان ذلك مستطاعا بعد جهد عنيف ، ولن تكون فيه فائدة لا للغة ولا للعلوم) •

كما يدعـوا الى العامية المنقحة (وهى التى يجب أن يبدأ منهـا الأطفال حتى لا يثبت فى أذهانهم أن الفصحى لغة تختلف اختلافا تاما عن اللغة التى نشـأوا عليها) ٠

ثم ما هذا النحو ٠ إن أعلى وأكرم كتاب فى العربية ، فيه آيات لا تطرد مع قواعد النحو ٠

فالآية (ان هذان لسـاحران) والآية (وأسروا النجـوى الذين ظلموا) لم يتم اللقاء بينهما وبين قواعد النحو ٠ وهنا نحن نتبع طبعـا بكل الاجـلال ، الآيات ، لا علامات الاعراب ٠ ليست هناك لغة بلا قواعد ولكن ليست هنـاك أيضا ، قداسـة لنحو أى لغة يجعله حرما لا يمسـه تغيير أو تطوير ٠ هذه هى المسألة ٠

انه يدعو الى تنقية النحو من شواهد الخطأ حتى لا ترحم المتعلمين **بالمتروك** أيضا ! !

(فالتاريخ المقارن للغات الحية المعاصرة يدل على أنها تتطور دائما الى السهولة) ٠

وقوله هذا يذكرنا بقول هين عن اللغة اللاتينية (لو اضطر الرومان لتعلم اللغة اللاتينية لمـا وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهـم بفتح العـالم) ٠

ولهذا يقول ديورانت فى (قصة الحضارة) ان المدرس عند الرومان كان فى العادة من العبيد أو من العبيد المحررين ٠ ج ٩ ص ١٥٠ ٠

إن الأصل فى اللغة الإبانة والوضوح دون أن نضع قيـودا حديدية للصواب والخطأ بينما يجب أن تكون لها مقاييس سهلة يدركها كل متعلم بلغ السادسة عشرة من عمره ٠

فهل هذا يحدث ؟ بكل أسف لا ٠

ان الدكتور كامل حسـين يعلنها صريحة (**الثقـة فى صحة ما نكتب وما نقـرأ هى أكثر ما تحتـاج اليـه العربيـة فى هـذا العصـر**) ٠

انه ينعى على العصر « **الهرولة** » (١)

ويأخذ الدكتور كامل حسين على اللغة أو اللغويين بمعنى أصح **كثرة المسميات للمسمى الواحد** ٠ وهو عنده ليس دليلا على غنى اللغة كمـا يزعمون ، بل هو عنده دليل على التخبط الذى أصاب اللغة فى أول عهـدها بالتـدوين ٠

ويسخر الدكتور كامل حسين قائلا (فعلوا ذلك بما سموه درجـات الحب حين قسموه الى حب وعشق وشغف وهيام وتدله ووله ٠ وقالوا ان الحب يسمى شغفا حين يمس شغاف القلب ٠ ولا أدرى كيف يعرفون متى يمس الحـب شغاف القلب ٠ هـذا التقسيم من عمل اللغويين وحـدهم ولا غناء فيه ٠ وهناك عدة ألفاظ للرجل يمص مشاشن العظم ، ولا أظن أن هناك ما يدعو الى وجود كل هـذه الألفاظ لمثل هـذه العملية المألوفة عنده ٠

وعنده ان التفاضـل بين اللغـات يكون فى كثرة انتاجهـا الأدبى والفكرى ، لا فى عدد الفاظها ٠٠٠ فمئات الأسماء للأسد لا بطولة فيهـا وقد فطن بعض القدماء الى هذا فقالوا إن للأسد اسما واحدا وما عداه أوصـاف ٠

وفى مقام الاعراب يدعـو الى أن يكون المعنى هـو الذى يحـدد الاعـراب ٠

كما وضع قواعد لتيسير الإملاء ، وقواعد لتعليم اللغة العربية ومنهجا مبسطا للنحو كاملا ٠

---

(١) اقرأ كتاب (من القرية الى الوادى المقدس) للاستاذ أميل توفيق ٠

هذه اطلاله سريعة على كتب الدكتور محمد كامل حسين التى نفـذ معظمها ••• ومن حقهـا بل من حقنا نحن أن يعاد طبعها ثم درسها (١) ••• انهـا •• كتب قيمة • وليس أولى من الفكر والأدب والعلم من التقـديم والتخليد •

مؤلفات الدكتور كامل حسين

متنوعـات	الجزء الأول ١٩٥١ مطبعة مصر
	الجزء الثانى ١٩٦١ مكتبة النهضة المصرية
قرية ظالمة	١٩٥٤ مكتبة النهضة المصرية
التحليل البيولوجى للتاريخ	١٩٥٧ المطبعة العالمية
وحدة المعرفة	١٩٥٨ مكتبة النهضة المصرية
الوادى المقدس	١٩٦٨ دار المعارف
الذكر الحكيم	١٩٧١ مكتبة النهضة المصرية
الشعر العربى والذوق المعاصر	١٩٧١ مطبوعات الاذاعة والتليفزيون
اللغة العربية المعاصره	١٩٧٧ دار المعارف
النحو المعقول	

وللدكتور محمد كامل حسين أبحاث علمية فى العربيـة والانجليزية أوردها كتاب (الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكرا وأديبا) للاستاذ محمد محمد الجوادى •

---

(١) قرات مقالا فى مجلة (اكتوبر) يقول كاتبه ان الدكتور كامل حسين له كتاب واحد هو كتاب (قرية ظالمة) .

خـاتمـة

ليس هذا حصرا للقمم الأدبية .. فمن القمم الأدبية التى نعتز بها : **الدكتور أحمد أمين** لولا أنه كتب (حيـاته) و (فيض خاطره) بتفصيل يجعل الكتابة عنه ، تحصيل حاصل .

حقا لقد كتب الدكتور طه حسين (أيامه) وكتب الاستاذ العقـاد حياة قلمه ، وما أغنـاها .. ومع هذا يجد كاتب التراجم شيئا يضيفه تفسـيرا أو تأويلا ، أو تحليلا ، أو مقارنة بحكم ما كان بينهما من وجوه الاختلاف أو الائتلاف .. ولكن الدكتور أحمد أمين كان بمنأى عن المعارك الأدبية — والسياسية والصولات والجولات ، عكوفا على الاسـلام فى (فجـره) و (ضـحاه) حتى (الظهـيرة) والى آخـر اليـوم (يوم الاسلام) . ثم جاء أبناؤه وهم بدورهم ، كتاب ، فكتبوا عنـه ما لا يتسنى لغيرهم ، كشفه من سيرته الذاتية ، وهى ميزة ينفرد بها .

كما عكف الدكتور أحمد أمين على الأدب العربى ، شعره ونثره ، فى وهاده وذراه فأوسع وأمتع .. وعطاؤه فى هذا ، مكانة وعلامه .

ومن القمم الأدبية **استاذنا أمين الخولى** وإن كان ، كسقراط ، شخصه ودرسه أشد تأثيرا فى تلاميذه من كتبـه التى كتبت لخاصـة الخاصة ولكن ما بالقليل أن يـكون (الاسـتاذ) صاحب مدرسـة ، وفكر ، ومنهـج .

وكم فى حياتنا من أعلام من حقهم التسجيل والدراسة فليكن هذا الكتاب دعوة للدارسين لتتواصل الأجيال على طريق ، وتتلاقى الأقلام على ، هدف ، بالجهد خليق .

د . نعمات أحمد فؤاد

من مؤلفات الكاتبة

* من عبقرية الاسلام •
* أعيدوا كتابة التاريخ •
* شخصية مصر •
* النيل فى الأدب المصرى •
* خصائص الشعر الحديث •
* الجمال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب العقاد •
* أدب المــازنى •
* أحمد رامى (قصة شاعر وأغنية) •
* أم كلثوم وعصر من الفن •
* الأدب والحضارة •
* التراث والحضارة •
* قمم أدبية •
* شعب وشاعر (أبو القاسم الشابى) •
* مشروع هضبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر •
* أزمة الشباب وهموم مصرية •
* الاسلام وانسان العصر « العودة الى المنبع » •
* رسائل الى ابنتى
* القاهرة فى حياتى
* رحلات فى الشرق والغرب
  « الانسان والمكان »

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٢٢٠٠ لســـنة ١٩٨٥

مطـــابع سجل العرب